الدرس (1)

التعريف بشيخ الإسلام ابن تيمية، ونبذه عن الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله تعالى بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فصلوات ربه وسلامه عليه وعلى من اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

نفتتح هذه الدورة المباركة، نستفتحها بهذا الدرس في أشرف علوم الدين، وهو علم العقيدة، التي عليها مدار سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فإن أشرف العلوم ما تعلق به سبحانه وتعالى، ولما كان الله تعالى هو أشرف معلوم كان العلم به هو أشرف العلوم، هذه نتيجة طبيعية، وقد وقع الاختيار على هذا المتن الذي بين أيديكم وهو العقيدة الواسطية.

ونحن في البدايات والمقدمات معشر طلبة العلم نحتاج إلى إحياء قلوبنا ببعض المعاني التي تكون سببًا بإذن الله تعالى في تحمل العلم وقبوله قبولًا حسنًا، فليس كل من تعلم عمِل، بل العلم النافع هو العلم الذي يورث الخشية، العلم النافع هو العلم الموصل إلى الله عز وجل المعرِّف بدينه، وهذا يتطلب قدرًا من التأهل والتأهب والتكيف النفسي لكي يكون الإنسان محلًا قابلًا لهذا العلم، ألم تروا أن الله تعالى قال: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }[فاطر: 28]!؛ فالخشية هي ثمرة العلم، وإذا لم يورثك العلم خشية ففتش عن قلبك، ألم تروا أن الله تعالى أثنى على طائفة من عباده فقال: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (108) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً} [الإسراء: 107- 109]، ما الذي استدر مدامعهم؟ ما الذي أخضع جوارحهم إلا شيء قام في قلوبهم، فليس العلم عن كثرة التحصيل وقراءة الكتب، لا ريب أن هذا سبب لحصوله، لكن قبل هذا لا بد أن تباشر بشاشة العلم قلب الإنسان فيقدر قدره ويعلم أن هذا العلم عبادة، وكل عبادة تفتقر إلى نية، **والنية نيتان:**

الأولى: نية مقربة.

الثانية: نية مجزئة.

فأما النية المجزئة: فهي التي يتكلم عنها الفقهاء ويقولون: إنها شرط في قبول أي عمل من الأعمال. فكل عبادة من العبادات لا تنعقد إلا بنية، كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك من العبادات، فهذه هي النية المجزئة التي تفرق العادة عن العبادة.

وأما النية المقربة : فهي استصحاب هذا المعنى في القلب في تضاعيف العبادة وثناياها ومطاويها، بحيث يظل القلب موصولًا بالله مستشعرًا لتعبده لله تعالى في جميع تقلباته، وهذه هي التي ينبغي لنا معشر طلبة العلم من معلمين ومتعلمين أن نستذكرها دومًا، بحيث نعلم أننا حينما نقلب الصفحات ونتحفظ الأحاديث والمتون وننقل الخطى أننا

مستغرقون في عبادة، بل إن العلماء قالوا: الاشتغال بطلب العلم أفضل من نوافل جميع العبادات. لأن تشتغل بطلب العلم خير من أن تتنفل بحج أو عمرة، فأمر العلم عظيم، ولو قال قائل: كيف لنا أن نحقق هذه النية ونحيي قلوبنا بها دومًا؟.

نقول: لذلك أسباب، منها:

السبب الأول: أن تستشعر أنك بطلبك للعلم وسعيك في تحصيله تمتثل أمر الله وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم. لأن هذه حقيقة العبادة، فهل العبادة إلا خضوع وذل ومحبة وطاعة للمتعبد له؟ فإذا كان الإنسان في طلبه للعلم يستشعر أنه ممتثل لأمر الله .{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ} [محمد: 19]، فقد أمرك ربك بالعلم، وكذا نبيه صلى الله عليه وسلم . فإن هذا يجعل قلبك حيًا يقظًا في تحقيق هذه النية.

السبب الثاني: أن تستشعر بذلك أنك ترفع الجهل عن نفسك. وما أنت يا عبد الله إلا جملة من الظلمات، كلما قبست نورًا من ناطق الكتاب وصحيح السنة أضاء جانب من قلبك، فالعلم نور، أخرج الله تعالى به الناس من الظلمات إلى النور.

السبب الثالث: أن تنوي بذلك رفع الجهل عن الآخرين. فإنك إذا تسلحت بالعلم واستنرت به كنت كما قال الله: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ } [الأنعام: 122]، أرأيت لو كان الناس في ظلمة شديدة ثم قام أحدهم وبيده مشعل وقام يمشي، صار الناس يمشون وراءه لكي يستضيئون بنوره، وكل من كان منه أقرب كان أشد استنارة واستضاءة، ومن قبس من هذه الشعلة صار أكثر حظًا، فهذا المعنى معنى ينبغي أن تقيمه في قلبك.

السبب الرابع: أن تنوي في طلبك للعلم الذب عن شريعة الله تعالى. فإن دين الله لم يزل يتناوشه المبطلون على اختلاف مللهم من يهود ونصارى ومشركين والذي لا يعلمون والملاحدة، من قديم الدهر وحديثه، قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً } [الفرقان:31]، فلا بد لك من سلاح تذب به عن شرع الله، ولا يكفي مجرد العواطف والأماني، فحينما ينزل الإنسان إلى معترك الجهاد العلمي مع المخالفين سيجد أنه في أمسّ الحاجة إلى وجود الدليل والبرهان الذي يقمع به المبتدعين، ويقيم به الحجة على عباد الله، وهذا لا يتأتى إلا بتحصيل العلم، فإذا استصحبت هذا كان أجرك كأجر المجاهد في سبيل الله.

السبب الخامس: أن تتذكر الثواب العظيم الذي أعده الله تعالى لطالب العلم. ولعل من أعظم النصوص الدالة على هذه الرتبة العالية والثواب الجزيل قول الله تعالى: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } [المجادلة:11]، فالذي يرفع هو الله سبحانه وتعالى، والموظف يتشوف حينما تكون أوراقه لدى لجنة الترقيات في جهة من الجهات أن يحصل على الرتبة القادمة، ويسعد بذلك، ويتلقى التهاني والتبريكات، فكيف إذا كانت هذه الترقية من عند الله عز وجل؟ سلم عظيم منتهاه إلى الفردوس الأعلى، فاستشعر هذا المعنى، واستشعر قول النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي الدرداء: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ، بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ

الْمَاءِ)[1]، وفي رواية: (حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا)[2]، وأنت لو قيل لك. يا عبد الله، وأنتِ يا أمة الله: إن فلانًا من الصالحين أو فلانة من الصالحات تدعو لك في وقت السحر في آخر الليالي. لسعدت بذلك أيما سعادة، فكيف وجميع المخلوقات تدعو لك وتستغفر لك؟ هذه رتبة عظيمة، قال: (وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلاَ دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَهُ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[3]، فالله الله، أنتم الآن في مشروع الحظ الوافر، فاصبروا واثبتوا وأملوا ما يسركم، فإن عاقبة طلب العلم إذا سار الإنسان فيه على خطى حثيثة، بإذن الله حميدة في الدنيا وفي الآخرة.

وطلب العلم له آداب وسمت حسن وهدي ودل، لكن من أعظم ما يمكن أن ننبه عليه في هذا المقام مما يتعلق **بآداب الطلب، وهو أهمها وأساسها:**

الأدب الأول: إخلاص النية لله تعالى، بأن لا ينوي بطلب العلم شيئًا من زخرف الدنيا ومتاعها الزائل، من ذكر أو صيت أو مال أو غير ذلك، وإنما ينوي القربة إلى الله، أن يقصد بذلك أن يُستمع عن الله خطابه، وأن يتعبد لله كما يحب، وهذا معنى كان ينبه عليه أبو بكر الآجري، وهو إمام مرب فاضل، وكان إمام المسجد الحرام، وله كتابان ينبغي لكل طالب علم أن يقرأهما، أحدهما: أخلاق العلما، والثاني: أخلاق حملة القرآن، فيؤكد دومًا على هذا المعنى، أنه ينبغي لطالب العلم ولقارئ القرآن أن ينوي بذلك أن يُفهم عن الله مراده، ليعبده على بصيرة وبنية، ففرق بين من أن يعبد الله على بينة ومن يعبد الله على العادة، والإخلاص هو حلال العقد، إذا رُزق الإنسان إخلاصًا تخلى وتخلص من كثير من مشكلات القلوب التي تقع أحيانًا بين الأقران في نظر بعضهم إلى بعض، والمنافسات المختلفة التي أحيانًا تتلبس بلبوس الدين وهو لا يدري، فيقع في شراكها، ومن أخلص لله تعالى وصل.

الأدب الثاني: أنه لا بد من عزيمة صادقة. لا بد من بذل جهد، فالعلم بحر طام لا ساحل له، العلم جبل أشم، فينبغي لك أن تستعين بمعبودك للوصول إلى مقصودك، فلا تكل ولا تمل ولا تفتر وعليك أن تستجد، وإذا أصابك الفتور فخذ نفسًا وعاود المسير، فهذا أمر مهم جدًا لطالب العلم، وتأملوا هذه الكلمة الموسوية، حينما: (أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ ...)[4]والقصة مشهورة، لكن تأمل قول موسى صلى الله عليه وسلم: {لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً} [الكهف: 60]: أي مسافات طوال في أزمنة متمادية، فهذه عزيمة ماضية، وهمة عالية، ينبغي لطالب العلم أن يتحلى بها.

---

[1] ( ) سنن أبي داود (3641)، سنن الترمذي (2874)، سنن ابن ماجه (223)، صححه الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته (6297).

[2] سنن الترمذي (2877)، صححه الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته(4231).

[3] سنن أبي داود (3641)، سنن الترمذي (2874)، سنن ابن ماجه (223)، صححه الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته (6297).

[4] صحيح البخاري (122)، صحيح مسلم (2380).

الأدب الثالث: المنهجية في الطلب. بمعنى أن يبدأ الإنسان بالأسهل فالأعلى، ويترقى شيئًا فشيئًا، ويصبر، يسير على خطة، فاصبر حتى تصل إلى مقصودك، ولا تتشوف لشيء بعد لم تبلغه، ابدأ بصغار العلم قبل كباره، حتى تصل إلى ما كتب الله لك من مراتب الرقي.

وهناك مراتب كثيرة لم يزل العلماء يتكلمون عنها في آداب التحصيل، وأحيلكم أيضًا على حلية طالب العلم للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، ففيه من الفوائد ما لا يستغني عنه طالب العلم، فهذا أمر مهم لك في مستهل الطلب.

هذا ما يتعلق بالعلم في عجالة.

وأما ما يتعلق بالمتن الذي بين أيدينا ومؤلفه، فالحديث ذو شجون عندما يتكلم الإنسان عن شيخ الإسلام ابن تيمية، فكأنما هو في روضات يتألق فيهن، وكأنما هو ينتقل من مقام كريم إلى مقام كريم، ذلك أن شيخ الإسلام كان علامة فارقة في تاريخ العقيدة الإسلامية، ودعوني أحدثكم . يا رعاكم الله . حديثًا مقتضبًا عن شيخ الإسلام وعن الواسطية، فهذا مفيد بين يدي هذه الرسالة.

اسمه: هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني.

مولده: ولد في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، نحو سنة ستمائة وواحد وستين، وعاش في دمشق، وقيل: ولد في العراق، ولما هجم التتار على أهل العراق احتمله أهله وهو صغير، المهم أن أسرته استقرت في دمشق.

حياته: كان جده المجد ابن تيمية من أساطين المذهب الحنبلي، وهو صاحب المنتقى الذي شرحه الشوكاني في نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، فكان جده من فقهاء المذهب الحنبلي، وكذا أبوه عبد الحليم كان من فقهاء الحنابلة في دمشق، وفي هذا البيت الذي هو بيت علم ودين وورع نشأ شيخ الإسلام، وآتاه الله تعالى من الذكاء البارع الذي لاحظه عليه مواطنوه وبلديوه فأدهشهم، وتوقعوا أن هذا الفتى يكون من ورائه شيء، وفعلًا جلس للفتيا والتدريس ولما يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وجلس إليه كبار مشايخ دمشق في ذلك الزمان، وظل . رحمه الله . يدرس، ثم إنه تبين له ما آل إليه حال الأمة الإسلامية في ذلك الوقت من خروج عن السنة المحضة في أبواب الاعتقاد وأبواب الاتباع، وذلك أن الزمن الذي عاش فيه شيخ الإسلام ابن تيمية في نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن كان مذهب الأشاعرة قد تسيد، وصار هو المذهب الرسمي لمختلف الولايات الإسلامية، ذلك أن بني أيوب قد تبنوا عقيدة الأشعري، وخلفهم من بعدهم المماليك، فطبقوها وألزموا الناس بها في بلاد المشرق، ظنًا منهم أنها عقيدة أهل السنة والجماعة، ولا شك أن الأشاعرة من أقرب الفرق إلى أهل السنة والجماعة، لكنهم ليسوا على السنة المحضة، وفي بلاد المغرب كان مذهب ابن تومرت قد تبنته دولة الموحدين، وألزمت الناس به بالحديد والنار، حتى طبق بلاد المغرب، فما عاد ينتسب إلى السنة المحض ومذهب السلف إلا أفراد قلائل، وأدرك هذه الحقيقة شيخ الإسلام ابن تيمية، فقام ببيان مذهب السلف وعقيدة أهل السنة والجماعة برفق وتؤدة، لكن المتربصين والذين يحافظون على التقاليد والأصول لم يدعوه، لا سيما بعد أن ألف فتواه المدوية، وهي الفتوى الحموية، فقد ألفها سنة ستمائة وثمانية وتسعين للهجرة، كتبها في قعدة بين الظهر والعصر كما قال، ولعله كتبها كتابة أولية

ثم بعد ذلك زادها بالنقول، فلما كتب الحموية وأثبت فيها أن طريقة المتكلمين من الأشاعرة وغيرهم مخالفة لما كان عليه السلف الصالح من الإثبات والإمرار والإقرار، وانتشرت هذه الفتوى في الآفاق المشرقية، أدى ذلك إلى حصول محنة عظيمة، وأوذي شيخ الإسلام بسبب هذه المحنة، وفي تلك الأثناء أيضًا ورد عليه رجل من أهل واسط، يقال له: رضي الدين الواسطي. كان قد قدم من الحج ومر بدمشق وهو في طريق عودته إلى واسط، وواسط التي تُنسب إليها هذه الرسالة بلدة ابتناها الحجاج بن يوسف الثقفي بين البصرة والكوفة، فسميت واسطًا لتوسطها بين البلدتين، فكان هذا أحد قضاة المسلمين في تلك الأنحاء، فألح على شيخ الإسلام أن يكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته، فأجابه شيخ الإسلام إلى طلبه، وغالب مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية تقع جوابًا لسؤال، وهو بنفسه قد قال هذا في مناسبات، إذ كان المتسلطون والمتسيدون من الولاة حينما يوشى بشيخ الإسلام ابن تيمية يُستدعى، وهذا ما وقع بالفعل، فإنه قد دُعي من جهة نائب السلطان في دمشق، إذ كان السلطان في ذلك الوقت في مصر، وكانت بلاد الشام تتبعها، فدُعي وعُقدت له جلسات في سنة سبعمائة وخمسة، ووجهت إليه تُهم، حتى إنه قيل له: إنك صنفت في عقيدة أحمد، أو أفرطت في ذكر عقيدة أحمد. فقال: أنا ما كتبت عقيدة أحمد بن حنبل، وليس لأحمد عقيدة يختص بها، وإنما هي عقيدة السلف، وما أحمد إلا ناقل لعقيدة من سبقه من الصحابة والتابعين. وفي هذه المناظرة لما وجهوا له شيئًا من التهم قال: أنا لا أتكلم الآن، فلو تكلمت الآن لقيل: ربما كتمت. لكن أبعث إلى المنزل فأحضر عقيدة تقرؤونها كنت قد كتبتها قبل سبع سنين. وكان هذا المجلس قد عُقد له سنة سبعمائة وخمسة، فيكون ذلك تقريبًا في الوقت الذي كتب فيه الحموية، فبعث إلى منزله فأحضر الواسطية ومعها كراريس أخر، ولما أُحضرت رأى نائب السلطان ألا يقرأها الشيخ بنفسه حتى لا يدعي أحد أنه زاد فيها ونقص، فطلب من الشيخ كمال الدين . وهو أحد تلاميذ الشيخ . أن يقرأها على الجماعة، فقرأوها وناقشوه في بعض أمورها، وحاجهم الشيخ، وتفرق الجميع على أن هذه عقيدة سلفية لا غبار عليها، وأقروا له بذلك، وعاد الشيخ إلى منزله محفوف بأصحابه بالاستبشار والفرح، وحصل له . بحمد الله . تبرئة، إذ كان قد بُرئ قبل من جانب السلطان إثر الفتوى الحموية، فقد وشى به الوشاة، حتى جاء كتاب من السلطان يقول: إنما أردنا بذلك أن نبرأ ساحة الشيخ.

وهذا من نعمة الله تعالى، كما قال القائل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار في ما جاورت ما كان يُعرف طيب عرف العود

وشيخ الإسلام ما زال الوشاة يتربصون به، حتى كتبوا وشاية قوية إلى السلطان الناصر قلاوون في مصر وأنه كذا وأنه كذا، فطلب السلطان أن يُحمل إليه مخفورًا، وحاول نائب السلطان . وكان محبًا للشيخ . أن يعفيه من ذلك، فقال الشيخ: لعل في ذهابي خيرًا. وفضل أن يذهب بنفسه، وبالفعل توجه إلى بلاد مصر ولقي السلطان، فلما استمع إليه السلطان اندهش من علمه وسعة أفقه وعقله، فقال: قد حكمتك في هؤلاء . يعني الذين سعوا فيه من القضاة وبعض مشايخ الطرق، يعني إن شئت فاحكم بسجنهم، فجعل يسكّن السلطان عليهم، وقال: يا أيها السلطان: هؤلاء قضاة

مملكتك وفقهاء الملة ولا غنى لك عنهم. وأخذ يسكّنه عليهم، وهكذا أخلاق العلماء، لم يتحين الفرصة للتشفي والإيقاع، لأن مقصده الله، فما زال يسكّنه حتى سكن، ثم إنه أقام بمصر، وصار الناس يأتون إليه زرافات ووحدانًا، ويبين منهج السلف، وفي تلك الأثناء ورد عليه سؤال من بلاد المغرب من مرّاكش، يسأله عن عقيدة السلف، فكتب القاعدة المرَّاكشية، فكان للقاعدة المراكشية من الأثر في بلاد المغرب ما للفتوى الحموية في بلاد المشرق، وهذا من نعمة الله، فأدى هذا إلى انتشار عقيدة السلف في بلاد المغرب، وهكذا الأمة جناحان: المشرق والمغرب، حتى إن الشيخ . رحمه الله .كان يرسل الرسائل لأمه، ويسميها: الوالدة السعيدة، ويعتذر عن عدم القدوم إليهم بأنه يقوم ببيان الدين وتوفيق أواصره ويفعل ويفعل، وأنه ما حمله على البقاء وعدم العودة إليهم إلا هذا، وفعلًا نفع الله به نفعًا عظيمًا في بلاد مصر، وتعرض في مقامه بمصر أيضًا لأذى، حتى إنه ضُرب مرة. رحمه الله.

وهكذا كانت حياته حافلة بالعلم والعمل والجهاد في سبيل الله، فخاض معارك ضد التتر في وقعة شقحب، وقام مع السلطان بقتال النصيرية في جبال، واستنزلوهم، وقتل بعضهم، واستتيب بعضهم، فتاب بعضهم، وبعضهم قتل، وفرقوهم في الأمصار، وهكذا كانت له اليد الطولى في كل باب من أبواب الفضل والعلم، فكان علامة فارقة، حتى قال صديق حسن خان القنوجي في خبيئة الأكوان: حتى صار الناس بعد ابن تيمية إما تيمي وإما غير تيمي. وذلك أنه أوضح حقيقة مذهب السلف، ونقل النقول الصريحة من كلام السلف المتقدمين من طبقة الإمام أحمد والشافعي ومالك ومن قبلهم ومن بعدهم بألفاظها ليبين ما كان عليه السلف، وأن ما آل إليه المتكلمون من هذه المتون التي يسمونها: علم الكلام، أن هذا مجاف لما كان عليه السلف من الاعتماد على القرآن والحديث، فأعاد الروح للعقيدة الإسلامية بعد أن استحالت إلى جثث هامدة من الألفاظ العسرة التي أشبه ما تكون بصخور تحتاج من ينحتها، ثم لا تورث الناس إلا مزيدًا من الشكوك، فعلم الكلام ما زال الناس يذمونه ويذمون من أخذ به، حتى قال الإمام أحمد: لا يفلح صاحب كلام أبدًا[1]. وقال الشافعي: حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام[2].

الواسطية: هذه رسالة كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية في قعدة بعد العصر، موضوعها مجمل اعتقاد السلف، تناول الشيخ فيها أبواب الاعتقاد بشكل عام، فتكلم عن صفات الله تعالى وما ينبغي له، وأطال وأطنب، وتكلم عن اليوم الآخر، وتكلم عن مسألة الإيمان، وعن مسألة القدر، وعن مسألة الصحابة، وعن طريقة أهل السنة والجماعة في الأخلاق والسلوك ومكملات الإيمان، فكانت بديعة في بابها، لأنها تجمع بين العلم والعمل وتمر على معظم أبواب الاعتقاد، فلذلك حظيت بقبول وانتشار، واعتنى بها العلماء قديمًا وحديثًا.

ومما تمتاز به هذه الرسالة:

[1] جامع بيان العلم وفضله (941/2) ط / ابن الجوزي.

[2] المصدر السابق.

1- كونها في مجمل اعتقاد السلف.

2- غناؤها وثراؤها بالأدلة القرآنية والنبوية، فلو قارنت بينها وبين متن من متون المتكلمين لوجدت الفرق الهائل، فالسلف إذا صنفوا يقدمون كلام الله على كلامهم، ولا يذكرون مسألة إلا بدليلها، وإذا قرأت في كتب المتكلمين فكأنما تسير في صحراء جرداء، لا تجد فيها نسمة من كلام الله أو كلام نبيه تُنعش القلب، وإنما هي جلاميد حروف، وعبارات مغلقة، ومعان عسرة، أما طريقة السلف .كما ستلاحظون . فهي أدلة قرآنية متتابعة، وأحاديث نبوية، يعني كأنما ترى الحق بعيني رأسك كفاحًا.

3- تضمنت دلائل عقلية، ففي بعض مواضعها يذكر الشيخ أدلة عقلية في بيان بعض حقائق الإيمان، ولا افتراق بين العقل والنقل، فإن القرآن العظيم الذي هو أعظم ما في الاعتقاد دلل على الأصول العظيمة بلفظه وبالحجج والأساليب العقلية، وهل الأمثال . وما أكثرها في القرآن . إلا أقيسة عقلية؟ فلا يظنن ظان أن هؤلاء المتكلمين أسعد بالعقل منا، لا، نحن أسعد بالعقل والنقل منهم، والعقل الذي ادعوه إنما هو عقل معوج، ليس عقلًا على القسطاس المستقيم، فالنقل يصوب العقل ويضبط مساره، ويضبط آلته، ومن حُرم النقل ضل وتخبط، فالعقل. يا كرام . آلة بمنزلة العين والسمع، فأنت الآن لو قُدر أنك دخلت هذا المسجد وهو مظلم، تملك عينين، لكن ربما تسير ولا تشعر إلا وقد اصطدمت بعمود، أو عثرت بدولاب أو كرسي، مع أنك تملك عينين، لكن حينما تقع يدك على لوحة المفاتيح وتضيء ينكشف لك المكان فتسير وتنتفع بعينيك.

وكذلك العقل مع النقل، فالنقل نور من الله سبحانه وتعالى، يضيء للعقل، فيستنير العقل ويصبح آلة مفيدة لا عطب فيها ولا خطل، فلهذا يجمع أهل السنة بين العقل والنقل.

4- بيان حال أهل السنة والجماعة في أبواب الأخلاق والأعمال، وهذا أمر مهم، لأن ثمرة الاعتقاد أن تظهر في الأخلاق والسلوك، فلا بد من العناية بالآثار المسلكية للمسائل العقدية، وأي مسألة عقدية تتعلمها ثق تمامًا أن لها أثرًا في الواقع، أثرًا في سلوكك، وإلا فما الفائدة، لا بد أن يكون لها أثر إما قلبي وإما مسلكي.

اهتمام العلماء بالواسطية: وقد عُني العلماء بهذه الرسالة، فممن ألف في هذه الرسالة، ولعله من الناحية التاريخية، وهو محمدة لهذه البلدة عنيزة، أن من أوائل من شرحها الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، فله كتاب اسمه: التنبيهات اللطيفة على العقيدة الواسطية، ومن هذه البلدة أيضًا الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع، فله تعليقات على الواسطية، وأيضًا الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان، له كتاب اسمه: الكواشف الجليلة عن معاني الواسطية، وله كتاب آخر اسمه: الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، وممن اعتنى بها الشيخ زيد بن فياض، في كتاب له اسمه: الروضة الندية، ومن أحسن شروحها: التنبيهات السنية للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد . رحم الله الجميع .، وممن اعتنى بها شيخنا محمد بن صالح العثيمين، فله شرح العقيدة الواسطية، وهو شرح حافل، وهناك شروحات معاصرة، كشرح الشيخ ابن جبرين، وشرح الشيخ عبد الله الغنيمان، وشرح الشيخ عبد الرحمن البراك، لا يكاد يوجد أحد من أهل العلم إلا

وشرحها واعتنى بها في هذا الزمن الأخير، وصارت الشروح منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو صوتي، فهذا من الخير الذي يدخره الله لكاتب الأسطر، يكتب الإنسان أحيانًا شيئًا ولا يظن أن يبلغ ما بلغ، فيجعل الله تعالى فيه خيرًا كثيرًا.

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذه الرسالة كما نفعنا من قبل ذلك.

سبب تسميتها بالواسطية: وكما أسلفت فإن تسميتها بالواسطية نسبة إلى بلدة واسط التي ينتمي إليها رضي الدين الواسطي، صاحب السؤال لشيخ الإسلام، الذي طلب أن تُكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته.

وقال بعضهم: هي نسبة إلى الوسطية. أي كون أهل السنة والجماعة وسطًا بين فريقين، فإن الشيخ ـ رحمه الله ـ في ثنايا الرسالة قال: وأهل السنة والجماعة وسط بين كذا وكذا، ووسط بين كذا وكذا، لكن هذا لا يصح، لأنه لو كان هذا هو المقصود لكان اسمه: العقيدة الوسطية، لكن اسمها بإجماع: العقيدة الواسطية، وشيخ الإسلام نفسه سماها بهذا الاسم، فقال في وصفه لمجلس المناظرة الذي عُقد له: فأُحضرت الواسطية. وفي بعض النسخ يكون مكتوبًا عليها: العقيدة الواسطية عقيدة الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، لأن الشيخ ذكر هذا في مقدمتها.

الدرس (2)

شرح خطبة الكتاب

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: بسم الله الرحمن الرحيم.**

الحمد لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ، وأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا، أما بعد:

الحمد لله رب العالمين، هذه خطبة الكتاب، وقد جرت عادة المصنفين أن يستهلوا مكتوباتهم بالبسملة والحمدلة، فأما البداءة بالبسملة فاقتداء بالكتاب العزيز، فإن الله سبحانه وتعالى جعل مفتتح السور بالبسملة، وهل البسملة آية من كل سورة، أم أنها آية مستقلة تُفتتح بها السورة؟ الثاني، الصحيح أنها آية مستقلة تُفتتح بها السور، لكنها بعض آية من سورة النمل، لقوله تعالى: { إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [النمل: 30]، فجميع سور القرآن مفتتحة بالبسملة إلا سورة واحدة هي سورة براءة، ولم لم تُثبت البسملة في سورة براءة؟ قال بعض الناس: إن سورة براءة نزلت بالعدالة، وفيها آية السيف، والبسملة فيها ذكر الرحمة، فلا يتناسب هذا مع هذا. ولكن هذا اجتهاد في غير محله، فهناك سور من القرآن تضمنت مثل هذا، كسورة محمد: { فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ } [محمد: 4]، ومع ذلك فهي مفتتحة بالبسملة، وإنما كان سبب عدم إثبات البسملة في سورة براءة أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لما كتبوا المصحف شكوا: هل سورة براءة تتمة لسورة الأنفال؟ أم لا؟ إذ أنهم رأوا أن سورة الأنفال بين السبع الطوال قصيرة مقارنة بما سبق، فصار عندهم تردد: أهي سورة مستقلة، أم لا؟ فاكتفوا بوضع خط بين السورتين، ولم يثبتوا البسملة.

فالابتداء بالبسملة في المكاتيب وفي الخطب لأمور:

الأمر الأول: اقتداء بكتاب الله العزيز.

الأمر الثاني: اقتداء بهدي المرسلين. وقد قال الله تعالى: { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام: 90]، فقد كان سليمان صلى الله عليه وسلم وهو من أنبياء بني إسرائيل الكبار يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، { إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [النمل: 30، 31]، وكذا نبينا صلى الله عليه وسلم وارث الأنبياء كان يصدر مكاتبيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فحينما أراد أن يكتب صلح الحديبية أملى على علي: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو ممثل قريش: (أما الرحمن، فو الله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب). فكان النبي صلى الله عليه وسلم مياسرًا، فقال: (اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ)[1]. ولما كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض كتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم... [2]؛ فينبغي لمن كتب كتابًا أن يبدأ بالبسملة.

وأما ما روي من الأحاديث من البداءة بالبسملة كحديث: [كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر]، أو [أجزم]، أو [أقطع]، وبعضها [لا يُبدأ فيه بحمد الله]، وهو أصح من لفظ البسملة، فكلها ضعيفة، لا يعضد بعضها بعضًا، ولا تقوم بها حجة، لكن يقال: الحمد لله، كتاب الله وهدي رسول الله كاف في الأخذ بهذه السنة، وعليه المسلمين إلى يومنا هذا.

(**بسم الله الرحمن الرحيم**) (**بسم**): جار ومجرور، فالباء حرف جر، واسم مجرور، وكل جار ومجرور لا بد له من متعلق، وهذا المتعلق فعل محذوف مقدر، وينبغي أن يُقدر بما يناسب المقام، فإذا كان الإنسان يريد أن يأكل فقال: بسم الله. فينبغي أن يكون التقدير: بسم الله آكل، وإذا أراد أن يشرب يكون التقدير: بسم الله أشرب، وإذا أراد أن يدخل بيته يكون التقدير: بسم الله أدخل، وهكذا، وفي هذا المقام ينبغي أن يكون التقدير: بسم الله أكتب، أو بسم الله أصنف، وبالنسبة للقارئ: بسم الله أقرأ.

(**الله**): علم على ذاته سبحانه، وهو أعرف المعارف، وإليه مرجع الأسماء الحسنى، حتى إن الله سبحانه وتعالى يُحيل جميع الأسماء الحسنى إليه، اقرأوا إن شئتم آخر سورة الحشر: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الحشر: 22- 24]، ولهذا قال من قال من العلماء: الله هو الاسم الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى. لأن الله يدل على جميع صفات الكمال، إذ أصل كلمة: الله إله، فخُففت فصارت الله، والإله هو المألوه، فهو فِعَال ويراد به مفعول، وهذا كثير في اللغة، كقولنا: كتاب. والمقصود مكتوب، فراش، والمقصود مفروش، غراس، والمقصود مغروس، فالمراد به مفعول لا فاعل، كما ادعى هذا بعض

[1] صحيح البخاري (2731)، صحيح مسلم (1784).

[2] صحيح البخاري (2941)، صحيح مسلم (1773).

المتكلمين، وإله بمعنى مألوه أي معبود، وهو الذي تألهه القلوب محبة وتعظيمًا، فهو مشتق من أَلَه يألَه أُلُوهة، فهي معنى الوله والانجذاب والتعلق بذلك المألوه، وإنما تتعلق القلوب بمن يستحق ذلك، وهو المعبود سبحانه دون ما سواه.

وقيل غير ذلك.

(**الرحمن الرحيم**): أردف قوله: بسم الله. بذكر اسمين كريمين لطيفين رقيقين من أسماء الله الحسنى، الرحمن الرحيم، وكلا هذين الاسمين دال على اتصاف الله تعالى بصفة الرحمة، لكن ما الفرق بين الرحمن والرحيم؟ **الفرق من وجهين:**

الوجه الأول: أن الرحمن يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا ذاتيًا، والرحيم يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا فعليًا. بمعنى أن الله سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية اللازمة له سبحانه التي لا تنفك عنه، الرحمة، فهو لا يزال ولم يزل رحمانًا، وأما الرحيم فإنه يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا فعليًا بمعنى أنه يوصلها إلى المرحومين، فالرحمن يدل على الرحمة الواسعة، والرحيم يدل على الرحمة الواصلة، ورحمة الله واسعة، قال تعالى: { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً } [غافر: 7].

الوجه الثاني: أن الرحمن يدل على الرحمة العامة التي تشمل كل شيء، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة التي تكون للمؤمنين. بدليل قوله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب: 43].

(**الحمد لله**): الحمد فعل يُنبئ عن تعظيم المحمود، وهو في حقيقته وصف له بصفات الكمال ونعوت الجلال.

والفرق بين الحمد والمدح: أن كلًا منهما يدل على ذكر صفات حميدة، لكن الحمد مقرون بتعظيم ومحبة، والمدح لا يلزم منه ذلك، فقد تمدح شخصًا لا تحبه، تصف شخصًا من الكفار بالشجاعة والقوة والكرم والإقدام، وأنت لا تحبه، فلا يكون ذلك حمدًا، وإذا كان مقرونًا بتعظيم وإجلال فهو حمد، وبهذا يكون الحمد أعم من هذا الوجه.

(**الحمد لله**): كأنما تقول: أصف الله تعالى بصفات الكمال ونعوت الجلال. ولهذا ينبغي أن نتفطن لاقتران هذه الأذكار الكريمة بعضها ببعض، سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، **فمعنى التسبيح التنزيه، أي أنزه الله تعالى عن ثلاثة أشياء:**

الشيء الأول: النقائص.

الشيء الثاني: العيوب.

الشيء الثالث: مماثلة المخلوقين.

وهل يكفي هذا؟ هذا حصل به التنزيه، لكن لا يتم الأمر إلا بالحمد، وهو أن يتلو ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال لله عز وجل، فهذه حقيقة الحمد، ثم بعد ذلك يقول العبد: والله أكبر. لكي يبين أن اتصاف الله عز وجل بصفات الكمال ونعوت الجلال على وجه لا يدانيه أحد، ولا يشاركه فيه أحد، فيقع التوحيد التام في أسماء الله وصفاته، فهل نحن نستحضر هذه المعاني ونحن نقول في أدبار الصلوات: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر. ينبغي أن تمر هذا على قلبك، تعتقد تنزيه الله أولًا، ثم إثبات صفات الكمال له ثانيًا، ثم إفراده بها على وجه لا يماثله فيه أحد.

(**الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**) (**الرسول**): هو محمد صلى الله عليه وسلم، فليس اسم جنس، بل اسم عين على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فإنه قد قال في كتابه: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } [التوبة: 33، الفتح: 28، الصف: 9]، فمضمون الرسالة المحمدية هذان العنصران: الهدى ودين الحق، والهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، وهذا الدين كله، لأن الدين إما أمر علمي قلبي، وإما أمر عملي ظاهري، فمن تأمل في شريعة الإسلام وجد أنها مكونة من شرائع عملية، وهي الإسلام، ومن اعتقادات باطنية التي هي الإيمان، فالله تعالى قد بعث نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالأمرين معًا: الاعتقادات الباطنة، والشرائع الظاهرة، فهذا هو معنى قوله: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} [التوبة: 33، الفتح: 28، الصف: 9].

(**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا**) وهذا اقتباس من قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً} [الفتح: 28].

(**ليظهره**) أي يعليه، وما نوع هذا العلو والظهور، أهو ظهور بالحجة والبرهان، أم بالسيف والسنان،أم بهما معًا؟ الواقع أن هذا الظهور حصل باجتماع الأمرين، وحصل بأحدهما:

فأما ظهور هذا الدين على سائر الأديان بالحجة والبرهان فهذا لا يتخلف أبدًا، فمن قارن دين الإسلام بالأديان المحرفة . ناهيك عن الأديان الوثنية والأفكار الفلسفية . وجد البون الشاسع، فرق عظيم، {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً } [النساء: 82]، فدين الإسلام له دومًا العلو والحجة والبيان، وكل من أراد أن يهزم الإسلام أو ينال من كتابه أو من نبيه باء بالخسران؛ ولهذا صمد الإسلام هذه القرون المتطاولة على كثرة أعدائه وترصدهم له، ومع ذلك فقد بقي الإسلام شامخًا عزيزًا بالحجة والبرهان، لا يستطيع أحد من خصومه أن ينتقد عليه شيء، وإن أجلبوا، لكنهم يرجعون على أدبارهم خاسئين، { ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } [الملك: 4]، فكما أن هذا في السماء المبنية، كذلك في الشرائع المنزلة.

وأما الظهور بالسيف والسنان فقد وقع . بحمد الله . فيما مضى من القرون، فإن نبينا صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا)[1]، وجرى في المائة السنة الأولى من تاريخ الإسلام أن طبق الإسلام الأرض المعمورة، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم مطلع السنة الحادية عشرة من الهجرة، وقال مرة في آخر عمره وقد خرج إلى أصحابه : (لَا تَأْتِي مِائَةُ سَنَةٍ، وَعَلَى الْأَرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَةٌ الْيَوْمَ)[2]، ومراده أن أهل هذا القرن يفنون، وذلك القرن هم خير القرون، هم قرن الصحابة رضوان الله عليهم، ولذلك ما مضت مائة سنة إلا وقد بلغ الإسلام أطراف الصين، وبلغ المحيط الأطلسي من جهة الغرب، وصعد المسلمون إلى الأندلس التي هي الآن بلاد الأسبان والبرتغال، وتخطوا جبال البرانس، ودخلوا بلاد الغال التي تسمى الآن: فرنسا،

[1] صحيح مسلم (2889).

[2] صحيح مسلم (2539)

ومكثوا فيها نحو سبعين سنة، حتى وقعت معركة بلاط الشهداء، ويعرفها الغرب معرفة جيدة، باسم (Battle of Tours)، وهذه المعركة هي التي أوقفت المد الإسلامي في بلاد أوربا، وإلا كانت خطة المسلمين أن يجتاحوا أوروبا من شمال البحر الأبيض المتوسط حتى يلتقوا في القسطنطينية، فاتحون من جهة هضبة الأناضول، وفاتحون من جهة أوروبا، لكن وقعت هذه المعركة التي كان يقودها عبد الرحمن الغافقي، واستشهد فيها، وكانت سنة مائة وثلاثة عشر للهجرة، فأنحسر الإسلام عن بلاد أوروبا، ثم إن الله تعالى أمد في الإسلام في عهد العثمانيين حتى اكتسحوا أوروبا الشرقية بأكملها، ومضى أيضًا في الجنوب حتى عم الإسلام شمال أفريقيا، ولم يزل . بحمد الله . الإسلام يمتد إلى يومنا هذا، لا يوجد دين على وجه الأرض ينخرط الناس فيه ويعتنقونه كما الإسلام، وهي حقيقة مذهلة ومدوية، لكن تتواطأ الآلة الإعلامية الغربية على إخفائها وعدم إظهارها، مع أنهم يعتنون بقضايا دون ذلك بكثير، ويبرزونها، وأي ظاهرة مهما كانت تافهة يتحدثون عنها، لكنهم يخشون من إبراز هذه الظاهرة الملفتة، خشية أن تتنامى بشكل أكبر، وإلا فالذين يعتنقون الإسلام يوميًا في أركان الأرض في أوروبا وأمريكا وأفريقيا كثير، مع قلة الدعم والموارد، لكنه دين الله الموافق للفطرة، فتحقق بذلك موعود الله { لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [التوبة: 33، الفتح: 28، الصف: 9].

(**وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**): بعد أن حمد الله تعالى ثنى بالشهادتين، ومعنى (**أشهد**): أي أقر وأعترف وأجزم، كما لو كنت مشاهدًا لذلك بعيني رأسي، والشهادة الأولى أعظم شهادة لأعظم مشهود له، { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ} [آل عمران: 18]، ولا إله إلا الله كلمة التوحيد، أول الإسلام وأوسطه وآخره، فلا يُحكم بإسلام امرئ حتى يلفظ بالشهادتين، وهي بوابة الإسلام، لا بد أن يتلفظ بلا إله إلا الله، (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ)[1]، فهي أول الإسلام وهي آخر الإسلام أيضًا، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)[2].

وإله بمعنى معبود، فمعناها لا معبود بحق إلا الله، وما الذي أحوجنا أن نقدر بحق؟ لأن الله أخبرنا أن ثم آلهة مدعاة، {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا} [الأنبياء: 43]، {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً} [الفرقان: 3]، وهذا النفي ليس منصبًا على الوجود، وإنما منصب على الصحة والأحقية، فإذا قلت: لا إله إلا الله. أي لا إله بحق إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، فهو شعار الإسلام، بل هو دين الله للأولين والآخرين، وهذا لا يختص بدين الإسلام، فهو دين الله منذ أرسل الله رسله وأنزل كتبه، ما من نبي بعثه الله إلا ليبادر قومه بهذه الجملة: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} قالها نوح صلى الله عليه وسلم وهود وصالح وشعيب كما رتبهم الله في سورة الأعراف، وكذلك في سورة هود، وكذلك في سورة المؤمنون، جميعهم يقول: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: 59، 65،73،85] [هود: 50،61،84] ، [المؤمنون: 23،32]. وقال الله على سبيل الإجمال: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا

[1] صحيح البخاري (1399)، صحيح مسلم (20).

[2] سنن أبي داود (3116)، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (6479).

فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 25]، فيجب أن تعتصم بهذه الكلمة، فإنها المنجاة في الدنيا والآخرة، ومن لم يأت بها فلا حظ له ولا نصيب.

و(**لا إله**): نفي، و (**إلا الله**): إثبات، وهذا أبلغ ما يكون في التوحيد والإفراد، لأنه إذا جاء الإثبات بعد النفي أفاد الحصر، فلو قلت لكم: زيد قائم. أفادنا قيام زيد، لكن هل ينفي وجود قائم مع زيد؟ لا، فربما قال قائل: أيضًا محمد قائم، وإبراهيم قائم، وعمرو قائم. لكن حينما أقول لكم: لا قائم إلا زيد. فقط زيد هو القائم ومن سواه جلوس، فكذلك لا إله إلا الله، فدل ذلك على كمال الإفراد، ولما ذكر الله التوحيد بغير هذه الصيغة أتى بما يثبت الإفراد، فقال تعالى في سورة البقرة: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } [البقرة: 163]، حتى لا يقول قائل: هناك إله آخر وثالث ورابع.

(**وَحْدَهُ**): تأكيد للنفي، أم تأكيد للإثبات؟ تأكيد للإثبات.

(**لا شَرِيكَ لَهُ**): تأكيد للنفي.

ولهذا كانت التلبية لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، وسماها جابر بن عبد الله: التوحيد، قال: (فأهلَّ بالتوحيد، لبيك اللهم لبيك...)[1]

(**إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا**): أي أني أتيت بهذه الشهادة مقرًا له سبحانه بذلك، موحدًا له دون ما سواه.

(**وَأَشْهَدُ**): أي أُقر وأعترف وأجزم، اعترافًا وإقرارًا لا شك ولا تردد فيه.

(**أَنَّ مُحَمَّدًا**): علم على نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي.

(**عَبْدُهُ**): في وصفه بالعبودية رد على أهل الغلو.

(**وَرَسُولُهُ**): في وصفه بالرسالة رد على أهل الجفاء.

وهكذا الحق دومًا وسط بين طرفين، وعدل بين عوجين، فنحن نصف نبينا صلى الله عليه وسلم بما وصفه به ربه، {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الإسراء: 1]، فوصفه بالعبودية ثناء لله، وأي ثناء، فإن الله تعالى إنما وصفه بالعبودية في أشرف المقامات، في أشرف ليلة مرت به وهي ليلة الإسراء والمعراج، ووصفه بالعبودية في أشرف أحواله، وهو حال تنزل القرآن واتصال كلام الله تعالى به، { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } [الفرقان: 1]، ووصفه بالعبودية في أشرف وظيفة يقوم بها بشر، وهي الدعوة إلى الله عز وجل، {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً} [الجن: 19]، فالوصف بالعبودية شرف وأي شرف:

ومما زادني شرفًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك: يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيًا

[1] صحيح مسلم (1218).

فالوصف بالعبودية وصف كريم، ومَن ادَّعى الخروج عن العبودية فهو كافر زنديق، فمَن ادَّعى أنه في حل من الأوامر والنواهي وأنه بلغ درجة سقطت عنه التكاليف، فقد تزندق، وهذا يصدر من زنادقة الصوفية، فيزعم أحدهم أنه خرج عن الحالة الشرعية إلى الحالة الكونية، ويقول:

أصبحت منفعلًا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات

ويرخي لنفسه الزمام، ويطأ المحارم بدعوى أنه بلغ درجة اليقين، { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر: 99]، هكذا تتلاعب بهم الشياطين.

فالمقصود: أن أكمل العبوديات هي العبودية التي وصف الله بها محمدًا صلى الله عليه وسلم، ثم عبوديات من دونه بحسبها، أما الوصف بالرسالة فهو لا شك وصف شرفي للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث اصطفاه الله تعالى لكي يكون مهبط وحيه، ومحضن كلامه، { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ } [الحج: 75]، ولما قال بعض المشركين: {لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف: 31]، فرد الله عليهم: { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } [الزخرف: 32]، فالله هو الرزاق وهو الوهاب، {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: 124]، فاصطفاء الله لنبيه بالرسالة مبني على علم وحكمة.

فوصفنا إياه بالعبودية رد على أهل الغلو الذي يطرون النبي صلى الله عليه وسلم إطراء لا ينبغي إلا لله، وهذا يقع من المداحين في الموالد وغيرها، يتجارى بهم الفتنة والمديح والغلو كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، حتى إنهم يخلعون على النبي صلى الله عليه وسلم أوصافًا لا تنبغي إلا لله، ومن القصائد المشهورة في هذا قصيدة البوصيري التي يقول فيها:

يا أكرم الخلق: ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن يوم معادي آخذًا بيدي عفوًا وإلا فقل: يا زلة القدم

فمن الذي يعفو، ومن الذي يُلاذ به؟ الله، ثم يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا غلو فاحش، فماذا أبقى لله إذا كان يجعل هذا كله بعض ما للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو قد استخدم من التي للتبعيض؛ فهذا من الغلو الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل عليه نفر من الأعراب وقالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا وأعظمنا طولًا وأفضل... قال: (قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ)[1].

وفي وصفنا إياه بالرسالة رد على أهل الجفاء الذين لا يعطون النبي صلى الله عليه وسلم حقه من الإكرام والإجلال والتوقير، { لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ } [الفتح: 9]، فيجب نصرة النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرًا وباطنًا، وتوقيره لفظًا ومعنى.

[1] سنن أبي داود (4806)، صححه الألباني صحيح الجامع (3700).

(**وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ**): لذا قيل: آله أتباعه على دينه إلى يوم القيامة. لأن الآل مشتقة من الأَوْل، وهو الرجوع، فكل من انتمى إلى النبي صلى الله عليه وسلم واتبعه فهو من آله، وذهب بعض الشراح إلى أن الآل إذا قُرنت بالأصحاب فإن الآل تنصب على المؤمنين من أهل بيته [1]، وهم البطون الخمسة: آل عقيل، وآل علي، وآل جعفر، وآل الحارث بن عبد المطلب، وآل العباس، الذين لا تحل لهم الصدقة، فالمؤمنون من هذه البطون هم آل النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا قُرن الآل بالأصحاب انصرف الآل إلى المؤمنين من أهل بيته، والأصحاب إلى صحابته، ومن الصاحب؟ هو من لقي النبي صلى الله عليه وسلم في حياته مؤمنًا به ومات على ذلك[2]، وهذا خير من قول بعضهم: من رأى. لأنه ربما كان أعمى.

وقيدها بعض العلماء بقوله: في حياته. لأنه ربما ادَّعى أحد . وقد وقع. أنه رآه في المنام ثم ادَّعى الصحبة، كما وقع هذا من بعضهم، وأيضًا لكي يخرج بذلك من رآه بعد موته، وهذا ليس له إلا مثال واحد، رجل هاجر إلى المدينة في اليوم الذي مات فيه النبي صلى الله عليه وسلم، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم بعين رأسه وهو مسجى قد توفي، فلا يُعد صحابيًا، لأنه لم يلق النبي صلى الله عليه وسلم في حياته.

مؤمنًا به: فلو أنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم حال كفره لم يثبت له وصف الصحبة، حتى لو أسلم بعد ذلك، وهذا ينطبق على كثيرين لقوا النبي صلى الله عليه وسلم في الموسم حينما كان يعرض نفسه على القبائل وفي مكة ولم يؤمنوا به، ثم آمنوا بعد أن أظهر الله الإسلام، ولم يلقوا النبي صلى الله عليه وسلم حال إيمانهم.

ومات على ذلك: فلو لقيه مؤمنًا به ثم ارتد زال عنه وصف الصحبة، لأن الردة تبطل جميع العمل، لكن ماذا لو أنه لقيه مؤمنًا وارتد ثم عاد إلى الإسلام أيعود له وصف الصحبة؟ **القول الصحيح**: أنه إذا رجع إلى الإسلام رجع له وصف الصحبة، وهذا يمكن أن ينطبق على كثيرين ممن وقعت منهم ردة وحاربهم الصديق ثم فاءوا إلى الإسلام، ومنهم طليحة بن خويلد الأسدي الذي كانت له صحبة، ثم ارتد وادّعى النبوة، ثم منّ الله عليه ورجع إلى الإسلام.

(**وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا**): التسليم دعاء بالسلام، أو تحية، فحينما تقول: السلام. فأنت تقصد الدعاء بالسلامة للنبي صلى الله عليه وسلم، أو تقصد التحية، أو كلاهما، ولا مانع من اجتماعهما، وقد يقول قائل: أما الدعاء له بالسلامة في حياته فهذا أمر بيِّن، حتى يدفع الله عنه السوء ويعصمه من الناس، لكن بعد موته كيف ندعو له بالسلامة؟. الجواب: أن هذا دعاء له بالسلامة في دينه، وقد يقال: المقصود بهذا سلامة جسده الشريف، وهذا قليل، فإنه قد وقع في غضون التاريخ أن قومًا من الزنادقة أرادوا سرقة الجثمان، وسعوا في ذلك، وذلك إبان حكم عماد الدين زنكي، حتى تمكن من الإيقاع بهم في قصة مشهورة.

والله أعلم.

[1] انظر: التمهيد لابن عبد البر(306/17)، جلاء الأفهام لابن القيم (277) دار ابن الجوزي.

[2] الإصابة في تميز الصحابة (353/1).

الدرس(3)

أركان الإيمان

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: أَمَّا بَعْدُ؛ فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ.**

قال: أَمَّا بَعْدُ: هذه كلمة يؤتى بها عند إرادة الدخول في صلب الموضوع، ومعناها مهما يكن من شيء، ففيها نوع من الإقبال عما هو بصدده، وبعض الشراح يقول: هي كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر. وهذا غير دقيق، لأنه لو كان كذلك فمقتضى ذلك أننا كلما أردنا أن ننتقل من فكرة إلى فكرة نقول: أما بعد. والصحيح أنه يؤتى بها للدخول في صلب الموضوع، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعملها في خطبه، فيحمد الله ويثني عليه ثم يقول: أما بعد.

ففعلها من باب السنة، سواء في الخطب أم في المكاتب، والفصاحة تقتضي أن يكون ما بعد أما بعد حرف الفاء الرابطة.

قال: فَهَذَا: المشار إليه ما سطره بنانه في هذه الصفحات، أو ما ينوي كتابته فيما يأتي.

قال: اعْتِقَادُ: مأخوذ من العقد، والعقد هو الشد والحزم والجزم، تقول: عقدت الحبل. أي شددته وربطته، فسميت المعارف اليقينية والمعاني القلبية المؤكدة: عقائد، لأنها تفيد معنى الربط والحزم، وهكذا في أمور العقائد، لا بد من الحزم والجزم، ولا يصلح فيها التردد، فكلمة اعتقاد تدل على الأمور المقطوع بها المجزوم بها.

قال: الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: وصف الشيخ أهل الحق بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: الفرقة الناجية. وهي ناجية من البدع والضلال في الدنيا، ومن النار في الآخرة، فإنهم قد نجاهم الله تعالى من البدع والضلالات في الدنيا، وذلك أنهم اعتصموا بالكتاب والسنة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: [افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة]، قالوا: من هي يا رسول الله؟. قال: [هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي]، ولما نجوا في الدنيا من البدع والضلالات أعقبهم ذلك نجاة في الآخرة من النار، ولهذا سميت: الفرقة الناجية.

الوصف الثاني: المنصورة. هذا الوصف أتى به الشيخ من الحديث الصحيح في الصحيحين: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ)[1]، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ببقاء طائفة من الأمة منصورة، [ظاهرين]، والظهور معناه النصرة، والظهور إما بالحجة والبيان، أو بالسيف والسنان، أو بهما معًا، فهذه ـ ولله الحمد ـ لم تخل منها الأرض من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا،

[1] صحيح مسلم (1920).

لكن هذه الفرقة الناجية المنصورة تقوى وتضعف، وتزيد وتنقص، وتكثر وتقل، بما يبتلي الله عز وجل به عباده، { وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [محمد: 4]، فأحيانًا تنتشر أعلام السنة وينتشر العلم ويتبين الحق، وأحيانًا العكس، يفشو الجهل وتكثر البدع، ويصبح أهل السنة في الناس قليل.

قال: إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أي إلى قرب قيامها، لأنه صلى الله عليه وسلم قال (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ)[1]، فينقطع ذكر الله من الأرض، فلا يبقى إلا شرار الخلق ينزو بعضهم على بعض كما تنزو الحمر، فعليهم تقوم الساعة؛ فهي إلى قرب قيام الساعة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن الله تعالى يبعث في آخر الزمان ريحًا مسها ألين من مس الحرير، وريحها أطيب من ريح المسك، فتدخل خياشيم كل مؤمن فتستل روحه، فحينئذٍ لا يبقى على وجه الأرض مؤمن، فهؤلاء يستنقذهم الله تعالى من بين البشرية الذين تقوم عليهم الساعة.

الوصف الثالث: أهل السنة. السنة: لغة: الطريقة، من سن سنة، أي من رسم دربًا وطريقًا، وليس المراد بالسنة هنا ما عند المحدثين أو الفقهاء، لأن لفظ السنة له استعمالات متعددة، فالسنة عند الفقهاء: ما يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه، فهي تأتي ضمن الأحكام التكليفية الخمسة: الوجوب، والتحريم، والاستحباب، والكراهة، والإباحة، لكنها ليست هي المرادة هاهنا، كما أنها ليست هي المرادة عند المحدثين، التي بمعنى ما أُثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقية أو خُلقية.

وإنما المراد بالسنة هنا الطريقة التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم في أمور الدين كلها الاعتقادية والعملية، ولهذا درج المصنفون الأوائل من أهل السنة والجماعة أن يسموا مصنفاتهم: كتاب السنة، كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد، **"كتاب السنة"** للأثرم... وكثير جدًا عند المتقدمين التعبير بالسنة، ويقصدون بالسنة الاعتقاد.

الوصف الرابع: الجماعة. فهم أهل الحق، وهم الجماعة، وهم السواد الأعظم، وغيرهم أهل التفرق، ذلك أن الله تبارك وتعالى قد أمر عباده بالاجتماع والائتلاف، ونهاهم عن التفرق والاختلاف، فقال سبحانه: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [الشورى: 13]، فإقامة الدين تكون بالاجتماع عليه، فهذه هي الجماعة، أن نجتمع على الحق ونتناصر على الحق، ومن ذلك أن نجتمع على إمام واحد، وأن تكون كلمتنا واحدة، وأن نقاتل تحت راية واحدة، وأن نصلي جماعة واحدة، وأن يكون لنا بيعة لإمام واحد، كل هذا يحصل به الاجتماع، وقد قال الله عز وجل: { وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ } [آل عمران: 103]، ومن شذ عن الجماعة شذ في النار، فدومًا على مدار التاريخ أهل السنة والجماعة هم العمود الفقري للمسلمين، وهم أهل الاجتماع والائتلاف، وغيرهم أهل التفرق والاختلاف.

ودائمًا أهل السنة أوصافهم معنوية موضوعية، وأما أهل البدع فإنهم يُنسبون إما إلى مقالاتهم، وإما إلى قائليها، كما يقال: القدرية. نسبة إلى إنكارهم القدر، والجبرية نسبة إلى قولهم بالجبر، وكل هذا نسبة إلى بدعة، والخوارج نسبة إلى

[1] صحيح مسلم (148).

خروجهم، والواصلية نسبة إلى واصل بن عطاء، والجاحظية نسبة إلى الجاحظ، أما أهل الحق فيُنبسون إلى الأوصاف الحميدة التي زينهم الله تعالى بها، ولو تعددت، فإن تعددها لا يعني أنهم فرق مختلفة، فهم أهل السنة، وهم أهل الحديث، وهم الطائفة الناجية، وهم الفرقة المنصورة، فهذه أسماء لمسمى واحد.

وما هو هذا المشار إليه على سبيل الإجمال؟

قال: وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ : لله دره! هذه بركة لزوم نصوص الوحيين، عندما أراد أن يبين العقيدة بيّنها كما بيّنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما بينها الله في كتابه، لا كما درج عليه المتكلمون، فلو رأيتم كتب العقائد لدى المتكلمين لوجدتم أنها في واد وكلام الله في واد، لكن نبينا صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل لما ابتعث الله تعالى أكرم رسول ملكي، إلى أكرم رسول بشري، جبريل إلى محمد، سأله عن الإيمان، (قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . أو قال: والبعث بعد الموت . وتؤمن بالقدر خيره وشره)[1]، هذه أركان الإيمان، أهي ستة، أم خمسة؟ اختلف العلماء:

. فمنهم من يقول: أركان الإيمان ستة، نظرًا للمعدودات.

. وبعضهم يقول: بل هي خمسة. كما يعبر شارح الطحاوية، يقول: الأصول الخمسة. فأين ذهب الإيمان بالقدر؟ الإيمان بالقدر هو جزء من الإيمان بالله، لأن الإيمان بالقدر في الواقع هو إيمان بعلم الله وكتابته ومشيئته وخلقه، وهذا يرجع إلى الإيمان بالله، لكن لما كان الغلط فيه كثيرًا، والشبهات فيه واقعة، خصه النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر، وفصّل بعد إجمال، فقال: [وتؤمن بالقدر خيره وشره]، من باب التأكيد عليه.

وهذه الأصول سواء قلنا: خمسة، أم ستة. خلاف لفظي، ولا يصح إيمان امرئ إلا بها، فلهذا كانت أصولًا يجب أن يعقد عليها القلب، وتفاصيلها موجودة في كتب العقائد، والشيخ في هذه الرسالة قد ركز على موضوع الإيمان بالله، ومر مرورًا سريعًا على ما يتعلق بالملائكة والكتب والرسل، وأفاض في ذكر الإيمان باليوم الآخر، لأنه قرين الإيمان بالله، فكثيرًا ما يذكر الله الإيمان به، ثم يثني بالإيمان باليوم الآخر، {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } [البقرة: 177]، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} [الأحزاب: 21]، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } [المائدة: 69].

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ.

قال: وَهُوَ: مرجع الضمير إلى الاعتقاد حينما قال: وهذا اعتقاد الفرقة الناجية.

[1] صحيح مسلم (8).

قال: الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ: انتزع الشيخ هذه الجمل من حديث جبريل حينما ابتعث الله أفضل رسول ملكي، لأفضل رسول بشري، فسأله عن الإيمان، فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجواب المنظم البين الجلي، قال: [أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره]، هذه أصول الإيمان، فإذا أراد الإنسان أن يعرف الإيمان فلن يجد تعريفًا خيرًا من تعريف النبي صلى الله عليه وسلم، واعلموا . يا رعاكم الله . أنه إذا جاء مبحث الإيمان عند أهل السنة والجماعة فإما أن يُراد به المؤمَن به، أو يُراد به حقيقته، والمؤمَن به هو أركان الإيمان، كما وقع في جواب النبي صلى الله عليه وسلم، وهي الأصول الستة، وإن شئت فقل: الخمسة. على اعتبار أن القدر داخل في الإيمان بالله.

وإما أن يُراد بالإيمان حقيقته من أنه قول وعمل، وزيادته ونقصانه، وما يعارضه من الكفر وأنواعه.

والمقصود هاهنا ذكر المؤمَن به وهي أركانه، ونشير إليها بإجمال:

الركن الأول: الإيمان بالله، وهو أعظمها وأجلها، **ولا يتم الإيمان بالله إلا بالإيمان بأربعة أمور**:

الأمر الأول: الإيمان بوجوده سبحانه.

الأمر الثاني: الإيمان بربوبيته.

الأمر الثالث: الإيمان بألوهيته.

الأمر الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

فلا يتم الإيمان بالله إلا بتحقيق هذه الأربعة، فيؤمن الإنسان بوجود الله وأن وجوده هو الوجود الحق، حتى المتكلمون يقولون: واجب الوجود؛ لأن وجوده لا يفتقر إلى وجود غيره، ومن سواه يعبرون عنه بقولهم: ممكن الوجود، أو الوجود الممكن. لأن وجود غيره مفتقر إلى وجوده، فلا بد من الإيمان بوجود الله تعالى، وقد تضافرت الأدلة من العقل والشرع والحس والفطرة على وجود الله، ولا نسترسل في بسطها.

والإيمان بربوبيته: هو اعتقاده الخالق المالك المدبر، فعلى هذه الثلاثة تدور معاني الربوبية، وبعضهم يفسر توحيد الربوبية بأنه توحيد الله بأفعاله كالخلق والملك والرِّزق والتدبير وما إليه.

والإيمان بألوهيته: هو اعتقاد أنه المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، فلا يحل صرف أي نوع من أنواع العبادة لغيره سبحانه.

والإيمان بأسمائه وصفاته وهو ما أفاض فيه المؤلف بعد هذه الجمل.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة، ولا يتم إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بوجودهم. وأن وجودهم حق، فليسوا كما يزعم بعض الزاعمين أنهم قوى معنوية، أو أنهم قوى الخير المبثوثة في الكون، لا، بل الملائكة خلق حقيقي وعالم غيبي خلقهم الله من نور.

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم بالاسم، ومن لم نعلم اسمه فإننا نؤمن به إجمالًا. فنعلم من أسمائهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ومنكر ونكير وهاروت وماروت ومالك، ومن لم نعلم اسمه . وهم الأكثر . فإننا نؤمن بهم إجمالًا.

الأمر الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم . فقد وصفهم الله تعالى بجملة من الأوصاف، {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ} [فاطر: 1]، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: [أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِئَةِ عَامٍ][1]، فما علمنا من صفاتهم آمنا بها دون تكييف، وما لا فإننا نكله إلى الله.

الأمر الرابع: الإيمان بما علمنا من أعمالهم ووظائفهم. ولملائكة الرحمن وظيفة عامة مشتركة وهي عبادة الله وتسبيحه، {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (26) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: 26، 27]، {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} [الصافات: 165، 166]، {وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: 19، 20]، {يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ} [فصلت: 38].

الركن الثالث: الإيمان بالكتب، ولا يتم أيضًا إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بأنها من عند الله حقًا. فليست كلام ملك ولا كلام رسول، بل هي كلام الله حقًا.

الأمر الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه، ومن لم نعلم اسمه فإنا نؤمن به إجمالًا. فنعلم من كتب الله: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، ويمكن أن نضيف صحف إبراهيم، فنعلم أن الله تعالى أمد أنبياءه بكتب لتبقى حجة على الناس، فنؤمن بها، وما لا نعلمه منها فإنا نؤمن به إجمالًا.

الأمر الثالث: تصديق ما صح من أخبارهم. فما ثبت من أخبار الكتب السابقة فإننا نقبله ونصدق به، والواقع أننا لا نستطيع القطع بصحة ما في الكتب السابقة إلا أن نجد لها شاهدًا في كتابنا أو من كلام نبينا صلى الله عليه وسلم، ذلك أن ربنا عز وجل أخبرنا بأن من قبلنا {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [النساء: 46، المائدة: 13]، و{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: 41]، وأنهم {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً} [البقرة: 79]، فلما كان الأمر كذلك وصارت محل الريبة والظنة ما كان لنا أن نصدق شيئًا من أخبارها إلا بآثارة من علم ودليل ساطع، **فلهذا قسم العلماء المأثور من كتب أهل الكتاب قبلنا . ويسمونها: الإسرائيليات . إلى ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: ما شهد كتابنا بصحته. فإنا نؤمن به، كذكر خلق آدم، وذكر الطوفان، وقصة موسى ويوسف، وآيات عيسى ابن مريم من إبراء الأبرص والأكمه وإحياء الموتى، فهذا نؤمن به لشهادة كتابنا به.

[1] سنن أبي داود (7724)، صححه الألباني السلسة الصحيحة (151).

القسم الثاني: ما شهد كتابنا ببطلانه. وهو ما أدخلوه في كتب الله عز وجل من الباطل، كزعمهم أن لوطًا صلى الله عليه وسلم شرب الخمر وزنى بابنتيه، وهذا موجود في أسفارهم، وزعمهم أن سليمان صلى الله عليه وسلم عبد الأصنام بعل وعشتروت وغير ذلك مما ادعوه عليه، وغير ذلك مما قالوه في كتبهم، تجرأوا فيه على الله تعالى وعلى أنبيائه.

القسم الثالث: ما لا نجد في كتابنا ما يشهد بصحته، ولا يشهد ببطلانه. فهذا النوع لا نصدقه ولا نكذبه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: {آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمُ} الآيَةَ)[1]، ولكن هذا النوع تجوز روايته لمن كان مدركًا وعارفًا بالمعاني، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: [وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج]، وإنما قلت ذلك لأن بعض من يروي الإسرائيليات لا يتبين له الباطل فيها، فكان لا بد أن يكون من يحدث بهذا على علم بالأمر، وقد قال معاوية ـ رضي الله عنه ـ عن كعب الأحبار: وإنا لنبلوا عليه الكذب. وما أراد ـ رضي الله عنه ـ تكذيبه أو أنه يتعمد الكذب، وإنما قصد أننا نجد في مروياته ما يكون كذبًا.

الأمر الرابع: العمل بما أُنزل إلينا منها. وهو القرآن العظيم، فلا بد من العمل به، فإن الله تعالى ذكر التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، قال: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ} [المائدة: 48]: أي حاكمًا ومؤتمنًا وقاضيًا وشاهدًا وناسخًا، {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ} [المائدة: 48]، فيجب العمل بما أُنزل إلينا من الكتب وهو القرآن العظيم، ولا يجوز العمل بما سبق إلا أن يقره شرعنا، فإن أقره شرعنا فشرع من قبلنا شرع لنا إذا أقره شرعنا، بدليل أن الله تعالى قال: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [المائدة: 45]: {فِيهَا}: أي في التوراة، أقر الله سبحانه وتعالى هذا، ثم زاد: {فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ}[المائدة: 45]، هذا هو الأصل في هذا الأمر، وإلا فإن القرآن ناسخ لما قبله، وقد جاء عن عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب، أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال (أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي)[2].

الركن الرابع: الإيمان بالرسل، ولا يتم أيضًا إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بأن رسالتهم من عند الله حقًا. بمعنى أن الله اصطفاهم واختارهم عن علم وحكمة، {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: 124]، {وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} [الزخرف: 31، 32]، {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: 75]، فالنبوة لا تُنال بالكسب، ولا تُنال بالرياضة، ولا تُنال بالمجاهدة كما زعمه بعض زنادقة الصوفية، كما أنها أيضًا لا تُنال بالقوى

[1] صحيح البخاري (7362).

[2] السمند (15156) ضعف إسناده شعيب الأرنؤوط.

العقلية، كما ادعى ذلك ابن سينا والفلاسفة، حيث زعموا أن للنبوة شرائط: القوة القدسية، والقوة الحدسية، والقوة التخييلية.. إلخ مما ادعوه، وقالوا: من توفرت فيه هذه الخصائص صار نبيًا، وكل هذا من الباطل؛ فهي اصطفاء من الله.

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، ومن لم نعلم اسمه فإنا نؤمن به إجمالًا. أما في القرآن العظيم فقد ورد ذكر خمسة وعشرين رسولًا نبيًا، كل من سماهم الله تعالى فهم أنبياء ورسل، وعدتهم خمسة وعشرون نبيًا رسولًا، وفي السنة ما قد يضيف إلى هذا واحدًا أو اثنين، فهذا أقصى علمنا بأسمائهم، وإلا فإن رسل الله كثر، {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً} [النحل: 36]، {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} [غافر: 78]، فيكفي الإيمان المجمل بما لم يسم الله تعالى، فنؤمن به إجمالًا.

الأمر الثالث: تصديق ما صح من أخبارهم. كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ)[1]، ومن أخبارهم ما قص الله تعالى علينا في كتابه، كما قص علينا قصة موسى وفرعون وسائر أنبيائه، وما حدَّث به نبيه صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة مما كان في الأنبياء السابقين.

الأمر الرابع: العمل بشريعة من أُرسل إلينا منهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم. فيجب علينا أن نعمل بشريعته ولا نلتفت إلى ما سواه.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر، ويتطلب أيضًا أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بما يكون في القبر. والذي يكون في القبر أمران: فتنة القبر، وعذاب القبر أو نعيمه، وسيأتي الكلام عليهما، وقد أفرد الشيخ لهما حيزًا كبيرًا.

الأمر الثاني: الإيمان بالبعث. وهو إخراج الناس من قبورهم أحياء يوم القيامة،[حفاة عراة غرلًا]: حفاة غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلًا غير مختونين، وفي رواية: [بُهمًا]: أي ليس معهم شيء.

الأمر الثالث: الإيمان بالحساب. وسيأتي ذكر التفريق بين محاسبة الكفار ومحاسبة المؤمنين، وذكر نوعي حساب المؤمنين، وأنه إما عرض وإما مناقشة.

الأمر الرابع: الإيمان بالجزاء. وهو الجنة أو النار، فالجنة هي الدار التي أعدها الله كرامة لأوليائه المتقين، والنار هي الدار التي أعدها الله مكانًا لأعدائه الكافرين.

الركن السادس: الإيمان بالقدر، ولا يتم إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء.

الأمر الثاني: الإيمان بكتابة الله للمقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

الأمر الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

الأمر الرابع: الإيمان بخلق الله لجميع الأشياء. ذواتها وصفاتها وحركاتها، فالله الخالق وما سواه مخلوق.

[1] صحيح البخاري (3483).

وبهذا البيان . يا رعاكم الله . ينتظم مفردات أركان الإيمان الستة، وينبغي لطالب العلم أن يُحسن تصوره وتقسيمه ليتمكن من بيانه لعموم الناس، فإن الناس في أمس الحاجة إلى إدراك هذه التفاصيل.

ومبحث القدر أولاه الشيخ في هذه الرسالة عناية خاصة، فأكثر ما ركز عليه الشيخ في العقيدة الواسطية الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر، وأما الإيمان بالكتب والرسل والملائكة فجرت إشارة عابرة إليه.

والله أعلم.

الدرس (4)

الأيمان بصفات الله

قال المؤلف –رحمه الله–: وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ.

بعد أن ذكر الشيخ التأطير العام لمجمل العقيدة الإسلامية دخل في شيء من الخصوص.

قال: وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: من هنا للتبعيض، فقد أسلفنا أن الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فاختار منها الشيخ ما مست الحاجة إليه في سؤال السائل، وما كان سادًّا في زمنهم من اللغط في هذا الأمر المهم، وهو ما يتعلق بأسمائه وصفاته، فذكر قاعدة أهل السنة والجماعة في هذا الباب.

قال: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ: اعلموا . يا رعاكم الله . أن الناس تفرقوا في هذا الباب الشريف فرقًا شتى، فقوم زعموا أن الله سبحانه وبحمده لا اسم له ولا صفة، وهؤلاء هم غلاة المعطلة من الجهمية، فقالوا: إن الله تعالى لا اسم له ولا صفة، وأن الوجود المطلق بشرط الإطلاق. فلا يُثبتون فيما يتعلق بالله إلا أنه وجود مطلق، أي وجود لا يتقيد بصفة، فيزعم هؤلاء أنه ليس بسميع ولا بصير ولا عليم ولا قدير، وليس له سمع ولا بصر ولا علم ولا قدرة، هؤلاء هم غلاة المعطلة، وهم الجهمية، والجهمية قد كفرهم أهل السنة بشناعة مقالتهم، حتى قال ابن القيم:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

يعني خمسمائة عالم أُثر عنهم تكفير الجهمية، وذلك أن مقالتهم تعني في الواقع إنكار وجود الله، لأنه لا يُتصور وجود موجود ليس له وصف، وناطق الكتاب وصحيح السنة في إثبات الأسماء والصفات، فلا مسوغ لمقالتهم أبدًا، فلذلك استحقوا التكفير.

ودون هؤلاء قوم من المعطلة وهم المعتزلة، فإن المعتزلة أرادوا تلطيف شناعة مقالة الجهمية، فقالوا: نعم، نثبت له الأسماء دون ما دلت عليه من الصفات. فيقولون: نعم، هو سميع لكن بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعليم بلا علم، وقدير بلا قدرة. بمعنى أنهم أثبتوا أسماء فرغوها من الصفات، فحقيقة الأمر أن لا فرق بين مذهب المعتزلة ومذهب الجهمية، لأن الجميع يعتقد أنه ليس لله تعالى صفة ثبوتية، حتى إنهم إذا جوبهوا بصراحة الأدلة وقيل لهم: ها هو الله تعالى قد سمى نفسه

سميعًا وقال: {قَدْ سَمِعَ} [المجادلة: 1]، وقال: {وَاللَّهُ يَسْمَعُ} [المجادلة: 1]، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ} [البقرة: 181، 244، الأنفال: 17، الحج: 75، لقمان: 28، الحجرات: 1، المجادلة: 1]، كما في صدر سورة المجادلة: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: 1]، قالوا: المقصود بالسمع انتفاء الصمم، والمقصود بالعلم انتفاء الجهل، والمقصود بالقدرة انتفاء العجز. بمعنى أنهم يفسرون الصفات الثبوتية بالسلبية، بأن أضدادها مسلوبة عن الله، وكل ذلك فرارًا من إثبات الصفة، وكل هذا من تلاعب الشياطين ومن شؤم تلقيهم الفلسفة اليونانية وغيرها، التي أفسدت مداركهم وطرائقهم في التفكير، بخلاف السلف فإنهم اعتصموا بالكتاب والسنة ولزموا دلالتهم، وعصمهم الله، فأثبتوا ما أثبت لنفسه.

وهذا في جانب التعطيل.

وعلى النقيض من هؤلاء تمامًا قوم غلوا في الإثبات، وهم أهل التمثيل والتكييف ، فلما سمعوا الله تعالى يسمي نفسه بأسماء ويصف نفسه بأوصاف قالوا:لا نعهد هذا إلا في الموجودات فيعتقدونها في الله بحسب ما عهدوها في الموجودات فيقول قائلهم:

سمع كسمعنا، وبصر كبصرنا، ووجه كوجوهنا، ويد كأيدينا. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

أرأيتم كيف افترقوا؟ قوم غلوا في التنزيه حتى وقعوا في التعطيل، وقوم غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التمثيل، وهدى الله تعالى أهل السنة والجماعة لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، فسلكوا مسلكًا وسطًا بين طرفين، وعدلًا بين عوجين، فأثبتوا إثباتًا بلا تمثيل، ونزهوا الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل، فقالوا: نؤمن بما وصف الله به نفسه...

قال: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ: لله درهم! هذه بركة اعتصامهم بالكتاب والسنة، قالوا: الله سبحانه وتعالى غيب، ولا سبيل لنا أن نقول شيئًا إلا ببرهان من الله، ولا يمكن أن نعلم ما ينبغي لربنا وما يُنزه عنه إلا بخبر صادق عنه، ذلك أن العقول تقطع أن أي شيء من الأشياء لا يمكن معرفة صفته إلا بإحدى ثلاث طرائق: الأول: رؤيته، الثاني: رؤية مثيله، الثالث: خبر صادق عنه.

فأنت لو قيل لك مثلًا: إنه قد ظهر جهاز معين، حاسب أو موديل سيارة معينة. فلا يمكنك أن تخبر عن هذا الشيء أو عن هذه السلعة، إلا بأحد هذه الثلاث طرق: إما أن تكون رأيت هذه السلعة بنفسك فوصفتها، أو رأيت نظيرًا لها مثلًا في كتالوج أو غير ذلك فوصفتها بناء على رؤية نظيرها، أو جاءك إنسان حاذق يعي ما يقول ويعني ما يقول فحدثك فنقلت عنه، هذه هي الطرق الممكنة، فلله المثل الأعلى: لا يمكن أن نُخبر عن ربنا عز وجل إلا بالطريق الثالثة، لأننا لم نر ربنا، ولا نبينا صلى الله عليه وسلم رآه، فكيف بنا، فبالتالي لا يمكن أن نصف ربنا بناء على رؤية، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟. قال : (نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ) ، أو قال: (رَأَيْتُ نُورًا)[1]، وذلك أنه رأى الحُجُب،

[1] صحيح مسلم (178).

قال: (حِجَابُهُ النُّورُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ – لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)[1].

فالقول الصحيح: أنه ولا النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه، ولهذا لما سئلت عائشة. رضي الله عنها. هل رأى محمد ربه؟ قالت للسائل: لقد تكلمت بشيء قف له شعري، قلت: رويدا ثم قرأت {لقد رأى من آيات ربه الكبرى}، قالت أين يذهب بك؟

إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمدا رأى ربه، أو كتم شيئا مما أمر به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث} فقد أعظم الفرية، ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في جياد له ست مئة جناح قد سد الأفق[2].

والثاني: أشد امتناعًا، لأنه لا نظير له سبحانه حتى يُقاس عليه، {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ} [النحل: 74]، {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً} [البقرة: 22]، {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ} [الإخلاص: 4].

فلم يبق إلا الطريق الثالث وهو الخبر الصادق، فقد أخبرنا الله تعالى عن نفسه في كتابه بأسمائه وصفاته، في مواضع عدة، وأخبرنا عنه نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته الصحيحة، فكان متعينًا أن نلزم هذا الطريق، ولا نُثبت لله بمجرد العقل، بل نُثبت بما دل عليه النص الصحيح، فكانت طريقة أهل السنة والجماعة الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سنته.

قال: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم: هذه طريقة أهل السنة، واحترز الشيخ من أربعة أمور، فالأول والثاني محذوران في جانب التنزيه، والثالث والرابع محذوران في جانب الإثبات.

قال: مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ: التحريف: لغة: التغيير، يقال: حرف الكلام. يعني غيّره عن مواضعه، تقول أنت مثلًا: كانت السيارة تسير في طريق ثم انحرفت. يعني تغير مسارها.

اصطلاحًا: تغيير النص لفظًا أو معنى.

فتبين بهذا أن التحريف نوعان:

النوع الأول: تحريف لفظي.

النوع الثاني: تحريف معنوي.

وقد ذكر العلماء للتحريف اللفظي ثلاثة أمثلة:

المثال الأول: زيادة حرف. كمن قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]: أي استولى. فقد زاد حرفًا.

---

[1] صحيح مسلم (179).

[2] سنن الترمذي (3552).

المثال الثاني: زيادة كلمة. كمن قال في قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً} [الفجر: 22] ، قالوا: وجاء أمر ربك، فزادوا كلمة.

المثال الثالث: تغيير الشكل. وأنتم تعرفون أن اللغة العربية تنضبط معانيها بالشكل والإعراب الذي يكون على أواخرها، فمثلوا لذلك بقول الله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً} [النساء: 164]، فجاء منكرو صفة الكلام فغيروا الضمة، وحرفوها إلى فتحة، فقالوا: وكلم اللهَ موسى. وصنعوا ذلك ليجعلوا الله تعالى مُكلَّمًا لا متكلِّمًا، وإلا فإن الآية: (وَكَلَّمَ): فعل ماض مبني على الفتح، (اللَّهُ): لفظ الجلالة فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، (مُوسَى): مفعول به، (تَكْلِيماً): مفعول مطلق مؤكد للفعل.

وهم قالوا: وكلم اللهَ موسى. ليجعلوا الله مفعولًا به مقدمًا، وموسى فاعلًا مؤخرًا، وهذا تحريف بتغيير الشكل، وقد حاول بعضهم أن يستنطق أحد القراء المشهورين وهو أبو عمرو بن العلاء . رحمه الله .، فقال: أريدك أن تقرأ بهذه الآية على هذا النحو: وكلم اللهَ موسى تكليمًا. فتفطن لمراده، فقال: فما تصنع يا ابن اللخناء بقول الله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143]؟. هل يستطيع أن يعبث بها أو أن ينسب الكلام إلى غير الله؟ لا يمكنه ذلك، {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143]، فالأمر جد صريح.

أما التحريف المعنوي فباب واسع لا حد له، وهو أن يقروا اللفظ على ما هو عليه، لكن يقولون: ليس المراد به كذا، والمراد به كذا وكذا. فيقولون: نعم، لله صفة هي الوجه، لكن المقصود بالوجه الثواب، لله صفة هي اليد، لكن المقصود باليد النعمة أو القدرة، ولله صفة المجيء، لكن المقصود بها مجيء أمره أو ملائكته أو رحمته أو نحو ذلك، والتحريف المعنوي أكثر ما وقع فيه المحرفون، لأن القرآن العظيم مصون لا يمكنهم أن يحرفوه لأنه منقول بالتواتر، فأكثر ما وقع التحريف في التحريف المعنوي.

واعلموا . يا رعاكم الله . أن أهل التحريف لا يسمون عملهم تحريفًا، وإنما يسمونه تأويلًا، تلطيفًا له، فيقولون: تأويل الوجه الثواب، وتأويل اليد النعمة، وتأويل كذا كذا. والواقع أن هذا تحريف لا تأويل، لأن كلمة تأويل في أصل وضعها في اللغة لا تدل على مرادهم، فأرادوا أن يلطفوا هذا، ويجب أن نسمي الأمور بأسمائها، وهذا مما وفق له شيخ الإسلام ابن تيمية أن سمى التأويل الذي عليه المتكلمون تحريفًا، وسمى التفويض الذي يدعيه المفوضة تجهيلًا، وهذا يدل على قوة العارضة والبيان والثقة بالحق الذي هو عليه.

قال: وَلاَ تَعْطِيلٍ: التعطيل: لغة: الخلو والفراغ، قال تعالى: {وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ} [الحج: 45]: أي خالية من الماء، وتقول العرب: امرأة معطال. إذا لم يكن عليها حلي، يعني أنها اكتفت بزينتها عن لبس الحلي، ونحن نقول: عُطلة صيفية. لخلوها من الدراسة أو نحو ذلك، ويقول الشاعر مخاطبًا محبوبته:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

أي لا تستغربي أنه ليس في يدي مال وجِدة، لأن الرجل الكريم إذا وقع شيء في يديه فرقه يمنة ويسرة، كما إذا نزل ماء السماء على رؤوس الجبال سح منها، عطل الكريم: أي خلوه من الغنى.

اصطلاحًا: جحد أو نفي أو إنكار أسماء الله تعالى كلها أو بعضها.

وتبين من خلال ما قررنا أن **التعطيل ينقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: تعطيل كلي. وهو ما عليه الجهمية والمعتزلة، فإنهم قد عطلوا الله تعالى من صفاته، والفرق بينهم فرق شكلي، فالجهمية أكثر صراحة؛ فقد قالوا: ليس له اسم ولا صفة. والمعتزلة قالوا: له الأسماء، لكن لا تتضمن أوصافًا. وهذا من الحذلقة، لأن العرب لا تسمي عليمًا إلا من كان ذا علم، ولا تسمي بصيرًا إلا من كان ذا بصر، ولا تسمي سميعًا إلا من كان ذا سمع، فكيف تقولون: سميع بلا سمع، عليم بلا علم، حكيم بلا حكمة.

القسم الثاني: تعطيل جزئي. وهؤلاء قوم يقال لهم: الصفاتية. وسموا بذلك لأنهم في الأصل يعتقدون ثبوت الصفات لله عز وجل، كما يعتقد أهل السنة ثبوت الصفات لله عز وجل، لكن أشكلت عليهم بعض شبهات المعتزلة والجهمية، فلم يتمكنوا من حلها، فأتوا بمذهب ملفق بين مذهب المعتزلة والجهمية ومذهب السنة المحضة، فصاروا يثبتون لله صفات المعاني، ويحرفون الصفات الفعلية والخبرية، وأوضح مثال على هذا الأشاعرة والماتُريدية، ومن قبلهم الكُلّابية، ويعدون من فرق الصفاتية أتباع أبي العباس القلانسي، وأتباع الحارث بن أسد المحاسبي، فهؤلاء يقال لهم: الصفاتية. إذ الأصل فيهم الإثبات، وهذه حسنة عظيمة أنهم اعتقدوا أن الله تعالى مستحق لثبوت صفات الكمال والجلال، لكنهم تشوشوا من شبهات المعتزلة فيما يتعلق بالصفات الفعلية، لأن المعتزلة أثاروا شبهًا فيما يتعلق بمجيء الله ونزوله واستوائه، فلم يتمكنوا من ردها، وكذلك في صفات الله الخبرية: كالوجه واليدين والعينين، فلم يتمكنوا من حل إشكالات المعتزلة، ولم يفقهوا طريقة السلف، ولم يُدركوا حقيقتها، فلأجل ذلك صاروا كالشاة العائرة بين القطيعين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فمثل هؤلاء نسميهم: أصحاب التعطيل الجزئي.

أما أهل السنة فمذهب مطرد، يصدق بعضه بعضًا، لا يقولون في موضع ما ينقضه في موضع، بل هم ماشون موافقون لدلالة الكتاب والسنة، وهم أسعد الناس بقول الله تعالى: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: 2]، فكما لم يشق نبيهم صلى الله عليه وسلم بالقرآن لم يشقوا به، بل فرحوا به واطمأنوا إليه واعتقدوا معناه ودلالته، هكذا المؤمنون دومًا، ألم تروا أن الله تعالى أثنى على طائفة من أهل الكتاب آمنوا فقال الله تعالى:{وَلَقَدْ وَصَّلْنَا [1] لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [القصص: 51- 54]: لله درهم، فهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن مع كتاب الله، أن يكون أعظم مفروح به، وأن يعتقد أنه حق على حقيقته، وأنه دال بذاته على الحق، ألم يقل الله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ}

[1] لاحظ، حلقات متواصلة.

[الأنعام: 19]، فالقرآن بذاته كاف في النذارة، لا يحتاج إلى مساعدات خارجية كما يدعي هؤلاء المتكلمون، يقولون: لا بد من معرفة تأويل الآيات وكذا. ويأخذون يعبثون بها ويتجنون على النصوص، فأسعد الناس بالقرآن هم أهل السنة والجماعة، وأما من سواهم من المتكلمين من المعطلة والممثلة فقد شقوا بالقرآن، صاروا يحملونه على غير مراد الله تعالى ومراد نبيه صلى الله عليه وسلم، ويتكلفون في ذلك أشد التكاليف، فلا بد من الاحتراز من التحريف والتعطيل، وهذا في جانب التنزيه، لأن هؤلاء المعطلة يدعون أنهم قصدوا بذلك تنزيه رب العالمين، فنقول: أي تنزيه هذا أفضى إلى تعطيل الرب عن صفات الكمال ونعوت الجلال؟! ما عاد تنزيهًا، بل عاد بأعظم المسبة والمذمة.

وفي مقابلهم من بالغ في الإثبات، وهم أهل التمثيل، ولهذا قال الشيخ: **ومن غير تكييف ولا تمثيل**.

قال: وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ: التكييف هو حكاية كيفية الصفة، كأن تحكي كيف جرى كذا وكذا وكذا، فقد يصف الإنسان مثلًا هبوط مظلي أو تسلق جبل فيقول: حصل كذا وكذا وكذا. فهذا اسمه: تكييف، فالتكييف المذموم هو أن ينتدب أحد لحكاية كيفية صفة من صفات الله، كاستواء الله عز وجل على عرشه، فهذا ممتنع عقلًا محرم شرعًا، فهو ممتنع عقلًا لأنه أي عقل يمكن أن يوزن به ما ينبغي لله؟! هذا من أعظم المستحيلات، ومحرم شرعًا لأن الله قال: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ} [النحل: 74]، ولما دخل رجل على أبي عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة وقال: يا أبا عبد الله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، كيف استوى؟. فسأل عن كيفية الاستواء، فأطرق الإمام مالك برأسه، وعلته الرحضاء، وارفض جسده عرقًا تعظيمًا لله عز وجل واحترامًا لجنابه، أطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: **الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا صاحب بدعة** . ثم أمر به فأُخرج من المسجد، وفي رواية أخرى صحيحة عند اللالكائي أنه قال: **الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة**؛ فلا يجوز التكييف شرعًا، ولا يمكن عقلًا.

قال: وَلاَ تَمْثِيلٍ: أي إثبات مماثل للشيء، كأن نقول مثلًا: هذا الكأس مثل هذا الكأس، هذا الكتاب مثل هذا الكتاب. لأنهما خرجا من مطبعة واحدة، ولاحظوا دقة الشيخ، أنه استعمل لفظ التمثيل، ولم يستخدم لفظ التشبيه، لأن القرآن جاء بنفي التمثيل، فقال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]، ولم يقل: ليس كشبهه شيء.

فيجب على من أثبت لله سبحانه وتعالى ما وصف به نفسه أن يحذر من أن يبالغ في التكييف لدرجة أن يكيف كيفية مجيئه واستوائه أو نحو ذلك، وأن يحذر من الوقوع في التمثيل بأن يقول: وجه الله كوجه المخلوق، يد الله كيد المخلوق، سمع الله كسمع المخلوق، فهذه أمور لا بد من التفطن لها والتنبه لها، لكي يكون إيمان الإنسان إيمانًا على بينة. ولهذا قيل: **المعطل يعبد عدمًا، والممثل يعبد صنمًا** ، فالمعطل يعبد عدمًا لأنه في الواقع سار لا إلى شيء، كما عبر بعضهم للمعطلة فقال: ما مثلكم إلا كرجل قال: في بيتنا نخلة. فقيل له: ألها جذع؟. قال: لا. قيل: ألها جذور؟. قال: لا. قيل: ألها سعف؟. قال: لا. قيل: أتحمل الثمر؟. قال: لا. قالوا: فما في بيتكم نخلة. لأنه نزع جميع صفاتها وخصائصها، فصارت في الأذهان ولا وجود لها في الأعيان، فالمعطلة يصفون الله تعالى بالسلوب: ليس بكذا، وليس بكذا، وليس بكذا،

لهذا قال السلف: إنما يحاولون أن ليس فوق السماء إله، والممثل يعبد صنمًا، لأنه تخيل صورة ذهنية اصطنعها في ذهنه، مهما بالغ في تكبيرها وتزويقها، لكن الله ليس كذلك، فكل ما خطر ببالك من الأشكال فالله ليس كذلك.

والله أعلم.

الدرس (5)

المحترزات الأربعة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد.،

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ.

بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ] [الشورى: 11].

قد تقدم بيان أن هذا المسلك هو مسلك أهل السنة والجماعة، وهو الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ثم ذكرنا لكم المحترزات الأربعة التي يحترز منها أهل السنة والجماعة: التحريف، والتعطيل، والتكييف، والتمثيل، فهم يحترزون من التحريف والتعطيل في جانب التنزيه، ويحترزون من التكييف والتمثيل في جانب الإثبات، لأنه كما قيل: كلا طرفي قصد الأمور ذميم؛ فمن حقق الإثبات فعليه أن يحذر من الغلو في الإثبات، لئلا يقع في التكييف والتمثيل، ومن أراد تنزيه الرب سبحانه وتعالى فليحذر من المبالغة فيه حتى لا يقع في التعطيل والتحريف، وبيَّنا لكم معاني هذه المصطلحات الأربعة، ونود الآن أن نبين الفرق بين التحريف والتعطيل، وبين التكييف والتمثيل، فإن التحريف والتعطيل في جانب النفي، والتكييف والتمثيل في جانب الإثبات.

ما الفرق بين التحريف والتعطيل؟ تقدم معنا أن التعطيل معناه النفي، الجحود، الإنكار، وأن التحريف معناه التغيير، فالتعطيل هو نفي أو جحود أو إنكار صفات الله تعالى كلها أو بعضها، والتحريف هو تغيير النص لفظًا أو معنى.

فهل كل محرف معطل؟ أو كل معطل محرف؟ الواقع أن كل محرف معطل، ولا عكس، وبيان ذلك: أن المعطل نفى ما أثبت الله تعالى لنفسه، والمحرف زاد على ذلك بأن اقترح معنى بديلًا من عنده، فصار المحرف قد نفى وزيادة، بمعنى أنه نفى المعنى المراد وأتى بمعنى بديل من عند نفسه، فيأتي إلى قول الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، فلا يثبت الاستواء بالمعنى الذي أراده الله تعالى، أي العلو، ثم يزيد على ذلك ويقول: المراد بالاستواء الاستيلاء. فقد عطل وحرف، أما المعطل فإنه ينفي الاستواء، وقد لا يذكر معنى بديلًا، كحال أهل التجهيل الذين يسمون أنفسهم المفوضة، فإنهم يقولون: لله صفة يقال لها: الاستواء. لكن لا نعقل لها معنى، فقط نثبت ألفاظها ولا نعقل لها معنى. فإن قيل لهم . كما يقول السلف .: أهي العلو؟. قالوا: لا. فإن قيل لهم . كما يقول الخلف .: أهي الاستيلاء؟. قالوا: لا، لا أحد يعلم،

ولا النبي صلى الله عليه وسلم يعلم. زعموا أن هذا هو مراد الله تعالى بقوله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ} [آل عمران: 7]، وليس الأمر كذلك.

فإذا قيل لك: ما الفرق بين التحريف والتعطيل؟ فقل: التحريف تعطيل وزيادة، لأنه إنكار للمعنى الصحيح واستبدال له بمعنى باطل، أو بمعنى غير مراد، فصار التحريف أعم من التعطيل.

ما الفرق بين التكييف والتمثيل؟ تقدم معنا أن التمثيل يعني إثبات مماثل للشيء، وأن التكييف حكاية كيفية الصفة، فتقول: هذا الكتاب مثل هذا الكتاب. وإذا حكيت كيفية معينة فهذا يسمى تكييفًا، كأن تصف مشي أو جريان الماء في الأنهار أو سرعة القطار أو حفيف الأشجار، حينما تحكي كيفية يقال عن فعلك هذا: تكييف.

فما الفرق بين التكييف والتمثيل؟ وأيهما أعم؟ وأيهما أخص؟ الواقع أن بينهما فرقًا، فالتمثيل يعني إثبات مماثل للشيء، بحيث يطابقه في جميع الأشياء، وعلى هذا فالتمثيل يتعلق بالقدر والذات والصفة، بينما التكييف لا يتعلق إلا بالصفة، هذا أحد الفروق.

الفرق الأول: أن التمثيل يتعلق بالذات وبالقدر وبالصفة ، بينما التكييف لا يتعلق إلا بالصفة، فحينما تقول: هذه النسخة من الكتاب مثل هذه النسخة من الكتاب. فهي مطابقة لها في كل شيء، في الوزن، وفي عدد الصفحات، وفي الألوان، وفي المحتوى، هذا تمثيل، **وبهذا الاعتبار يكون التمثيل أعم من التكييف** ، لأن التكييف لا يتعلق إلا بالصفة فقط، كأن تكون نسخة من كتاب ونسخة من كتاب آخر غيره، فلا يشتركان إلا في أنهما ورق.

الفرق الثاني: أن التمثيل لا بد أن يكون مقيدًا بمماثل، أما التكييف فقد يكون مقيدًا بمماثل وبغير مماثل . كيف ذلك؟ حينما تقول: هذا مثل هذا. فلا بد من وجود شيء تُشير إليه وتُحيل إليه، فلا بد أن تقيده بمماثل، أما عندما تحكي كيفية فقد تحكي كيفية لمماثل، وقد تحكي كيفية مطلقة، أضرب لكم مثالًا: لو أن إنسانًا مثلًا لم ير يومًا في حياته الطائرة، لم ير يومًا في حياته كيف تهبط الطائرة على مدرج المطار، وقال لمن رآها: كيف تهبط الطائرة؟ هي في السماء، ثم لا تلبس أن تكون في الأرض، كيف يقع هذا؟ ألا تتحطم؟. وهو لا يدري، لأول مرة يتخيل مثل هذا الأمر، فأراد صاحبه أن يقرب له الأمر فقال: هل تعرف الطائر الفلاني الذي في السماء؟. قال: نعم. قال: كيف يهبط؟. قال: يبسط جناحيه ثم ينزل نزولًا تدريجيًا، فيحط قدميه في الأرض، ثم يجري على الأرض حتى يستقر. قال: الطائرة هكذا. فالآن حكى كيفية مقيدة بمماثل وهو هذا الطائر المعهود في ذهنه، وربما لم يذكر له شيئًا معهودًا في الذهن، وإنما يقول له: إن هذه الطائرة تهبط في أجواء الفضاء شيئًا فشيئًا، حتى إذا قاربت الأرض لامست عجلاتها مدرج المطار، ثم سحت فوق أرض المطار حتى تقف، فهو الآن لم يربطها بمماثل، **فبناء على هذا يكون التكييف أعم من التمثيل** ؛ إذ التمثيل لا بد أن يكون مقيدًا بمماثل، أما التكييف فربما كان مقيدًا بمماثل، وربما كان شيئًا مطلقًا لا يتقيد بمماثل.

هذان هما الفرقان بين التكييف والتمثيل، ألخصهما بأن نقول:

الفرق الأول: أن التمثيل يتعلق بالذات والقدر والصفة، والتكييف يتعلق بالصفة فقط. وبهذا يكون التمثيل أعم من التكييف، فكل مكيف ممثل، وليس كل ممثل مكيفًا.

الفرق الثاني: أن **التمثيل لا بد أن يكون مقيدًا بمماثل، وأما التكييف فربما كان مقيدًا بمماثل، وربما كان بوصف مطلق. وعلى هذا يكون التكييف أعم من التمثيل، فكل ممثل مكيف، وليس كل مكيف ممثلًا.**

وهذا من باب تلمس الفروق في معاني هذه الاصطلاحات، والمقصود بالجملة . معشر الطلبة ومن بلغ . أن نعلم بأن الطريقة الواجبة في الاتباع في صفات رب العالمين هو أن نُثبت لله تعالى ما أثبت لنفسه في كتابه، وما أثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته، إثباتًا بلا تمثيل، وأن ننزه الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو معنى الآية التي ختم الشيخ بها: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى: 11].

قال: بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}: وفي هذا رد على أهل التمثيل وأهل التكييف.

قال: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}: وهذا رد على أهل التحريف والتعطيل.

فكانت هذه . وهي بعض آية، أو ختام آية . منهجًا لأهل السنة والجماعة في هذا الباب العظيم الخطير، فالواجب علينا أن نُثبت للرب ما أثبت لنفسه إثباتًا بلا تمثيل، وأن ننزهه عن العيب والنقص ومماثلة المخلوقين تنزيهًا بلا تعطيل.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ ؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لاَ سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لهُ، ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهَ وَتَعَالَى؛ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ.**

هذه خمس جمل معللات.

قال: فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ: أي وصْف وصَف الرب به نفسه فلا يحل لكائن من كان أن ينفيه عن الله تعالى، لأنه كأنما يستدرك على الله تعالى ما أضافه إلى نفسه الشريفة، فإياك أن تستشنع شيئًا مما أثبت الرب لنفسه، فإذا وصف الله نفسه بالاستواء أو المجيء أو النزول أو الضحك أو الفرح أو العجب أو الساق أو اليدين أو الوجه، فلا تقل: كيف؟. أو يقف لها شعر رأسك، إنما يقع هذا لمن تبادر إلى ذهنه معنى التمثيل، أما من قدر الله حق قدره فإنه يعلم أن هذا الذي سمى ووصف الرب به نفسه على وجه يليق به، فلهذا كان أهل السنة يلزمون جانب الأدب في هذا، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، إذا جاء في كتاب الله، أو صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، ويُبرأ سبحانه من كل نقص وعيب، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، فالجملة الأولى رد على أهل التعطيل، وقوله: ولا يحرفون الكلم عن مواضعه. رد على أهل التحريف.

قال: وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ : رد على أهل التحريف، والذين يحرفون الكلم عن مواضعه هم الذين ينقلون المعنى عن المعنى المراد لله، إلى معنى غير مراد لله، حتى ولو كان المعنى المنقول إليه معنى صحيحًا، لكن إن لم يكن هو مراد الله فهذا ضرب من التحريف، وعدوان وجناية على النصوص، فلا يحرفون الكلم عن مواضعه، ومن المعلوم أن

الذين اشتُهروا بتحريف الكلم عن مواضعه هم اليهود، { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ } [النساء: 46، المائدة: 13]، {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: 41]، ولما قيل لهم: قولوا: حطة. قالوا: حنطة. وحرفوا نوعين من التحريف:

النوع الأول: تحريف لفظي.

النوع الثاني: تحريف معنوي.

كل هذا وقع من يهود، فمن شابههم ففيه شعبة من يهودية، ومن برأ من طريقتهم فقد لزم السنة.

قال: وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ: الإلحاد هو الميل، ومنه سمي لحد القبر لحدًا، لأنه ميل عن سمت الحفر، فحافر القبر يحفر بشكل رأسي طويل، فإذا أراد أن يضع موضعًا للميت يحفر باتجاه القبلة لكي يوضع الميت في هذا اللحد، ثم يُصف عليه اللبن، فسمي اللحد لحدًا لميله عن سمت الحفر، هذا سبب تسمية الإلحاد بهذا الاسم، فهو الميل والعدول عن ما يجب اعتقاده أو عمله.

وأفادنا الشيخ بأن الإلحاد يمكن أن يقع في الأسماء، ويمكن أن يقع في الآيات، وبيان ذلك: أن الله في كتابه ذم كلا الصنفين، فقال في موضع: { وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَ ائِهِ} [الأعراف: 180]، فيقع الإلحاد في أسماء الله.

النوع الثاني: الإلحاد في آياته. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} [فصلت: 40].

فيمكن أن يقع الإلحاد في الأسماء وفي الآيات، وكلاهما حرام، وقد يبلغان مبلغ الكفر أحيانًا، وقد يبلغان مبلغ البدعة أحيانًا.

وما دام أن الإلحاد في أسماء الله معناه الميل، **فالميل له صور متعددة، نذكر بعض هذه الصور**:

الصورة الأولى: تسمية الله بما لم يسم به نفسه. فمن سمى الله بما لم يسم به نفسه فقد ألحد في أسمائه، لأن أسماء الله توقيفية، ليس لأحد أن يسمي الله بأسماء مبتكرة مخترعة من عند نفسه، لا يُسمى الله إلا بما سمى به نفسه، أسماء الله قديمة منذ الأزل، لم يخترعها الناس، بل الله سمى بها نفسه، وأعلمها أنبياءه، ثم أنبياؤه أعلموها أممهم، فمن سمى الله بما لم يسم به نفسه فقد وقع في الإلحاد في أسمائه.

مثال: تسمية النصارى لله بالأب، يقول: الأب والابن وروح القدس إله واحد. فيسمون الله الأب، ويقولون: أبونا. يقصدون به الله عز وجل، فهذا ليس من أسماء الله الحسنى، لأن عقيدتهم في البنوة عقيدة كفرية، { وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: 30]، فهذا من الإلحاد في أسمائه أن يمسى باسم الأب.

مثال: تسمية الفلاسفة له: العلة الفاعلة، فهذا أيضًا من الإلحاد في أسمائه.

مثال: بعض الناس قد يُطلق إطلاقات مخترعة على الله، مثل من يقول: مهندس الكون الأعظم. فلا يجوز أن يُسمى الله بهذا مهما كان، فلا يُسمى الله إلا بما سمى به نفسه، لكن بعض الإطلاقات تأتي من باب الإخبار لا من باب الأسماء، فمثلًا: المتكلمون يعبرون عن الله بقولهم: واجب الوجود. وهذا ليس معنى مذموم حتى نرده، وإنما هو خبر، فلا

نسمي الله بالواجد، ولا نسمي أحدًا من الناس بعبد الواجد، وقولهم: واجب الوجود. أي أن وجوده لا يفتقر إلى وجود غيره، بل هو الواجب بذاته سبحانه، الموجد لغيره، فهم يعبرون بقولهم: واجب الوجود. ويجاريهم أهل السنة في هذا التعبير، لأنه ليس في هذا التعبير معنى مذموم، لكن لا ينبغ أن نقول: هذا من الأسماء الحسنى.

الصورة الثانية: إطلاق أسمائه الحسنى على الأصنام والمخلوقات. كما وقع من المشركين، حيث استلوا من أسماء الله الحسنى واشتقوا منها أسماء لأصنامهم، كقولهم: اللات، العزى، مناة. فأخذوا اللات من اسم الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فهذا ضرب من الإلحاد في أسمائه، لأنه عدوان على أسمائه، وتأنيث لها، وإطلاق لها على الأصنام، فهذا يُعد إلحادًا.

الصورة الثالثة: اعتقادها دالة على التمثيل. بأن يعتقد بأن هذه الصفة تدل على ما هو معهود في الأذهان، فيظن أن صفة الوجه كالوجه المألوف عند الآدميين، وأن اليد كيد الآدمي، وهكذا، فاعتقادها مماثلة لما للمخلوقين هذا إلحاد في صفاته.

الصورة الرابعة: تعطيلها عن مراد الله. هذا إلحاد فيها لأنه ميل بها وعدول عما يجب اعتقاده، فإذا زعم بأن المراد بالوجه الثواب، أو المراد باليد النعمة أو القدرة، أو المراد بالمجيء مجيء أمره أو مجيء رحمته، فهذا ميل بها عما يجب اعتقاده، فهو ضرب من الإلحاد.

الصورة الخامسة: وصفه تعالى بصفات النقص والعيب كما وقع من اليهود . عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . حينما قالوا: { إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181]، وقولهم: إن الله يسأل القرض. وقولهم: إنه خلق السماوات في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع. وزعمهم بأن الله ندم وبكى، إلى غير ذلك مما يضيفونه إلى الله تعالى من صفات العيب والنقص، إذن كل ميل وعدول عما يجب اعتقاده في أسماء الله وصفاته فهو ضرب من الإلحاد، وقد يبلغ أحيانًا مبلغ الكفر، ككفر الجهمية الذين أنكروا الأسماء والصفات، وقد يكون دون ذلك كما وقع لدى أصحاب التعطيل الجزئي.

أما الإلحاد في آياته، فإنه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إلحاد في الآيات الكونية.

القسم الثاني: إلحاد في الآيات الشرعية.

لأن آيات الله نوعان: كونية، وشرعية، فآياته الكونية هي مخلوقاته، السماوات والأرض والجبال...إلخ وآياته الشرعية ما أنزله على أنبيائه من كتب تُتلى.

كيف يقع الإلحاد في آيات الله الكونية؟

يقع الإلحاد في آيات الله الكونية بنسبتها إلى غير الله، وادعاء مدبر لها سوى الله ، وهذا يقع من بعض الملاحدة . والعياذ بالله .، حينما يزعم أن الطبيعة هي التي أوجدت الكون، أو أن الطبيعة هي التي أبدعت هذه الصورة، أو

أن الطبيعة غضبت فنشأ عن ذلك زلازل وبراكين، نسمع هذا على ألسنة بعض الكُتّاب والإلحاديين، وما هذا إلا من نضح الإلحاد القائم على الكفر بالله وأنه الخالق المالك المدبر، فهذا نوع من الإلحاد المخرج عن الملة، بنسبة الأشياء إلى غير الله، أو نسبة تدبيرها إلى غير الله عز وجل، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله.

أما الإلحاد في آيات الله الشرعية فهو يكون بإنكارها وجحدها وهجر العمل بها ونحو ذلك، فإنكارها كأن يقول: هذا ليس كلام الله. وينكر نسبة الآية إلى كلام الله عز وجل ويجحد ما دلت عليه من المعاني وما تقتضيه من الأحكام، هذا ضرب من الإلحاد، أو يترك العمل بها.

إذن الإلحاد بنوعيه محرم، وقد يبلغ مبلغ الكفر بحسب درجته، فأهل السنة والجماعة بُرآء من هذا الإلحاد بنوعيه.

قال: وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ : لما أنكر الشيخ على المحرفين المعطلين بقوله: لا ينفون، لا يحرفون، لا يلحدون. وهذه الجمل الثلاثة تنصب على أهل التعطيل، انتقل إلى مقابليهم، وهم أهل التمثيل، فقال: ولا يكيفون ولا يمثلون. أي لا يكيفون صفات الله بصفات خلقه، فمن قال: كيفية نزول الله إلى سماء الدنيا كيت وكيت وكيت. فهو مكيف . والعياذ بالله . ومن قال: إن وجه الله مثل وجه المخلوق، أو سمع الله مثل سمع المخلوق. فهذا . والعياذ بالله . ممثل، وكلًّا من التكييف والتمثيل محرم شرعًا وممتنع عقلًا، فهو محرم شرعًا لتوالي الآيات وتكاثرها على منع التكييف والتمثيل، {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص: 4]، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى: 11]، {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ } [النحل: 74]، ونحوها، وهو ممتنع عقلًا لأنه لا يمكن أن يُقر العقل تسوية الإله الخالق الكامل من جميع الوجوه بالمخلوق المربوب الناقص من جميع الوجوه، هذا تأباه العقول، ولهذا كان التشبيه والتمثيل في الناس أقل من التعطيل، يعني الوقوع في شبهة التعطيل باسم التنزيه أكثر، بينما الوقوع في التمثيل والتكييف أقل، لأنه ظاهر الشناعة، وجميع الفطر السليمة، تستشنع تكييف الرب وتمثيله بالمخلوقين، لأنهم يعتقدون بفطرهم أن الإله الكامل لا يمكن أن يكون كالمخلوق الناقص، فلذلك يكون مذهب التمثيل مرفوضًا، أما التعطيل فإنه يسوغ باسم التنزيه، فيقع في حبائله كثير من الناس، والحق دومًا وسط بين طرفين وعدل بين عوجين.

قال: لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ: فهذه الجمل التالية بمنزلة التعليل لما تقدم من الجمل الخمس السابقة.

قال: لاَ سَمِيَّ لَهُ : أي لا أحد يستحق اسمه، لا أحد يساميه ويضاهيه ويستحق اسمه اللائق به حتى لو اتفق اللفظ، فلا يلزم من ذلك اتفاق المعنى، فالله تعالى لا سمي له، ودليلها قوله تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65]، وهذا استفهام نفي، وأي شيء يكون جوابه لا فهو استفهام نفي، { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم: 65]، لا، فهو نفي مشبع بالإنكار على من اعتقد ذلك.

قال: وَلاَ كُفْءَ لَهُ: أي لا مكافئ له، ودليله قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 4].

قال: وَلاَ نِدَّ لهُ: الند هو النظير والمثيل، لهذا قال الله: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 22].

وهذه الثلاثة ألفاظ متقاربة.

قال: ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهَ وَتَعَالَى : لأن من شرط صحة القياس اتفاق المقيس والمقيس عليه في العلة، بأن يكونا من جنس واحد، والله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى: 11]، وبالتالي لا يقاس بخلقه سبحانه وبحمده، لكن اعلموا أن القياس المقصود هاهنا هو قياس التمثيل وقياس الشمول، أما قياس الأَوْلى فإنه يُثبت في حقه، **والقياس ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: قياس التمثيل. بأن تقول: هذا مثل هذا. أي مطابق له، فهذا يُنزه الله تعالى عنه ويبرأ.

النوع الثاني: قياس الشمول. وهو أن يشترك المقيس والمقيس عليه في قضية عامة شاملة، يكونان أحد أفرادها.

النوع الثالث: قياس الأَوْلى. وهذا يثبت لله تعالى، والمقصود أنه ما من كمال إلا ولله منه المثل الأعلى، ولله منه القدر الأعلى، فمثلًا: العلم، الحلم، القدرة، الحكمة، السمع، البصر، الحياة، هذه المعاني لدى المخلوقين، وهي أيضًا ثابتة لله، لكن إثباتها لله تعالى إثبات مثلٍ أعلى، أي لله تعالى منها المثل الأعلى، فالله الذي قال: { إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } [الإنسان: 2]، هو الذي قال: { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ } [الإسراء: 1]، فهناك اشتراك في أصل الصفة وهو السمع والبصر، لكن للمخلوق منه المثل الأدنى، وللخالق منه المثل الأعلى، فليس سمع كسمع، ولا بصر كبصر، مع وجود الاشتراك في أصل المعنى، فهذا هو قياس الأَوْلى الذي كان يُثبته السلف، وتجد أنهم في حِجاجِهم يقولون: إذا كان المخلوق كذا وكذا، فالله أولى بكذا وكذا. ويسمى: قياس الأَوْلى، وكل كمال يكون للمخلوق فلله منه المثل الأعلى، سبحانه وبحمده، فهذا النوع من القياس نُثبته، وهو قياس الأَوْلى، وواهب الكمال أولى بالكمال، معطي الكمال أولى بالكمال، فإذا كان الله وهب سمعًا وبصرًا وعلمًا وقدرة وحياة وغير ذلك من الكمالات، فواهب الكمال أولى بالكمال، وله منه المثل الأعلى، لا مثل ما وهب، بل الغاية فيه، ولهذا قال الله: { وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الأعراف: 180]: أي البالغة في الحسن غايته.

قال: فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ : هذه جملة تعليلية أخرى، وهي مسوغات قبول ما أخبر الله به عن نفسه، وما وصف به نفسه، لما ذكر ما تقدم من أن أهل السنة لا ينفون ولا يُلحدون ولا يُحرفون ولا يكيفون ولا يمثلون، بل يقبلون ما جاء عن الله وما وصف نفسه، وعلل ذلك بقوله: فإنه سبحانه أعلم بنفسه.

قال: فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ : إذا كان هو سبحانه هو الذي أخبر عن نفسه بصفات الكمال ونعوت الجلال وأضاف إلى نفسه هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى، فذلك صادر عن علم، هو أعلم بنفسه، من أنت تأتي في آخر الزمان لتقول: يجوز على الله كذا، ويمتنع على الله كذا. وتصادم خبر الله وخبر رسوله! الله أعلم بنفسه، { قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} [البقرة: 140].

قال: وَأَصْدَقُ قِيلًا: ربما قال قائل: صحيح، العلم حاصل، لكن لا بد من التوثق من صدق القول. فالله تعالى حاشا وكلا أن يكون في كلامه ما لا يطابق الواقع، فهو منزه سبحانه عن الكذب، هو أصدق قيلًا، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: 122]، لا أحد، فلا أحد أصدق من الله قيلًا، فما أخبر به سبحانه في كتابه فهو عين الحق، عين الواقع، فليس لأحد أن يفتات على كلام الله ويقول: لا، ليس المراد بـ{ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر: 22] أن الرب يجيء، المقصود وجاء أمر ربك. سبحان الله! أأنت أعلم بالله من الله؟! أأنت أصدق من الله قيلًا؟!.

قال: وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ : ربما قال قائل: الأمر يتعلق بالبيان والفصاحة. قلنا: لا أحد أحسن من الله حديثًا. كلامه غاية في البيان، القرآن موصوف بأنه بيان وتبيان ومبين ويبين، كل الاشتقاقات المتعلقة بهذه المادة قد وصف بها القرآن، فالله أحسن حديثًا.

فهذه مسوغات قبول الخبر، ما الذي يجعلني أقبل خبرًا من الأخبار؟ . دعك من خبر الله . إذا علمت أن المخبِر عالم وصادق ومُبين فصيح فإني أقبل الخبر، **لكن الذي يجعلني أرد الخبر**:

١) أن أعرف أن هذا المخبِر غير عالم، جاهل، فأرد الخبر.

٢) إذا علمت بأنه عالم لكنه كذوب، فأقول: صحيح، هو عالم، لكن ربما أخبرني بخلاف علمه. فأرد علمه، أما إذا علمت أنه عالم وصادق فينبغي أن أقبل

٣) ربما قال قائل: نعم، هو عالم وصادق، لكنه عييّ، فيه فهاهة، يريد أن يقول: أسود. فيقول: أبيض. ويريد أن يقول: طويل. فيقول: قصير. ومن الناس من يكون هكذا، فلا يُحسن أن يُعرب عما في خاطره، تكون فيه فهاهة، فإذا انتفى هذا وعلمنا بأن المخبِر فصيح بيّن يعرف ماذا يريد انتهى وقبلنا الخبر.

كذلك ثَمّ أمر رابع: وهو أن يكون ليس عنده غش ولا تدليس، بمعنى أن يكون ناصحًا، وكل المراتب الثلاثة السابقة . وصادق ومُبين فصيح . في حق الله تعالى وحق نبينا صلى الله عليه وسلم، ونُضيف في حق النبي صلى الله عليه وسلم أنه أنصح الأمة للأمة، فهو أعلم بربه، وأصدق كلامًا، وأوضح بيانًا من سائر الناس، وأنصح الأمة للأمة، لا يقصد الغش ولا التدليس ولا التغرير بالناس، فكل ذلك يدعو إلى قبول الخبر، فأين تذهبون يا معشر المعطلة والمتكلمين؟.

الدرس (6)

الجمع فيما وصف الله به نفسه بين النفي والإثبات

📖قال المؤلف –رحمه الله–: ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون ، بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: 180– 182]. فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلاَمَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

تأملوا حسن ترتيب المؤلف، فلما ذكر أن الله سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه أوقفنا الآن على قاعدة صُلبة في قبول خبر الله، لكن ها هنا وصلة بيننا وبين كلام ربنا، فالواسطة بيننا وبين الله في التبليغ هم الرسل الذين نزل عليهم الوحي، فأراد أن يوثّق هذه الحلقة، حتى لا يدَّعي مدع بأن هذه الحلقة نقطة ضعف في الاتصال.

قال: ثُمَّ رُسُلُه: الرسل نوعان:

النوع الأول: رسول بشري.

النوع الثاني: رسول ملكي.

قال تعالى: { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ } [الحج: 75]، فزكاهم الله تعالى، فقال عن الرسول الملكي: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ } [التكوير: 19- 21]، ثم قال: { وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ } [التكوير: 22]، فزكى الرسول البشري، وزكاه أيضًا في سورة الحاقة بقوله: { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } [الحاقة: 40- 42]، فنفى عنه الكهانة والشعر التي يُزخرف بها القول، وبيّن أن مصدره أصيل، وأنه ثابت، ولهذا قال: { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (44) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ } [الحاقة: 44- 46]، فلا يمكن أن يقر الله تعالى أحدًا يكذب عليه وينسب إليه الباطل، ولو جرى . وحاشا . لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، ولهذا كانت هذه من أقوى دلائل النبوة، فأثبت بأن الواسطة بيننا وبين ربنا واسطة ثابتة قوية ليس فيها مجال للتشكيك.

قال: صَادِقُونَ: أي فيما يُخبرون به.

قال: مصدوقون: أي فيما أُخبروا به.

قال: مُصَدَّقُون: أي أُخبروا بالصدق.

قال: بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ : القول على الله بغير علم من أعظم الذنوب، كما قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [الأعراف: 33]، جعل هذا من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى، حتى جعل هذا فوق الشرك، فالقول على الله بغير علم من أعظم الطوام، والقائلون على الله بغير علم أصناف كثر، منهم الأفَّاكون الكذابون، ومنهم المنجمون، ومنهم السحرة، ومنهم الكهان، ومنهم المتنبئون الكذابون الذين يزعمون أنهم ينزل عليهم وحي من السماء، ومنهم أيضًا هؤلاء المتهوكون الذين يحرفون الكلم عن مواضعه في باب العقائد ويقولون: ليس المراد كذا وكذا، بل المراد به كذا وكذا. فهل عندكم أثارة من علم؟ هل عندكم دليل على ما تدعونه؟ فهذا قول على الله بغير علم، ولو سألت أحدًا من المتكلمين: من أين لك أن استوى بمعنى استولى؟ من أين لك أن الوجه بمعنى الثواب؟ من أين لك أن اليد بمعنى القدرة أو النعمة؟ أعندك أثارة من علم؟ هل تروي في ذلك حديثًا واحدًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو عن

صاحب، أو عن تابع؟ لم يجد أبدًا، ولا يدعيه، ولو كان عندهم شيء من ذلك ما ادخروه، لكنهم يقولون: نحن نجتهد في أن نبحث عن المعاني اللائقة بالله، سبحان الله! أأنتم أغير على الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تدَّعوا أن هذا من باب البحث عن المعاني؟ ألم يكن الله أعلم بنفسه وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا؟! فهذا ضرب من القول على الله بغير علم، فلهذا قال الشيخ: بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون.

قال: وَلِهَذَا قَالَ: {سُبْحَانَ رَبِّكَ}: اسم فعل بمعنى تنزيهًا لله.

قال: {رَبِّ الْعِزَّةِ}: هذا من إضافة الموصوف إلى الصفة، والعزة بمعنى الغلبة والامتناع، لأن الله تعالى عزيز في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، فله العزة المطلقة سبحانه: عزة الامتناع، وعزة الغلبة، وعزة القدرة، وأصل معنى العزة: تقول العرب: أرض عزاز. أي شديدة، ولا زال الناس إلى زماننا هذا يقولون: أرض عزة. من نفس الاشتقاق، وهي الأرض الصلبة القوية المتماسكة.

قال: {عَمَّا يَصِفُونَ}: أي عما يصفه به مخالفو الرسل.

قال: {وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ}: هذا دعاء لهم بالسلامة وتزكية لهم وثناء عليهم.

قال: { وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }: ابتدأ بالتنزيه، وختم بالتحميد، لأن الحمد وصف لله بصفات الكمال، فجمعت الآية التنزيه والتحميد، [وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض].

قال: فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ : فالمخالفون للرسل تارة يصفونه بصفات العيب أو النقص أو مماثلة المخلوقين، كما قالوا: {عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: 30]، {الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: 30]، الملائكة بنات الله. أو بتعطيله عما ينبغي له من الصفات والأسماء الحسنى.

قال: وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ : لقوله: [وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ] [الصافات: 181]: والسلام إما حكم لهم بالسلامة، أو تحية لهم.

قال: لِسَلامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ : فتعين الصيرورة إلى ما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم وعدم الالتفات إلى شيء سوى ذلك.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ.

فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ.

قال: وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ : أشار –رحمه الله– إلى ضابطٍ أو قاعدةٍ من قواعد الأسماء والصفات، وهو أن الله تعرف إلى عباده بالنفي والإثبات، والنفي معروف، والإثبات معروفٌ في اللغة، الإثبات أمرٌ وجودي، والنفي أمرٌ عدمي، وأي قضية من القضايا لا تتبين إلا بإثبات عنصرها ومضمونها، ونفي ما ينافيها، فلأجل ذا ربنا سبحانه وبحمده تعرف إلى عباده بهذين الأسلوبين، تارةً بذكر الأسماء والصفات الثبوتية، وتارةً

بنفي ما يُنزَه عنه سبحانه من صفات النقص، أو العيب، أو مماثلة المخلوقين، لهذا قال: **قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ**. والواقع أن هذا الأسلوب أسلوبٌ مطلوب في كل شيء، فإنك لا تتمكن من معرفة حقيقة شيء من الأشياء إلا بالجمع بين النفي والإثبات، فلو أنك مثلًا أردت أن تشتري سلعةً ما، كجهاز حاسب، أو جوال، أو غير ذلك، فإنك تسأل عن مميزاته، فيقال لك: هو كذا، وهو كذا، وهو كذا. من المزايا، ثم يُردف ذلك بذكر الأشياء التي لا تحسن فيه، ولا يحسن فيه كذا، ولا يحسن كذا، كذلك مثلًا لو تقدم إنسانٌ إلى عمل، أو تقدم شابٌ لخطبة فتاة، أو نحو ذلك، تجد أنه يُسأل عن الصفات الوجودية، وهي الصفات الثبوتية، وعن الصفات العدمية، فيقال مثلًا: هو كذا، وهو كذا، وهو كذا. من الصفات الماثلة فيه، وليس بكذا، وليس بكذا، وليس بكذا.

فلا تكتمل المعرفة إلا بالجمع بين النفي والإثبات، فلما علم الله تعالى من حال عباده أنه لا يحصل لهم العلم، إلا بالجمع بين الأمرين، تعرف إلى عباده بالنفي والإثبات، فتارةً يثبت لنفسه أسماء الكمال وصفات الجلال، وتارةً ينزه نفسه عن صفات النقص والعيب، ومماثلة المخلوقين، وتارةً يجمع بين الأسلوبين في نصٍ واحدٍ كما سيتبين في الأمثلة.

قال: قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ : الواقع أن الأسماء كلها ثبوتية، وليس هناك أسماء منفية، الأسماء كلها ثبوتية، أما الصفات فهي التي تنقسم إلى صفاتٍ ثبوتية، وصفاتٍ منفية، فيقال الصفات الثبوتية: العلم والإرادة والقدرة، والسمع والبصر. والصفات المنفية أضدادها، كالجهل والعمى والصمم وغير ذلك من صفات النقص، ففي العبارة شيءٌ من الإجمال، فإن قوله: **جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ** . النفي والإثبات يتعلق بالصفات، أما الأسماء فإنها كلها ثبوتية.

قال: فَلاَ عُدُولَ: أي لا ميل.

قال: لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛: لأنهم على خطاهم يسيرون.

قال: فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ : يعني ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم، وما معنى الصراط؟ الصراط هو الطريق الواضح، فإنه الصراط المستقيم، فهو واضح مستقيم، جمع بين الوضوح والاستقامة، وهو الذي ندعو الله تعالى في كل صلاةٍ، أن يهدينا إليه، { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة: 6]، هذا هو الصراط المعنوي، ومن استقام في الدنيا على الصراط المعنوي، كان حقيقًا وحريًا يوم القيامة أن يستقيم على الصراط الحسي، الذي يُضرب على متن جهنم، ومن كان في هذه الحياة الدنيا سريعًا مبادرًا للخيرات في الصراط المعنوي، كان يوم القيامة حقيقًا وحريًا أن يكون سريعًا على الصراط الحسي، الذي يُضرب على متن جهنم، سواءً بسواء.

صراط من؟ أضافه إلى سالكه، فالشيء قد يضاف إلى الله، وقد يضاف إلى خلقه، فيقال: { صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } [الشورى: 53]، باعتبار أن الله هو الذي نصبه، وقد يضاف إلى سالكيه كقوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } [الفاتحة: 7]، فالإضافة تكون لعدة اعتبارات، فتارةً يضاف الصراط إلى الله، لكون الله هو الذي نصبه لعباده، { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ }

[الشورى: 52، 53]، وتارةً يضاف إلى سالكيه؛ لأنهم هم الذين مشوا فيه، كقول الله تعالى: { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 7]، بهذا عرفه هنا بالثاني.

قال: صِرَاطُ الَّذِينَ: لماذا جعل هنا الرفع؟ لأنها بدل؛ لأنه قال: فإنه الصراط. فكانت خبر إن، وجاء صراط بدلًا عنها، والبدل يتبع المبدل.

قال: صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ : هؤلاء هم أطباق المنعم عليهم، الذين ذكرهم الله تعالى في سورة النساء بقوله: { فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً}[النساء: 69]، فلا تخرج أيها المؤمن عن هؤلاء، قال: { وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا } [النساء: 69]: وهو المعنى الذي قصده النبي صلى الله عليه وسلم عندما قبضت روحه، كان يشير بيده يقول: [إلى الرفيق الأعلى]، فأعلى هذه الطبقات هم النبيون، وهي منحة ربانية واصطفاء إلهي، لا سبيل للحصول عليه، بمعنى أن النبوة مقام لا يُنال بالتكسب، ولا بالرياضة، ولا بالمجاهدة، وإنما هو محض اصطفاء من الله: { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: 75]، {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: 124]، وقد خُتم هذا الباب ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال الله: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } [الأحزاب: 40]، فهذه أعلى الطبقات، وأنبياء الله هم أنفسهم يتفاضلون: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [البقرة: 253]، فأفضل الأنبياء والمرسلين هم الخمسة أولو العزم من الرسل، الذين ذكرهم الله مجتمعين في موضعين في كتابه: في سورة الأحزاب، وفي سورة الشورى، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

وأفضل هؤلاء الخمسة هو محمد صلى الله عليه وسلم، (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)[1]، يليه في الرتبة إبراهيم أبوه عليه الصلاة والسلام، خليل الرحمن، وكلاهما خليلان للرحمن، ثم يليهما في الرتبة موسى عليه السلام، ثم اختلف في نوحٍ وعيسى أيهما يُقدم؟ فإذن محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى، على خلافٍ في أيهما أفضل من الآخر؟ ثم بقية أنبياء الله، والله تعالى يفاوت في الفضل، لكن الفضل موجود {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [البقرة: 253].

فإن قال قائل: فما موقفنا من النصوص الواردة في النهي عن المفاضلة والتخيير بين الأنبياء، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ) [2]، وقوله: [لا تفضلوني على يونس بن متى]؟. فيقال: إن هذا النهي فيما إذا وقع على سبيل المفاخرة المجردة، أو على سبيل التنقص والعيب للطرف الآخر، أما إذا كان على سبيل حكاية الحال، فلا شك أن الله قد قابل بين أنبيائه ورسله.

قال: الصِّدِّيقِينَ: الطبقة التالية هم الصدِّيقون، والصديقون جمع صديق، وهي صيغة مبالغة، والمقصود بالصديق: الذي بلغ الغاية في التصديق؛ لأن التصديق درجات، ليس التصديق كما تزعم المرجئة شيءٌ واحد، إما أن يُوجد كله، أو

[1] صحيح مسلم (2278).

[2] صحيح البخاري (2412).

يُعدَم كله، لا، الناس ليسوا سواء في التصديق، من الناس مَن تصديقه كالجبال الراسيات الراسخات، ومنهم من تصديقه على مهب الريح، ربما لو عرضت له فتنة لعصفت به، فليس التصديق سواء، ولهذا سمي أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ صديقًا لقوة تصديقه، ويُقال: إنه سمي بذلك لما وقع حادث المعراج، الإسراء والمعراج، فجاءت قريش إليه، وقالت: إن صاحبك يزعم أنه أتى مسجد إيلياء في ليلة واحدة، ونحن نضرب إليه أكباد الإبل شهرًا ونعود شهرًا. فقال: إن كان قد قال فقد صدق. لم يقل: اصبروا انتظروا أروح أسأل أتبين. قال على الفور: إن كان قاله فقد صدق، فإني أصدقه في خبر السماء يأتيه في المجلس الواحد. أو كما قال، فسمي صديقًا.

ومما يدل على صديقيته وصديقية عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم حدث مرةً فقال: (بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ)، سبحان الله بقرة تكلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، -وَمَا هُمَا ثَمَّ- وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ، فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لاَ رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي " فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: «فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، -وَمَا هُمَا ثَمَّ)[1]، حكم غيابي لعلمه بأنهما يصدقان ما يخبر به، فلهذا نقول: إن التصديق درجات ومراتب ومنازل، يتفاوت الناس فيه تفاوتًا كبيرًا، فلهذا {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ } [إبراهيم: 27]، فكلما كان العبد قوي الإيمان، راسخ التصديق، فإنه حينما يسائله الملكان في قبره: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ يكون على هذا جوابه، فأما المؤمن فيقول: ربي الله، والإسلام ديني، ونبيي محمد. وأما الكافر، أو المرتاب، أو الشاك فتعلوه هزة، ويقول: هه، هه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. كان قد سمع، لكنه لم يتغلغل ويتجذر في قلبه.

قال: الشُّهَدَاءِ: الطبقة الثالثة: الشهداء، وهي جمع شهيد، والشهيد من قُتل في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، ولهذا لما كان هذا أمرًا خفيًا لا يطلع عليه إلا رب البريات سبحانه وبحمده، نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقال: فلانٌ شهيد. لأننا لا نعلم عن خبيئة قلبه، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التعيين: فلان شهيد. لأننا لا نعلم، هل قاتل رياءً؟ هل قاتل سمعةً؟ هل قاتل شجاعةً؟ هل قاتل حميةً؟ هل قاتل ليُرى مكانه؟ أم قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؟ فلهذا عرَّف النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقول: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)[2]، ولا شك أن الجود بالنفس، أقصى غاية الجود، فإذا كان الإنسان يجود بنفسه لله، فهذه مرتبةٌ عليا، تدل على كمال صاحبها وعلو مرتبته، فلهذا تكاثرت الأحاديث في فضل الشهادة في سبيل الله، وهي فعلًا شهادة لله تعالى؛ لأنه جاد بروحه، وعفَّر وجهه بالتراب لإعلاء كلمة الله، مما يدل على أنه يشهد لدين الله بأنه هو الحق، فلهذا سمي شهيدًا.

[1] صحيح البخاري (3471).

[2] صحيح البخاري (123)، صحيح مسلم (1904).

قال: الصَالِحِينَ: أما الطبقة الرابعة: فهي طبقة الصالحين، والمقصود بالصالحين جمع صالح، وهو الممتثل لأمر الله، المجتنب لنهيه، هذا هو الصلاح، وضده الفساد، فالصالحون هم الممتثلون لأوامر الله، المجتنبون لمناهيه.

فعلى العبد المؤمن أن يختار لنفسه، ويطمح إلى إحدى المراتب الثلاث: الصديقية، أو الشهادة، أو الصلاح، هذه مراتب المؤمنين، ويسأل الله تعالى أن يلحقه بالمنعَم عليهم: { فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69].

الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من القرآن الكريم: هذه العنوانات ليست من كلام شيخ الإسلام.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيثُ يَقُولُ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص:4].

قال: وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ: الإشارة إلى ماذا في قوله: هذه الجملة؟ يعني الجمع بين النفي والإثبات، ما تقدم من ذكر الجمع بين النفي والإثبات، دخل فيها ماذا؟ المثال الأول، وهي سورة الإخلاص، سورة الإخلاص لم سميت بهذا الاسم؟ قيل: إنها سميت بهذا الاسم؛ لأنها أخلصت في وصف الرحمن. فهي من أولها إلى آخرها خالصة في صفة الله، ولهذا لما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: انسب لنا ربك. أنزل الله تعالى سورة الإخلاص[1]، وكذلك أيضًا قيل: إنها سميت سورة الإخلاص؛ لأنها تخلص قارئها من الشرك. وبالفعل إذا قرأ الإنسان سورة الإخلاص وكررها، تجرد قلبه من الشوائب، وأرشد النبي صلى الله عليه وسلم من علق في نفسه شيء من الشبهات ووساوس الشيطان أن يقول: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فإذا أطاف بنفسك شيء من الشبهات المتعلقة بذات الباري سبحانه وتعالى، فافزع إلى هذه السورة، قل: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد؛ فإنها تنقي قلبك من هذه الخطرات الشيطانية، والواردات المذمومة، إذن هذا هو سبب تسميتها بسورة الإخلاص للسببين.

قال: الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ: من أين لنا ذلك؟ من كلام مَن لا ينطق عن الهوى، فقد عن أبي سعيد الخدري، أن رجلا سمع رجلا يقرأ: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} يرددها، فلما أصبح، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عَلَيه وسَلم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)[2]، وقال في حديثٍ آخر: (احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ) فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ: قل هو الله أحد، ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء فذاك الذي أدخله، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال:: (إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)[3]، إذن الذي أخبر بهذا نبينا صلى الله عليه وسلم.

---

[1] سنن الترمذي (3365).

[2] صحيح البخاري (5013).

[3] صحيح مسلم (812).

الأمر الثاني: لماذا؟ أو ما وجه كونها تعدل ثلث القرآن؟ لماذا استحقت هذا الوصف؟ الجواب عن هذا أن يقال: إن القرآن العظيم، إما عقائد أو أحكام أو أخبار. من تأمل القرآن بمجمله، فيجد أنه لا يخرج عن أحد هذه الأبواب الثلاثة، إما أنه عقائد، معتقد، وإما أخبار، كالذي جرى بين الأنبياء وأممهم، أو أحكام في الحلال والحرام، فكانت سورة الإخلاص تتعلق بالثلث الأول، بل هي أسه وأصله، فلهذا كانت تعدل ثلث القرآن، فجميع ما في القرآن من عقائد يؤول إليها؛ لأنه مرجوعه إلى التوحيد العلمي، هذا وجه كونها تعدل ثلث القرآن.

هل هي تعدل ثلث القرآن في الإجزاء، أم في الأجر والثواب؟ الثاني، لا في الإجزاء، يعني بمعنى لو أن إنسانًا نذر أن يختم القرآن، فقال: الحمد لله، إذن أقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات فأكون وفيت بنذري. نقول: كلا، هي لا تعدله في الإجزاء، لا يجزئك إلا أن تقرأ القرآن، ما بين دفتي المصحف. لكنها تعدله في الثواب والأجر، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ينطبق على أمثالها من النصوص، يعني مثلًا قد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ ذَلِكَ، حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ)[1]، فقال: أنا عليَّ كفارة قتل خطأ، وكفارة ظهار، وكفارة يمين، وكفارة جماع في نهار رمضان، أقول: لا إله إلا الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عشر مرات، وتبرأ ذمتي. يستقيم؟ لا يستقيم، يقال: إنها تعدل في الأجر، لا في الإجزاء. وعلى هذا قس.

لنتأمل في هذه السورة العظيمة، كيف جمعت بين النفي والإثبات؟.

قال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ إثبات، إثبات وحدانية الله، فالله أحد، واستدللنا بهذا على أن أحد من الأسماء الحسنى، فيجوز أن يُعبّد به، فنقول: عبد الأحد، { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص: 1]، إذن أثبتت وحدانية الله تعالى.

قال: {اللَّهُ الصَّمَدُ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ إثبات، أثبتت صمدية الله سبحانه وتعالى، أو صمدانيته سبحانه وبحمده، وما معنى الصمد؟ **الصمد قيل في معناها أقوال لا تعارض بينها:**

القول الأول: قيل: إن الصمد هو من تصمد إليه الخلائق بحاجاتها. من تصمد له الخلائق بحاجاتها، بمعنى أنها تتوجه إليه بحاجاتها، وهذا هو الحال بالنسبة لله، فالله تعالى يدعوه من في السماوات ومن في الأرض، الجميع يتوجه إلى الله سبحانه وبحمده، تأمل حال الناس يوم عرفة، الجميع رافعٌ يديه يبكي ويسأل ويتضرع، يسأل الله تعالى طلبته، والله يصمد، يسمع جميع الدعوات، على اختلاف اللغات واللهجات لمختلف الحاجات، ويجيب دعوة الداعي سبحانه وبحمده، لهذا كان صمدًا، فهذا أحد المعاني للصمد، من تصمد إليه الخلائق بحاجاتها.

[1] صحيح البخاري(3293)، صحيح (2691).

القول الثاني: قيل: الصمد أي الذي لا جوف له. لأن الصمد بمعنى الصمت، فالمصمد هو المصمت، ووجه ذلك أن الله سبحانه وبحمده غنيٌ عما سواه، فالذي له جوف فيه شيءٌ يدخل وفيه شيءٌ يخرج، فيكون غير مستغنٍ، أما الرب تعالى فإنه صمد بمعنى أنه صمت لا يحتاج إلى شيء داخل وشيء خارج، الآدميون يحتاجون إلى أفواهٍ يدخل منها الطعام والشراب، وإلى مخرج للفضلات؛ لأنهم بحاجة، لهذا ورد في الحديث: أن الله لما خلق آدم من صلصالٍ كالفخار، جعل الشيطان يطيف به، مستريبٌ في أمره، فلما رآه أجوف، علم أنه خلقٌ لا يتمالك، يعني أنه ضعيف، فالله تعالى صمد، فقول بعض المفسرين: لا جوف له. المقصود بذلك أنه مستغنٍ عما سواه، لا يحتاج سبحانه إلى شيء.

القول الثالث: قيل: معنى الصمد أي السيد الشريف الذي بلغ الغاية في سؤدده وشرفه.

ولا تعارض بين هذه الأقوال كما أسلفنا، فالله تعالى هو السيد الشريف الذي تصمد إليه الخلائق بحاجاتها، وهو غنيٌ عما سواه سبحانه وبحمده.

قال: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ نفي، نفى قضيتين: الولادة من الطرفين، من أعلى ومن أسفل، يعني نفى التسلسل من جهة الأعلى ومن جهة السفل، فهو سبحانه لم يلد، فلا يتسلسل منه مولود، كما ادعى اليهود بقولهم: عزير ابن الله. والنصارى بقولهم: المسيح ابن الله. ومشركو العرب بقولهم: الملائكة بنات الله. تعالى الله عن ذلك، وهذا وهمٌ وخاطرٌ يطرأ على العقول، يظنون أن من كمال الله أن يكون له ولد، قياسًا على المخلوقين، والأمر ليس كذلك، المخلوق يحتاج إلى الولد؛ لأنه في حال كبره وضعفه يحتاج إلى من يعينه، أما الرب سبحانه فهو غنيٌ عما سواه، فهو لا يحتاج إلى الولد.

أيضًا من شأن الولد أن يكون شبيهًا بأبيه، والله تعالى لا ند له ولا نظير ولا مثيل، {ليس كمثله شيء}، فلو كان له ـ وحاشاه ـ ولد، لكان الولد من جنس أبيه، هذا طبيعي، فلأجل ذا نزه الله نفسه عن الولد، فلكمال وحدانيته لا ولد له، {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ } [الفرقان: 2]، فعاب الله تعالى على مدَّعي ذلك فقال: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ } [التوبة:30]، وذلك أن الأمم الكافرة من الهندوس واليونان وغير ذاك عندهم قضية تعدد الآلهة، فهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [التوبة: 30]، سبحانه وبحمده.

أيضًا لم يولد سبحانه، فليس متسلسلًا عن غيره، والواقع أنني لا أعلم قائلًا بأن الله تعالى متولدٌ عن كذا وكذا، لكن ذلك في الآية لكمال القسمة، لنفي التسلسل من الجهتين، من جهة العلو ومن جهة السفل، يعني من الأعلى والأدنى، لكي لا يبقى أي باقية وأي احتمال يتنافى مع وحدانية الله سبحانه وبحمده، {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} [الإخلاص: 3].

قال: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ نفي، إذن آيتان في الإثبات، وآيتان في النفي، ما معنى: { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 4]؟ أي ليس له مكافئ سبحانه، ليس له من يكافئه ويعادله سبحانه وبحمده.

ولهذا كانت هذه السورة فيها من تعظيم الرب وتنزيهه والتعريف به، ما لا يوجد في غيرها، فينبغي الإكثار منها وتلاوتها، وورد فيها فضائل خاصة مبسوطة في كتب التفسير والسنة.

الدرس (7)

الجمع بين النفي والإثبات (2)

قال المؤلف –رحمه الله–: وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [البقرة: 255]، {وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا }: أي لا يكرثه ولا يثقله، ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلةٍ، لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح.

هذا هو المثال الثاني في قاعدة الجمع بين النفي والإثبات فيما وصف وسمى به نفسه.

قال: وَمَا: الواو هذه عطف على قوله: وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه. أي وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه. من أين لنا أن هذه هي أعظم آية في كتاب الله؟ ففي الحديث الصحيح عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟)، فقلت: الله ورسوله أعلم، قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ)[1] ، يعني هنيئًا لك العلم أبا المنذر، فقد كان من فقهه أن رأى أن هذه الآية أعظم آية في كتاب الله، فأقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وهنأه، فلو تأملنا في هذه الآية العظيمة لوجدناها مكونة من عشر جمل، وهي تدور حول النفي والإثبات، تأملوا معي

قال: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}: لا إله إلا هو، نفيٌ وإثبات؛ لأن كلمة التوحيد لا إله إلا الله نفيٌ وإثبات، فلا إله: نفي، إلا الله: إثبات، فقد نفى الله تعالى كل آلهةٍ سواه، وأثبت الألوهية له وحده، وقد تقدم معنا أن معنى الإله هو من تألهه القلوب محبةً وتعظيمًا، الإله من تألهه القلوب يعني تنجذب إليه محبةً وتعظيمًا، فلا إله إلا الله، الله لا إله إلا هو، هذا أعظم تعريف يمكن أن نعرف به هذا الاسم الشريف، إذا قيل: ما الله؟. يقال: لا إله إلا هو. إذن هذه الجملة الأولى متضمنة الجمع بين النفي والإثبات.

قال: {الْحَيُّ الْقَيُّومُ}: هذه الجملة الثانية، نفيٌ؟ أم إثبات؟ إثبات، وقد أثبت في هذه الجملة اسمين كريمين وهما: الحي

[1] صحيح مسلم (810).

والقيوم، فمن أسماء الله الحسنى الحي، والحي هو من له الحياة التامة الكاملة، فحياة الله تعالى غير مسبوقةٍ بعدم، ولا يلحقها فناء.

قد يطلق اسم الحي على غير الله، كقول الله تعالى: { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ }[يونس: 31]، فيمكن أن يطلق على غير الله الحي، كما نقول مثلًا: الأشجار هذه من الأحياء، أو غيرها من الحيوانات. يطلق، أنت يقال عنك: حي. لكن فرقٌ بين حياة وحياة، حياتك وحياتي وحياة كل حي مسبوقة بعدم، ويلحقها فناء، قال: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} [مريم: 9]، ويلحقها فناء: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: 16]، فلا يجيبه أحد {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16]، هكذا حياة المخلوقين، أما حياة الربِ سبحانه فهي حياةٌ كاملةٌ تامة، غير مسبوقة بعدم ولا يلحقها فناء.

أيضًا هو القيوم، ما معنى القيوم؟ القيوم أي القائم بنفسه المقيم لغيره، القائم بنفسه بمعنى أنه سبحانه وبحمده غنيٌ عما سواه، مستغنٍ عما سواه، لا يحتاج إلى شيءٍ من خارجه، فهو لا يستكثر بخلقه من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة، سبحانه وبحمده، وأيضًا مقيم لغيره، فلا قيام لشيءٍ إلا بالله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ } [الروم: 25]، فالعرش فما دونه لا قيام لهم إلا بالله، { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا } [فاطر: 41]، فلا قيام لشيء إلا بالله عز وجل، ولهذا قال من قال: إن هذين الاسمين هما اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. وقد وردا مقترنين في ثلاثة مواضع في القرآن:

الموضع الأول: هذا الموضع آية الكرسي.

الموضع الثاني: في مستهل آل عمران: {الم (1) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: 1، 2].

الموضع الثالث: في طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: 111].

وقيل: إن سبب كونهما اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، أنهما دالان على مجموع الصفات الذاتية والفعلية. فاسمه الحي يدل على اتصافه بالصفات الذاتية الملازمة لذاته سبحانه، فحياته كاملة فيها جميع الصفات المستلزمة للحياة من السمع والبصر والإرادة والعلم والكلام وغير ذلك، فالحياة التامة الكاملة مستلزمة لهذه الصفات الأخرى، والقيوم يدل على صفاته الفعلية؛ لأن القيوم من يقيم غيره، فهو سبحانه الفعال الخلاق الرزاق، فاجتماع هذين الاسمين يدل على كمال الله تعالى في أسمائه وصفاته الذاتية والفعلية.

قال: {لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ نفي، نزه الله تعالى نفسه عن هذين الحالين: السنة والنوم، أما السنة فهي النعاس، النوم الخفيف، وأما النوم فهو أثقل من ذلك، فالله تعالى قد نزه نفسه عن قليله وكثيره، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُهُ)[1]، فهو سبحانه وتعالى منزهٌ عن النوم، النوم ناتج عن ضعف، نحن الآدميين مهما أرق الإنسان لا بد أن ينام، لا بد أن يتهاوى بدنه ويضعف ذهنه، فيخلد إلى

[1] صحيح مسلم (295).

الراحة، شاء أم أبى، لكن الرب عز وجل منزهٌ عن هذا الضعف، فلهذا لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، ولا ينبغي، كما جاء في أثر أن موسى بن عمران سأله قومه فقالوا: يا نبي الله! أينام ربك؟. فقال: اتقوا الله، ولا تكونوا من الجاهلين. استعظم هذا السؤال منهم، قالوا: نريد آية أو علامة على ذلك. فأوحى الله تعالى إليه أن يا موسى إذا كان من الليل فقم بجرتين، خذهما معك وأنت تصلي، فقام عليه الصلاة والسلام يصلي، فغلبه النعاس، فاصطكت يداه وانكسرت الجرتان، كما جاء في الأثر، فأوحى الله إليه أن يا موسى أينبغي لمن يمسك السماوات والأرض أن تزولا أن ينام؟. يعني لو كان كذلك. وحاشاه. لفسد أمر السماوات والأرض؛ لأن قيامهما يحتاج إلى حياةٍ تامة، لا يلحقها سنة ولا نوم.

قال: { لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ }: نفيٌ؟ أم إثبات؟ إثبات، لاحظوا كيف يجمع الله بين النفي والإثبات؟ فهو سبحانه وتعالى له الملك المطلق، له ما في السماوات وما في الأرض، إذن إذا قلت أنت: بيتي وسيارتي ومالي. فهذه ملكية مؤقتة، {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [مريم: 40]، الله خير الوارثين، الله يرث كل شيء، فملكك ملك نسبي، وإن صحت إضافته إليك، وتمليكك إياه، لكنه مؤقت، أما ملك الله فهو ملكٌ مطلق، { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: 22].

قال: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}: هذا الاستفهام يراد به النفي، أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، إذن هذه الجملة نفي، أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، فدل ذلك على أنه يُشترط في الشفاعة المثبتة إذن الله للشافع، ما يمكن لأحد أن يشفع عند الله إلا بعد إذن مسبق؛ لأن الشفاعة لله جميعًا، وثم شرطٌ آخر وهو المذكور في قول الله تعالى: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } [الأنبياء: 28]، وجمع الله بين الشرطين في آية النجم فقال: { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى } [النجم: 26]، فهذا هو معنى أن الشفاعة لله جميعًا، فالشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند ملوك الدنيا، الشفاعة عند ملوك الدنيا تحصل وتمضي إما رغبةً أو رهبة، إما لكون المشفوع عنده يريد أن يستميل الشافع ويرغبه، أو يدفع أذاه وشره، أما الله عز وجل فغنيٌ عن خلقه لا يرغب بموالاة أحد، ولا يستدفع شر أحد سبحانه وبحمده، { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ}[الإسراء: 111]، يعني بسبب الذل، {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: 111].

قال: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ إثبات، لاحظ نفي إثبات، نفي إثبات، والمعنى أن الله تعالى له العلم المطلق، فهو سبحانه يعلم ما يستقبله الناس وما استدبروه، وقيل بالعكس، والمقصود أن علم الله تعالى محيط بالناس جميعًا، فقد أحاط علمه بكل شيء، ما كان وما يكون وما سوف يكون، بل وما لم يكن كيف لو كان يكون؟.

قال: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}: نفي، نفى أن ينال أحدٌ من علمه إلا بالقدر الذي يأذن ويفسح به، ولما خرج موسى صلى الله عليه وسلم مع الخضر في الرحلة المعروفة، حينما صحبه ووقفا على سيف البحر

جاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر من ماء البحر نقرةً أو نقرتين بمنقاره، فقال الخضر لموسى: ما تظن أن العصفور نقص من ماء البحر؟. فقال موسى: وما عسى أن ينقص من ماء البحر؟. يعني منقار العصفور ماذا يمكن أن ينقص من ماء البحر؟، قال الخضر: فإن علمي وعلمك وعلم الناس جميعًا في علم الله كما نقص هذا العصفور من ماء البحر. تبارك الله، {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85]، وتأسف حينما تجد بعض المتهوكين السفهاء الذين يقولون: الآن تمكن العلم استكشاف كل شيء، وتقدم الطب وتقدم الفلك. كل هذا بمجموعه وأضعافه ليس في علم الله إلا نقطة من بحر، ليس بشيء، {وَمَا أُوتِيتُمْ} [الإسراء: 85]، يعني أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85]، فلا يذهب بك الوهل إلى أن هذا كان فيما مضى، وأن الآن اختلف الحال، لا، هذه لا تمثل من علم الله شيئًا، نقطة من بحر.

قال: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ}: ما الكرسي؟ الكرسي فسره ابن عباس –رضي الله عنه– بأنه موضع القدمين، فالكرسي غير العرش، العرش هو أعظم المخلوقات وأعلاها وأكبرها، وهو سقف العالم، والعالم كله تحته، أما الكرسي فقد فسره ابن عباس بتفسير لا يمكن إلا أن يكون له حكم الرفع؛ لأن مثل هذا لا يمكن أن يقال إلا عن طريق معصوم، فقد تلقاه ابن عباس. والله أعلم. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: هو موضع القدمين. وقد جاء في حديث: [ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض]، أرأيت لو أنك ألقيت حلقة من حديد في الربع الخالي أو في صحراء الدهناء، ماذا تمثل؟ كذلك السماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة للكرسي.

قال: {وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا}: فسر قوله: { وَلَا يَئُودُهُ} أَيْ: **لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ**، فقد يتوهم متوهم كما توهمت يهود أن هذا مدعاة للتعب والكلال، أن كيف يُدار أمر السماوات والأرض، أجرامها العلوية ومخلوقاتها الأرضية، كيف تدار؟ هذه مما يستدعي التعب والعنت، فقال: { وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا} [البقرة: 255] أَيْ: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ حفظ السماوات والأرض، إذن الجملة {وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا} [البقرة: 255]، نفي، نفى الله عن نفسه التعب والعنت والمشقة كما قال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: 38]، خلافًا لما ادعته يهود في كتبهم في العهد القديم في سفر التكوين: إن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع. تعالى الله عما يقولون، فنزه الله نفسه عن هذا.

قال: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}: إذن الجملة الأخيرة إثبات، أثبت الله لنفسه اسمين عظيمين وهما العلي والعظيم، فالله تعالى من أسمائه الحسنى العلي، فله العلو المطلق، والعلو ثلاثة أنواع: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وكلها ثابتة لله تعالى، فعلو الذات هو إثبات أن الله تعالى بذاته سبحانه وبحمده فوق سماواته مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه ولا في خلقه شيءٌ منه، فيجب على كل مؤمن أن يعتقد أن الله تعالى بذاته في أعلى ما يكون، يعني فوق السماوات والأرض وجميع الملكوت، فوق عرشه سبحانه مستوٍ على عرشه، لا يجوز أن يعتقد أحد أن الله في كل مكان

كالهواء والنور، وأنه كما يقول بعض الناس يقول: ربنا في كل مكان. لا، هذا غير صحيح، علمه في كل مكان، أما هو بذاته سبحانه وبحمده فمنزهٌ عن مخالطة خلقه، لا يمكن أن يحويه شيءٌ من مخلوقاته، بل له العلو المطلق سبحانه وتعالى، وهو على علوه فهو قريب، يعلم ويسمع ويرى ويدبر الأمر ويكشف الضر، إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

أيضًا له علو القدر، والمقصود بعلو القدر يعني كمال الصفات، فكل صفة كمال فهو مستحقٌ لله، { وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} [الروم: 27].

أما النوع الثالث فهو علو القهر لقول الله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: 18، 61] فقد قهر جميع مخلوقاته، فلا شيء يخرج عن ملكه.

قال: {الْعَظِيمُ}: يعني من له صفة العظمة، ولاشك أن الله تعالى عظيمٌ في ذاته وأسمائه وصفاته، لا يحيط به عقل، ولا تبلغه الأوهام، ولا تدركه العقول سبحانه وبحمده.

فلهذا كانت هذه الآية آية عظيمة، بل هي أعظم آية في كتاب الله، كان من آثارها ما نبه عليه الشيخ في قوله: **ولهذا من قرأ هذه وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ**. قد دلَّ على هذا حديث أبي هريرة حينما استودعه النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة، يعني جعله حافظًا وأمينًا على طعامٍ لبيت المال، فلما كان من الليل أتى حاثٍ يحثو من الصدقة، يعني يأخذ منها العيش والبر الموجود، فقبض عليه أبو هريرة، فجعل يتوسل لأبي هريرة ويقول: إنه صاحب عيال وقليل ذات اليد. فرقّ به أبو هريرة وأطلقه، فلما أصبح قال له النبي صلى الله عليه وسلم: [ما حال أسيرك البارحة يا أبا هريرة؟]، قال: يا رسول الله إنه ذكر حالًا وعيالًا فرققت عليه فأطلقته، قال: [أما إنه سيعود]، فلما كان من الليلة الثانية جاء يحثو من الصدقة، فقبض عليه أبو هريرة، فذكر ما ذكر فرق له أبو هريرة وأطلقه، فأصبح النبي صلى الله عليه وسلم يسأله، قال: [أما إنه سيعود]، فما كان في الثالثة استجمع أبو هريرة وقبض عليه قال: هذه ثالث مرة تأتي، والله ما أطلقك حتى أسلمك لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إني أعلمك شيئًا. وما كان أحد أحرص على العلم من أبي هريرة. فتطلقني. فشارطه على هذا الشرط، فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان، حتى تصبح. فأطلقه، لشغفه وحبه للعلم، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم بما جرى، قال: [صدقك وهو كذوب]، فقوله: [صدقك] إقرارٌ لهذه الفائدة، وهي أن من أوى إلى فراشه فقرأها لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان، حتى يصبح، حرزٌ أمين، إذا قالها الإنسان معتقدًا لها، فإن الله يحفظه، فلا يلحقه أذى بنص إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم، [أتدري من تخاطب يا أبا هريرة منذ ثلاث؟]، فذكر له أنه شيطان، لذلك قال: [وهو كذوب].

إذن تبين لنا أن آية الكرسي جمعت بين النفي والإثبات.

📖قال المؤلف –رحمه الله–:

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[الحديد: 3]. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: 58]. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَه: {الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [التحريم: 3].

هذه أيضًا آيات دالة على النفي والإثبات، أو تقابل الصفات.

قال: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}: هذه أربعة أسماء حسنى لله تعالى، أثبتها لنفسه في كتابه، وأثبتها نبيه صلى الله عليه وسلم له في سنته، فقال في مناجاته لربه: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ)[1]، إذن كفينا تعريفها، عرفها لنا نبينا صلى الله عليه وسلم بأوضح عبارة، فلا نحتاج أن نقول: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء. لا، ما دام قد عرفها النبي صلى الله عليه وسلم بهذا التعريف فلا تعدل به شيء، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، فهو أقرب من كل شيء إلى كل شيء.

إذن هذه أربعة أسماء متقابلة قال عنها ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (إنها تضمنت إحاطة الله الزمانية والمكانية)، فإحاطة الله الزمانية باسميه الأول والآخر، وإحاطة الله المكانية باسميه الظاهر والباطن، فدل على إحاطته بكل شيء.

قال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}: جمعٌ بين النفي والإثبات؛ لأن الحي يدل على إثبات صفة الحياة، وقوله: {لَا يَمُوتُ} لضد الحياة وهو الموت، ومعنى توكل أي اعتمد بقلبك اعتمادًا صادقًا، هذه حقيقة التوكل، التوكل هو اعتماد القلب على الله عز وجل في جلب المنافع ودفع المضار، فهذه حقيقة التوكل وهي من أجل العبادات، ليست من أضعفها كما يدعي الصوفية، لا بل هي من أجلِّ العبادات في الواقع؛ لأنها تدل على الثقة بالله سبحانه وتعالى، وتأمل قوله: {الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: 58]، من توكل على غير الله فقد توكل على من يموت، وإذا مات وكيلك بقيت بلا وكيل، أما الله تعالى فهو وكيلٌ لا يموت سبحانه وبحمده، فهذا يؤدي إلى طمأنينة القلب: { الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ } [الفرقان: 58].

أنا عندي في نسختي {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}، وقد تقدم بيانها في آية الكرسي، ثم {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}.

قال: {الْحَكِيمُ}: من له الحكمة، والحكمة مأخوذة من الإحكام وهو الإتقان، وهو وضع الشيء في موضعه، فالله سبحانه وتعالى حكيمٌ بمعنى أنه حكيم في شرعه وحكيم في قدره سبحانه وبحمده.

قال: {الْخَبِيرُ}: أيضًا، ومعنى الخبير يعني من يعلم بتفاصيل الأمور ودقائقها، يعني فهو علمٌ تفصيلي.

كل هذا مما يدل على الإثبات فيما وصف وسمى به الرب نفسه سبحانه وبحمده.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

[1] صحيح مسلم (2713).

الدرس (8)

إحاطة علمه بجميع مخلوقاته

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وقوله: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 18]، [يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} [سبأ: 2]، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: 59]، [وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ] [فصلت: 47]، [لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12]، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 58].**

الشيخ –رحمه الله– قد ذكر جملة من الآيات الدالة على الجمع بين النفي والإثبات في صفات رب العالمين، أو ذات المعاني المتقابلة كقوله تعالى: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[الحديد: 3] ثم إنه شرع –رحمه الله– في ذكر آيات تدل على صفات معينة انتخبها من كتاب الله عز وجل، لم يقصد بها الحصر والإحاطة، وإنما أراد أن يبين أن طريقة أهل السنة والجماعة طريقة مطردة في الإثبات سواء في ذلك الصفات الذاتية، وهي التي تسمى عند بعضهم: المعنوية، والصفات الخبرية والصفات الفعلية وأن القول فيها واحد، وأنه يساق فيها الإثبات سوقًا واحدًا لا يفرق بين صفة معنوية ولا صفة فعلية، بل يطرد القول فيها على نسق واحد، فالقول فيها جميعًا هو الإثبات والإمرار والإقرار، لا يُتعرض لها بتحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

فهذه الآيات على سبيل المثال تدل على علم الله تعالى المحيط بكل شيء، وصفة علم الله من أخص صفاته وأشهرها فالله تعالى يعلم كل شيء تأمل قال الله تعالى: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 18]، أين الدلالة على العلم؟ قوله: [الْخَبِيرُ]، لأن الخبير هو الذي يعلم دقائق الأمور وتفاصيلها والآية دلت على اسمين اثنين من أسمائه الحسنى وهما الحكيم والخبير، فالحكيم هو من له الحكمة، وأظن هذا تقدم في شرح سابق، والحكمة تعني وضع الشيء في موضعه، وهي تعني الإحكام والإحكام هو الإتقان، ومنه سميت الحَكَمَة التي توضع في لجام الفرس حَكَمَة لأنها تحكم سيره، والله تعالى حكيم في شرعه حكيم في قدره، فلا يشرع أمرًا إلا وفيه مصلحة متحققة حالًا ومآلًا، كذلك هو حكيم في قدره فكل ما يقضيه الله تعالى ويكتبه فهو الموافق للحكمة قطعًا، سواء بدت لنا هذه الحكمة أم لم تبد، فربما تساءل بعض الناس لم كان كذا؟ لم كان كذا؟ لم خلق الله كذا؟ هذا قد يظهر لأحد ويخفى على أحد لكنه على كل تقدير له الحكمة البالغة في كل شيء.

كما أن من معاني الحكيم من له الحكم، فالله تعالى له الحكم في الدنيا والآخرة فهو سبحانه وتعالى يحكم ما يشاء ويقضي ما يريد في هذه الحياة الدنيا، ويحكم في الآخرة ففريق في الجنة وفريق في السعير.

إيمانك أيها المؤمن بأن الله حكيم يسكب في قلبك الطمأنينة، وهذا معنى أرجو أن تنتبهوا إليه معشر طلبة العلم أن كل اسم من أسماء الله الحسنى فله أثر على المؤمن، له أثر مسلكي، وله أثر علمي، ما أخبرنا الله تعالى بهذه الأسماء لمجرد أن نعدها عدًّا بأصابعنا، لا، بل لها ثمرة ولها أثر بالغ على قلب الإنسان، فأنت على سبيل المثال حين تعلم أن الله تعالى حكيم يذهب عنك كل وسواس بعدم حصول حكمة فيما قضاه أو فيما شرعه، بل يمتلئ قلبك يقينًا بأنه لا يقضي الله على المؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وأنه لا يوجد في هذه الدنيا شيء يقع فلتة أو خبط عشواء أو ضربة لازب، كما قد يعبر بعضهم، أبدًا قد وزن الله تعالى الأمور بميزان دقيق فثق بالحكيم، واعلم أنه سبحانه وتعالى منزه عن ضد الحكمة، ما ضد الحكمة؟ السفه والطيش، حاشاه سبحانه أن يكون شيء في أفعاله، أو شيء في أقداره، أو شيء شرعه شيء من ذلك، فهو سبحانه وتعالى حكيم فحينئذٍ يطمئن المؤمن إلى قدره ويطمئن إلى شرعه تأمل: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد: 22] ما الثمرة؟ {لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد: 23].

قال: {الْخَبِيرُ}: كذلك هو سبحانه الخبير وهذا هو موضع الشاهد بما يتعلق بالعلم، فقد علم ربنا دقائق الأمور وتفاصيلها، وذلك أنه قد وجد من أهل البدع من يزعم أن الله يعلم علمًا كليًا لا جزئيًا، ومنهم من يقول: إنه يعلم علمًا مجملًا لا تفصيليًا. والحق أن ربنا سبحانه وبحمده يعلم بالأشياء كليًا وجزئيًا، إجماليًا وتفصيليًا لا تخفى عليه خافية، ويبينها الآيات التي بعدها قال سبحانه وبحمده: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} [سبأ: 2]، إذن جميع هذه الأمور هي أشياء متقابلة قد أحاطت بكل شيء.

قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ}: في نظركم ما الذي يلج في الأرض ماذا يلج في الأرض؟ المطر حينما يسلكه الله في الأرض، وحينما تلقى البذور في الأرض هذه تلج في الأرض، والدواب الدويبات التي تتخذ لها جحورًا في الأرض الله تعالى يعلم ما يلج في الأرض، أنت ترى النملة تسير لكن لا تدري أين تمضي؟ تدخل في شق من شقوق الأرض تأوي إليها من كبير الحيوانات وصغيرها مما يتخذ له في الأرض مسكنًا، الأموات ممن يلج في الأرض ويدفنون ويرون الثرى أشياء كثيرة تلج في الأرض.

قال: {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا}: ما الذي يخرج من الأرض؟ يخرج النبات، تنبع العيون، يبعث الناس يوم القيامة فيخرجون من الأجداث، وهكذا المعادن البترول وما غير ذلك كل ذلك يخرج من الأرض صورتان متقابلتان.

قال: {وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}: ما الذي ينزل من السماء؟ المطر ينزل من السماء، الوحي ينزل من السماء، الملائكة تنزل من السماء، الشهب النيازك تسقط من السماء إلى غير ذلك.

وما الذي يعرج فيها؟ أشعة الشمس تأتي، ومعنى يعرج أي يصعد ماذا يصعد إلى السماء؟ {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10]، أرواح بني آدم تصعد إلى السماء، الملائكة تعرج في السماء وهكذا أشياء كثيرة.

يعني إذا ذهبنا لوجدنا أن كل شيء إما داخل في الأرض وإما خارج منها، إما نازل من السماء وإما صاعد فيها، إذن هذا يدل على إحاطة علم الله بكل شيء.

أيضًا تأمل الآيات التي بعدها: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ} [الأنعام: 59]، مفاتح جمع ماذا؟ مفتح، ومفاتيح جمع مفتاح، وهما بمعنى واحد، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام: 59] انتهى، إذن أصل الغيب وسره عند الله عز وجل، لا يعلمه إلا هو، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه المفاتح بما تلاه من آخر سورة لقمان: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34] فقال: [مفاتح الغيب خمس]، وإذا تأملت في هذه الخمس وجدت أن الله سبحانه وتعالى مستقل بعلمها.

قال: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ }: والدنيا الأرض إما بر وإما بحر، ويعلم ما، وما بمعنى الذي، ولم يقل: من. بل أتى بما التي تشمل العاقل وغير العاقل، {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام: 59] وماذا في البر من كائنات مرئية وغير مرئية؟ شيء لا يحيط به وصف، وماذا في البحار؟ أضعاف ذلك من يتاح له أن ينظر في بعض البرامج التليفزيونية التي تحكي حياة البحار انبهر وأذهله ما فيها من أنواع المخلوقات العجيبة، كلها في البحر، فالله تعالى يعلم ما في البر والبحر.

قال: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا }: الله أكبر، ما تسقط من ورقة، ورقة شجر أو غيرها إلا يعلمها يعلم متى انفكت من أصلها ويعلم حتى وصلت إلى الأرض، أنت لو استعلمت على شجرة واحدة أمام بيتك، أو داخل بيتك، لتحصي ما يسقط منها من ورق، لوجدت عناء شديدًا ولم تحط، وربنا سبحانه وبحمده {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} [الأنعام: 59]، تخيل هذه الغابات الممتدة في الكرة الأرضية كل ورقة تسقط فالله يعلمها {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} [الأنعام: 59].

قال: {وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ}: الله أكبر، ولا حبة، أحيانًا يتاح لك مثلًا في البرية أن ترفع حجرًا فتجد حبيبات قد حملتها الحشرات وغيرها وأخفتها في هذا الموضع، الله يعلمها.

قال: {وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ}: والأشياء إما أن تكون رطبة أو أن تكون يابسة، اليابسات كالحجر، والرطب كالنبات ونحو ذلك.

قال: {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}: ما ذاك الكتاب؟ هو اللوح المحفوظ الذي أحصى الله تعالى فيه كل شيء.

هذه الآية العظيمة معشر طلبة العلم تملأ قلب المؤمن إيمانًا باطلاع الله تعالى على كل شيء، وأن الله لا تخفى عليه خافية، والأثر المسلكي بعلم المؤمن بعلم الله المحيط لكل شيء يورثه رقابة الله، فهو إذا أوصد الأبواب وأرخى الستور

علم أن الله يراه، وإذا حدثته نفسه بشيء علم أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفيه الصدور، يعني يجعل الإنسان مكشوفًا أمام الله عز وجل، فيحمله ذلك على التعرض لمراضيه، ويحمله ذلك على البعد عن مساخطه، لعلمه بأن الله تعالى يعلم جميع حاله.

كما أنه أيضًا يسكب في قلبه الطمأنينة فإذا ضاقت به المذاهب وتعرض للأزمات وغير ذلك، وشعر أن الله تعالى يعلم بحاله ويسمع كلامه ويرى مكانه، اطمأن وشعر بأنه ليس مفردًا ولا متروكًا، بل هو في عين الله وتحت سمع الله وبصره وفي علمه، وكل هذه من الآثار العظيمة للإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته، فتجده يقول: يا من ترى

مكاني وتسمع كلامي وتعلم بحالي. فهذا يجعله قريبًا من ربه عز وجل فلا تخفى عليه خافية.

قال: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى}: لاحظوا، أنثى هنا نكرة في سياق النفي أو الشرط {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ} [فاطر: 11]، إذن أنثى تدل على العموم، فلا يختص هذا بإناث بني آدم كما قد يتبادر إلى الذهن، بل أي أنثى من الإناث، والله تعالى خلق المخلوقات من زوجين، ففي الطيور ذكور وإناث، وفي الدواب والحشرات ذكور وإناث، بل حتى في الكائنات الميكروسكوبية ذكر وأنثى، فضلًا عن بني آدم، كذا في الأسماء، كذا في الطيور إلخ، وبالتالي فإن علم الله تعالى محيط بهذا كله.

ثم تأمل أنه قال: {وَمَا تَحْمِلُ} {وَلا تَضَعُ} فالأمر يتعلق أيضًا بالتوقيت، فقد يقع الحمل ولا يشعر به لا الزوج ولا الزوجة لكن الله يعلمه، يعلم مبتدأه، والوضع كذلك لا يعلمه إلا هو، ولهذا قال {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ}[فاطر: 11]، وقال في الآيات الأخرى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: 8]، فهذا يدلنا على إحاطة علم الله تعالى بجميع المجريات، ليمتلئ القلب بهذا، فإن امتلأ القلب بعلم الله المحيط بكل شيء يعلق القلب به، ويشعره بالانجذاب إليه وهذا فضل العلم بأسماء الله الحسنى.

قال: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}: هذا ختم الله به الآية التي صدرها: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [الطلاق: 12]، ما ثمرة هذا؟ {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12].

إن الناظر بعين البصيرة في خلق السماوات والأرض، وما أودع الله تعالى فيها من الآيات، وما ركبهما عليه من النظام البديع والتناسق العجيب، يثمر عنده العلم بهاتين الحقيقتين: قدرة الله، وعلم الله، فما كان هذا البناء العظيم وهذا النسق البديع ليتم وليجري، إلا لكون خالقه قديرًا وكونه عليمًا، فلهذا قال: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12]، إذن ربنا سبحانه وتعالى علمه محيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، لا يغيب عنه، بل {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [سبأ: 3] ، فرق بين من يعلم هذا ومن لا يعلم

فرق: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 9]، فهذا من صفات الله التي أجمع عليها كل من ينتسب إلى لإسلام ويستقبل القبلة، بل وجميع أهل الملل يثبتون لله العلم المطلق.

قال: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}: هذه جاءت وقد لا يكون لها صلة بآيات العلم، الرزاق يعني صاحب الرَّزق، فالله تعالى هو الرزاق الحق، ورَزق الله نوعان: رَزق حسن، ورَزق غير حسن، لأن الله تعالى لما ذكر قال: {وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [النحل: 67]، فعلمنا أن الرَّزق منه ما يكون حسنًا، وهو ما كان على وجهه وفي طاعته، ومنه ما يكون سوى ذلك؛ لأن الله تكفل لكل دابة برزقها: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} [هود: 6]، ومن الناس من يسترزق بغير ما أحله الله لكن الله تعالى تكفل بالرزق لجميع خلقه، فهو الرزاق سبحانه، وإن كان هو الرزاق ما هي الثمرة المسلكية التي تنعكس على المؤمن؟ أن يطلب الرزق منه، ولهذا قال في سورة العنكبوت: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} [العنكبوت: 17]، إذن الرزق يطلب من الرزاق لا يطلب ممن سواه، بعض الناس يجري على لسانه أن يقول: والله فلان قطع رزقي. لا يقطع رزقك فلان ولا علان، الرزاق حقًا هو الله عز وجل، وإنما جعل الله تعالى يعني الأسباب يمنة ويسرة، أما الرازق الحق فهو الله سبحانه وتعالى، لا تظن أن أحدًا يحول بينك وبين رزقك، فإنه كما قال صلى الله عليه وسلم: (هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ جِبْرِيلُ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَأْخُذُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ)[1]، فاعلم أن رزقك مقسوم، وعليك أن تطلبه، ليس معنى ذلك أن يتواكل الإنسان فلا يطلب رزقه، ولهذا عقب النبي صلى الله عليه وسلم على قوله: [لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها]، قال: [فاتقوا الله وأجملوا في الطلب]، لم يقل: دعوا الطلب سيأتيكم رزقكم في بيوتكم. لا، قال: [وأجملوا في الطلب]: يعني اطلب رزقك دون أن تذهب نفسك حسرات، ودون أن تشعر نفسك بالشغف والتلهف، فرزقك مقسوم، فهذا من آثارها الإيمان بهذا الاسم الشريف الرزاق والصفة المتضمنة فيه.

قال: {ذُو الْقُوَّةِ}: أي صاحب القوة، ولا ريب أن الله تعالى له القوة المطلقة وما معنى القوة؟ القوة هي التمكن من الفعل من غير ضعف، والفرق بينها وبين القدرة، أن القدرة هي التمكن من الفعل من غير عجز، والقوة هي التمكن من الفعل من غير ضعف، لأنه ربما تمكن أحد من فعل لكن ناء بالحمل، فلا يقال عنه: قوي. والقدرة هي التمكن من الفعل من غير عجز، فالله قوي قادر سبحانه وبحمده، منزه عن الضعف ومنزه عن العجز، ولا ريب أيضًا أن اقتناع القلب بأن الله هو القوي يقوي ثقة المؤمن بربه، فإذا قيل لك: أعداء الإسلام أقوياء يملكون أسلحة، وأسلحة دمار شامل وقنابل ذرية وهيدروجينية وكيمائية. فاعلم أن الله هو القوي القادر سبحانه وبحمده، فيمتلئ قلب المؤمن ثقة بالله وتوكلًا عليه، فهذا من آثار علمك بالله بأنه هو القوي، إذا استقوى أحد عليك وأراد أن يظلمك، فاعلم أن الله أقوى منه، كل هذا

[1] مسند البزار (2914)، مصنف عبد الرزاق (20100)، قال الألباني حسن صحيح في صحيح الترغيب(1702).

يشيع في القلب الطمأنينة الحقيقية لا الوهمية، فيلجأ إلى ربه ويلوذ بجنابه فحينئذٍ يحصل له من الطمأنينة ما لا يحصل لسائر الناس.

قال: {الْمَتِينُ}: معنى المتين أي الشديد وهي قريبة من معنى القوي، فالله تعالى ذو القوة المتين فهو من أسمائه الحسنى القوي، ومن أسمائه الحسنى المتين.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى: 11]، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58].

هاتان الآيتان ساقهم المؤلف لإثبات اسمين شريفين من أسمائه متضمنين لصفتين من صفاته، وهما السميع البصير المتضمنان للسمع والبصر، أما الآية الأولى فقد سبق الكلام عنها.

قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}: وهذا التعبير أبلغ من أن يقول: ليس مثله شيء. فإذا كان المشبه به ليس كمثله شيء، فمن باب أولى أن لا يكون مثله هو شيء.

وقيل: إن الكاف زائدة. وللمفسرين وأهل اللغة فيها توجيهات، فالله تعالى يقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11] إذن نزه سبحانه نفسه عن المثيل والنظير والند والشبيه والكفء، كما تقدم معنا، وشيء نكرة جاءت في سياق النفي فأفادت العموم، أي أي شيء من الأشياء لا يمكن أن يماثل الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]، فهذا أمر من مرتكزات العقيدة فإذا قال قائل: فما بال الأسماء متشابهة؟ والصفات متشابهة؟. قلنا: هذا التشابه إنما هو في اللفظ وفي أصل المعنى فقط، أما في الحقيقة والكيفية فلا نسبة للتشابه البتة. فالرب سميع والرب بصير، والعبد سميع والعبد بصير، لكن ليس سمع كسمع ولا بصر كبصر، فهناك اتفاق في الأسماء، أما الحقائق والكيفيات فلا يوجد بينهما نسبة من التماثل، إنما يقع فقط في أصل المعنى، فالسمع هو إدراك الأصوات، والبصر هو إدراك المرئيات، ولا سبيل لنا أن نعرف صفات ربنا إلا بشيء معهود في أذهاننا، فنعرف معنى السمع إدراك الأصوات، فالله هو السميع له المثل الأعلى في السمع، والله هو البصير له المثل الأعلى في البصر، وإن كان العبد سميعًا وإن كان بصيرًا، لكن سمعه وبصره يليق به، ولله المثل الأعلى، فلهذا كان هذا الاشتراك اشتراكًا في الأذهان، فإذا خرج إلى الأعيان يعني خارج الأذهان وأضيف تخصص وزال الاشتراك بالكلية، فإذا قلت: سمع الله بصر الله. فهذا ليس فيه اشتراك البتة، لكن إذا قلت: السمع. مطلقًا، البصر، مطلقًا، فالسمع في الأذهان يدل على إدراك الأصوات، والبصر يدل على إدراك المرئيات، لكن إذا أضفت تخصص فصار سمع الله يليق به، وبصر الله يليق به.

قال: {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ}: معنى {نِعِمَّا} أي نعم ما، فوقع الإدغام بين الميمين لتماثلهما فصارت نعما، يعني نعم ما يعظم به، إي والله وأي موعظة أبلغ من موعظة الله؟ من أراد أن يعظ نفسه أو يعظ غيره فليعتصم بموعظة القرآن، قال الله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ اللَّهِ} [الأنعام: 19]، ووصفه الله بأنه موعظة، والموعظة هو الكلام الرقيق الذي يحصل به الترغيب أو الترهيب، فالله تعالى نعما يعظنا به سبحانه وبحمده، فلا أبلغ من

موعظة القرآن، ولذلك يا عبد الله ويا أمة الله ومن بلغ إذا أردت أن تداوي نفسك من آفاتها فعليك بالقرآن العظيم، ففيه الدواء الناجع، وفيه الغذاء النافع، لا شيء يعدله، بعض الناس قد يلجأ لشيء مثلًا من الرقائق والقصائد وكذا كذا، يستلين بها قلبه، لكن لن يكون أثرها كأثر الموعظة في القرآن، بعض الناس يلجأ إلى مثلًا القصص والروايات والأحداث ونحو ذلك، لا بأس، لكن لن يكون شيء أبلغ وأعمق وأرسخ من موعظة القرآن، فاتخذ القرآن يا طالب العلم منهجًا في الموعظة والتربية، فلا يمكن أن يعدل القرآن شيء {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ} [النساء: 58]، فما سواه دونه.

قال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}: تضمن إثبات هذين الاسمين، وما دل عليه من إثبات صفة السمع والبصر.

ما هو الأثر المسلكي بإيماننا بهذين الاسمين الشريفين؟ أثر عظيم، من علم أن الله تعالى سميع حمله إيمانه ذلك على أن يسمع منه ربه ما يرضيه، وأن لا يسمع منه ما يسخطه، إذا كنت حقًا مؤمنًا بأن الله سميع فإنك تحاول أن تتقرب إليه بالكلم الطيب الذي يرضى به عنك، (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ)[1]، وإذا كنت ممتلئ القلب أن الله سميع، فهذا يحملك على أن تتحاشى أن يبدر منك ببنت شفة شيء يسخط منك لأجله، فتجتنب الغيبة والنميمة والشتيمة والخوض في الباطل إلخ، فـ(وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)[2]، أرأيتم أثر هذا الاسم الشريف السميع؟ كيف أن الإنسان لو تمثله لعقل لسانه عما لا يرضي الله، ولأطلقه بالخير، (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)[3]، {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 18] ، فهذا من أثر أسماء الله الحسنى إيمانك بأنه سميع، قل مثل ذلك في اسمه البصير، فمن امتلأ قلبه بأن الله بصير، فإنه يحب أن يراه ربه على حال يرضى بها عنه، يحب أن يراه قائمًا قانتًا آناء الليل ساجدًا يرجو الآخرة ويخاف من عذاب ربه {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ} [الزمر: 9]، يحب أن يراه الله تعالى على عمل صالح من حج أو عمرة أو صيام أو صدقة أو غير ذلك، هذا من آثار اسم الله البصير.

كذلك بالمقابل يتحاشى أن يراه الله على حال يسخط عليه بها، أن يراه على فجور، فحش، ظلم عدوان، يرى أن الله يراه على هذا الحال، ولهذا جاء في المواعظ: لا يكن الله أهون الناظرين إليك. فإذا كنت أنت تتحاشى أن يراك أبوك أو أخوك أو من تجله على أمر ما، فلا يكن الله أهون الناظرين إليك، تذكر أن الله يراك، هذه يا كرام من آثار إيمان الإنسان بأسماء الله الحسنى، وقد حكيت لكم مرة بأن رجلًا خلا بامرأة في ليلة قمراء، فقال لها: إني أحبك. قالت: وأنا أحبك. قال: وإني أحب كذا وكذا. يعرض بشيء، فقالت: وأنا أحب كذا وكذا. قال: فما يمنعنا ولا يرانا إلا الكواكب؟. قالت: فأين مكوكبها؟. فخر مغشيًا عليه، انظروا معنى قول الله: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ} [الملك: 12] يعني

---

[1] صحيح البخاري (6478).

[2] صحيح البخاري (6478).

[3] صحيح البخاري (6018).

انبعث في قلبه من المعاني ما أثر فيه حتى وقع مغشيًا عليه لما قالت له فقط: فأين مكوكبها؟. مكوكب الكواكب الذي يرانا:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت. ولكن قل: علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل برهة ولا أن ما تخفي عليه يغيب

هو سبحانه يعلم ويسمع ويبصر، فهذا هو أثر أسماء الله الحسنى.

كذلك علمنا بأن الله سميع – هذا من الآثار المسلكية– يجعلك إذا رفعت يديك وقلت: يا رب يا الله. وأنت موقن بأنه يسمع اطمأننت، ولهذا قال عمر –رضي الله عنه–: إني لا أحمل هم الإجابة ولكني أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء ألهمت الإجابة. يعني إذا تكيفت النفس تكيفًا إيمانيًا فدعا الإنسان معتقدًا أن الله يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم بحاله اطمأنت ووثقت أنها وضعت طلبها في الموضع المناسب، هذا من هذه الآثار.

أيضًا حينما يعلم أن الله سبحانه وتعالى يراه وهو مقدم على أمر من الأمور التي يريد بها وجهه أو يريد من الله فيها نصرته فإنه يطمئن، تأملوا قول الله عز وجل لموسى وهارون: {قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46]، هذا سمع خاص، وبصر خاص، ورؤية خاصة، فاستصحب هذه المعاني أيها المؤمن تنتفع بأسماء الله وصفاته.

الدرس (9)

الإرادة الكونية والشرعية

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وقوله: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} [الكهف: 39]. وقوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253]. وقوله: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: 1]. وقوله: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: 125].**

هذا شروع من المؤلف في بيان الإرادة الربانية، وهي من صفاته سبحانه وتعالى . صفة الإرادة .، وينبغي أن نعلم أن إرادة الله الربانية تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية، فذكر المؤلف طائفة من الآيات الدالة على الإرادة الكونية، ثم أتبعها بما يدل على الإرادة الشرعية التي بمعنى المحبة، ودعوني قبل أن نمضي في الآيات أبين لكم الفرق بين الإرادتين؛ لأن من لم يميز بين الإرادتين وقع في أحد طرفي الضلالة: إما في ضلالة الجبرية، وإما في ضلالة القدرية، انتبهوا جيدًا، **إرادة الله نوعان: إما إرادة كونية قدرية، أو إرادة دينية شرعية:**

الفرق الأول: الإرادة الكونية القدرية لا بد من وقوعها، والإرادة الدينية الشرعية قد تقع وقد لا تقع.

الفرق الثاني: الإرادة الكونية القدرية قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها، والإرادة الدينية الشرعية لا بد أن يحبها ويرضاها.

الفرق الثالث: الإرادة الكونية القدرية قد تكون مقصودة لذاتها وقد تكون مقصودة لغيرها، والإرادة الدينية الشرعية دومًا مقصودة بذاتها.إن شئت **– الفرق الرابع –** ولعله أن يكون نوعًا من التعريف: الإرادة الكونية معناها المشيئة، والإرادة الشرعية معناها المحبة.

أعيد ذكر ذلك بشيء من التفصيل:

الفرق الأول: الإرادة الكونية القدرية لا بد من وقوعها ، قال الله عز وجل: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: 40]، إذن كل ما أراده الله كونا لا بد من وقوعه.

الإرادة الدينية الشرعية قد تقع وقد لا تقع، فالله تعالى يقول : {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النساء: 136] ومن الناس من يؤمن ومن الناس من يكفر، أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، فمن الناس من يصلي ويزكي، ومنهم من لا يصلي ولا يزكي، مع أن الله أراد ذلك منهم {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: 185] ومع ذلك فإن من الناس من يقع في العسر، إذن هذه قد تقع وقد لا تقع.

الفرق الثاني: الإرادة الكونية القدرية قد تكون محبوبة لله وقد تكون غير محبوبة لله ، فمثلًا: أراد الله كونًا خلق محمد، محبوب لله هذا المراد، وأراد الله خلق إبليس، وإبليس غير محبوب لله، فقد يريد كونًا ما هو محبوب له، وقد يريد كونًا ما ليس محبوبًا له وهذا جار حاصل.

أما الإرادة الشرعية فكل ما أراده الله شرعًا فهو محبوب له، كل ما أراد الله تعالى به فهو محبوب له.

الفرق الثالث: ما أراده الله كونًا وقدرًا قد يكون مرادًا لذاته وقد يكون مرادًا لغيره فمثلًا: أراد الله خلق محمد صلى الله عليه وسلم لذاته، لما يترتب عليه من محبوباته كتوحيده وطاعته وامتثال أمره وغير ذلك، وأراد الله تعالى خلق إبليس لا لذاته وإنما لمآلاته، فلولا خلق إبليس ما تميز المؤمنون من الكفار، ولا الأبرار من الفجار، ولا قام سوق إلى جنة ونار، ولا وجدت التوبة والاستغفار، ولا رفع علم الجهاد ولا جرى الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل ولما ظهرت معاني أسماء الله الحسنى المختلفة أسماء الجلال، وأسماء الكمال والجمال، فإن كل ذلك لا يظهر إلا بتقدير الله تعالى لخلق إبليس الذي يقع به الابتلاء، ويتمايز الناس فيه إلى مؤمن وكافر.

فتبين أن الله تعالى قد يقدر ما لا يحبه ولا يرضاه لمصلحة محبوبة مرضية له، فيكون ذلك باعتبار مآلاتها لا باعتبار ذاتها.

أما ما أراده الله شرعًا فهو مقصود دومًا لذاته، فكل ما أمر الله به من إيمان وصلاة وزكاة فهو مقصود لذاته.

وبناء عليه نفرق بين هاتين الإرادتين إذا وردتا في القرآن العظيم، فحيثما وجدت مادة أراد في القرآن تعرضها على هذه الفروق الثلاثة، وانظر أهي تنتمي إلى المشيئة؟ أم تنتمي إلى المحبة؟ فإن كانت بمعنى المشيئة فهي إرادة كونية قدرية، وإذا كانت بمعنى المحبة فهي إرادة دينية شرعية.

قال: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}: القائل هو الرجل المؤمن في قصة صاحب الجنتين، يعظ صاحبه ويقول: {وَلَوْلا}، ومعنى ولولا أي هلا، فهي عبارة تحريض.

قال: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ}: أي بستانك.

قال: {قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}: أي ما شاء الله كان، فهذه إرادة كونية، فهو يذكره بأن كل شيء بإرادة الله، وليس هذا راجعًا إلى كسبه وحفظه وذكائه إلى غير ذلك، بل هو فضل من الله، وبتقدير الله ما شاء الله كان، لا قوة إلا بالله.

قال: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}: إذن ما هي هذه الإرادة؟ هي المشيئة، فلما ذكر الله تعالى اختلاف الناس واقتتالهم {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253]، إذن هذا يدل على أن اقتتالهم جرى بإرادة الله الكونية.

والآية الثالثة جعلها الشيخ من آيات الله أو من دلائل الإرادة الكونية مع أن الأمر محتمل لأنها متعلقة ببعض تشريعات الحلال والحرام، تأملوا: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: 1] الأنعام ما هي؟ الإبل والبقر والغنم.

قال: {إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}: ما الذي استثناه الله تعالى؟ {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ} [المائدة: 3] فالمستثنى من الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية من بهيمة الأنعام لا تحل، إذن هذا معنى الاستثناء في قوله: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}.

قال: {غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ}: فلا يجوز لمن تلبس بإحرام أو دخل منطقة الحرم أن يحل الصيد، لكنه هنا يتعلق بحال الإحرام، قال: {غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ} [المائدة: 1] حال الإحرام، ولهذا كان من محذورات الإحرام الصيد، والصيد هو كل حيوان بري متوحش بطبعه حلال، هذا لا يحل صيده.

قال: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}: كأن الشيخ – رحمه الله –رأى أن هذا بالحكم الكوني السابق، لكن لها وجه في إرادة الله الشرعية لأنه متعلق بالحلال والحرام، لكن كأنه لحظ فيها معنى سبق قضاء الله تعالى بتحريم ذلك.

ثم الآية بعدها صريحة في إرادة الله الكونية القدرية قال: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: 125] الهداية والإضلال معشر طلبة العلم حق خالص لله تعالى، بخلاف المعتزلة والقدرية الذين يقولون: إن الله تعالى لا يهدي ولا يضل. بمعنى أنه لا يخلق ذلك في العبادة، فتزعم المعتزلة أن معنى أن الله يهدي يعني فقط هداية الدلالة والبيان والإرشاد، لا هداية التوفيق والإلهام، هكذا زعمت

المعتزلة، ويقولون: معنى أنه يضل أن يسميه ضالًا أي يسميه ضالًا إذا هو ارتكب من المخالفات ما يجعله ضالًا. فهذا مذهب المعتزلة وسيأتينا -إن شاء الله تعالى- في باب القدر.

قال: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ}: يعني من أراد الله كونًا أن يجعله من أهل الهداية فإنه ييسر أسباب ذلك، فيشرح صدره لقبول الحق فتجده مغتبطًا بنعمة الله، مصغيًا لدعاء الرسول، فيقبل الحق.

قال: {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا}: يعني من سبق في علمه سبحانه وتعالى أن يجعله من أهل الضلالة، يجعل صدره ضيقًا والضيق معروف.

قال: {حَرَجًا}: أي شديد الضيق يجعل صدره ضيقًا حرجًا، ثم شبه من يصعد في السماء أي من يرقى في أجواء الفضاء فإنه يعني يحس بالضيق، وهذا أمر معروف في التجربة والعلوم الحديثة، أن نسبة الأكسجين تقل كلما ارتفع الإنسان، ولهذا بعض الناس الذين عندهم ضيق تنفس ينهون عن سكنى المناطق الجبلية وغيرها، لقلة الهواء.

قال: {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}: أي في العلو.

إذن هذه الآيات دلت على إثبات إرادة الله الكونية، وأن الله سبحانه وتعالى له إرادة كونية، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

📖قال المؤلف -رحمه الله-: وَقَوْلُهُ: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 195]، {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: 9]، {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 7]، {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222].

وهذه الطائفة من الآيات تتعلق بإثبات الإرادة الكونية التي بمعنى المحبة وهي الإرادة الدينية، وضابطها: أنه لا يلزم وُقوعها، فتأملوا في هذه الآيات.

قال: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}: هل لزم من محبته سُبحانه للإحسان أن يكون جميع الخلق مُحسنين؟ لا لم يلزم هذا، وهكذا فيما بعدها، لكن لنتناولها على سبيل التفصيل.

قال: {وَأَحْسِنُوا}: فعل أمر، وهو أمر بالإحسان، والإحسان له معنى باعتبار حقيقته، فقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم تفسيرًا لا مزيد عليه فقال: (الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)[1]، ففسر صلى الله عليه وسلم الإحسان في مراتب الدين بأحد أمرين: إما بعبادة الطلب، وإما بعبادة الهرب:

فأما عبادة الطلب وهي أعلاهما: فأن يعبد العبد ربه عبادة الراغب إليه، المشتاق إليه، [أن تعبد الله كأنك تراه]، فأنت مُنجذب إليه، تسعي في الوصول إليه، مُتوجه إليه.

وأما عبادة الهرب: [فإن لم تكن تراه فإنه يراك]، يعني إن لم تبلغ مرتبة المحبة والانجذاب والشوق أثناء عبادتك، فلا تنزل عن رُتبة الخوف والشعور برقابته، [فإن لم تكن تراه فإنه يراك].

[1] متفق عليه، صحيح البخاري (4777)، صحيح مسلم (8).

فعلى الإنسان أن يضبط حاله بين هذين الأمرين: بين حال الرجاء وحال الخوف، فالمؤمن دومًا بين الخوف والرجاء، {يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [الإسراء: 57].

هذا تعريف الإحسان باعتبار حقيقته.

وأما الإحسان من حيث أصل الوضع والمعنى فهو بمعنى الإتقان (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ)[1]، بمعنى أن يأتي به على الصورة الكاملة، فتكون العبادة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسُننها، فمن طلب الإحسان وسعى فيه نال محبة الله تعالى، وقد أتى الله بهذه الآية بعد قوله سبحانه: { وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [البقرة: 195] فهذه الجُملة وقعت تعليلًا لما سبق، فالذي يُنفق نفقة واجبة أو مُستحبة، فقد أحسن، والله يُحب المحسنين.

قال: { وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }: { وَأَقْسِطُوا}: أمر بالقسط وهو العدل، ولهذا أمر الله تعالى بالقسط في أكثر من آية فقال تعالى: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحُجرات: 9]، فالله تعالى يُحب المقسطين، وهم أهل العدل [الذين يعدلون في أموالهم وأهليهم وما ولوا]، هؤلاء هم أهل العدل حقًا، ولنعلم أن العدل واجب وأن الفضل مُستحب، فيجب على الإنسان أن يأتي على الحد الأدنى الذي هو العدل، فشريعة الإسلام قائمة على العدل، فما زاد عن ذلك فهو فضل، وتأملوا في مثل قول الله تعالى: { لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [الممتحنة: 8]، فالبر فضل، والقسط عدل، فالعدل واجب، والبر فضل مُستحب، فلا يجوز للمُسلم أن ينزل عن مرتبة العدل حتى في تعامله مع الكافر، فإن من الناس من يظن أنه إذا تعامل مع كافر يهودي أو نصراني أو بُوذي أو غير ذلك من الملل الباطلة أن له أن يستطيل عليه بخدعة أو غش، أو أن ينال منه بكلام أو مسبة، وهذا لا يجوز، فإن هذا يُخالف أصول الإسلام القائمة على العدل، ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري عبد الله بن رواحة إلى يهود ليخرص عليهم ثمرة خيبر، جمعوا له من حُلي نسائهم يُريدون رِشوته، خشوا أن يُشدد عليهم، فلما قدموها له، قال: أتطعموني السحت يا إخوان القردة والخنازير، والله لقد جئتكم من أحب الناس إليَّ – يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم – ولأنتم أبغض إليَّ من عدادكم من القردة والخنازير، والله لا يحملني حُبي إياه، وبُغضي إياكم أن أظلمكم مثقال ذرة. قالوا: الله أكبر، بهذا قامت السماوات والأرض. فالعدل قيمة من قيم الإسلام، لا نقول: من القيم الإنسانية. كما يُقال حاليًا، لا، نقول: هي قيمة وخُلق من أخلاق الإسلام وأُصوله الأخلاقية. فالله تعالى أمر بالقسط، وبين أنه يُحب المقسطين، الذين يعدلون في أموالهم وأهليهم وما ولوا.

[1] مسند أبي يعلى (4386)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (1113).

قال: {فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }: هذا في شأن المعاهدين، فإن الله تعالى لما أنزل سورة براءة وقد تضمنت آية السيف، كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين بعض قبائل العرب عُهود لا تزال باقية، فلم تكن آية السيف لتقطعها، لأنه ليس من شأن أهل الإسلام الغدر، وغاية ما في الأمر أن إذا خِفنا منهم خيانة أن ننبذ إليهم على سواء، {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال: 58]، لكن ما لم يكن كذلك فالأصل الوفاء بالعهود إلى مُددها.

قال: {إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }: فما داموا مُلتزمين بالعهد فأنتم تُقابلونه بالمثل، وبيَّن أن هذه الاستقامة عُنوان تقوى الله عز وجل، لأن النفس قد يُزين لها إذا رأت من الطرف الآخر ضعفًا أن تثب عليه، فلا يحجزها من ذلك إلا تقوى الله عز وجل، لهذا كانت الجُملة مُعللة لما مضى {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: 7]، ومن المتقون؟ التقوى هي امتثال أوامر الله واجتناب مناهيه، وحقيقتها أن يقوم في القلب حاجز يمنع الإنسان من الوُقوع في محارم الله، ويحمله على فعل أوامره:

خل الذنوب كبيرها وصغيرها ذاك التُقى
واصنع كماش فوق أرض الشوق يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

فتقوى الله أعظم ما أُعطي العبد، { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } [الحُجرات: 13]، فأكرم الناس على الله أتقاهم كما قال الله وكما قال نبيه صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح، فتحصيل تقوى الله تكون بأن يزرع العبد في قلبه ورعًا وخشية تحجزه عن الوُقوع في محارم الله، وقاية، وهذه الوقاية تكون في المستقبل وقاية له من عذاب الله، فمن تقوى الله عز وجل حفظ العُهود، وعدم هدرها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني لا أَحِيسُ بالعَهْدِ ولا أحبِسُ البُرُدَ)[1]، فنحن أهل الإسلام أكثر الناس التزامًا بالعُقود والمعاهدات، [لا نحيس العهد ولا نقتل البُرد]، يعني صاحب البريد.

قال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }: {التَّوَّابِينَ}: جمع تائب، فالله يُحب التوابين، وما التوبة؟ التوبة هي الأوبة والرجوع إلى الله، واصطلاحًا: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة، فهي رجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، وهي من أشرف العبادات، فالله تعالى يُحب التوابين، بل يُحب من يُكثر التوبة، قال: (وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)[2]، (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)[3]، [لله أشد فرحًا بتوبة عبده...] كما سيأتينا لاحقًا -إن شاء الله-، فالتوابون هم الذين يُكثرون التوبة، وهذا ليس بعيب،

[1] سنن أبي داود (2758)، مسند أحمد (23857)، صححه الأرنؤوط.
[2] سسن الترمذي (2667)، سنن ابن ماجه (4285)، حسنه الألباني.
[3] صحيح مسلم (2749).

لأنه لقائل أن يقول: إن من يُكثر التوبة يعني أنه يُكثر الذنب. وهذا من طبيعة بني آدم، وقد جاء في حديث عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال: (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ)[1]، أي ما دام أنه يُذنب فيستغفر مُستوفيًا لشروط التوبة فإني لا أزال أغفر له، فلهذا كان الله تعالى يُحب التوابين، إذ التوبة عبادة تُنبئ عن تجدد الإيمان في القلب، لكن التوبة الممدوحة هي التوبة النصوح التي تكون مُقترنة بالإيمان والعمل الصالح: { إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان: 70]، {إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا } [مريم: 60]، {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى } [طه: 82]، فهذه ثلاث أمور مُتلازمة: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، فمجيؤها سويًا يدل على أن التوبة نصوح.

واعلموا أن التواب يكون اسمًا للعبد، واسمًا للرب، فالعبد تواب والرب تواب، فالعبد تواب لأنه يتوب إلى الله، والرب تواب لأنه يتوب على العبد، قال الله عز وجل: { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ} [التوبة: 118]: ف {تَابَ عَلَيْهِمْ}: هذه توبته سبحانه، {لِيَتُوبُواْ}: أي لتقع منهم التوبة، ثم إن توبة الرب على عبده تكون على صورتين:

أُولاهما: بتوفيق العبد للتوبة، **ثانيهما**: بقبول التوبة منه.

وهذا يُفسر لك معنى قوله: { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ } [التوبة: 118]: {تَابَ عَلَيْهِمْ}: وفقهم للتوبة فتابوا، ثم تاب الله تعالى عليهم، {لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ } [التوبة: 117]، فتكون توبة الله على العبد بأن يُلهمه ويُوفقه للتوبة فيتوب، ثم تكون توبته عليه بقبول هذه التوبة منه، فهكذا تكون توبة الرب على العبد، وأما توبة العبد إلى الرب فبالرجوع عن المعصية إلى الطاعة.

قال: {وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}: جمع مُتطهر، **والطهارة نوعان**:

النوع الأول: الطهارة الحسية. وتكون من الحدث والنجس.

النوع الثاني: الطهارة المعنوية. وتكون من الشرك والفسوق والعصيان والبدعة وما أشبه من الأمور المعنوية.

وكلا الأمرين مطلوب قال تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: 4]، فالمؤمن طاهر، فالمؤمن طاهر ظاهرًا وباطنًا، فثوبه طاهر، وبدنه طاهر، وبُقعته التي يُصلي عليها ويجلس عليها طاهرة، فهو لا يتلبس بالنجاسات، ولا يُباشر النجاسات، ولا يأكل النجاسات، مُتطهر، وهو أيضًا مُتطهر في أُموره المعنوية، فلا يُلابسه شرك ولا فسق ولا معصية، وإن وقع شيء له

[1] صحيح البخاري(7507)، صحيح مسلم (2758).

من ذلك تطهر منه، ولهذا قال: { وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222]، ولم يقل: الطاهرين، قال: { الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222]: لأنهم يتطهرون ففيها معنى التفعّل.

كل الآيات السابقة دلت على إثبات صفة المحبة لله تعالى، وهذا أمر جلي، فإن قارئ القُرآن لا يشك في إثبات صفة المحبة لله تعالى، هذه آيات ناطقات، تُسند فيها المحبة إلى الله عز وجل، فيجب علينا أن نعتقد بأن من صفات الله تعالى صفة المحبة، وهي صفة تليق به سبحانه وبحمده، لا تُشبه محبة المخلوقين، فلئن كانت محبة المخلوق فيها شيء من الانعطاف والرقة ونحو ذلك، فهذه محبة المخلوق، أما محبة الله فلا يلزمها شيء من اللوازم البشرية، فلهذا أقر أهل السنة والجماعة إثبات هذه الصفة، وغصّ بها أهل البدع من المتكلمين النُفاة من الجهمية والمعتزلة، بل حتى من الصفاتية كالأشاعرة، فقالوا: لا يُمكن أن نُثبت لله صفة المحبة. لم؟ قالوا: لأن المحبة رقة في القلب وانعطاف ولين. فقِيل لهم: هذه محبة المخلوق، ومحبة الله تليق به، والله ليس كمثله شيء، فأنتم تُثبتون لله سمعًا وبصرًا –أي أيها الأشاعرة– مع أن المخلوق له سمع وبصر، فأثبِتوا لهم محبة. فقالوا: لكن سمع الله يليق به، وبصر الله يليق به. قلنا: وأيضًا محبة الله تليق به، لا فرق. كل ما أثبته الله تعالى لنفسه فإنا نُثبته لأن الله أعلم بنفسه، وبغيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من خلقه، كما تقدم معنا في مبادئ هذه الرسالة، فنُثبت ذلك لله تعالى، ولا يلزم من إثباتنا لصفة المحبة لله أن يلحق الله شيء من اللوازم البشرية، فالله تعالى ليس كمثله شيء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس (10)

إثبات محبة الله ومودته لأوليائه على ما يليق بجلاله

وَقَوْلُهُ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: 31].وَقَوْلُهُ: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: 54].وَقَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } [الصف: 5].وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: 14].

قال: { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ }: وهذه الآية دليل على أن المحبة تقع من الطرفين، فالمؤمنون يُحبون ربهم، والرب يُحب عباده المؤمنين، لكن هذه المحبة من الله مشروطة { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [آل عمران: 31]، تُسمى هذه الآية: آية المحنة، وقد ادعى محبة الله قوم من اليهود والنصارى زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فابتلاهم الله بهذه الآية وامتحنهم، فقال: { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ} [آل عمران: 31]: إن كُنتم صادقين في دعواكم محبة الله { فَاتَّبِعُونِي} [آل عمران: 31]: أي اتبعوا محمدًا صلى الله عليه وسلم {يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}، ودلت هذه الآية على أن العبد يُحب، والرب يُحب، فالعبد يُحب ربه، يُمكن أن تقع منه المحبة، والرب يُحب عبده.

ومرة أخرى: شرق بهذا أهل البدع، وقالوا: لا يُمكن أن تقع المحبة من الطرفين. قالوا: لأنه لا تجانس بينهما. حتى محبة العبد لربه، قالوا: لا يُمكن تقع. إذن ماذا تصنعون بهذه الآيات؟ قالوا: المقصود بمحبة العبد لربه هي طاعته، امتثال أمره، واجتناب نهيه. ففسروا المحبة بغير حقيقتها، مع أن الحق أن هذا أمر يجده كل مؤمن، أنه يجد في قلبه شوقًا وميلًا ومحبة إلى الله عز وجل حقيقة غير فعل الأوامر واجتناب النواهي، بل إنه أحيانًا ربما يقع من العبد إخلال بطاعة الله وتثبت له المحبة، كالرجل الذي كان يؤتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب شُرب الخمر، فضارب له بثوبه، وضارب له بنعله، وضارب بيده، حتى قال رجل فيه قولًا شنيعًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : [لا تقل كذا، فإنه يُحب الله ورسوله]، يعني حتى ولو كان عنده شيء من معصية، لكنه يُحب الله ورسوله، لكن ليست كمحبة أهل الإيمان التام، لكنه عنده محبة.

إذن المحبة تقع من الطرفين، ودعوى أنه لا يُمكن أن يقع محبة بين غير مُتجانسين دعوى ساقطة، بل نقول: إنه تقع محبة بين الأشياء غير المتجانسة، ألست أنت مثلًا تُحب شُرب الماء؟ أنت جنس والماء جنس، ألست تُحب لعق العسل؟ بلى، وأنت جنس وهو جنس، لا يلزم من وجود المحبة التجانس بين الطرفين، أليس الرجل أحيانًا يُحب دابته؟ أليس بعضكم مثلًا يُحب سيارته؟ يُحبها مع أنها حديد، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: [أُحد جبل يُحبنا ونُحبه]، وهو جبل، وهذا أمر معروف عند بني آدم، يُحب الإنسان أحيانًا بعض المجالس، وبعض البيوت، وبعض المراكب، وبعض الثياب، تجد مثلًا بعض ثيابك أحب إليك من بعضها مع أنها من جنس يختلف عنك تمامًا، فوجود المحبة بين شيئين غير مُتجانسين موجود بين المخلوقات نفسها، فكيف يقولون: لا يُمكن أن تقع محبة بين غير المتجانسين؟! بل يُقال: هذه محبة تليق بهذا، وهذه محبة تليق بهذا، وهذه محبة تليق بهذا، ولا تُواجه النصوص المحكمات بمثل هذه التعليلات الخاطئات.

قال: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }: جاء ذلك بعد قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ } [المائدة: 54] فتكرر المعنى: { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }، سبحان الله! هذا أمر بيَّن جلي، فيا عجبًا لهؤلاء المتكلمين الذين قالوا: لا، لا يُمكن أن تقع المحبة من الجانبين، وأن محبة العبد لربه هي طاعته، ومحبة الرب لعبده المراد بها إثابته. هذا يُسمى تأويلًا، بل هو في الحقيقة تحريف، لأنه خلاف مُراد الله تعالى، وقد مر بنا في أول هذه الرسالة أن أهل السنة والجماعة يُثبتون لله من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فهذا هو التحريف، إذا قال: محبة الرب لعبده هي إثابته. قلنا هذا: تحريف، هذا لازم المحبة، وليس المحبة، ففرق بين المحبة والإثابة. أنت مثلًا قد تُحب صديقك محبة حقيقة، وقد نتيجة لهذه المحبة تُقدم له هدية، أليس كذلك؟ تقديمك للهدية هذه إثابة، لكنها غير المحبة، بدليل أنك من الممكن أن تُحبه ولا تُهدي له، لعدم قُدرتك أو لسبب من الأسباب، فالمحبة شيء ولازمها شيء أخر.

قال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ }: هذه الآية في بيان محبة الله للمجاهدين في سبيله، المقاتلين صفًا كأنهم بُنيان مرصوص، ففيها إثبات محبة الله تعالى لمن قاتل في سبيله.

قال: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}: ما الشاهد منها على ما نحن فيه؟ الودود، لأن المودة هي أعلى درجات المحبة، فالله ودود، والمودة هي أعلى درجات المحبة، وأما الغفور فهو مُشتق من الغَفْر، والغَفْر هو الستر والتجاوز، فالله غفور بمعنى أنه يستر الذنب ويتجاوز عنه، ومنه سُمي المغفر الذي يُجعل على الرأس مغفرًا، لأنه يستر الرأس ويقيه.

فدلت هذه الآيات السابقات أولًا على إثبات إرادة الله الشرعية التي بمعنى المحبة، وأنه لا يلزم من محبة الله للشيء وقوعه وتحققه، فقد يُحب ما لا يشاء، وقد يشاء ما لا يُحب سبحانه وبحمده، وله في ذلك حكمة، فالله أحب منا الإحسان والقسط والتقوى، وأن نُقاتل في سبيله صفًا، ونحو ذلك من الأعمال الصالحات، ومع ذلك قد تقع وقد لا تقع، بخلاف الإرادة الكونية، فإنه لا بد من وُقوعها كما قال الله عز وجل: { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [النحل: 40]، أما الإرادة الشرعية فهي بمعنى: المحبة، قد تقع وقد لا تقع.

وفهمنا مما مضى إثبات صفة المحبة لله إثباتًا حقيقيًا، وأنه لا يلزم من إثباتها تمثيل الله بخلقه كما ادعى أهل البدع، واستفدنا أنه لا يجوز تحريف المحبة بخلاف ظاهرها كالإثابة ونحو ذلك، فإن هذا تحريف مذموم، إلى غير ذلك من الفوائد الجُزئية التي تضمنتها الآيات.

والأثر المسلكي لإثبات صفة المحبة هو أن يحرص الإنسان، على تحقيق محبة الله تعالى، وأن يكون حبيبًا إلى الله، ومحبوبًا لله، فإن هذه أعظم وشيجة بين العبد وربه، إذا علمت أن الله يُحبك، ما أسعدك! وما أهنئك!، إن الله لا يُعذب من يُحب، فيسعى الإنسان في تلمس أسباب محبة الله التي ينال بها الدرجات العُلى، وهي المنصوص عليها في كتابه، فالله سبحانه وتعالى يُحب من الأشخاص والأعمال والأحوال والأماكن والأزمنة ما يشاء، يُحب من الأشخاص: محمدًا صلى الله عليه وسلم، وسائر أنبيائه، يُحب من الأعمال: الصلاة على وقتها، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله، وسائر مُراداته الشرعية، كُلها محبوبة لله، وبعضها أحب من بعض، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ فقال: (الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا)[1]، ويُحب كذلك أيضًا من الأحوال: كحال السجود، فـ (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ)[2]، ويُحب سبحانه وتعالى من الأماكن: مكة شرفها الله، والمدينة، وبيت المقدس، ويُحب سبحانه من الأزمنة: رمضان، وعشر ذي الحجة، وهكذا، فلله تعالى أن يُحب ما يشاء من الأشخاص والأعمال، والأحوال، والأزمنة والأمكنة، هو سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا } [غافر: 7]، {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: 43]، {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف: 156]، {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } [الأنعام: 54]، {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [يونس: 107، الأحقاف: 8]، {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 64].

---

[1] صحيح البخاري (527).

[2] صحيح مسلم (482).

هذه الآيات دلت على إثبات صفة الرحمة لله سبحانه وتعالى، واستهلها، ببسم الله الرحمن الرحيم، وقد تقدم الكلام عنها في مُستهل هذه الرسالة، وتبين أن البسملة بعض آية من سورة النمل، وأنها آية مُستقلة تُفتتح بها جميع سور القرآن، سوى سورة براءة، وبيَّنا **الفرق بين الرحمن والرحيم من جهتين:**

الفرق الأول: أن الرحمن يدل على اتصاف الله تعالى بصفة الرحمة اتصافًا ذاتيًا، وأن الرحيم يدل على اتصاف الله بصفة الرحمة اتصافًا فعليًا. فالرحمن يدل على الرحمة الواسعة، والرحيم يدل على الرحمة الواصلة.

الفرق الثاني : أن الرحمن يدل على الرحمة العامة، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة بالمؤمنين. كما تُبينه الآيات بعدها أيضًا.

قال: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا }: هذه جاءت في سياق دعاء الملائكة: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} [غافر: 7] فقوله: { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ }، كل شيء، {كُلَّ} من ألفاظ العموم، { رَّحْمَةً وَعِلْمًا}، فرحمته وسعت كل شيء، وعلمه أحاط بكل شيء.

قال: { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا }: هذا يدل على اتصاف الله بالرحمة الخاصة بالمؤمنين، لأنه قال: { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [الأحزاب: 43]، فقدم الجار والمجرور ليدل على الاختصاص، فهو سبحانه رحمن، وهو رحيم، فهذان اسمان كريمان من أسماء الله الحُسنى، كما قال ابن القيم: اسمان رقيقان دالان على اتصاف الله بصفة الرحمة. كما دلت الآيات على ثبوت هذا الوصف.

قال: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ }: كما المعنى السابق وقد قالها الله تعالى في خطابه لموسى صلى الله عليه وسلم.

قال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}: أي أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يقول لضُعفاء المؤمنين الذين يأوون إليه {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } [الأنعام: 54]، ومعنى أن الله كتب على نفسه ذلك، أي أنه سبحانه هو الذي أوجب الرحمة على نفسه، لا كما تدعيه المعتزلة من دعوى أنه يجب على الله فعل الصلاح أو الأصلح، حتى إنهم يُوجبون على الله بمحض عُقولهم ما يستشنع الإنسان من قوله، ويدعون أن العقل هو الذي يقضي بذلك، فيقولون: يجب على الله أن يفعل كذا، ولا يجب عليه أن يفعل كذا، ويمتنع كذا. وهكذا، فهم مُشبهة الأفعال، نُفاة الصفات مُشبهة الأفعال.

قال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}: كقوله: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ)[1].

قال: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}: تقدم معنى الغفور، والرحيم أيضًا تبين معناه، وهو ذو الرحمة البالغة، أو الواصلة.

[1] صحيح البخاري (7554).

قال: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }: هذا من كلام يعقوب صلى الله عليه وسلم لبنيه قال: { فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 64]، فدل على إثبات صفة الحفظ لله تعالى، وأنه أرحم الراحمين، بمعنى أن له المثل الأعلى في صفة الرحمة، فالرحمة موجودة، وتُضاف إلى الخالق والمخلوق، لكن لله من الرحمة أعلاها.

واعلموا -يا رعاكم الله- أن أهل البدع أنكروا صفة الرحمة، وقالوا: لا يُمكن أن يُوصف الله تعالى برحمة حقيقة. سبحان الله! لماذا؟ وهذا من أعظم ما نتشبث به ونرجوه، قالوا: لأن الرحمة ضعف، وخور، ورقة، والله مُنزه عن ذلك. فما الجواب؟ نقول: هذا الذي وصفتموه رحمة من؟ رحمة المخلوق، المخلوق هو الذي إذا أدركته رقة ورحمة تضعضع وبكى، ولحقه ضعف ونحو هذا، أما رحمة الله فلا يلزم منها هذه اللوازم البشرية، فلله رحمة تليق به، فكما أنكم تثبتون لله حياة، وسمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وإرادة، وقُدرة، وكلامًا، وتقولون: إنها على ما يليق به. فقولوا مثل ذلك في صفة الرحمة. فالرحمة الآيات مُتكاثرة في إثباتها وإضافتها إلى الله، فتحريف الرحمة بإرادة الإنعام هذا تحريف، وإن سميتموه تأويلًا، فهم يقولون: معنى الرحمة: إرادة الإنعام. بمعنى أنهم يُفسرون الرحمة إما بالإرادة التي يُثبتونها ضمن الصفات السبع، أو بالإنعام نفسه، وكُل هذه من مسالك المتكلمين الباطلة، بل نقول: لله صفة حقيقية تليق به هي صفة الرحمة، بها يرحم المرحومين، لكن اعلموا أن الرحمة المضافة لله عز وجل قد تكون أحيانًا الرحمة التي هي الصفة، وقد تكون أحيانًا الرحمة المخلوقة، **يتضح لكم ذلك بمثالين:**

المثال الأول: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: (أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟) ، قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال : [لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا)[1]، الله أكبر!، إذن هذه رحمة، رحمة الصفة، رحمة حقيقية.

المثال الثاني: في الحديث: (جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلاَئِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ)[2]، إذن خلق مائة رحمة، إذن هذه الرحمة المخلوقة، وليست الرحمة الصفة.

فتبين بذلك وجوب إثبات اسم الله الرحمن، واسم الله الرحيم، ووجوب إثبات ما تضمناه من صفة الرحمة، وأنه لا يجوز تحريف صفة الرحمة إلى الإنعام أو إرادة الإنعام كما فعل أهل البدع.

والله أعلم.

[1] صحيح البخاري (5999)، صحيح مسلم (2754).

[2] صحيح مسلم (2752).

الدرس (11)

ذكر رضا الله وغضبه، وسخطه، وكراهيته في القرآن الكريم، وأنه مُتصف بذلك

📖**قال المؤلف –رحمه الله–:**

وَقَوْلُهُ: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: 119، التوبة: 100، المجادلة: 22، البينة: 8]، وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} [النساء: 93]، وَقَوْلُهُ: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ} [محمد: 28]، وَقَوْلُهُ: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الزخرف: 55]، وَقَوْلُهُ: {وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ} [التوبة: 46]، وَقَوْلُهُ: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 3].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.،

فإن صفات ربنا سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: صفات ذاتية.

القسم الثاني: صفات فعلية.

فأما **الصفات الذاتية**، فهي الملازمة لذاته سبحانه وتعالى التي لا تنفك عنه، بمعنى أنه مُتصف بها دومًا فلا يُتصور أن يخلو الرب من اتصافه بهذه الصفة الذاتية، مثال ذلك: صفة العلم، صفة القُدرة، السمع، البصر، الحياة، كُل هذه صفات ذاتية، **ضابطها أنها مُلازمة لذاته لا يُتصور انفكاكها عنه سبحانه.**

النوع الثاني: صفات فعلية، وهي المتعلقة بمشيئته وحكمته، لأنه سبحانه وتعالى يفعل لحكمة، فما كان سبحانه وتعالى يفعله بمقتضى مشيئته، أي يفعله متى شاء كيف شاء إذا شاء، فهذه تُسمى: صفة فعلية، مثل صفة الاستواء، والنُزول، والإتيان، والضحك، والعجب، وغير ذلك، فهذه الصفات تُسمى عند العلماء: صفات فعلية، وإثبات الصفات الفعلية لا يلزم منها إثبات الحُدوث على الله عز وجل كما توهم النُفاة، فإنهم نفوا صفات الله الفعلية زاعمين بأن إثباتها لله يقتضي أن يكون طرأ عليه شيء لم يكن، وحينئذٍ فهذا الذي طرأ إما أن يكون كمالًا أو نقصًا، ولا ريب أنه كمال، فيقولون حينئذً: إذن إذا كان كمالًا فقد كان قبل ذلك خال من الكمال، لم يحصل له الكمال. هذه الشُبهة توصلوا بها إلى تضليل كثير من الناس، بدعوى نفي حُلول الحوادث عن الله فيتوصلون بذلك إلى نفي الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه، أو أثبتها له نبيه صلى الله عليه وسلم، **والجواب عن ذلك يسير، وهو أن نقول:** إن جنس هذه الصفات الفعلية قديم ذاتي، فالله سبحانه وبحمده لم يزل فعال، كما قال عن نفسه: {فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [هود: 107]، لكن آحادها وأفرادها تتجدد بتجدد ما تقتضيه حكمته، فحينئذٍ لا يُقال: إنه حدث شيء بعد أن لم يكن.

أضرب لكم مثالًا تقريبيًا: أنت الآن يُقال عنك أنك مُتكلم، وأنك مُتحرك، أليس كذلك؟ لا يلزم من وصفك مثلًا بالحركة، أنك طوال الوقت في حركة دائبة مُستمرة، لكنك تتحرك حينما تُريد النُقلة من موضع إلى موضع أو تتناول

شيء من الأشياء، فملكة الحركة موجودة فيك، لكن ظهور آحادها وأفرادها بأن تتحرك نحو المسجد، أو نحو الجامعة، أو نحو المنزل أو غير ذلك هذا أمر يتجدد، لكن أصل الوصف والقدرة على أن تتمثل به حاصل فيك، كذلك الكلام، أنت تُوصف بأنك مُتكلم، أي لست بأخرس، ولا يلزم من وصفك بالكلام أنك تتكلم طُوال الوقت، بل إذا اقتضى الحال أن تتكلم تكلمت، فبهذا يتبين لنا أن ما أضافه الله تعالى لنفسه من الصفات الفعلية لا يُعد من الحُدوث الذي يقتضي نقصًا وإن سموه حُدوثًا، لكنه حُدوث لا يستلزم نقصًا، لا يُقال: إنه لم يكمل بصفاته حتى حصل كذا وكذا. فجنس هذا الفعل قديم، وآحاده مُتجددة، فبهذا تسقط هذه الشبهة التي لبسوا بها على فئات من الناس، فأنكروا ما ينبغي لله تعالى من الأسماء والصفات، وحملوها وأولوها، أو قل: حرفوها إلى صفات أُخرى. فصاروا يصفونها بالإرادة كما مر بنا سابقًا أنهم أنكروا صفة الرحمة وقالوا: إن المراد بالرحمة إرادة الإنعام، أو هو الإنعام. فحرفوها إلى صفة أُخرى وهي الإرادة، ولا شك أنهم في الحقيقة وقعوا فيما فروا منه، فإنه لو قِيل لهم: لم أنكرتم صفة الرحمة؟. لقالوا: لأن الرحمة ضعف وخور في النفس، وهذا من صفات المخلوقين. فيُقال لهم: فالإرادة كذلك ميل في النفس، فهو من صفات المخلوقين، فأنتم نقلتموها من مقام إلى مقام مُماثل، فيلزمكم فيما نفيتموه نظير ما فررتم منه فيما أثبتموه، فالإرادة وصف للإنسان، بل حتى ولغير الإنسان، ألم يقل الله تعالى: {جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ} [الكهف: 77]، فلا يلزم من إضافة الوصف إلى شيء أن تكون الحقيقة واحدة، بل هي بحسب من أُضيفت إليه، فإذا أُضيف الوصف إلى الله عز وجل كان له منه المثل الأعلى المنزه عن كل شائبة نقص، وإذا أُضيف إلى المخلوق صار له منه ما يليق به، بل إن المخلوقات نفسها تتفاوت في هذه الإضافة، فالناس ليسوا سواءً في سمعهم، وبصرهم، وعلمهم، وقدرتهم، ومع ذلك هم جميعًا يُوصفون بالعلم والسمع والبصر ونحو ذلك، فإذا كان هذا التفاوت بين المخلوقين فمن باب أولى أن يكون بين الخالق والمخلوق، كذلك في الصفات الفعلية التي نتحدث عنها، فإن الشيء المضاف إلى الله عز وجل من هذه الأوصاف لا يلزم منه ما يلزم على المخلوقين، فالقوم فروا واشمأزوا من إثبات الصفات لله تعالى وحرفوها، ونقلوا الصفات الفعلية إلى معان غير مُرادة لله عز وجل، وكما سيأتي في الآيات التي ساقها شيخ الإسلام لإثبات الرضا، والغضب، والسخط، والمقت، وكُل هذه صفات فعلية.

كيف نعرف الصفة الفعلية من الذاتية؟ الضابط في ذلك إذا كانت مُتعلقة بمشيئته، يعني يفعلها بمقتضى أسباب حُكمية، فإنها صفة فعلية، أما إذا كان مُتصفًا بها على الدوام كالسمع والبصر والحياة والعلم، فهي صفة ذاتية، وكانت طريقة السلف –رحمهم الله– أن يسوقوا القول في صفات الله سوقًا واحدًا، فلا يُفرقون الصفقة يُجرون الإثبات والإقرار والإمرار في الصفات الذاتية، ويُعاملون الصفات الفعلية أو الخبرية بالتأويل، حاشاهم، بل كانت طريقتهم واحدة مُطردة يُصدق بعضها بعضًا، ولعلكم سمعتم مني الآن قسمًا ثالثًا، وهي الصفات الخبرية، المقصود بالصفات الخبرية: **ما كان سبيل إثباته الخبر فقط** ، بمعنى أنه لا مدخل للعقل في إثباته، مثل ماذا؟ مثل: الوجه، واليدين، والعينين، هذه تُسمى عند العلماء: الصفات الخبرية، **وغالبًا ما تكون من ضمن الصفات الذاتية** ، لأن الله سبحانه وتعالى دومًا متصف بصفة الوجه واليدين والعينين، فهي بهذا الاعتبار خبرية ذاتية، فما لا سبيل لإثباته إلا بطريق الخبر فقط، فهي صفة خبرية كما سمعتم،

فلو أمعن الإنسان في التفكير، لا يُمكن أن يستقل العقل بإثبات الوجه، أو اليدين، أو العينين، لولا أن الله تعالى أخبرنا بذلك وإلا فإننا نقف، {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: 36] فلا سبيل إلا أن يأتي بها الخبر، فلننظر في هذه النصوص الدالة على إثبات هذه الصفات الفعلية.

قال: {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}: المؤمنون المجاهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أحل الله عليهم رضوانه، {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ} [المائدة: 119]، والرضا صفة معروفة، يعرفها كل إنسان ويعهدها في ذهنه، فلله من الرضا ما يليق به، وما يقتضي فعل ما يُحبه المرضي عنه، من إكرامه وإنعامه، لكن فرق بين المقتضى وبين أصل الصفة، فالله تعالى له صفة الرضا، كما أن المخلوق له صفة الرضا، لكن شتان بين رضا ورضا، فرضا الله يليق به، ورضا المخلوق يليق به، رضاي ورضاك ورضا كل واحد من آحاد الناس له معنى مُدرك ومعهود في الأذهان، رضا الله تعالى يليق به سبحانه وتعالى، وإن كان هناك اشتراك في أصل المعنى في الأذهان، لكن في خارج الأذهان أي في الأعيان يكون لله منه المثل الأعلى وللمخلوق منه المثل الذي يليق به، فمثلًا رضاي ورضاك رُبما يُقارنه نوع مثلًا خِفة وفرح وشيء من عدم التوازن من جراء هذا الرضا، لكن ذلك ليس بلازم في حق الرب سبحانه وتعالى.

قال: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}: إي والله، الرضا رضا الله على عبده، هو الفوز العظيم، أحله دار المقامة من فضله، وغفر ذنبه، ونعمه بأنواع النعيم التي لا تدور بخلد الإنسان ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[1] ، فدومًا يمتن الله على عباده بأن يقول: {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [البينة: 8]، جعلنا الله وإياكم منهم، فالواجب علينا إذن إثبات صفة الرضا لله تعالى.

ما هو الأثر المسلكي لعلمنا بهذه الصفات؟ إذا علمنا أن من وصف الله الرضا، فإن ذلك يحمل النفوس المؤمنة على طلب رضاه، ونشدانه والبحث عن مراضيه بالأعمال والأقوال الصالحة التي يحصل بها الرضا.

قال: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}: أرأيتم؟ لا يكاد –والله أعلم– يُذكر عُقوبة في القرآن بعد الشرك بالله أغلظ من عُقوبة القتل، **والقتل أنواع ثلاثة**، كما قد تكونوا درستموه في الفقه:

النوع الأول: قتل عمد.

النوع الثاني: قتل شبه عمد.

النوع الثالث: قتل خطأ.

فقتل العمد معناه عند الفقهاء: أن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيُصيبه بما يغلب على الظن موته به. هذا تعريفه.

[1] صحيح البخاري (3244)، صحيح مسلم (2824).

أن يقصد: فلا بد من القصد وهو العمد.

من يعلمه آدمي: لأنه يُمكن يحصل القصد لكن لا يعلم أنه آدمي، يراه من بين الأشجار يظنه طيرًا، أو حيوانًا، فيُصيبه.

معصومًا: من المعصوم؟ المسلم، والمعاهد، والذمي، والمستأمن، من بقي إذن؟ الحربي، الحربي ليس بمعصوم، لأنه بينه وبين أهل الإسلام قتال، فهذه الأصناف الأربعة معصومة، لا يجوز هدر دمها، المسلم، والمعاهد، والذمي والمستأمن.

فأن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيُصيبه بما يغلب على الظن موته به، يعني بأن يُصيبه بمُثقّل، أو مُحدد، أو ببندقية، أو مسدس، أو سيف، أو خنجر، هذا يغلب على الظن موته به، لكن لو أنه ضربه بعصى، أو وكزه، هذا عادة لا يحصل به الموت، لكن رُبما مات، فحينئذٍ يُصبح قتل شبه عمد، وليس عمدًا.

أما قتل الخطأ فهو الذي لا قصد فيه أصلًا، كما يقع كثيرًا في حوادث السيارات، فإن هذا يسمى: قتل خطأ.

إذن الوعيد هُنا في حق من؟ في حق قتل العمد {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا}[النساء: 93]، ظاهر الآية يدل على أنه مُرتكب لكبيرة ويخُلد في النار، وهي تُشكل على ما قد تقرر من أن أصحاب الكبائر لا يُخلدون في النار، فأُجيب عن ذلك بأنه لم يذكر هاهنا التأبيد، لم يقل: خالدًا فيها أبدًا. فدل ذلك على أنه يمكث المدد الطوال في نار جهنم، بسبب خطيئته تلك، ولا ريب أن إزهاق النفوس من أعظم الجرائم حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ)[1]، ولما رأي الكعبة قال: [ما أطيبك!]، وبين أن المؤمن أعظم من ذلك عند الله عز وجل، فدل ذلك على أن هذه الجريمة من أعظم الجرائم والكبائر التي تُورث صاحبها خلودًا ومُكثًا طويلًا في النار، وقواعد أهل السنة والجماعة تقضي بأن من ارتكب كبيرة دون الشرك بالله فإنه لا يُخلد تخليدًا مؤبدًا في النار لقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء: 116]، والقتل لا شك أنه دون ذلك، فيكون داخلًا في عموم الاستثناء.

قال: {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ}: وهذا هو موضع الشاهد، فالله تعالى قد أضاف الغضب إلى نفسه، فدل على إثبات صفة الغضب لله تعالى، ولا تستنكر ذلك، فإن لله تعالى غضبًا يليق به، بل إن الغضب في محله يُعد من الكمالات، بمعنى أن الآدمي لو كان فاقدًا للغضب لكان ذلك نقصًا فيه، لو قُدر أن أحدًا خلي من الغضب لكان هذا عيبًا فيه، لأنه إذا فقد الغضب لم يغر على محارمه، ولم ينتصر للحق، ولم تأخذه الحمية لنُصرة المظلوم، إلى غير ذلك، ففاقد الغضب مذموم، ولهذا قال الله: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ} [آل عمران: 93]، لم يقل: والفاقدين الغيظ. لكن الغضب محمود إذا حمل صاحبه على أمر مندوب شرعًا، كالجاهد في سبيل الله، ونُصرة المظلوم، وما أشبه، أما إذا حمله الغضب على أمر مذموم شرعًا كالعدوان والثأر بالباطل، والتلفظ بالطلاق وغير ذلك من الأشياء فهو مذموم، ولهذا قالت عائشة –رضي الله عنها–: [ما غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط، إلا أن تُنتهك حُرمة من حُرمات الله، فلا يقوم لغضبه شيء]. أردت

[1] سنن الترمذي (1452)، سنن النسائي (3978)، سنن ابن ماجه (2619)، وصححه الألباني.

من ذلك أن أُبين أن الغضب في أصله وصف كمال، ولولا الغضب لربما فنيت الأموال، وذهبت الحقوق، لكن الغضب إذا استعمل في غير موضعه صار وصفًا ذميمًا، وإلا هو في موضعه وصف حميد، فلهذا كان ربنا سبحانه له منه الوصف الحميد، وهو أنه يغضب سبحانه لما يقتضي الغضب، ومن ذلك: قتل المؤمن، فإن ذلك مما يقتضي غضب الرب سبحانه وتعالى، وإذا غضب الرب ماذا يكون حال العبد؟.

قال: {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ}: واللعن هو: الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى.

قال: {وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}: أجارنا الله وإياكم وعافانا وإياكم، (لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا)[1]، إذا تلطخت اليد بالدماء فهذا من أعظم الورطات التي لا ينفك منها الإنسان إلا برحمة الله تعالى، فلهذا كان تعظيم الدماء من أعظم مقاصد الشريعة، ومن الضرورات الخمس: حفظ النفس، وهذا يُوجب للإنسان أن يحذر ممن يتساهلون في الدماء، ممن يتساهلون في دماء المسلمين، فيستبيحونها تحت مُسوغات زينها لهم الشيطان كبعض التكفيريين والغُلاة الذين لا يُبالون بدماء المسلمين، كأنما يقتل أحدهم حمامة أو عُصفورًا أو ذُبابة، لا يُبالي بالدماء، مع هذا الوعيد العظيم الذي ذكره الله عز وجل، أو من ينال من دماء المعصومين من غير المسلمين كالمعاهد والمستأمن، والذمي، و(مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)[2] لأنه قد دخل في عقد الإسلام، فكان احترامه من احترام الدين والملة، فالتهاون في هذا واستسهاله هذا والعياذ بالله من تعريض النفس لأعظم الورطات والعُقوبات في الدنيا والآخرة، فعلى المؤمن أن يُعظم في قلبه ونفسه حُرمات المسلمين، وحقوق الآدميين، فلا يرتكبها ولا يجتاحها بغير حق.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ)[3] ، فعلى طالب العلم أن يتبين هذا جيدًا وأن يملأ قلبه من هذه المعاني، وأن يُبين لمن حوله هذا الأمر، فإنه لم يزل يجري في أمة محمد صلى الله عليه وسلم على مر القرون من يستسهلون أمر الدماء، فتوجد الخوارج جيلًا إثر جيل، كلما فني منهم قرن ظهر منهم قرن آخر يستسهلون الدماء، وإن كان في ظاهرهم الصلاح، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم واصفًا إياهم: (يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)[4] ، ورغب في قتالهم وقال: (لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ)[1]، وقال عنهم صلى الله عليه وسلم: (شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ)[2]، فالحذر الحذر من هذا المنزلق الخطير.

---

[1] صحيح البخاري (6862).

[2] صحيح البخاري(3166).

[3] صحيح البخاري(6878)، صحيح مسلم (1676).

[4] صحيح البخاري (5058).، صحيح مسلم (1064).

أهل البدع شرقوا بإثبات صفة الغضب، وقالوا: لا يُمكن أن يُوصف الله بالغضب، يجب أن يُنزه الله عن الغضب، وأن يؤول الغضب إلى معنى يليق به. واقترحوا أن يكون معنى الغضب إرادة الانتقام، لاحظتم كيف أنهم حرفوا الصفة إلى صفة يُثبتونها وهي الإرادة؟ فقالوا: المراد بالغضب هو إرادة الانتقام. كما قالوا عن الرحمة: إرادة الإنعام. فنقلوها من مُراد الله تعالى إلى مُراد اقترحوه هم من أنفسهم، ولا ريب أن هذا من الضلال البين، فالله أعلم بما قال، وهو أعلم بنفسه، وأحسن حديثًا، وأصدق قيلًا، فكيف يجترئون على كلام الله تعالى ويقولون: ليس مُراد الله بكذا، كذا، مُراده كذا وكذا. هذا من أعظم التجني والعُدوان والجُرأة على كلام رب العالمين، فإذا قيل لهم: لم لا تحملون الآية على ظاهرها، وتُثبتون الغضب لله؟. يقولون: الغضب هو: غليان دم القلب لطلب الانتقام. فماذا نقول لهم؟ هذا غضب المخلوق، وعلتكم أنكم شبهتم أولًا وعطلتم ثانيًا، فأنتم فهمتم من النصوص خلاف مُراد الله، فهمتم منها التشبيه، ثم هربتم من التشبيه إلى التعطيل، كمن خرج من حفرة فوقع في حُفرة أُخرى، ولو لزمتم الخط الوسط والقسطاس المستقيم لأعطيتم النصوص حقها، وعلمتم أن الغضب الذي أثبته الله لنفسه غضب يليق به يدل على كرم صفاته وجليل المعاني، لا ما تبادر إلى أذهانكم من المعاني البشرية، قالوا: الغضب هو غليان دم القلب لطلب الانتقام. صحيح هذا غضب المخلوق، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الغضب: [جمرة يُلقيها الشيطان في قلب أحدكم، فإذا وجد ذلك فليتوضأ، فإنما يُطفئ النار الماء][1]، فهذه علتهم، لكنا نُعطي النصوص حقها ونُثبت لله تعالى الغضب الذي يليق به، ولا شك أنه وصف كمال، وأنه صفة فعلية، فالله لا يغضب إلا إذا وُجد مُقتضى الغضب، وقد حدث النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويل حديث الصور قال: [إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله قط، ولن يغضب بعده قط][2]، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

قال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ}: من؟ المنافقون، إذن دلت هذه الجُملة على إثبات صفة السخط لله عز وجل، فلله تعالى سخط يليق به، وللمخلوق سخط يليق به، أحدنا إذا سخط شيئًا بدر منه من الكلمات العصبية والتصرفات غير المتزنة ما يليق بحال المخلوق، لكن الرب سبحانه مُنزه عن هذه اللوازم، مع إثبات أصل المعنى، فالله تعالى قد أضاف السخط إلى نفسه، فبأي وجه ننفي ما أثبت لنفسه، وهو سبحانه أعلم بنفسه وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا؟.

قال: {وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ}: دلت على إثبات صفة الرضا.

قال: {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ}: **{آسَفُونَا}**: أي أغضبونا، من الأسف، والمراد بهم: آل فرعون، {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الزخرف: 55]، فلما وقع منهم ما وقع وغضب الله تعالى عليهم أحل بهم المثُلات وأغرقهم.

---

[1] صحيح البخاري (7432).

[2] سنن الترمذي (3241).

إذن دل ذلك على إثبات صفة الغضب، إذ الأسف بمعنى الغضب، ودل أيضًا على إثبات الانتقام لله عز وجل.

قال: {وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ}: من؟ المنافقون الذين كانوا يُرجفون {لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ} [التوبة:81]، {بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ} [التوبة: 42]، وصاروا يُشيعون مثل هذه المقولات التي يوهنون بها همة المسلمين في غزوة تبوك، فالله تعالى ثبطهم، وهذا دليل على أنه سبحانه يُضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه قد يُعين من أحب، ويخذل من أبغض.

قال: {كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ}: دل على إثبات صفة الكُره لله سبحانه، فلله تعالى كُره يليق به، لا يُشبه كُره المخلوق، أنا وأنت والثاني والثالث حينما نكره شيئًا تنعقد نُفوسنا بكيفية مُعينة ويصدر منا مثلًا تصرفات أو ظنون أو غير ذلك، هذا كُره المخلوق، لكن كُره الرب يليق به، لا يلزم عليه من اللوازم البشرية ما يلزم على كُره المخلوق، فنُثبت لله ما أثبت لنفسه، ونُعطي النصوص حقها، ولا نتعرض لها بأي لون من ألوان التجني من تحريف أو تعطيل.

قال: {كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}: هذه الآية جاءت بعد قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ] [الصف: 2- 4]، كان بعض المؤمنين يتمنون أن يُفرض عليهم الجهاد كما قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ} [النساء: 7]، فكان بعض المؤمنين يتمنون أن يُفرض عليهم الجهاد، فلما وقع حصل عندهم كُره وتضايق من هذا الأمر فعتب الله عليهم، وقال: {كَبُرَ مَقْتًا}: والمقت: أشد البُغض {مَقْتًا}: تمييز.

قال: {كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}: فلو أنهم لم يقولوا شيئًا لكان ذلك أعذر لهم، لكنهم فاهوا بهذا، وكما يُقال: إن البلاء مُوكل بالمنطق.

فلهذا ينبغي للإنسان أن يقتصد، فلا يقول قولًا يندم عليه فيما مضى ويعجز عن الوفاء به، ولطالما قال الإنسان قولًا في حال نشاط وإقبال ثم يُبتلى ويعجز، فكن مُتحفظًا يا عبد الله، إذا هممت بقول شيء فاعقد في قلبك النية الصالحة ولا تقول شيئًا قد تقصر دونه، ولما قال أنس بن النضر –رضي الله عنه– لما فاته يوم بدر، أسف أسفًا شديدًا أن لم يكن شهد أول موقعة بين المسلمين وعدوهم، فقال : لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ [1]. ثم أمسك، خشي ألا يفي بذلك –رضي الله عنه–، لكنه أبلى بلاء حسنًا يوم أُحد حتى أنه لم يُعرف من كثرة جراحاته، لم تعرفه أُخته –رضي الله عنه– إلا ببنانه، لشده ما أُصيب به في جميع أجزاء بدنه، فهذا صدق الله فصدقه.

أما عن أثرها المسلكي: فإذا علم الإنسان أن الله تعالى يغضب، ويسخط، ويكره، ماذا يكون أثرها على العبد؟ ألا يتعرض لمساخط الله وغضبه، بل يتجنب ذلك ويفر منه، فإذا علم أن شيئًا يجلب غضب الله وسخطه ومقته حمله ذلك على الفرار منه، وعدم التعرض له، إذا كُنا في حياتنا الدُنيا مع والدينا ومع رؤسائنا، ومع من له ولاية علينا نتحاشى ما يُثير

[1] صحيح البخاري (2805).

غضبهم وهم خلق مثلنا، فكيف الأمر مع الله عز وجل، فتأملوا الأثر المسلكي لإيمان المؤمن بإثبات صفة الرضا لله، وبإثبات ما يُقابلها من صفات الغضب، هذه تحمله على التعرض لمراضي الله، وهذه تحمله على الفرار وتحاشي مساخط الله، هذا هو الأثر المسلكي الذي نجنيه، والثمرة التي نقطفها من إيماننا بأسماء الله وصفاته، لا مُجرد التعداد والحسب، وإنما أن يقوم هذا المعنى بالقلب؛ فيضبط السلوك.

الدرس (12)

إثبات المجي والوجه واليدين لله تعالى

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ : **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ} [البقرة: 210]**، وَقَوْلُهُ: **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام: 158]**، **{كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: 21، 22]**، **{وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا} [الفرقان: 25]**.

هذه الآيات تدلنا على إثبات صفة فعلية من صفات الله تعالى، وهي صفة الإتيان، وإن شئتم قولوا: صفتين: صفة الإتيان والمجيء. ومعناهما مُتقارب، فيجب علينا أن نُثبت لله تعالى ما أثبت لنفسه، وهذه الآيات المتعلقة بالمجيء والإتيان فهي صريحة في إثبات الإتيان والمجيء لله تعالى.

قال: {هَلْ يَنظُرُونَ}: أي هل ينتظرون ويرتقبون، والاستفهام هنا للتعجيب والإنكار عليهم، وهم المشركون، يعني ماذا ينتظرون؟ يعني يُكذبون برسلنا وكُتبنا، إلى أن يروا ذلك عيانًا بأبصارهم وحينئذٍ لا ينفع الندم، ولات ساعة مندم.

قال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ}: أرأيتم كيف أن الله أضاف الإتيان إلى نفسه؟ ثم عطف على ذلك إتيان الملائكة.

قال: {إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ}: يعني وتأتيهم الملائكة، وفي هذا قطع الطريق على من أول الآيات الأُخر، الذي أوّل إتيان الله بإتيان ملائكته، فإن في الآية التي بعدها: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ} [الأنعام: 158]، نعم، هذه أيضًا تقطع الطريق على من أراد أن يؤول إتيان الله بإتيان ملائكته، فهنا قد جمع الله تعالى بين إتيانه وإتيان ملائكته في سياق واحد، فأين يذهبون؟ إذن الله تعالى يأتي إتيان حقيقيًا يليق بجلاله وعظمته على كيفية لا نعلمها، لا تُدركها عُقولنا، ولا تبلغها أوهامنا، ومتى يكون ذلك؟ يكون ذلك يوم القيامة في فصل القضاء بين العباد، يأتيهم الله في ظُلل من الغمام، والظُلل هي ما أظلك، والغمام هو السحاب الأبيض الرقيق، فيُنشئ الله تعالى بين يدي إتيانه هذا السحاب

الغمام الأبيض الرقيق، كمقدمة لإتيان الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء بين عباده.

قال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ}: أي وتأتيهم الملائكة.

قال: {وَقُضِيَ الأَمْرُ}: أي حصل الفصل بين العباد، فرأى كلٌ سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

قال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}: الله أكبر! لا سبيل للتحريف، فالملائكة تأتي، والرب سبحانه وتعالى يأتي إتيانًا يليق بجلاله، فهل ينظرون هذا؟ أم ينظرون شيئًا قبله، وهو شرط كبير من أشراط الساعة، وهو أن يأتي بعض آيات ربك؟ والآيات جمع آية وهي: العلامة، وقد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بطلوع الشمس من مغربها، تفسيرًا لا يبقى معه تفسير، ولا قول لأحد، ففسر قوله: {أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام: 158] بطلوع الشمس من مغربها[1]، وهذا من آخر أشراط الساعة، فإن الشمس كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم إذا غابت، تأتي فتسجد تحت العرش، كما في حديث أبي ذر -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ})[2]، فبين الناس ينتظرون شروقها قد حُبست عنهم ينظرون باتجاه المشرق متى تطلع عليهم الشمس؟ إذا بها تخرج من جهة المغرب، أجارنا الله وإياكم، أي فزع يلحق الناس؟ هذه الشمس التي مذ خلق الله السماوات والأرض وهي تدور في فلك تسبح فيه بانتظام، لا تحيد عنه قيد أنملة يقع لها هذا التغير الهائل، بدلًا من أن تطلع من جهة المشرق تطلع من جهة المغرب، فهذه علامة باهرة، وحينئذٍ {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ} [الأنعام: 158]، يُقفل باب التوبة، لأنها خرجت من باب المغرب، فحينئذٍ يُقفل باب التوبة، وتكون الدابة على إثرها - والله أعلم-، أيهما ظهرت أولًا فالأُخرى على إثرها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، والأقرب -والله أعلم- أن الشمس تطلع من مغربها ثم في ضُحى ذلك اليوم تظهر الدابة، فتسم كل إنسان بوصفه، مؤمن، كافر، مؤمن، كافر، حينئذٍ يُقفل باب التوبة، {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [الأنعام: 158].

قال: {كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}: الدك هو الدق والتفتيت، وذلك أن الأرض يوم القيامة تتعرض لأحداث جسام، الجبال الشامخات تُبس بسًا، تزول، تدور دورانًا، وتمور مورانًا، ثم يؤل حالها إلى أن تُفتت وتُصبح هباء منثورًا، كالعهن المنفوش، ثم تُصبح ذروًا، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [طه: 105- 107] إذن يوم القيامة تُدك الأرض دكًا دكًا، وتُصبح كالقرصة، كالخبزة، صعيد واحد ليس فيه معلم لأحد، تلك الأرض هي الأرض المبدلة التي قال الله عنها: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُواْ للَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم: 48]، أرض مُستوية لم يُسفك عليها دم، ليس فيها معلم لأحد، لا جبل يُرتقى، ولا واد يُهبط إليه، ولا مغارة تُكِنّ، الجميع على مستوى واحد، في تلك الحال ينزل الرب، ويجيء للفصل

---

[1] صحيح البخاري حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين: {لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل}(4635).

[2] صحيح البخاري (3199).

بين عباده، {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: 22] إذن {وَالْمَلَكُ}: عطف، والتقدير: وجاء ربك وجاء الملك صفًا صفًا، وذلك أن من شأن ملائكة الرحمن الانضباط والتنظيم، فهم مُنظمون في جميع أُمورهم، مُنضبطون، يأتون صفوفًا، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ)[1] ، فدلت الآية على إثبات المجيء لله تعالى مجيئًا حقيقيًا يليق بجلاله وعظمته.

قال: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلًا}: يذكر الله تعالى مُقدمات أو أحوال يوم القيامة، بأن السماء تشقق بالغمام، يعني تتشقق ويُصاحب تشققها هذا ظهور الغمام الأبيض الخفيف.

قال: {وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلًا}: فالملائكة تنزل، كل ذلك إرهاص ومُقدمة لنزول الرب سبحانه وبحمده، وقد جاء في حديث الصور الطويل، وفي سنده مقال: أن السماء الدنيا تنشق فتنزل ملائكتها فتُحيط بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم، ثم تنشق السماء الثانية فتنزل ملائكتها فيُحيطون بمن قبلهم، والثالثة والرابعة حتى السابعة، ثم بعد ذلك ينزل الرب للفصل والقضاء بين عباده، هذا حق، هذا يقين، لكن ما أعظم غفلتنا! لو قيل لأحدنا: إن عندك غدًا مُقابلة شخصية أو اختبار. لربما صار عنده نوع من التوتر والتحسب والترقب، وهو أمر دُنيوي زائل، ونحن نُوعد بهذه المواعيد، وأحدنا ينام ملء عينيه، ويضحك ملء شدقيه، وكأن الأمر مُجرد أخبار، فنسأل الله أن يعظنا موعظة حسنة، هذا يوم آت، يوم قادم لا ريب فيه، فنسأل الله أن يجعلنا فيه من السعداء الآمنين.

فدلت هذه الآية على إثبات صفتي الإتيان والمجيء لله تعالى إتيانًا ومجيئًا يليق به، فيجب أن نُثبت ما أثبت الرب لنفسه، وأما أهل البدع فعلى جري عادتهم أنكروا هذا، وقالوا: هذا يلزم منه النُقلة والحركة. وأخذوا يأتون بلوازم —سبحان الله– {أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} [البقرة: 140] بأي حق تُعطون أنفسكم صلاحية المنع والإجازة، وكأن الله تعالى لا يعلم ما يقول، ولا يُحسن ما يقول، تعالى الله عن ذلك، حتى تُنصبوا أنفسكم مُحكمين تُجيزون وتمنعون، أي جُرأة على الله فعلتموها؟ فقالوا: إن المقصود بمجيئه مجيء أمره أو مجيء ملائكته، أو غير ذلك. لكن النصوص تأبى عليهم، فإن كل عربي قُح يفهم من هذه الآيات مُباشرة: أن الرب يجيء، أن الله يأتي، لا يفهم سوى ذلك، لكن القوم لما استصحبوا المقدمات الباطلة وأعملوا المنطق الفاسد، واعتقدوا ثم استدلوا، نشأ عنه ما رأيتم من صور الانحراف والضلال، وحرفوا الكلِّم عن مواضعه.

وقبل أن نُغادر هذا الموضع أود أن أُبين بأن الإتيان والمجيء إذا جاء مُضافًا فإنه يتقيد بما أُضيف إليه ولا يكون صفة، أما إذا جاء مُطلقًا فإنه يدل على الصفة، يتبين هذا بالمثال:

مثلًا: قال الله عز وجل: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ} [الأعراف: 51]، هل هذه الآية تدل على إثبات صفة المجيء لله؟ لا، معنى {جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ} [الأعراف: 51]، يعني أنزلنا إليهم كتابًا، لا تدل على صفة المجيء لله تعالى، لأنها قد

[1] صحيح مسلم (430).

قُيدت بكتاب، {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ} [الأعراف: 51]، فلا تدل على إثبات صفة المجيء، إنما يدل عليها ما أُطلق، كقوله: {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر: 22].

مثال على الإتيان: قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر قنوط العباد من نزول المطر، قال: [حتى أتى الله بالرحمة والخير]، هل هذا النص يدل عل إثبات صفة الإتيان؟ لا، لأنه مُقيد، قال: [بالرحمة والخير] يعني المطر، فلننتبه! فإن جاء الشيء مُطلقًا دل على إثبات الصفة، وإن جاء مُقيدًا فإنه لا يدل على إثبات الصفة.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } {الرحمن: 27}، {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: 88].

دلت هاتان الآيتان على إثبات صفة خبرية من صفات الله سبحانه وتعالى وهي صفة الوجه، فلربنا جل وعلا وجه كريم يليق بجلاله وعظمته، وهو وجه حقيقي لا يُماثل وجوه المخلوقين، لكنه وجه حقيقي، إذ الوجه مُشتق من المواجهة، فلربنا سبحانه وتعالى صفة الوجه، ويجب أن نُثبتها لله تعالى كما أثبتها لنفسه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فنعتقد أن لربنا سبحانه وبحمده وجهًا كريمًا، سُبُحاته النور، و (حِجَابُهُ النُّورُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ – لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)[1]، فأهل السنة والجماعة يُثبتون لله تعالى صفة الوجه، ولا يُحرفونها، أما أهل البدع فإنهم شرقوا بهذا وضاقوا به ذرعًا، ورأوا أن إثبات الوجه لله يقتضي تمثيله بالمخلوقين، لأنه تبادر إلى أذهانهم أن الوجه هو الوجه المعهود في الأذهان، الذي يرونه في الموجودات من الإنسان والحيوان وغير ذلك، فالواقع أنهم شبهوا أولًا وعطلوا ثانيًا، هذه محنة المعطلة، أنهم يتبادر إلى أذهانهم من النصوص المعنى السيء، وهو: التشبيه أو التمثيل، ثم يهربون منه ليقعوا في التعطيل، فيجمعون بين السوءتين، ولو أنهم أعطوا النصوص حقها لعلموا أنه يسعهم أن يُثبتوا لله ما أثبت لنفسه إثباتًا حقيقيًا، ولا يلزم من هذا الإثبات الحقيقي التمثيل أو التكييف، إذن الواجب علينا أن نثبت لربنا ما أثبته لنفسه من هذا الوصف الكريم، بل إن هذه الصفة صفة الوجه من أعظم ما يتعلق به المؤمنون، ألم تروا أن الإنسان يقول في مُناجاته كما جاء في الحديث الصحيح: (وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ)[2]، فلا يُوجد لذة يتنعم بها أهل الجنة مثل لذة النظر إلى وجه الله الكريم، ونقول لهؤلاء: ما تصنعون بناطق الكتاب وصحيح السنة؟. قالوا: ليس على ظاهره، فالمراد بالوجه: الثواب، أو المراد بالوجه: الذات. وهذا تحريف فالواقع أن هذا التحريف يُوقعهم في لوازم لا يستطيعون الفكاك منها، فمثلًا: حينما يقولون: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: 27] أرأيت لو أنك رفعت كلمة {وَجْهُ} ووضعت مكانها: ذات، هل يُمكن أن يُضاف الشيء إلى نفسه؟ لا يُمكن، وكان يُغني عنه أن يقول: ويبقى ربك. إذن ما قال الله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: 27] إلا لحكمة، وأن له وجهًا حقيقيًا سبحانه وبحمده، ولهذا لاحظوا أن الله سبحانه وتعالى ختم الآية فقال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: 27] ف {ذو} من

[1] صحيح مسلم (179).

[2] سنن النسائي 1305)، صححه الألباني.

الأسماء الخمسة، وجاءت مرفوعة، إذن ينبغي أن تكون صفة لمرفوع، أليس كذلك؟ لو كان الوجه هو الذات، لقال: ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام. كما قال في آخر السورة: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: 78] لكنه قال ها هنا: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: 27] فـ {ذُو} من الأسماء الخمسة وقد جاءت مرفوعة، فدلت على أنها صفة لمرفوع، مما يدل على أن الله أراد إثبات وصفًا حقيقيًا غير الذات، وهو صفة الوجه.

أيضًا من زعم أن المراد هو الثواب، هل يُقال: ويبقى ثواب ربك؟. يعني لا يبقى إلا ثواب ربك فقط؟ لأن أول الآية: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: 26، 27] ولكن تفسير هذه الآية هو أن الله سبحانه وتعالى إذا أفنى الخلائق يوم القيامة يقول: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} ، أين الجبابرة؟، أين ملوك الدينا؟ أين كذا؟ فلا يُجيبه أحد، يقول الرب: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: 16] فيُجيب الرب سبحانه وتعالى على نفسه: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16]، وإنما عبر بالوجه عن الذات لأن الوجه في لُغة العرب أشرف ما يكون في الذات، فأنت مثلًا تقول لصاحبك: والله ما فعلت هذا إلا لهذا الوجه. أليس كذلك؟ هل تقول مثلًا لصاحبك: ترى أنا فعلت هذا لهذا الكتف، أو لهذه الركبة، أو لهذا القدم؟. لا أحد يقول ذلك، أشرف ما في الكينونة في لُغة العرب هو الوجه، لأنه هو الذي يُعبر عن المواجهة، فلذلك عبر الله تعالى عن ذاته الكريمة بالوجه، إذ الوجه مُشتق من المواجهة، فالواجب علينا أن نُثبت ما أثبت الرب لنفسه، وألا نتلجلج في ذلك ولا نستشنع ما أثبت الرب لنفسه، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قِيلًا وأحسن حديثًا، فليس لأحد أن يستدرك على الله ما قال، فليسوا أغير على الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة الكرام –رضي الله عنهم– ذوو القريحة العربية والسليقة ما فهموا من إثبات الوجه ما فهمه المتأخرون من أن ذلك يقتضي تمثيلًا بالمخلوقين، بل اعتقدوا أن لله تعالى وجهًا كريمًا يليق بجلاله وعظمته لا يُماثل وُجه المخلوقين، {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} [القصص: 88]، فكل ما في هذا الكون يُهلكه الله سبحانه وتعالى إلا ما استثنى فإن الله تعالى قد قال في آية الزمر: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ} [الزمر: 68]، فقد استثنى الله من شاء، أما عامة الخلائق والكائنات فإنها تهلك، ويبقى الرب سبحانه وتعالى، ولهذا كان من أسمائه الحسنى الآخر، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ناجى ربه يقول : (اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ)[1] ، إذن هذا هو الواجب علينا في إثبات هذه الصفة الخبرية إثباتها، والحذر من الوُقوع في التحريف والتعطيل، أو التمثيل والتكييف

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [ص:75] ، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: 64].

اكتفى الشيخ –رحمه الله– بذكر هاتين الآيتين على إثبات صفة اليدين لله عز وجل، وإلا ففي القرآن العظيم أكثر من ذلك، فعقيدة أهل السنة والجماعة إثبات صفة اليدين لله عز وجل، وأن الله سبحانه وتعالى له يدان حقيقيتان

[1] صحيح مسلم (2713).

مبسوطتان بالعطاء والنعم لا تُماثلان أيدى المخلوقين، هذا مُعتقد أهل السنة والجماعة أن لله سبحانه وتعالى يدين حقيقيتين مبسوطتين بالعطاء والنعم، لا تُماثلان أيدي المخلوقين، وحينما نقول: إنهما يدان حقيقيتان. لا يقتضي ذلك أن تكون كأيدي المخلوقين، لكن نقول: هي يد حقيقة، موصوفة بالبسط، والقبض، والكف، واليمين، والأصابع. وغير ذلك من الصفات التي تُضاف إلى الأيدي الحقيقية، لكن على غير مُماثلة للمخلوقين، فيجب علينا أن نؤمن بهذا كما أخبر ربنا سبحانه عن نفسه، وتأملوا أنه خاطب إبليس بهذا فقال تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75] هكذا بصيغة التثنية، وقال سبحانه رادًا على يهود حينما قالوا: {يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة: 64]، لم يُنكر الله تعالى عليهم إثبات اليد، وإنما أنكر عليهم وصفها بأنها مغلولة، ولهذا قال بعدها: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: 64]، لم يقل: ليس له يدان. وإنما أنكر عليهم وصفه بالبخل، تعالى الله عن ذلك علوً كبيرًا، قال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: 64]، وحكم عليهم بقول: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} [المائدة: 64]، فلا تجد يهوديًا إلا بخيلًا، ولذلك انظروا لما كانت اليهود هم الذين يُسيطرون على الاقتصاد العالمي أسسوا النظام الربوي الذي يقوم على ابتزاز الآخرين واستلاب حُقوقهم، وعدم الإحسان والفضل والبذل، لأن هذه عقيدة يهود، قاتلهم الله، وأصابهم ما حكم الله تعالى به عليهم من قوله: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} [المائدة: 64]، فتجد في جميع الثقافات العالمية والأدبيات العالمية اليهودي دومًا موصوف بالبخل، موصوف بالإمساك، لأن الله تعالى حقق عليهم هذا الوصف، حتى في الروايات العالمية دائمًا يُصور اليهودي بصورة البخيل، المبتز، المرابي، إلى غير ذلك من الأوصاف.

إذن علينا أن نعتقد أن لله تعالى يدان حقيقيتان مبسوطتان بالعطاء والنعم لا تُماثلان أيدي المخلوقين، وأنهما موصوفتان بما تُوصف به الأيدي الحقيقية من القبض، والبسط، والرفع، والخفض، والطي، والأصابع، والكف، واليمين، ونحو ذلك، كل هذا ثابت بالنصوص من الكتاب والسنة، أما أهل البدع فقد أبوا ذلك، وقالوا: لا يُمكن أن نُثبت لله تعالى يدين حقيقيتين. لم؟ لشُبهتهم القديمة، وهي أن إثبات ذلك يقتضي التمثيل، فنقول لهم: أنتم اعتقدتم أن إثبات اليدين يقتضي التمثيل فوقعتم في التمثيل أولًا، ثم هربتم منه فوقعتم في التعطيل ثانيًا، ماذا تصنعون بهذه الآيات؟ قالوا: كلا، المراد باليد، النعمة أو القُدرة. ماذا نُسمي هذا؟ نُسميه تحريفًا، وهم يُسمونه تأويلًا، والواقع أنه تحريف لأنه لا دليل لهم، ولا أثارة من علم على نقل معنى اليد إلى النعمة أو القدرة، فيقولون: إن معنى قول الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: 1] يعني بقدرته، {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75] المراد باليد النعمة، أو القدرة أو نحو ذلك، فيُقال لهم:

أولًا: صنيعكم هذا صرف للفظ عن ظاهره إلى خلاف ظاهره بلا دليل، والأصل في الكلام أنه على حقيقته، فمن ادعى أنه على خلاف حقيقته فلا بد له من الدليل الموجب لنقل الكلام من ظاهره إلى خلاف ظاهره، وأنّى لكم؟ فلا دليل عندكم، طبعًا هم يستدلوا بأن هذا لأجل عدم الوُقوع في التمثيل فنقول لهم: هذا وهم فاسد لا يلزم منه ما ظننتم وسبق إلى أذهانكم.

ثانيًا: أن نقول لهؤلاء: على قولكم بأن اليد بمعنى النعمة، إذن أنتم حصرتم نعم الله بنعمتين، لأن الله أتى بصفة اليد مُثناه، فهل يقول مؤمن: ليس لله تعالى إلا نعمتين اثنتين؟!. نعم الله كثيرة كما قال الله تعالى: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا} [إبراهيم: 34]، {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} [لقمان: 20]، وعلى قولكم لا يكون لله إلا نعمتان اثنتان فقط، لأنه قال: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75]، يعني بنعمتي، {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: 64]، بل نعمتاه، فحصرتم النعم الكثيرة التي إن تُعد لا تُحصى باثنتين، وهذا دليل على فساد ما ذهبتم إليه.

ثالثًا: لو فسرنا اليد بالقدرة، لأدى ذلك إلى أن تُثبتوا لله قُدرتين، وبإجماع أهل السنة أن الله تعالى له قدرة واحدة يقدر بها على جميع الأشياء، فأنتم أثبتم قُدرتين، فهذا يدل على فساد مذهبكم.

رابعًا: نقول: على زعمكم بأن اليد بمعنى القدرة أي فرق إذن بين آدم وغيره؟. الله تعالى كرم آدم عليه السلام بأن خلقه بيديه، فلو كان معنى: بيديه، أي: بقدرته، لم يكن هناك فرق بين آدم عليه السلام وغيره من المخلوقات، لو كان كذلك لاحتج إبليس على ربه حينما قال له ربه: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75]، لو كان معنى اليد القدرة، لقال إبليس: وأنا يا رب خلقتني بيديك. على اعتبار أن اليد هي القدرة، لكن إبليس أفقه من هؤلاء المحرفة، يعلم أن لله سبحانه وتعالى يد حقيقية، وهؤلاء القوم لم يُدركوا ما أدرك إبليس، فأي جهل هذا؟! يكون إبليس أعلم بالله منهم.

فكما تُلاحظون أن أي قول باطل يلزم عليه من اللوازم الفاسدة ما لا يستطيع المبطل أن ينفك منه، **فهو أمام أمرين:**

الأمر الأول: أن يلتزم بلازمه، فيكفر.

الأمر الثاني: أن يتراجع عن ذلك ويأباه، فيلزمه أن يتخلى عن مقالته.

فهذا هو خُلاصة ما يتعلق بإثبات هذه الصفة الشريفة، وهي إثبات صفة اليدين.

الدرس (13)

إثبات العينين واليدين لله

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: 48]} .

وَقَوْلُهُ: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ} [القمر: 13، 14] .

وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ} [آل عمران: 54] .

وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [النمل: 50] .

وَقَوْلُهُ: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: 15، 16] .

هذه الآيات الثلاث دلت على إثبات صفة العينين لله تعالى، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن لله سبحانه وتعالى عينين اثنتين، يُبصر بهما حقيقة، هذا مُعتقد أهل السنة والجماعة، وقد أخذوه من ناطق الكتاب وصحيح السنة، فيثبتون

لله صفة العينين إثباتًا حقيقيًا، على وجه لا يُماثل المخلوقين، فما أُضيف إلى الله يختص به، وما أضيف إلى المخلوق يختص به، فها نحن الآن نصف بعض الأشياء والموجودات بالعين مع وُجود الفوارق بينها، فنقول: هذه عين إنسان. ونقول عن الصقر: عين الصقر، ثاقب النظر. ونقول: هذه عين الكاميرا. وهكذا، فالواقع أن اتفاق الأسماء لا يلزم منه اتفاق الحقائق والمسميات، فلله تعالى عينان كريمتان يُبصر بهما حقيقة لا تُماثل أعين المخلوقين، وأما أهل البدع فعلى جري عادتهم وطريقتهم أنكروا ما أثبت الرب لنفسه، وأولوا صفة العينين إلى العلم، أو ما أشبه ذلك من التحريفات، ولعلمكم معشر طلبة العلم جميع أهل التأويل والتحريف المذموم لا يقولون: إن ما نذكره من هذه التأويلات قام عليه دليل. هُم مُقرون معترفون بأنه لا دليل عليها، وأنهم إنما يفعلون ذلك من باب الاجتهاد في حمل كلام الله على معان لائقة، حتى لا يظن العامة بالله ظن التمثيل، ولو سلم العامة منهم لكان خيرًا، هم الذين أفسدوا عقائد العامة ونقلوهم من الفهم الفطري العفوي الصحيح، إلى هذه اللوثات الباطلة، فأوقروا في قُلوب العامة أن هذه الآيات تدل على التمثيل، وأن الواجب صرفها عن ظاهرها واقتراح معان أُخرى بلا دليل، فأي مُجازفة يصنعونها؟ وأي تضليل يُمارسونه في أعظم وأخطر أبواب الدين وهو باب العلم بالله تعالى؟ فلذلك نقول: بل نعتصم بالكتاب والسنة ونُثبت ما أثبت الرب لنفسه.

إذن لعلكم تُلاحظون معشر طلبة العلم ومن بلغ أن هذه المجموعات الثلاث دالة على إثبات الصفات الخبرية لله وهي: صفة الوجه، وصفة اليدين، وصفة العينين، وهكذا كل ما أخبر الله تعالى به عن نفسه، فالواجب علينا أن نتقبله قبولًا حسنًا، وألا نضيق به ذرعًا، وألا نستشنع شيئًا منه، وأن نحمله على المثل الأعلى الذي أراده الله سبحانه وتعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ} [النحل: 60]، {وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ } [الروم: 27]، وأن نُنزه الله تعالى عن مُماثلة المخلوقين، عن كل نقص وعيب ومُماثلة المخلوقين، فنُثبت لله إثباتًا بلا تمثيل، ونُنزه الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل، هذه هي الطريق السوية التي تُثمر العلم والحكمة والسلامة، وما سواها فسُبل ضلالة تهوى بصاحبها في الدركات وتجعله بلا حُجة أمام الله عز وجل، ما حُجة هذا المحرف يوم القيامة إذا قال له ربه: من أين لك أن اليد بمعنى النعمة؟ من أين لك أن اليد بمعنى القدرة؟ من أين لك أن الوجه بمعنى الثواب؟ من أين لك بأن العين بمعنى العلم؟ لا دليل له، لا أثارة من علم، وإنما هي بنات أفكار، وخواطر جرت، ولذلك تختلف تأويلاتهم فيها، حتى إنهم يؤلفون في أقاويل الثقات في تأويل الصفات، كلٌ يأتي من رأسه **بصوت**، ولا يُمكن أن يكون هذا المقام العظيم الشريف في مهب الريح نهبًا لكل فكرة وكل طارق، قد بين الله تعالى مُراده بكلام بين صريح فصل، وكذا نبيه صلى الله عليه وسلم، لكن هاهنا إشكال رُبما خطر ببال بعضكم، وهو أننا حينما نتأمل الآيات الواردة في إثبات صفة اليدين والعينين خاصة، لأن هما اللتان وردتا بصيغة التثنية، بخلاف الوجه، فالوجه ورد بصيغة الإفراد لفظًا واحدًا، لكن لو تأملنا في صفة اليدين والعينين لوجدنا أنهما وردتا تارة بالإفراد، وتارة بالتثنية، وتارة بالجمع، أليس كذلك؟ تأملوا معي: اليدين، بصفة الإفراد: قال الله عز وجل: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: 1].

تثنية: قال تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75].

صيغة الجمع: قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [يس: 71].

إذن عندنا إفراد وتثنية وجمع.

والعينان، إذا أتينا إلى صفة الإفراد نجد أن الله تعالى قال: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39] يعني بذلك كليم الله موسى عليه السلام، مُمتنًا عليه أنه ترعرع ونشأ بمرأى من الله سبحانه وتعالى.

وبصيغة التثنية لا نجد هذا في القرآن، لا نجد في القرآن آية فيها ذكر العينين بصيغة التثنية، لكن رُبما وجدنا ذكر في السنة، فقد ورد في حديث وإن كان فيه مقال: [إذا قام العبد يُصلى قام بين عيني الرحمن] بالتثنية، لكن يُمكن أن نستغني عنه بدليل آخر، وإن لم يكن صريحًا لفظًا لكنه صريح معنى، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر الدجال قال: (أَلاَ إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ)[1] فدل ذلك على أن الرب سبحانه وتعالى له عينان اثنتان، فهذا يدل على التثنية.

أما بصيغة الجمع فقد قال الله تعالى: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: 14] إذن ماذا نصنع أمام هذا التنوع في السِياق؟ لو قال لنا قائل: هذا تحكم منكم أنكم اخترتم التثنية دون الإفراد ودون الجمع. نقول: كلا، نُرتب الآن الأُمور ليتبين أن المقصود التثنية:

أولًا: المفرد المضاف لا يُنافي لا التثنية ولا الجمع. قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: 1]، أو قوله: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39]، هذا أليس مُفردًا؟ ومُفردًا مُضافًا، { عَيْنِي}، أضاف العين إلى ياء المتكلم، {بِيَدِهِ} أضاف اليد إلى الضمير، **في لُغة العرب أن المُفرد المُضاف يعم** ، يعني لا يدل على الإفراد فقط، أُقرب لكم لذلك بمثال: حينما يقول أحدكم: شاهدت الحادث بعيني. هل يُقال: والله مسكين هذا **أعور**؟. لا يُقال ذلك، حينما تقول مثلًا: مشيت إلى المسجد برجلي. هل يُقال: إنه مبتور القدم؟. لا، لأن المفرد المضاف يعم، لا ينافي التثنية أو الجمع، إذن انتهينا من المقام الأول من الخلاف، فالإفراد لا يُنافي التثنية ولا الجمع، لأنه في لُغة العرب المفرد المضاف يعم، فلا يُنافي لا التثنية ولا الجمع.

إذن بقي الإشكال: كيف نُوفق بين التثنية والجمع؟ فالجواب عن ذلك أن يُقال: إن الجمع الوارد في قوله: {بِأَيْدِينَا} [التوبة: 52]، {بِأَعْيُنِنَا} [هود: 37، المؤمنون: 27، الطور: 48، القمر: 14]، لا يُقصد به التكثير، وإنما يُقصد به التعظيم، فإن الرجل المعظم من بني آدم إذا أراد أن يُعبر عن نفسه ماذا يقول؟ يقول: نحن فلان بن فلان. وهو شخص واحد، أمرنا بما هو آت. أمرنا، نا هذه على ماذا تدل في الأصل؟ تدل على أنها نا الفاعلين، لكنه لم يقصد بها الكثرة وإنما قصد بها التعظيم، إذن معروفٌ في لُغة العرب أنه يؤتى بنا الفاعلين ولا يُراد بها التكثير وإنما يُراد بها التعظيم، هذا وجه.

[1] صحيح البخاري (7131)، صحيح مسلم (2933).

ووجه آخر: لكي تحصل مُشاكلة بين المضاف والمضاف إليه، فلما كان المضاف إليه في أصل وضعه يدل على التعدد وإن كان المقصود به هنا التعظيم، ناسب أن يكون المضاف على شاكلته بصيغة الجمع، فقال: {أَيْدِينَا} فيكون تعظيمًا مُضاعفًا، {أَعْيُنِنَا} يكون تعظيمًا مُضاعفًا، فتبين بهذا أن الجمع في قوله: {أَيْدِينَا} و {أَعْيُنِنَا} لا يُراد به حقيقة الجمع الذي بمعنى التكثير، وإنما يُراد به التعظيم والمشاكلة بين المضاف والمضاف إليه، المشاكلة يعني أنه يكون من شكل وجنس واحد، فإذا جاء هذا بصيغة الجمع، جاء هذا بصيغة الجمع، فيكون ذلك أبلغ في التعظيم، فبالتالي نقول: لله تعالى: **يدان** اثنتان. وقد جاء ذلك مُصرحًا في السنة: (يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟)[1] ، فهكذا أثبت النبي صلى الله عليه وسلم بصريح العبارة أنهما يدان اثنتان كما في الآيات، فيصدق بعضه بعضًا، وكذلك العينين، قال: (إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ)[2]: فدل ذلك على أن المقصود التثنية، لا الإفراد، ولا الجمع، فبذلك يزول الإشكال بين هذه الصيغ المختلفة من الإفراد والتثنية والجمع، ويتبين أن قولنا بالتثنية ليس تحكمًا وإنما هو الموافق المطابق للغة العرب.

فاتنا أن نُبين معاني الآيات، في آيات العينين.

قال: {وَاصْبِرْ}: الصبر في اللغة هو: الحبس والمنع، والمقصود بهذا الصبر على حُكم الله، **وحكم الله نوعين:**

الحكم الأول: حُكم كوني قدري.

الحكم الثاني: حُكم ديني شرعي.

فالحكم الكوني القدري هو ما يُقدره الله تعالى من المصائب والبلاء، فيجب على الإنسان، الصبر عليه، كيف يكون الصبر عليه؟ بحبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والسخط، والجوارح عن شق الجيوب ولطم الخدود والدعاء بدعوى الجاهلية.

أما الصبر على حُكم الله الشرعي الديني فيكون بامتثال الأوامر، واجتناب المناهي.

إذن الله تعالى يقول لنبيه: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [الطور: 48] والخطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم خطاب للأمة بعده، فنحن جميعًا مأمورون أن نصبر لحُكم ربنا، سواءً كان ذلك الحُكم حُكمًا كونيًا قدريًا، أم كان ذلك حُكمًا دينيًا شرعيًا، وعرفنا كيف يكون الصبر؟.

قال: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} : هاهنا شُبهة يثيرها بعض المؤولة، يقولون: ها أنتم يا أهل السنة مُضطرين للتأويل مثلنا. لم؟ قالوا: هل يُمكن أن تقولوا: {بِأَعْيُنِنَا} أن محمد صلى الله عليه وسلم في عين الرب؟ هل يُمكن أن تكون عين الرب ظرفًا مكانيًا للنبي صلى الله عليه وسلم؟. والحقيقة أنهم أُتوا بسبب عُجمتهم، وعدم ذائقتهم العربية،

[1] صحيح مسلم (2788).

[2] صحيح البخاري (7131)، صحيح مسلم (2933).

فإن معنى قول الله تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: 48]: أي بمرأى منا نراك بأعيننا، فأنت مثلًا حينما تقول مثلًا لابنك: تراك بعيني. هل تقصد بين أهدابك؟ بين أشفار عينيك؟ لا، تراك بعيني، يعني أراك بعيني، وهكذا حينما يقول مثلًا السلطان للجاري أو المجرم: اذهب وأنت في عيني. مُراده أنك في عيني أي تحت نظري، أُبصرك وأُتابعك، هذا هو المقصود، لكن القوم توهموا أن في هذا إلزامًا لأهل السنة وأنهم مُضطرون للتأويل، ولا تأويل، فأهل السنة هم أعرف الناس بلغة العرب، ومُراد الله، وخطابه لعباده، كذا في الآية التي بعدها.

قال: {وَحَمَلْنَاهُ}: من؟ نوح عليه السلام.

قال: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ }: اللوح هو الخشب العريض، والدُسر المسامير، ما هي ذات الألواح والدُسر؟ السفينة، الفلك الذي صنعه نوح عليه السلام بتعليم الله إياه.

قال: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}: أي بمرأى منا نراها بأعيننا وتحت كلاءتنا ورعايتنا، فهذا ليس فيه تأويل ولا تحريف بل يدل على إثبات العينين لله تعالى، وأنه يُبصر بهما حقيقة، فلا تُشوش عليك أيها الموحد مثل هذه الواردات التي يُوردها المحرفون، ويقولون: إنكم مُضطرون للتأويل. نقول: لا تأويل أبدًا بل هي حق على حقيقتها، فمعنى {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: 14]: أي بمرأى منا نراها بأعيننا.

قال: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}: الله تعالى يمتن على موسى عليه السلام بأنه لما وضعته أُمه في التابوت وقذفته في اليم مُتوكلة على الله، ودفعه اليم حتى بلغ ضفاف النهر عند قصر فرعون، ألقى الله سبحانه وتعالى على هذا الوليد الرضيع ألقى عليه محبة، بحيث كل من رآه أحس بمحبة، وهذا أمرٌ مُدرك، أحيانًا ترى لأول وهلة أحدًا فتُحبه، أليس كذلك؟ هكذا الله تعالى مع أن موسى عليه السلام حينما وقع في أيدي آل فرعون أدركوا أن شبهه شبه بني إسرائيل، عرفوا أن ملامحه وتقاسيمه ليست تقاسيم آل فرعون، وإنما هو من بني إسرائيل، وهذا واضح، الناس يعرفون القسمات والسمات، لكن مع ذلك ألقى الله سبحانه وتعالى عليه محبة، فأحبته امرأة فرعون، وكذا فرعون، حتى أقنعت زوجها بأن يتخذوه ولدًا، وقالوا: ما يُدريه إذا كبر أنه من بني إسرائيل ما منه خطر؟. مع أنه كان يقتل الأطفال، {يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ} [القصص: 4].

قال: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}: أي لتنشأ وترعرع.

قال: {عَلَى عَيْنِي}: أي بمرأى مني، أراك بعيني.

فهذه الآيات كُلها دلت على إثبات ما سمعتم من إثبات الوجه الكريم لله تعالى، واليدين المبسوطتين بالعطاء والنعم، والعينين الكريمتين التي يُبصر بهما حقيقة.

أما عن الأثر المسلكي المتعلق بإثبات صفة الوجه واليدين والعينين لله سبحانه وتعالى، فإننا قد قررنا مرارًا بأنه ما من صفة من صفات الله إلا ولها أثر على من يؤمن بها، فإيماننا بإثبات الوجه لله تعالى يحملنا على التعلق به سبحانه، وأن نتمنى رؤية وجهه الكريم، فأعظم لذة يُمكن أن ينالها مؤمن أن يرى وجه الله، ألم تروا أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه،

تاقت نفسه إلى رؤيته فقال: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف: 143]، هكذا كل مؤمن يشتاق أن يرى ربه، إلهه ومعبوده، لأنه ما معنى التأله؟ الانجذاب، فأنت تتمنى أن ترى ربك، وتتمنى رؤية وجهه الكريم، فهذا يجعل الإنسان في شوق دائم وتوق وتطلع لبلوغ هذه النعمة العظيمة، هذا مما يحصل من جراء الإيمان بوجه الله الكريم، وأيضًا يُنشئ عندك نوعًا من الإخلاص والتوحيد، فأنت كلما هممت بعمل تقول: ابتغاء وجه ربي. {وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى} [الليل: 19، 20].

أيضًا الإيمان بإثبات اليدين لله تعالى له أثر مسلكي على الإنسان وهو أنه يعلم أن ربه فعال، يأخذ ويقبض، ويبسط، ويبطش، ويطوي، ويفعل بيديه سبحانه ما شاء، كما أنه أيضًا سبحانه وتعالى يُعطي، {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: 64]، فيكون إيمانه بإثبات اليدين لله تعالى يتراوح بين الخوف من بطشه والرجاء لثوابه، كذلك إيمانك بإثبات العينين لله تعالى يحملك على توقي أن يراك الله تعالى بعينيه على حال يسخط بها عليك، ويحملك على أن تتعرض لربك بأن يراك على حال بعينيه وأنت في حال تُرضيه، كقيام ليل، أو صدقة، أو غير ذلك، فهذه الصفات الربانية لها أثر مسلكي على المؤمن.

أورد شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- بعد ذلك طائفة من الآيات الدالة على إثبات السمع والبصر، والواقع أنه سبق أن أشار إلى هذا في موضع مُتقدم، وسيُشير إليها أيضًا لاحقًا، وذلك أن الشيخ - رحمه الله- كان يكتب عفو الخاطر، بمعنى أنه لم يكن يُصنف كما يُصنف غيره، يضع خطة بحث، والباب الأول، والباب الثاني، وإنما يكتب ما يحضره، وقلمه سيال، وعقله وقاد -رحمه الله-، فكتب هذه الرسالة في قعدة بين الظهر والعصر، أو بعد العصر كما مر بنا.

📖قال المؤلف -رحمه الله-: وَقَوْلُهُ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: 1].

وَقَوْلُهُ: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181] ، {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: 80].

وَقَوْلُهُ: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46].

وَقَوْلُهُ: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}[العلق: 14] {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: 218 – 220] ، {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 105].

قال: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ}: إذن دل على إثبات السمع بعدة صيغ، سمع، ويسمع، وسميع، الله أكبر! في آية واحدة، قال: {قَدْ سَمِعَ} و{اللَّهُ يَسْمَعُ} و{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، أي إثبات أوضح من هذا الإثبات؟ إذن لله تعالى سمع حقيقي يليق بجلاله

وعظمته، وسبب نزول هذه الآية التي هي مُستهل سورة المجادلة أن أوس بن الصامت صار بينه وبين امرأته خولة بنت ثعلبة، صار بينهما شيء من المراجعة فقال: أنت عليَّ كظهر أُمي. ثم خرج مُغضبًا إلى نادي قومه، ثم عاد أدراجه وقد سكنت نفسه، وأراد منها ما يُريد الرجل من زوجه، فقالت: كيف وقد قلت ما قلت؟. فغالبها، فغلبتها بما تغلب المرأة الشابة الشيخ الكبير، وطرحته، ثم استعارت ثيابًا من ثياب جارتها، وذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تشكو إليه ما جرى، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: [يا خولة: اتقي الله واصبري على زوجك]، فكانت تقول: يا رسول الله أولادي إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن تركتهم عنده ضاعوا. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لها كذا وكذا، فكانت تسأل الله عز وجل وتشتكي، تقول: اللهم إني أشكو إليك. ضاقت بها المذاهب، فما هو إلا أن أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يأخذه من الوحي، فلما سُري عنه قرأ هذه الآيات: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: 1] في الحال، في الآن، وهي تُجادل النبي صلى الله عليه وسلم تأخذ وتُعطي معه، وتُراجعه في الكلام، الله تعالى يسمع.

قال: {وتشتكي إلى الله}: تقول: اللهم إني أشكوا إليك: أولادي إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن تركتهم عنده ضاعوا.

قال: {وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا}: والمحاورة هي المراجعة في الكلام.

قال: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} : فدل ذلك على إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، هما: السميع، والبصير، ودل على إثبات وصفين، وهما: السمع، والبصر.

قال: {لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ} : من هؤلاء القائلون لهذه المقالة الفجة؟ هم اليهود، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتلو: {مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [الحديد: 11]، فكانوا يتندرون ويستهزئون ويقولون: الله يسألنا القرض، الله فقير ونحن أغنياء. تعالى الله عما يقولون، فالله تعالى قال: {لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181]، تعالى الله عما يقولون، والشاهد منها إثبات صفة السمع لله عز وجل.

قال: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} : من هؤلاء؟ هم المنافقون الذين كانوا إذا خلا بعضهم ببعض أخذوا يقعون في النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ويحيكون المؤامرات، فالله سبحانه وتعالى يُعجب من حالهم ويقول: {أَمْ يَحْسَبُونَ}: يعني يظنون.

قال: {أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم} : فالسر هو ما يكون من حديث النفس، والنجوى هو ما يتحدث به الرجل مع الرجل، أو الرجل مع الرجلين.

قال: {بلى}: يعني بلى نسمع.

قال: {وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} : من الرسل الذين يكتبون هنا؟ الرُسل الملائكيون أم البشريون؟ الملائكيون، {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 18]، فدل ذلك على إثبات السمع لله تعالى سمعًا حقيقيًا يليق بجلاله.

قال: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} : من هما؟ موسى وهارون عليهما السلام، لأنهما قالا لربهما: {إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى} [طه: 45]، يعني فرعون هذا قد يرتكب حماقة، يُمكن أن يُهلكنا، فطمأنهما الله بقوله: {إِنَّنِي مَعَكُمَا} [طه: 46]: هذه المعية ستأتينا إن شاء الله لاحقًا وهي معية خاصة.

قال: {أَسْمَعُ وَأَرَى}: فتضمنت الآية إثبات السمع، والبصر لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته.

قال: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} : هذه الآية في الرد على أبي جهل، لأن أبا جهل كان يهم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم، زعم أنه إن رأى محمدًا ساجدًا في صحن المطاف، أن يُلقي عليه حجرًا يرضخ به رأسه، فالله تعالى يتهدده: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: 14]، وكان يقول لنبينا صلى الله عليه وسلم: ستعلم يا محمد غدًا من أكثرنا ناديًا؟. يعني من يُنادي فيُستجاب له، فلهذا قال الله: {فَلْيَدْعُ نَادِيَه (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} [العلق: 17، 18] فلما هم أن يُلقي الحجر على رأس النبي صلى الله عليه وسلم تدهده ورجع إلى الوراء، حتى عجب منه أصحابه، قالوا: ماذا أصابك؟ فقال: كأنه صار بيني وبينه مثل النار. أو نحو ذلك، المهم أن الله تعالى قال: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: 14]، إذن فيها إثبات الرؤية لله وإثبات البصر.

قال: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} : الله تعالى يُخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم مُبينًا له أنه تحت سمعه وبصره.

قال: {الَّذِي يَرَاكَ}: أي الله.

قال: {حِينَ تَقُومُ}: أي حين تقوم للصلاة.

قال: {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}: من الساجدون؟ هم المسلمون، يعني لأنه يتقلب بين أعطافهم وبين ظهرانيهم، فهو بمرأى من الله تعالى.

قال: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}: من المخاطبون بهذا؟ المنافقون، لأن المنافقين كانوا يحيكون المؤامرات والدسائس، ويعملون أعمالًا في الخفاء، فالله يتهددهم، ويتوعدهم ويقول لنبيه قل لهم: {اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 105]، فأثبت الله لنفسه رؤية، وأثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم رؤية، وأثبت للمؤمنين رؤية، وليست رؤية كرؤية، فالرؤية المضافة إلى الله تليق به، والرؤية المضافة إلى النبي والمؤمنين تليق بهم، وبالمناسبة فإن بعض الناس يُخطئون فيستدلون بهذه الآية عند القيام ببعض المشاريع والأعمال الخيرية فيكتبون هذه الآية، وفي المقالات، {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ} [التوبة: 105]، يظنون أن الإتيان بها مُناسب للمقام، وأن هذه دعوة إلى العمل، لكن هذه الآية جاءت في سياق ذم المنافقين وتهديدهم، فلا يحسن الاستشهاد بها في مثل هذه المواضع.

وهذه الآيات بمجموعها دلت على إثبات السمع والبصر لله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه يسمع ويرى، سمعًا حقيقيًا، ورؤية حقيقية.

ولا يخفى عليكم جميعًا الأثر المسلكي لإيمان المؤمن بهذا، فإن إيمان المؤمن بأن الله يسمع كلامه، ويرى مكانه ويُبصر حاله، يسكب في قلبه الطُمأنينة، لأنك تُحس بمعيته سبحانه، وأنك تحت سمعه وبصره، وأنك لست بمضيعة.

كما أنه أيضًا من آثارها المسلكية: أن إيمانك بسمع الله يحملك على أن تعقل لسانك، فلا تتكلم بغيبة، ولا نميمة، ولا شتيمة، كلما هممت بكلمة وتذكرت أن الله يسمع وزنتها، فلا يخرج منك إلا كلم طيب، كما قال الراوي في حديث بلال بن الحارث المزني: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ، أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)[1]، قال: كم من كلمة منعنيها حديث بلال بن الحارث المزني.

وبالمقابل فإن إيمانك بسمع الله تعالى يحملك على أن تتملق ربك وإلهك بالكلم الطيب، فيخرج من فِيك التسبيح، والتهليل، والتحميد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر الكلم الطيب.

وبالمقابل أيضًا إيمانك برؤية الله عز وجل وأنه يراك وأنك مكشوف هذا يحملك على أن تستحي من الله، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: [استح من الله حياءك من ذي جلالة من قومك]: يعني أحد له قدر عندك من قومك، فإذا ذكر الإنسان أن الله يراه بعدما أوصد الأبواب وأرخى الستور وغاب عن أعين الناس انقمع واستحى، ولم يبدر منه شيء يراه الله عليه فيسخط عليه.

كذلك أيضًا يعمد إلى مراضي الله ومحابه فيتعرض إلى أن يراه الله على حال يرضى عليه بسببها، كل هذه آثار مسلكية للإيمان بإثبات صفة السمع والبصر لله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

والله أعلم.

الدرس (14)

إثبات الصفات لله

قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد: 13].وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: 54].وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } [النمل: 50].وَقَوْلُهُ: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: 15، 16].

تقرر معنا مِرارًا أن كل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم فهو حق على حقيقته، وأنه يجب إجراؤه على ظاهره، وألا يُتعرض لذلك بأي لون من ألوان التحريف، أو التعطيل أو التكييف أو التمثيل، سواءٌ في ذلك الصفات الذاتية المعنوية، أو الصفات الخبرية، أو الصفات الفعلية، وكل ذلك قد مر بنا، فمر بنا من الصفات الذاتية المعنوية: صفة العلم، ومن الصفات الخبرية: الوجه، واليدان، والعينان، ومن الصفات الفعلية: المجيء والإتيان، فالقول فيها قول واحد، ومعنا طائفة من الصفات التي تُضاف إلى الله تعالى كما أضافها لنفسه، لكنها تُضاف إليه مُقيدة لا مُطلقة،

[1] صحيح مسلم (50).

وذلك لأن مدلولاتها تنقسم إلى محمود ومذموم، فلما كان الوهم قد يتطرق إلى العُقول باحتمال المعنى المذموم وجب أن تُضاف إلى الله تعالى مُقيدة، وسيتضح ذلك إن شاء الله بالأمثلة.

قال: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}: قال عن نفسه، سبحانه وبحمده، والمحال هو شدة الكيد، فالله تعالى قد أضاف إلى نفسه الكيد، بل شدة الكيد، لكنه كيد بمن يستحق أن يُكاد، كما قال أيضًا: { وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: 54]: يعني بذلك بني إسرائيل، فإن بني إسرائيل أرادوا الوشاية بعيسى ابن مريم عليه السلام، لدى بلاطس الحاكم الروماني الذي كان في بيت المقدس ليقبض عليه ويقتله بدعوى أنه يُريد أن يُقيم ملكًا لبني إسرائيل، فوشوا به وأخبروا عن موضعه، ولكن الله سبحانه وتعالى استنقذه من بين أيديهم فرفعه إليه، فهم قد مكروا، لكن الله قد مكر، {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: 54].

قال: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}: أولئك الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: { وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [النمل: 48، 49]: إذن هذا مكرٌ منهم، وتحايل، فقال الله تعالى: { وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [النمل: 50].

قال: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا}: أي المشركون، {يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا } [الطارق: 15، 16]، فهو كيد بمقابل كيد، إذن ما المراد بالمكر والكيد؟ المراد بالمكر والكيد والمحال هو إيصال العقوبة بطريق خفي، إيصال الأذى بطريق خفي، لأن إيصال الأذى بطريق مُباشر لا يُسمى مكرًا، وإنما يُسمى إن كان سيئًا عُدوانًا، وإن كان بحق فإنه يكون إقامة حد أو ما أشبه ذلك، لكن إيصاله بطريق خفي لا يُشعر به يُسمى مكرًا ويُسمى كيدًا، ومن هنا كان مدلوله ينقسم إلى قسمين فتارة يكون محمودًا، وتارة يكون مذمومًا، فإيصاله إلى مُستحقه يُعد مكرًا محمودًا، وكيدًا محمودًا، وإيصاله إلى غير مُستحقه يُعد مكرًا مذمومًا، وكيدًا مذمومًا، أضرب لذلك مثلًا من حال الناس: لو قُدر أن ثم لص مُحتال يأخذ أموال الناس بالباطل، يعني مثلًا يُوهمهم أنه يُريد أن يتجر بها، أو يُضارب بها، ويقول: أعطوني أموالكم لأُناميها لكم. فهو قد دخل عليهم من مدخل لطيف، وهو أنه يُريد الإحسان بهم، فالناس يمنحونه ثقتهم ويُعطونه أموالهم، ثم يذهب بها، ماذا نُسمى هذا؟ ماكر، وماذا نُسمي عمله؟ مكر، ونُسميه: كائد، ونُسمي عمله: كيد، لأنه أوصل الأذى إلى غيره بطريقة خفية، وحيث أنه أوصله إلى غير مُستحق كان مكره مذمومًا، وكيده مذمومًا، ولو قدرنا أن رجلًا من الشُرطة الجنائية سمع به فأعد له كمينًا واتصل به، وقال يا فلان: سمعت أنك تُنمي أموال الناس، وأنك تُحسن إليهم – وأطمعه في نفسه– وأنا عندي مبلغ من المال. وهكذا، فاسترسل معه حتى تمكن منه فقبض عليه، أليس فعل هذا الشُرطي يُعد مكرًا ويُعد كيدًا؟ هل يحمد له أو يُذم؟ يُحمد له، لأنه أوصل الأذى إلى مُستحقه، أوصل المكر والكيد إلى مُستحقه، فلله تعالى المثل الأعلى، مكر الله وكيد الله إنما هو من القسم المحمود، وقل مثل ذلك في الخداع والاستهزاء، فقد قال الله سبحانه وتعالى : { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } [النساء: 142]، { قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (14) اللَّهُ

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} [البقرة: 14، 15] وهكذا، إذن حينما تسمع مثل هذه الصفات مُضافة إلى الله فلا تستشنع من ذلك، ولا تنفر لمجرد سماعها، فإن لله منها المثل الأعلى الذي يُحمد عليه سبحانه، وهذا بيِّن في جميع الأمثلة التي ساقها شيخ الإسلام – رحمه الله– فيهود الذي وشوا بعيسى ابن مريم عليه السلام حقيقون بأن يُمكر بهم، وكذلك أيضًا الذين أرادوا أن يُبيتوا النبي ومن معه وأهله هم حقيقون أن يُمكر بهم، والمشركون الذين يكيدون للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويحيكون المؤامرات لقتله أو إخراجه ونحو ذلك هم حقيقون أن يُكاد بهم، لكن ينبغي أن يُعلم أنه لا يُشتق لله سبحانه وتعالى من هذه الصفات الفعلية، وهي بالمناسبة صفات فعلية لأنها مُتعلقة بمشيئته وحكمته، وقد بينا لكم مرارًا الفرق بين الصفات الذاتية والفعلية، وأن الصفات الذاتية هي الملازمة لذاته سبحانه، وأن الفعلية هي المتعلقة بمشيئته وحكمته، فالله سبحانه وتعالى يتصف بالمكر إذا وُجد سببه، يتصف بالكيد إذا وُجد سببه، لذلك كانت صفات فعلية، وبناءً عليه فإنا نقول: إنه لا يجوز أن يُشتق منها اسمٌ لله، بل ولا يُخبر بها عن الله على سبيل الإطلاق، كيف؟ يعني لا يجوز أن يُقال: من أسماء الله الماكر، ولا من أسماء الله الكائد، ولا من أسماء الله المخادع، ولا من أسماء الله المستهزئ. لماذا؟ لأن الدِلالة المباشرة من هذه الألفاظ قد تُوهم معنى مذمومًا والله عز وجل مُنزه عن هذا، أقول أيضًا: كما أنه لا يُشتق منها الأسماء لأن باب الأسماء أضيق من باب الأفعال والصفات، كذلك أيضًا لا يُخبر بها عن الله إلا مُقيدة، فأنت تستطيع أن تُخبر عن الله مثلًا وتقول: المريد، الشائي، لأنه يشاء، الجائي لأنه يجيء. على سبيل الخبر، ولا يتضمن ذلك نقصًا، وإن كانت ليست من الأسماء الحُسنى، لكن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: وليس من أسمائه، المنزل، والمجري، والهازم، لكن لما كانت هذه الألفاظ لا تتضمن نقصًا جاز أن يُخبر بها عن الله، أما هذا النوع فإنه لا يُخبر به عن الله إلا مُقيدًا، فيُقال مثلًا: الماكر بمن يمكر، الكائد بمن يكيد، وهكذا، فحينئذٍ يسوغ أن تُعبر بها، فأرجو أن يكون تبين لكم الفرق بينها وبين سائر ما يُخبر به عن الله تعالى من أفعال أضافها الله تعالى، إلى نفسه.

فالخبر أوسع من الأسماء، باب الأخبار أوسع من باب الأسماء، والسبب أنك تُخبر عن الله تعالى بصفاته وبأفعاله، فكل اسم من أسماء الله يُمكن أن تشتق منه صفة، ولا عكس، لا يلزم من إثبات الصفة إثبات الاسم، فالله تعالى قد قال عن نفسه: {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر: 22]، وليس من أسماءه الجائي، وقال: { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ} [النحل: 40]، وليس من أسمائه المريد، وهكذا، فباب الأخبار أوسع من باب الأسماء، لكن لا بد أن يكون الخبر إذا أخبرنا به عن الله سبحانه وتعالى لا يتضمن نقصًا، فنحن مثلًا نُجاري المتكلمين ونقول عن الله تعالى: إنه واجب الوُجود. لأنه لا يتضمن ذلك نقصًا، وإن كان هذا ليس من أسماء الله الحُسنى، ليس من أسماء الله الواجب، ولا يُعبد أحد فيُقال: عبد الواجب. فهذا هو الفرق بين هذه الطائفة من الأفعال وسائر الأفعال: فلا يُخبر بها عن الله إلا مُقيدة؛ لأن مدلولاتها تنقسم إلى: محمود، ومذموم، فخشية من أن يتبادر أو يتوهم أحد المعنى المذموم لم يجز أن يُشتق منها أسماء حُسنى، ولم يجز أن يُخبر بها عن الله إلا على سبيل التقييد.

ولا ريب أن الإيمان بهذه الأسماء معشر طلبة العلم له أثر مسلكي على نفس المؤمن، فإن المؤمن إذا علم أن الله يمكر بالماكرين، ويكيد للكائدين فإن ذلك يُوجب له الحذر ويُوجب له الخشية والتوقي من أن يصنع شيئًا على سبيل المكر، فيُوقعه الله تعالى بمغبته، كما أنه أيضًا يُنزل على نفسه الطُمأنينة، أنه مهما كاد الكائدون، ومكر الماكرون فالله لهم بالمرصاد، فهو أسرع مكرًا { قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ } [يونس: 21]، فهذا مما يُثمره الإيمان بمثل هذه الصفات، أما أهل البدع فلا يخفاكم، فإنهم قد أولوا ما هو أوضح منها وأبين، فكيف بهذه التي يُمكن أن تحتمل معنى غير مُراد؟ فإنهم يُسارعون في صرفها عن ظواهرها، وعدم إثباتها لله.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: 149]، {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: 22].**

وَقَوْلُهُ: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ} [المنافقون: 8].

وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: 82].

هذه الطائفة من الآيات تضمنت إثبات صفات العزة، والعفو، والمغفرة، والقُدرة، والرحمة لله عز وجل، وكل ذلك نُثبته لربنا كما أثبته لنفسه، فنحن نُثبت لله الصفات كما نُثبت له الأسماء، ولنأخذها واحدة واحدة.

قال: {إِن تُبْدُواْ خَيْرًا}: ابداؤه أي إظهاره.

قال: {أَوْ تُخْفُوهُ}: أي تُسروه.

قال: {أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ}: يعني ليس فعلًا وُجوديًا بل هو إحسان تركي.

قال: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا }: إذن الجُملة الأخيرة فيها إغراء، أي أن الله من شأنه ومن أسمائه أنه عفو وأنه قدير، فمن وصفه أنه عفو، ومن صفته العفو، فإذا كان هذا وصف للرحمن فهو وصفٌ حميد، ينبغي لكل مؤمن أن يتخلق به بما يليق به، فقوله تعالى: { إِن تُبْدُواْ خَيْرًا} [النساء: 149]، كمن مثلًا يتصدق علانية، وقد قال الله عز وجل: {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } [البقرة: 271]، فلا حرج أن يُبدي الإنسان صدقته أحيانًا، ولكن الإسرار أفضل، لكن إن اقترن بالإبداء ما يحمل غيره على الاقتداء به فالإبداء أفضل؛ ولهذا لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قوم من مُضر مجتابي النمار، رق لهم النبي صلى الله عليه وسلم رقة شديدة، ثم قام وخطب الناس ودعاهم إلى الصدقة، فرجل يتصدق من ماله، فجاء رجل من الأنصار ومعه صُرة من مال لا يكاد يحملها، حتى وضعها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فتتابع الناس في الصدقة، حتى اجتمع عنده كومتان من طعام ومن ثياب، والنبي صلى الله عليه وسلم يتهلل وجه سرورًا كأنه مُذْهَبة، فدل ذلك على أنه لا بأس بإبداء الصدقات، وأن إبداءها أحيانًا أفضل من إخفائها إذا حصل بذلك اقتداء، شريطة الإخلاص لله عز وجل والأمن من أن يتسلل إلى النفس شيء

من الرياء، أما عند تساوي الأُمور فالإخفاء أفضل لقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ).[1]

قال: {أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ }: فإن العفو عن السوء إحسان، لأن الإنسان إذا أسقط حقه فقد أحسن إلى من أساء إليه، كأنما تبرع له، وكأنما قلده مِنة بكونه أسقط حق المطالبة في الدُنيا والآخرة، وهذا يدلنا على أن العفو صفة حميدة وينبغي أن يُربي الإنسان نفسه عليها، فإن من أقبح الصفات العتب، والحقد، واختزان الضغينة، ولهذا يُقال: إن أحكم بيت قالته العرب:

إذا كُنت في كل الأمور مُعاتبًا صديقك لم تلق الذي لا تُعاتبه

فينبغي للإنسان أن يُعود نفسه على الصفح، يعني كما يقول الناس: امسح. أما إذا كان الإنسان كلما وقع له موقف نكت في نفسه نكتة، فإن هذا التراكم يؤذيه، لكن حاول أن تُسرب، وأن تجلو قلبك دومًا، لأن كل غل في قلبك، فهو على اسمه: غِل، كأنما هو قيد وُضع في قلبك، فحاول أن تتخفف من هذه الأغلال، وذلك بالعفو، وكما رأيتم إن الله تعالى حض المؤمنين، وهيجهم على العفو، فقال: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: 149].

قال: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا }: وها هنا ملحظ لطيف جدًا وهو أن اقتران أسماء الله الحُسنى بعضها ببعض يُعطيها حُسننا مُضاعفًا، قرن الله تعالى بين اسمين: العفو، والقدير، فاقتران هذين الاسمين أعطاهما حُسنًا مُضاعفًا، وإلا فكل منهما من الأسماء الحُسنى الذي بلغ في الحُسن غايته، لكن أكمل ما يكون العفو، متى؟ مع المقدرة، كما أن قدرة لا يُصاحبها عفو تتحول إلى بطش، فتأمل لو أن سُلطانًا من السلاطين تمكن من خصم له، ووقع في قبضته، ثم قال: اذهب عفوت عنك. ألا تُعد محمدة ومنقبة؟ نعم تُعد محمدة له ومنقبة، كما صنع النبي صلى الله عليه وسلم بقريش حينما قال: [ما تظنون أني فاعل بكم؟]، قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم. فقال صلى الله عليه وسلم : [اذهبوا فأنتم الطلقاء]، فهذا العفو مع المقدرة من شِيم الكرام، ولكن أحيانًا قد يقع العفو مع غير مقدرة، فلا شك أنه محمود لكن ليس بدرجة الأول، فلو أن رجلًا من صعاليك الناس وضُعفائهم أخطأ عليه سُلطان من السلاطين وضرب ظهره وأخذ ماله، ثم قال: اذهب فقد عفوت عنك. أليس هذا عفوًا؟ عفو، لكنه لا يستطيع أصلًا أن يقتص منه، فإن كان بالفعل قصد العفو فهو يُحمد على هذا، وإن كان بسبب عجزه فلا محمدة فيه، العفو الذي يُحمد عليه صاحبه هو العفو مع المقدرة، وكذلك أيضًا من الناس من يكون عنده قدرة، لكن لا عفو عنده، فتتحول قُدرته هذه إلى بطش وطيش، لكن ربنا سبحانه وبحمده عفو قدير، لو شاء سبحانه لأهلك الناس في طرفة عين، انظروا إلى حلمه سبحانه، يُعبد غيره، ويُعصى ليل نهار، ومع ذلك حليم سبحانه، ويقبل التوبة عن عباده.

قال: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ }: يا له من تهييج! يا له من تحضيض! نزلت هذه الآية في حادث الإفك المشهور، في سورة النور، وكان مِن ضمن مَن وقع في حديث الإفك مسطح بن أُثاثة، وهو من فقراء

[1] صحيح البخاري (1423)، صحيح مسلم (1031).

المهاجرين، فكان أبو بكر – رضي الله عنه – يُجري عليه صدقته، فلما وقع فيما وقع فيه قطع عنه الصدقة، فأنزل الله تعالى: {وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النور: 22]، فقال: أبو بكر رضي الله عنه: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه [1]، فالعفو والصفح بمعنى، والعفو مأخوذ من العفاء، لأنه يُعفي على الأثر فلا يبقى له شيء، وكذا الصفح، فدلت هذه الآية على إثبات اسمين من أسماء الله الحُسنى وهما: الغفور، والرحيم، وعلى ما تضمنتاه من صفات، وهي: المغفرة، والرحمة.

والأثر المسلكي للإيمان بذلك: هو أن يتخلق الإنسان بهذين الخُلقين الكريمين، وهما: المغفرة والرحمة، يغفر لمن أساء إليه، تعفو عمن ظلمك، ويرحم سائر الناس، فإن هذه صفات كمال بشري، لكن لله منها المثل الأعلى، لهذا عبر بصيغة الغفور فعُول، الرحيم فعِيل، وكلها صِيغ مبالغة لأنها بلغت الغاية في حق الله تعالى.

قال: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ}: قدم الجار والمجرور ليدل على كمال الاختصاص، جاءت هذه الآية في سياق الرد على المنافقين، يقولون: {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} [المنافقون: 8]، من يقصد بذلك؟ قصد عبد الله بن أُبي ابن سلول –عليه من الله ما يستحق– بقوله: { لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ} يعني نفسه، {الأَذَلَّ} يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما وقع بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار مناوشة قال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجرين: يا للمهاجرين. فحميت النُفوس، فلما بلغ الأمر عبد الله بن أُبي قال: ما شأننا وصعاليك قريش إلا كما قال الأول: ثمن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. يقصد بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأذله الله أيما إذلال، فقد قيد الله ابنه وهو من خيار المؤمنين، عبد الله بن عبد الله بن أُبي ابن سلول، فوقف على باب المدينة، وقال: والله لا يجُوزها، إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ابنه أقرب الناس إليه، حتى أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن خل بينه وبين الدخول، فثبتت العزة لله ولرسول، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: 8]، فدل ذلك على إثبات صفة العزة لله، وفيها رد بليغ على الذين يُثبتون الأسماء مفرغة من الصفات، من هم؟ المعتزلة، المعتزلة يزعمون أنهم يُثبتون الأسماء، ولكن يقولون: لا تدل على صفات. ففرق ما بينهم وبين الجهمية: أن الجهمية يُنكرون الأسماء والصفات، فيقولون: لا سميع، ولا بصير، ولا عليم، ولا قدير، ولا سمع له، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة. والمعتزلة تقول: نعم، سميع، بصير، عليم، قدير، لكن سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، قدير بلا قدرة. فهم يُنكرون الصفات، وهذه الآية تدل على إثبات الصفة لأنهم قالوا: { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ } [المنافقون: 8] العزة اسم، أم صفة؟ صفة، ونظيرها قول الله تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا } [فاطر: 10]، {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ} [الأنعام: 133]، كلها صفات أثبتها الله لنفسه، لكن عزة الله تليق به، وهي عزة امتناع، وعزة غلبة، وعزة قُدرة، سبحانه وبحمده، وللنبي صلى الله عليه وسلم عزة تليق به، وللمؤمنين عزة تليق بهم، فكون الوصف يُضاف إلى الله وإلى رسوله وإلى المؤمنين لا يعني

[1] صحيح البخاري (2661)، صحيح مسلم (2770).

التماثل، فإن الاشتراك إنما هو في أصل المعنى، فإن العزة مأخوذة من القوة والصلابة، كما يقول الناس: أرض عزاز. والناس عندنا يقولون: عزا. والمعنى واحد، يعني أنها صلبة ليست رُخوة، ففيها معنى القوة والامتناع والشدة، فالاشتراك إنما كان في أصل المعنى، وأما في الحقيقة والكيفية فلله المثل الأعلى، وللنبي صلى الله عليه وسلم أكمل ما يكون من العزة البشرية، ولسائر المؤمنين ما يليق بهم.

قال: {فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}: هذا إبليس يحلف بعزة الله {فَبِعِزَّتِكَ} [ص: 82]: مما يدل على أن إبليس عارف بصفات الله تعالى حتى إنه أقسم بعزة الرب سبحانه، فشيء يعرفه إبليس ويُثبته، عجبٌ أن يُنكره نُفاة الصفات.

قال: {لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}: ثم استثنى [إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: 82].

المهم أن مثل هذه الصفات لها ثمرة سُلوكية على نفس المؤمن، فإيمانك برحمة الله ينسم على قلبك نسائم الرجاء، إيمانك بمغفرة الله كذلك، إيمانك بعزة الله يمنحك قوة أنك تأوي إلى رُكن شديد، وهكذا ستجد أن كل اسم لله تعالى يُفيض على النفس المؤمنة فيضًا إيمانيًا نافعًا، ويحجزها عن ضده.

والله أعلم.

الدرس (15)

إثبات الأسماء لله

قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: 78].

وَقَوْلُهُ : {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65]، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 4].

وَقَوْلُهُ: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 22]، {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: 165].

هذه الآيات في إثبات الاسم لله وإثبات وحدانيته وفردانيته سبحانه.

قال: {تَبَارَكَ}: البركة هي النماء والزيادة، فيُقال في حق الله: تبارك. أن النماء والزيادة المطردة المستمرة لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ } [الرحمن: 78] فدل ذلك على إثبات الاسم، وفي هذا رد على الجهمية، إذ الجهمية يقولون: ليس له اسم، وإنما اصطنع الناس له أسماء ليُعبروا بها عنه. ولا ريب أن هذا من الباطل، فقد قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [سورة الأعراف: 180] وقال: {فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: 110]، وقال: {لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [طه: 8، الحشر: 24]، وقد عقد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد – رحمه الله– في أول كتابه: الرد على بشر المريسي، فصلًا في إثبات الاسم لله تعالى، والرد على الجهمية الذين يزعمون أن الله لم يكن له أسماء وإنما الأسماء من اختراع الناس، رد عليهم ردًا مُفحمًا مُبرمًا لم يُبق لهم باقية، فهذه الآية تدل على إثبات الاسم لله تعالى، وأن الله قد تسمى بالأسماء مُنذ الأزل، وأن أسماءه مُباركة، إي والله، ولذلك أي شيء يُذكر عليه اسم الله فهو مُبارك، إذا بدأت

الطعام فقلت: بسم الله. لم يأكل معك الشيطان، وهكذا الشراب، وإذا أتى الرجل أهله، فقُسم بينهما ولد لم يضره شيطان إن هو قال: بسم الله. وإذا دخل الرجل بيتًا فقال: بسم الله. فات الشيطان المبيت، وهكذا ما ذُكر اسم الله في شيء إلا بُورك فيه، {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ} [الرحمن: 78] فأضاف الاسم إلى الذات، مما يدل على أن له اسم سبحانه، وأن اسمه غير ذاته، وإنما هي أسماء سمى بها نفسه.

قال: {ذِي الْجَلالِ}: {ذِي}: وصفٌ لمن؟ للرب أم للاسم؟ { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ } [سورة الرحمن: 78] إذن هي مجرورة فتكون صفة لمجرور، بخلاف ما ورد في أول السورة {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: 27]، ف{ذُو الْجَلالِ} وصفٌ للوجه، وهنا وصف للرب، للذات، {ذِي الْجَلالِ}، ما معنى {ذِي الْجَلالِ} [سورة الرحمن: 78]؟ ذي، وذو، وذا بمعنى: صاحب، والجلال المقصود به: التفخيم والتعظيم، يعني ذو العظمة والفخامة، فهو سبحانه ذو الجلال بمعنى أنه هو سبحانه مُتصف بصفات الجلال، كما أن أولياءه يُجلونه، وهم المؤمنون.

قال: {وَالإِكْرَامِ}: ذو الإكرام، لأنه سبحانه أهل لأن يُكرم لكماله، وهو سبحانه أيضًا يُكرم أولياءه.

قال: {فَاعْبُدْهُ}: هذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالعبادة، وقد ذكرنا في مرات سابقة، وفي دروس عدة أن العبادة لها تعريفان: تعريف باعتبار حقيقتها، وتعريف باعتبار آحادها وأفرادها.

فالعبادة من حيث آحادها وأنواعها عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: اسم جامع لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

وأما تعريف العبادة باعتبار حقيقتها فهي: كمال المحبة مع كمال الخُضوع.

فالتعريف الأول تعريف للمُتعبَد به، والتعريف الثاني تعريف للمُتعبَد له، فهذا معنى العبادة، وهي مأخوذة من قولهم: بعير مُعبد، وطريق مُعبد. يعني مُوطأ مُسهل للمشي عليه أو للركوب.

قال: {وَاصْطَبِرْ}: ما هو أصل { وَاصْطَبِرْ}[مريم: 65]؟ واصتبر، هذا أصلها، ثم قُلبت التاء طاء، والزيادة في المبني زيادة في المعنى، بمعنى اصبر صبرًا كثيرًا، والصبر هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والسخط، والجوارح عن لطم الخُدود وشق الجيوب.

قال: {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}: إذن هذا نوع من أنواع الصبر، وهو الصبر على طاعة الله، **والصبر ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: صبر على طاعة الله.

النوع الثاني: وصبر عن معصية الله.

النوع الثالث: وصبر على أقدار الله المؤلمة.

قال: {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}: وهكذا فإن العبادة – معشر طلبة العلم ومن بلغ – تفتقر إلى صبر، وتحتاج إلى مُجاهدة حتى يثبت الإنسان عليها، لكن المؤمن إذا وطن نفسه على العبادة وعودها عليها استرسلت وانساقت ولم يجد كُلفة،

تُصبح نفسه مطواعة، مُحبة للعبادة، حتى إنها لربما إذا فقدت العبادة شقيت، فينبغي للمؤمن أن يُوطن نفسه منذ الصغر على عبادة الله من الفرائض والنوافل من أنواع العبادات لكي يألفها ويأنس بها.

قال: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}: هذا الاستفهام استفهام يُراد به النفي، لأن جوابه: لا أعلم له سميًا.

قال: {سَمِيًّا}: أي مُساميا، أو مُطابقًا له في الاسم، لا سمي له سبحانه، { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم: 65] هل لله سمي مثله يُساميه؟ حاشا وكلا، فهذا الاستفهام استفهام للنفي، ودل على إثبات الاسم لله تعالى، وليس إنكاري، فليس يُنكر على المخاطب، لأنه يُخاطب النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: { فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم: 65].

قال: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}: مرت بنا، أي لا مُكافئ له سُبحانه.

قال: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا }: {أَندَادًا}: جمع ند، والند هو المثيل والنظير، فنهى الله المؤمنين، بل الناس جميعًا أن يجعلوا لله أندادًا، لأنه لا يُمكن أن يكون له ند يُماثله ويُناظره تعالى الله عن ذلك.

قال: {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}: يعني وأنتم تعلمون أنه لا ند له ولا نظير ولا شبيه له.

قال: {وَمِنَ النَّاسِ}: من للتبعيض.

قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ }: نعى الله تعالى على طائفة من المشركين أنهم يتخذون من دون الله أندادًا، يعني يتخذون الآلهة والمعبودات ندًا لله تعالى، يبذلون لها من العبوديات ما لا يجوز صرفه لغير الله تعالى، ومن ذلك المحبة، فإن المحبة من أعظم مقامات العبادة، بل إنها أُم العبادات القلبية، لأن المحرك والباعث للإنسان لعبادة الله انجذابه إليه وتألهه له، فالتأله من الوله وهو المحبة والشوق والانجذاب إلى المعبود، فإذا صُرفت محبة السر محبة العبادة لغير الله، فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، واعلموا أن للمُفسرين في هذه الآية قولان:

القول الأول: أن المشركين يُحبون أندادهم كالمحبة التي لا تنبغي إلا لله، يعني أنهم لا يُحبون الله، وإنما يُحبون أندادهم المحبة التي لا تنبغي إلا لله.

القول الثاني: أنهم يُحبونهم كما يُحبون الله. بمعنى أنهم يُشركون في المحبة.

وهذا القول الثاني هو القول الراجح، وهو الذي نصره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، بمعنى أن المشركين ما كونوا خليين من محبة الله، يُحبون الله لكنهم يُفسدون هذه المحبة بصرفها لغير الله، يعني بإشراك غير الله بها، فلم يُوحدوا الله بالمحبة، مرة أُخرى، للمُفسرين في هذه الآية قولان:

القول الأول: أنهم لا يُحبون الله، وإنما يُحبون أصنامهم المحبة التي لا تكون إلا لله. فعلى هذا القول المشركون لا يُحبون الله، وإنما يحبون أصنامهم وأندادهم.

القول الثاني: أنهم يُحبونهم كما يُحبون الله، فوقعوا في شرك المحبة.

وهذا هو الأقرب والراجح، ويكون بقية الآية على ذلك.

قال: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ }: بمعنى أن المؤمنين يصرفون محبة الله بصيغة أفعل التفضيل،{ أَشَدُّ} فلا يُشركون مع الله غيره في المحبة، في محبة السر، التي هي محبة العبادة، وإن كان يُحبون محابًا أُخرى من المحاب الغريزية كمحبة الطعام والشراب والزوج والولد والوالد وغير ذلك، لكن هذه لا تُسمى محبة عبادة، فدل ذلك على أنه لا يجوز التنديد واتخاذ ند مع الله عز وجل.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: 111]، {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التغابن: 1].

{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 1، 2].

{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [المؤمنون: 91، 92].

{فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [النحل: 74]، {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 33].

هذه الآيات في نفي الشريك عن الله وإثبات وحدانيته، ونفي الولد عنه والصاحبة.

قال: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ }: وقد مر بنا أن معنى الحمد هو: وصف الله بصفات الكمال، ونُعوت الجلال، فإذا تكرر الحمد صار ثناءً.

قال: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا }: في هذا رد على من ادعى الولد لله، وهم طوائف من بني آدم، اليهود قالت: { عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة: 30]، والنصارى قالت: { الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة: 30]، ومشركو العرب قالت: الملائكة بنات الله. فنزه الله نفسه عن الولد، لأن الولد لا بد أن يكون من جنس أبيه، وهذا يُنافي وحدانية الله تعالى، كما أن الولد إنما يُتخذ للإعانة والمساعدة في حال الكِبر، والله غني عن ذلك، فلهذا نزه الله نفسه عن الولد، فلئن كان الولد كمال في حق المخلوقين فهو في حق الخالق نقص، لكمال وحدانيته تعالى.

قال: {وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ }: إي والله، لا شريك { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ} [سبأ: 22].

قال: {وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}: كل الملك له سبحانه، ولهذا قدم الجار والمجرور.

قال: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا }: الولي من الوَلْي، وهو: الدنو، والقُرب، فالمقصود بالولي المعاون والنصير.

قال: {مِّنَ الذُّلِّ}: يعني بسبب الذُل، فإن من لها استعمالات عدة، ومن استعمالات من أن تكون سببية، إذن معنى قوله: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ } [الإسراء: 111]: أي بسبب الذل، فالله سبحانه وتعالى لا يستكثر بعباده من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة.

قال: {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}: أي قل: الله أكبر الله أكبر. بلسانك، وكبره بفعالك.

قال: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}: التسبيح هو التنزيه، فحينما تقول: سبحان الله. أي تنزيهًا لله، **ويُنزه الله عن ثلاثة أُمور:**

الأمر الأول: ينزه عن النقص.

الأمر الثاني: وينزه عن العيب.

الأمر الثالث: وينزه عن مماثلة المخلوقين.

قال: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}: كل ما في السماوات، وكل ما في الأرض فهو يُسبح بحمده {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: 44].

قال: {لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

قال: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ}: {تَبَارَكَ}: تقدم معناها.

قال: {الْفُرْقَانَ}: هو القرآن، وهو اسم من أسمائه، لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين المؤمنين والكُفار.

قال: {عَلَى عَبْدِهِ}: من عبده؟ رسول الله محمد، وهذا يدلنا على أن مقام العُبودية مقام شريف، فإن الله وصف محمد صلى الله عليه وسلم في أشرف المقامات بالعبودية، {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: 1]، {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: 1]، {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [الجن: 19] وهكذا.

قال: { لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا }: إذن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للناس جميعًا إنسهم وجنهم، برهم وفاجرهم، يهوديهم ونصرانيهم، كتابيهم ووثنيهم، { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [الأعراف: 158]: إذن هو صلى الله عليه وسلم أُرسل للعالمين نذيرًا.

قال: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}: تقدم هذا المعنى.

قال: {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}: فيه تبرئة الله عنه الولد.

قال: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ }: خلافًا لما يدعيه المشركون من القائلين بالتثنية، وهم الثنوية من المجوس الذين يزعمون أن للكون خالقان: إله النور يخلق الخير، وإله الظُلمة يخلق الشر، أو ما يدعيه الرومان من تعدد الآلهة

فيجعلون لكل مِرفق من مرافق الحياة إله، إله الحرب، إله الحصاد، إله الحب، إله كذا، هكذا من وثنيتهم، إذن لم يكن له شريك في الملك.

قال: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ }: هل خرج شيء؟ أبدًا، كل شيء فهو مخلوق لله، وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه، فـ{ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } [الرعد: 16، الزمر: 62]، هو خالق العباد، وخالق أفعالهم، وإن كانت أفعالهم مُكتسبة لهم.

قال: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا }: إذن قد قدره الله منذ الأزل، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا: (كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)[1].

قال: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ }: هذا نفي، و{مِن} تدل على الاستغراق والتقصي، أي صورة من صور الولادة، {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ}وقد بينا لم؟.

قال: {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ }: حاشا وكلا أن يكون مع الله إله، {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الأنبياء: 22]، {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا } [المؤمنون: 91] يعني لو قُدر وحاشا وكلا أن يكون { لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [المؤمنون: 91]، في هذا دليل على امتناع أن يكون في الكون خالق مع الله، لم؟ لأنه لو – وهي حرف امتناع– لو كان معه إله، إذن لاستقل كل واحد بمُلكه، { لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ } [المؤمنون: 91] وأيضًا لنشأ بينهم ما ينشأ بين الملوك من المغالبة، {وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [المؤمنون: 91] وما الذي نجده؟ نجد أن الكون مُتسق، مُنتظم، ليس فيه جزائر مُتناثرة، ونجد أنه ليس فيه اضطراب مما يدل على عدم وجود مُنازعة ومُغالبة، إذن هذا دليل على وحدانية الله، والمتكلمون يُثبتون هذه القضية بما يُسمونه دليل التمانع، وهو دليل عقلي لا بأس به، يقولون: لو قُدر أن للكون خالقين فأراد أحدهم أن يُحرك شيء وأراد الأخر أن يُسكنه، **فثم ثلاث احتمالات:**

الاحتمال الأول: إما أن يقع مُراد كل منهما.

الاحتمال الثاني: أو ألا يقع مُراد أي منهما.

الاحتمال الثالث: أو يقع مُراد أحدهما.

فأما الاحتمال الأول فهو مُمتنع، مُستحيل أن يكون الشيء مُتحركًا ساكنًا في آن واحد، وأيضًا يستحيل ألا يكون لا مُتحركًا ولا ساكنًا، ويدل على عجز كل منهما لو لم يقع مُراده، فما بقي إلا الاحتمال الأخير، وهو أن يقع مُراد أحدهما ولا يقع مُراد الآخر، فيكون من وقع مُراده فهو المستحق للعبادة، ولكن الآية القرآنية أبلغ في بيان هذا المعنى { إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [المؤمنون: 91].

قال: {سُبْحَانَ اللَّهِ}: تنزيهًا له.

قال: {عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

[1] صحيح مسلم (2653).

قال: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ}: أي لا يُمثل الله بخلقه، ولا يُقاس بهم، فلا يجوز قياس التمثيل في حق الله تعالى.

قال: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}.

قال: {قُلْ إِنَّمَا}: أداة حصر.

قال: { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ }: والفواحش جمع فاحشة، وهي ما عظُم خُبثه واستقباحه، الظاهر منها والباطن.

قال: {وَالإِثْمَ}: الإثم ها هنا هو الذي يأثمه الإنسان بذاته غير مُتعد لغيره.

قال: {وَالْبَغْيَ}: هو ما حصل به تجني وعدوان على الغير.

قال: {وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}: وهذا وصف طردي، لأن كل بغي فهو بغير حق.

قال: {وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا }: وهذا هو موضع الشاهد، وهو النهي عن الشرك، وتسوية غير الله تعالى به سُبحانه.

قال: {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا }: أيضًا وصفٌ طردي، بمعني كل شيء أُشرك مع الله تعالى فلا سُلطان له، ولا دليل له، ولا بُرهان له.

قال: {وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}: وهذه أعظمها وهي القول على الله بغير علم، فدل على تحريم هذه المحرمات العظيمة، فهي أُمهات المحرمات عافانا الله تعالى وإياكم.

والله أعلم.

الدرس (16)

الرحمن على العرش استوى

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5] في سبعة مواضع : في سورة الأعراف قوله:{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: 54].وقال في سورة يونس عليه السلام: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [يونس: 3] .وقال في سورة الرعد: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الرعد:2].وقال في سورة طه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5].وقال في سورة الفرقان: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [الفرقان: 59].وقال في سورة ألم السجدة: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [السجدة: 4].**

وفي سورة الحديد: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد: 4].

هذه الطائفة من الآيات الكريمات التي ساقها الشيخ –رحمه الله– يجمعها موضوع واحد، وهو إثبات الاستواء لله عز وجل على عرشه المجيد، فقد استوى ربنا سبحانه وبحمده استواءً يليق بجلاله وعظمته بعد أن خلق السماوات والأرض على عرشه.

الاستواء: لغة: العلو والاستقرار، هكذا تعرف العرب معنى استوى، أنه علا واستقر، كما قال الله عز وجل في سورة الزُخرف لما ذكر الفلك والأنعام قال: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} [الزخرف: 13]: يعني على ظهور الفُلك والأنعام، {ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} [الزخرف: 13]، إذن {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} [الزخرف: 13] أي لتعلوا وتستقروا على ظهور الفلك والأنعام ثم تذكروا نعمة ربكم إذا علوتم واستقررتم على ظهورها، فهذا هو أصل معنى الاستواء في لغة العرب، والقرآن نزل بلسان عربي مُبين، فالذي قال: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}[الزخرف: 13]، هو الذي قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، فمعنى الاستواء في الموضعين واحد، لكنه إذا أُضيف إلى المخلوق صار استواءً يليق به، وإذا أُضيف إلى الخالق صار استواءً يليق به، كما نقول ذلك في سائر الصفات، للمخلوق سمع يليق به، وللخالق سمع يليق به، للمخلوق بصر يليق به، وللخالق بصر يليق به، كذلك نقول ها هنا: للمخلوق استواء يليق به ،وللخالق استواء يليق به . وقد أثبت الله تعالى هذا الاستواء في سبعة مواضع من القرآن، ومُراد الشيخ ها هنا ذكر الاستواء معدى بعلى، **لأن وُرود استوى في القرآن جاء على ثلاثة أنحاء:**

النوع الأول: أن يأتي الاستواء مُطلقًا : يعني غير مُقيد بحرف عل ى،كقول الله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى}[القصص:14]، إذن هنا استوى لم تتقيد لا بحرف على، ولا بحرف إلى، وإنما أطلق الله تعالى، فيكون معناها هذا أي بلوغ النهاية والكمال، فإذا جاءت استوى مُطلقة غير مُقيدة فإنها تدل على الانتهاء والكمال، مثل قولنا: استوى الزرع. يعني نضج وبلغ غايته في النُضج. استوى الطعام، أي بلغ غايته في النُضج، فكذا لما قال الله عن نبي من أنبيا ﷺ: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} [القصص: 14]:يعني بلغ كمال الخلقة والخُلق، فهذا مجيئها مُطلقة.

النوع الثاني: أن تأتي مُتعدية بإلى :كقول الله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} [فصلت: 11] فإذا جاءت مُعداة بإلى فإن معناها حينئذٍ قصد بإرادة تامة، فإذا جاءت مُعدات ب إلى فهي تدل على معنى القصد والتوجه للشيء.

النوع الثالث: أن تأتي معداة بعلى. وهذا الموضع المراد ومحل الشاهد، كما في هذه المواضع السبعة، ستة منها على نسق واحد، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} ، وموضع واحد في سورة طه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} فيكون معناها حينئذٍ أي علا واستقر علوًا واستقرارًا يليق بجلاله وعظمته، هذا الذي تعرفه العرب من لُغتها، لا تعرف سواه، ولهذا لم يتردد الإمام مالك أن يقول: الاستواء معلوم، وفي لفظ: الاستواء غير مجهول:أي أن العرب تعرفه من لُغتها، لا تتمارى فيه.

قال: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} :هذه الأيام ليست كأيامنا، بل كما قال الله سبحانه وتعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: 47]، فخلق الله السماوات والأرض في ستة أيام.

قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} : **{ثُمَّ}** : حرف عطف يدل على التراخي، فنستطيع أن نفهم من هذا أنه سبحانه وبحمده حين خلق السم اوات والأرض لم يكن مُستويًا على العرش، فلما فرغ من خلقهما استوى على العرش، هذا ما تدل عليه لُغة العرب، ويفهمه كُل عربي قُح، يقرأ هذه الآية وأمثالها.

قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} :العرش: لغة: سرير الملك، سرير الملك الذي يقعد عليه يُسمى : عرش، قال الله تعالى: {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل:23].

اصطلاحًا: هو أعظم المخلوقات، وأعلاها، وأجلَّها، وأكبرها، وهو سقف العالم، فالكون كُله تحته وما فوقه إلا الرحمن سبحانه وبحمده، وهذا العرش له قوائم كما نطق بذلك النصوص، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ)[1] ، وهذا العرش أيضًا له حملة، قال الله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: 17]، فيجب الإيمان بأن لله تعالى عرشًا عظيمًا كبيرًا عليًا استوى عليه سبحانه وبحمده، واستواؤه عليه ليس عن حاجة، فإن كل شيء مُحتاج إلى الله والله غني عما سواه، بل العرش وما دونه لا قيام له إلا بالله سبحانه وبحمده، فليس استواء الله على العرش وعلوه عليه ناتجٌ عن حاجة، كلا، ولكنه استواء يليق به سبحانه.

قال: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} : هل قوله: {تَرَوْنَهَا} قيد؟ أم أنها صفة مُطردة؟ يعني هل المراد: الله الذي رفع السماوات بغير عمد، فلا يوجد عمد أصلًا، يعني تُرى فلا عمد؟ أو المقصود: أنه رفع السماوات بعمد، لكنها عمد غير مرئية؟ يحتمل هذا، ويحتمل هذا، تأملوا في الآية: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} ، **والأقرب والله أعلم** : أن ثمَّ عمدٌ لكنها غير مرئية، ليست من جنس الأعمدة التي تحمل سقف هذا المسجد ونحو ذلك، لأنه لو أراد نفي العمد مُطلقًا لاكتفى بالقول: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ} ولم يحتج أن يقول: {تَرَوْنَهَا} فهذا يدل على أن ثم عمد – والله أعلم– لكنها ليست من جنس العمد التي نعهدها.

قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}: وهو موضع الشاهد، وفي سورة طه اللفظ يختلف عما قبله وما بعده.

قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}: قدم ذكر اسمه الشريف سبحانه على ذكر الاستواء.

قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} : وقال في ألم السجدة: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} ، وقريب منها في الحديد: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}: فهكذا ترون – يا رعاكم الله– أن الله تعالى ذكر الاستواء مُطردًا بلفظ واحد في ستة مواضع، وبسياق مُقارب في الموضع السابع، مما يدل على أنه أراد حقًا وصدقًا تحقيق هذه الصفة له سبحانه وتعالى، ولكن الزائغين يقعون في ش ؤم

[1] صحيح البخاري (2411)، صحيح مسلم (160).

مسلكهم الخاطئ، ومُقدماتهم السيئة، فتجرهم إلى مُخالفة الهدى، فصاروا يقولون: كلا، لا يُمكن أن نُثبت لله استواءً حقيقيًا، والمراد باستوائه على العرش استيلائه عليه، ليس استواءً حقيقيًا.فإذا قِيل لهم: لم؟! ما الصارف لذلك عن ظاهره؟. قالوا: لأن الاستواء من أفعال المخلوقين، والله مُنزه عن مُشابهة المخلوقين.فصاروا يُعيدون ويجترون نفس الشُبهة التي يصفون بها كثيرًا مما أثبت الله تعالى لنفسه من صفات الكمال ونُعوت الجلال الذاتية والفعلية والخبرية، **والجواب عليهم سهل – كما تقدم–:**

الأمر الأول: أن يُقال: إن هذا استواء أضافه الرب إلى نفسه. فلما أضافه إلى نفسه اختص به،وإنما وقع الاشتراك في أصل المعنى، وفي حروف اللفظ فقط، أما حقيقته وكيفيته فالأمر يختلف، كما قال الإمام مالك –رحمه الله– لما دخل عليه داخل وقال: يا أبا عبد الله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟. فقال الإمام مالك –رحمه الله–: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة . وفي لفظ: الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أُراك إلا صاحب بدعة. ثم أمر به فأُخرج من المسجد.

فأثبت الإمام مالك –رحمه الله–معنى الاستواء، وأنه معروف في لغة العرب، لا يخفى على عربي معنى الاستواء، وأما الكيف وهو ما يختص به سبحانه وينفرد به عن سائر **استواءات** المخلوقين فمجهول أو غير معقول، لا تتمكن عُقولنا من دركه، والإيمان بالاستواء واجب، والسؤال عن كيفيته بدعة، فهذا جواب سديد من إمام رشيد يجب أن يُجاب به عن كل من سأل عن هكذا مسألة شاذة.

وزعم أهل البدع بأن الاستواء بمعنى الاستيلاء مُخالفة للغة العرب، فقد سئل ابن الأعرابي والخليل بن أحمد وغيرهم من

أئمة اللغة: هل يأتي الاستواء بمعنى الاستيلاء؟ فأبوا، وقالوا: هذا شيء لا تعرفه العرب .وحسبك بهم، فإنهم أئمة اللغة وأهل اللسان، نفوا أن يأتي الاستواء بمعنى الاستيلاء، شيء لا تعرفه العرب من لُغتها، والقرآن نزل بلسان عربي مُبين.

الأمر الثاني: أن هذه الدعوى مُخالفة لما تواتر في كتاب الله .فسبعة مواضع تُعبر بلفظ الاستواء، فلو كان مُراد الله تعالى من الاستواء الاستيلاء، لقال ولو في موضع واحد: استولى.ولكنه لم يتغير هذا اللفظ في جميع المواضع السبعة.

الأمر الثالث: أن تفسير الاستواء بالاستيلاء يلزم منه لوازم فاسدة .فمثلًا: لو فُسر الاستواء بالاستيلاء للزم من ذلك ألا يكون الله تعالى مُستوليًا على عرشه حين خلق السماوات والأرض، وهل يقول بذلك مؤمن؟! هل يقول بذلك من يؤمن بربوبية الله، أن الله تعالى لم يكن مُستوليًا على عرشه حين خلق السماوات والأرض ثم استولى عليه بعد ذلك؟ هذا ما يؤدي إليه قولهم: إن استوى بمعنى استولى.

أيضًا يلزم من ذلك ألا يكون بين العرش والأرض السفلى فرق، ما الفرق إذن إذا كان الاستواء بمعنى الاستيلاء فأي فرق بين العرش الذي فوق السماوات السبع وبين الأرض السُفلى؟ لا فرق إذن، لأن الله تعالى مستولي على الجميع، يترتب على هذا أن يكون الله تعالى وتنزه يصح أن يُقال عنه:إنه استوى على كل شيء .إذا كان استوى بمعنى استولى فيلزم

من ذلك أن يقول قائل: استوى على البيوت، واستوى على الشجر، واستوى على الحجر ، وأشياء لا يقوى الإنسان على ذكرها. فهذا لازم قولهم أن استوى بمعنى استولى، فدل ذلك على أن تفسير الاستواء بالاستيلاء معنى باطل، وأنه قول على الله بغير علم، ولا مُوجب له، فإنه لا يجوز صرف الكلام عن ظاهره إلى خلاف ظاهره بإقرارهم هم إلا بوجود دليل يُوجب نقل المعنى من حقيقته إلى مجازه على فرض القول بالمجاز، ولا دليل ، طبعًا القوم يقولون: إن الدليل الموجب لصرف الكلام عن ظاهره إلى خلاف ظاهره هو الفرار في الوُقوع في مُشابهة المخلوقين. فنقول: هذا الذي تعللتم به علة واهية، فإنه لا يلزم منه ما ذكرتم، فلله تعالى استواء يليق به، وللمخلوق استواء يليق به، فأين تذهبون ؟ لم يبقى لكم ما تتشبثون به، إن هي إلا مُقدمات باطلة وأوهام فاسدة، وظنون اعتقدتموها ثم استدللتم عليها، فعكستم المسار، وكان الواجب أن تستدلوا ثم تعتقدوا، إذن هذه المقالة مقالة باطلة فاسدة والواجب كما هو مذهب أهل السنة والجماعة أن نُثبت لله سبحانه وتعالى استواءً يليق بجلاله وعظمته، لا يُماثل استواء المخلوقين.

وهل الاستواء صفة ذاتية؟ أم فعلية؟ الاستواء صفة فعلية، لأنه تقدم كثيرًا أن الفرق بين الذاتية والفعلية أن الذاتية هي الملازمة لذاته التي لا تنفك عنه، وأن الفعلية هي المتعلقة بمشيئته، فلما علمنا أنه حين خلق السماوات والأرض لم يكن مُستويًا على عرشه، ثم استوى دل ذلك على أن هذا وصف فعلي، بخلاف ما يأتي إثره، وهو صفة العلو.

الدرس (17)

إثبات علو الله عز وجل

📖قال المؤلف –رحمه الله–: إثبات علو الله على مخلوقاته:

{يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: 55].{بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: 158].{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10].{يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [غافر: 36، 37].{أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: 16، 17].

ساق الشيخ هذه الآيات الدالة على إثبات العلو بعد الآيات الدالة على إثبات الاستواء، **وذلك أن بين الاستواء وبين العلو فرقين:**

الفرق الأول: أن الاستواء صفة فعلية، والعلو صفة ذاتية . بمعنى أن الله تعالى لا بد دومًا أن يُوصف بالعلو، ولا يُمكن أن يزول عنه وصف العلو، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في تفسيره للأسماء الأربعة، قال: (وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ)[1] فالله تعالى دومًا مُتصف بالعلو، لا يُمكن أن يتصف بالسُفول، حتى إذا نزل سبحانه وتعالى إلى سماء

[1] صحيح مسلم (2713).

الدنيا في الثُلث الأخير من الليل، لا يُمكن أن يكون فوقه شيء من مخلوقاته، والله على كل شيء قدير، ولا يُقاس بخلقه، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[الشورى: 11] ، ولا تُضرب له الأمثال، فالعلو صفة ذاتية، والاستواء صفة فعلية.

الفرق الثاني: أن العلو يدل عليه العقل والنقل، أما الاستواء فإنه لا يدل عليه إلا النقل . فلو أدمن الإنسان التذكير وأجهد ذهنه ليُثبت الاستواء لم يتمكن بُمجرد العقل، أما العُلو فإن العقل يدل عليه، إذ العقل يقطع بأن العلو كمال والسُفل نقص، وكل كمال ثابت للمخلوق فالله أولى به، وكل نقص يُنزه عنه المخلوق فالله أولى أن يُنزه عنه، فالعقل يدل على إثبات العلو، لكن العقل لا يدل على إثبات الاستواء، وإن كان لا يمنعه، لكنه لا يدل عليه.

إذن هذه الآيات التي بين أيدينا تدل على إثبات علو الله، واعلموا أن عُلو الرب سبحانه وبحمده قد دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، أي توافرت الأدلة الخمس على إثبات علو الله عز وجل، الاستواء كما تقدم دل عليه الكتاب: فيما تلونا من الآيات السبع، ودلت عليه السنة الصحيحة : فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله استوى على عرشه، ودل عليه الإجماع: فقد انعقد إجماع المسلمين على ذلك كما قال الأوزاعي: "كُنا والتابعون متوافرون نقول أن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته جل وعلا "[1]، إذن هذا تابع للمبحث السابق، فالاستواء دلت عليه ثلاثة أنواع من الأدلة:الكتاب، والسنة، والإجماع.

وأما العلو فقد دلت عليه خمسة أنواع من الأدلة، منها الثلاثة السابقة ونوعين آخرين هما:العقل، الفطرة.

أما دلالة الكتاب فإليكموها، قال الله تعالى: {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: 55] والرفع لا يكون إلا إلى أعلى ، وقال تعالى: {بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: 158]: الرفع لا يكون إلا إلى أعلى، وفي هذا رد على اليهود والنصارى الذي يزعمون أن عيسى عليه السلام قد صُلب، حاش ا وكلا، قال الله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء: 157]، فقد وشت اليهود بعيسى عليه السلام إلى الرُومان ليقتلوه، فأتوا ليقبضوا عليه فألقى الله شبهه على هذا الخائن الذي وشى به، فأخذوه وجرجروه ووضعوه على خشبة الصلب ووضعوا علي هالشوك وصلبوه، وأما عيسى عليه السلام فقد رفعته الملائكة إلى السماوات العُلى حتى صار في السماء الرابعة. إذن هذا التعبير بالرفع يدل على العُلو.

قال: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}:هل مُتوفيك بمعنى الموت؟ عيسى عليه السلام لم يمت، بدليل أنه ينزل في آخر الزمان، فهو لم يمت بعد عليه السلام، إذن مُتوفيك إما بمعنى مُستوفيك، أو أنها الوفاة التي بمعنى النوم، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى ألقى عليه النوم، والنوم أخو الموت، لكنه أخوه الأصغر، فقد قال الله سبحانه وتعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر:42] فالنوم نوع وفاة، فيه نوع استيفاء، لكن تبقى للروح علاقة بالبدن، فعيسى عليه السلام قد استوفاه الله بمعنى أنه أخذه إليه، أو استوفاه الله بمعنى أنه ألقى عليه النوم، فكانت وفاة صُغر ى، ثم رفعه إليه، لكن ليس المقصود بقوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} أي مُميتك.

---

[1] العرش للذهبي (212/1)، الصفات للبيهقي (500).

قال: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} : {إِلَيْهِ}: مرجع الضمير إلى من؟ إلى الله عز وجل، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ} والصعود لا يكون إلا إلى أعلى، إذن هي من أدلة العُلو.

قال: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} : ما هو الكلم الطيب؟ الكلم الطيب هو كُل لفظ حسن مشروع، كالتسبيح والتهليل، والتحميد، والتكبير، والحوقلة، والاسترجاع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الناس، فكل هذا كلم طيب، فالكلم الطيب، يصعد إلى الله عز وجل.

قال: {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}:مرجع الضمير في {يَرْفَعُهُ} إما إلى الكلم الطيب يعني والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وإما إلى الله عز وجل، يعني أن الله تعالى كما يصعد إليه الكلم الطيب فهو يرفع العمل الصالح، هذان قولان، وقد اختار ابن القيم فيما يظهر –والله أعلم– المعنى الأول، لأنه سمى كتابه : الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب ، فاستنبط العلماء أن مُجرد الكلام لا يرتفع إلا إذا اقترن به عمل، فالعمل تصديق للكلام، وإلا فقد يدعي الإنسان الدع اوى العريضة، فما لم يقرنها بالعمل لا تكون مقبولة ثابتة عند الله عز وجل ، والشاهد من هذا هو لفظ {**يَصْعَدُ**} و{**يَرْفَعُهُ**}، والرفع لا يكون إلا إلى أعلى.

قال: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا} : من القائل؟ فرعون، يقول مُخاطبًا وزيره هامان ، قال له: {ابْنِ لِي صَرْحًا} ، وما الصرح؟ الصرح هو البناء الرفيع الشامخ.

قال: {لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ}: الأسباب جمع سبب، وهو الطريق، {أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ}: يعني طرائق السماوات.

قال: {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى}: ما الذي نصب أطلع؟ أن مُضمرة، يعني: فأن أطلع إلى إله موسى.

قال: {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا }: ما هو وجه الدلالة من هاتين الآيتين على إثبات العلو؟ {ابْنِ لِي صَرْحًا} والصرح يدل على العلو والارتفاع، فأين طلب إله موسى؟ في جهة العلو، ولم يقل: احفر لي حفرة، أو احفر لي خندقًا أو نفقًا. بل قال: {ابْنِ لِي صَرْحًا} ، وأيضًا قوله: {أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ} يدل عليه، لكن يدل على ماذا؟ على أن موسى عليه السلام أخبره أن إلهه أين؟ في السماء.

قال: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا} : وهذا من تحايل فرعون وحذلقته، وتظاهره بالموض وعية، وهذا من أساليب الطُغاة، فإن من الطُغاة من يتظاهر أمام الشعوب والعامة بأنه موضوعي، وأنه يبحث عن الحق وغير ذلك، حتى إنه ليضع نفسه في موضع الاجتهاد، أرأيتم فرعون وهو أعتى الطُغاة، يقول: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}مثل هذه الجُملة تدل كأنما هو قتل الموضوع بحثًا، واجتهد في أن يبحث لهم عن إله، ثم بعد ذلك صفق بيده، وقال: والله ما علمت لكم من إله غيري : يعني استفرغت جُهدي ووسعي وبحثت وما وجدت لكم إله غيري، هكذا، فالسُذج يُغرر بهم بمثل هذا الكلام ويرونه ناصحًا مُجتهدًا.

وكذلك أيضًا حينما خرج عليهم وقال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات: 24]،{لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} [الشعراء: 29]، ويقول ها هنا مُتظاهرًا يعني بالبحث والتقصي: {ابْنِ لِي صَرْحًا} : يعني لنتأكد من الموضوع، لنتحقق، لا شيء، ليس ثمَّ إله، هكذا يُريد، يُريد أن يحصر الرُبوبية والأُلوهية بشخصه المهين ، سبحانه الله! هذه أساليب هؤلاء الطُغاة قديمًا وحديثًا.

قال: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}: {تَمُورُ}: أي تضطرب وتتحرك.

قال: {أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} : والحاصب هي الريح التي تحمل الحصباء فتحصبهم، أين وجه الدلالة من هذه الآية على إثبات عُلو الله؟ قوله: {مَّن فِي السَّمَاءِ} فالذي في السماء هو الله عز وجل، **والسماء لها معنيان:**

المعنى الأول: أن تكون السماء هي السماء المبنية.السبع الشداد.

المعنى الثاني: أن يكون المراد بالسماء العُلو.

فإن قُلنا: **إن السماء في هذه الآية هي السبع الشداد** . فمعنى قوله: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ} أي: أأمنتم من على السماء، وفي تأتي بمعنى على في لُغة العرب، ليس هذا تأويلًا، هذا من صميم لُغة العرب، التناوب بين حُروف الجر، وشاهد ذلك، أو شواهد ذلك من كتاب الله، قول الله تعالى: {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ}{ التوبة:2} يعني على الأرض، لا في جوفها وغورها، وقوله تعالى: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا} [الملك: 15]: يعني على مناكبها ، وقوله تعالى في قصة فرعون مع السحرة: {وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: 71]: هل مُراده أنه يُدخلهم في جوف هذه الجذوع؟ لا، المقصود على جُذوع النخل، إذن في تأتي بمعنى على في لُغة العرب، فإذا كان المقصود بالسماء في هذه الآيات : السماء المبنية : السبع الشداد، فإن في هُنا تُفسر بمعنى على.

وإن قُلنا: **إن السماء المُراد بها العُلو ، لأن العرب تُسم ي كل ما على** : سماء؛ فسقف هذا المسجد: سماءك، سماء هذا المسجد : سقفه، وهكذا، فإن في على وجهها تدل على الظرفية، يعني: أأمنتم من في العلو، ولا إشكال، ولا نحتاج أن نقول: في بمعنى على. وبهذا يزول الإشكال، فليس المقصود حاشا وكلا أن تكون السماوات تحوي الرب تُظله أو تُقله، تعالى الله عن ذلك، الله أكبر وأعظم وأجل من أن تكون سم اواته تحويه، تُظله أو تُقله، بل [ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدكم]، فهي أصغر من أن يتوهم إنسان أن السماوات تُحيط به سبحانه وتعالى، فصار المقصود {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ} : إما من على السماء، أو معناها من في العُلو، فهذا دليل على إثبات عُلو الله.

والواقع أيها الكرام أن عُلو الله تعالى في القُرآن العظيم مذكور بطُرق مُتنوعة، منها ما استشهد به المؤلف، ومنها صِيغ أُخرى، فقد سمى الله نفسه في كتابه بأسماء تدل على العُلو صريحًا، كقوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى}[الأعلى:1]،{الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ } [الرعد: 9]، {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[البقرة: 255] [الشورى: 4] ، فالعلي

والأعلى والمتعال تدل على ذلك ، وكذلك ما مر بنا من ذكر صُعود الأشياء إليه، وذكر عُروجها إليه، {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج: 4]، والعُروج يكون إلى أعلى، ورفع الأشياء إليه ، ومن الأدلة: نزول الأشياء منه، لأن النزول لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، وذكر الاستواء يدل على العُلو، وهكذا ، حتى حكى شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في الفتاوى عن بعض عُلماء الشافعية أن في القرآن أكثر من ألف دليل على إثبات عُلو الله، وبعضهم قال: ألفي دليل . يعني بعضها دِلالته مُباشرة، وبعضها مُستنبط، فهذه دِلالة القُرآن.

وأما السُنة: فكثير جدًا في الأحاديث، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: [وأنت الظاهر فليس فوقك شيء]، وكذلك أيضًا رفع النبي صلى الله عليه وسلم طرفه إلي السماء ينتظر الوحي من الله عز وجل، {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [البقرة: 144]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم للجارية: (أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: (أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)[1] ،إلى غير ذلك من الأدلة.

وأما الإجماع: قد ذكرنا لكم آنفًا قول الأوزاعي: "كُنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات".فالإجماع مُنعقد على إثبات عُلو الله تعالى، لا يُنازع في ذلك أحد من أهل السنة، بل كُلهم على هذا.

وأما العقل: فالعقل يدل على إثبات العُلو، وذلك أن العُلو لدى جميع العُقلاء صفة كمال، والسُفل صفة نقص، هذا أمر تُقر به جميع العُقول، والأصل أن ما ثبت للمخلوق من كمال فالله أولى به، كما أن ما تنزه عنه المخلوق من نقص فالله أحق بالتنزيه منه، وفي هذا رسالة مبسوطة لشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– اسمها: الرسالة الأكملية.

أما الدليل الخامس فهو دليل الفطرة : فقد غرس الله تعالى في الفطر اعتقاد عُل وهو سبحانه وتعالى، حتى إن اليهود والنصارى يُقرون بأن الله تعالى في العُلو، ويُشيرون إلى السماء، ناهيك عن أهل الإسلام فإنهم أكثر الناس تحقيقًا لعُلوه سبحانه وتعالى، فما من إنسان لم تتلوث فطرته بالمباحث الكلامية والمنطقية والفلسفية إلا ويجد في قلبه نُزوعًا إلى السماء حين مُناجاة الله تعالى، وقد وقع قصة لأبي المعالي الجويني وهو من أساطين الأشاعرة مع أبي جعفر الهمداني –رحمه الله–، وأبو المعالي الجُويني كان يُلقب بإمام الحرمين، وذلك لتفننه في عُلوم الفقه، والأصول، والعربية، لكنه في باب الاعتقاد ليس على طريقة أهل السنة والجماعة، فكان يُقرر ويقول: كان الله ولا شيء . وهذه جُملة صحيحة، ثم أردف قائلًا: وهو الآن على ما كان عليه . يُعرض بنفي العُلو والاستواء، قال: وهو الآن على ما كان عليه . ففهم أبو جعفر الهمداني مُراده، وأنه يُريد أن ينفي حُصول الاستواء، لأن الله قال: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}؛ فقال : يا إمام: دعنا من ذكر العُلو والاستواء، وأخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها أحدنا في قلبه، ما قال عارف قط: يا الله . إلا وجد في قلبه ضرورة بطلب العُلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة . فجعل الجويني يلطم على رأسه، ويقول: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني . لم يستطع أن يُجيب عن هذا الدليل الفطري، وأنتم تجدون هذا في قُلوبكم، ما من أحد منا يُناجي ربه ويقول: يا رب . إلا يجد قلبه ينزع

[1] صحيح مسلم (537).

إلى أي جهة :يمين، يسار، خلف، تحت؟ بل يجد أن قلبه يتجه نحو العلو، حتى أن الأطفال الصغار إذا استعدى بعضهم على بعض وجرى يُخوفه بالله الذي في السماء، ناهيك عن الشيوخ الكبار والعجائز، بل يُقال: إن البهائم العجماوات إذا اعتراها شيء من الألم أو جاءها ضرب رفعت طرفها إلى السماء. فالله سبحانه وتعالى فوق سماو اته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، هذا عقيدة أهل السنة والجماعة، **فعُلو الله تعالى ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: علو قدر.

النوع الثاني: عُلو قهر.

النوع الثالث: عُلو ذات.

فعلو القدر هو عُلو الصفات، إما أن نقول علو قدر، وعلو قهر، وعلو ذات، وإلا نقول: علو قهر، وعلو صفات، وعلو ذات، بمعنى واحد، ونبينها حتى لا تلتبس على أحد، المقصود: بعُلو القدر هو عُلو الصفات، لأن الله له المثل الأعلى، وهذا أمر يُجمع عليه أهل القبلة وإن اختلفوا في التفاصيل، فما ي وجد أحد يدعي الإسلام إلا يفترض لله الكمال المطلق، وأسعد الناس بهذا هم أهل السنة، الذين أثبتوا ما أثبت لنفسه من صفات الكمال، ونزهوه عن صفات النقصان، وأما عُلو القهر فلا يُنازع فيه أحد من أهل القبلة، {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}[الأنعام: 61،18]، فلا يُمكن لأحد يدعي الإسلام أن يُثبت لله مُغالبًا خارجً ا عن قُدرته وقهره وسُلطانه، {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}[الأنعام: 61،18] يكفيك الملائكة العِظام الذين قال الله تعالى عنهم: {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل: 50].

بقي موضع النزاع وحلبة الصراع في القسم الثالث، وهو عُلو الذات، فأهل السنة والجماعة قاطبة، مُجمعون على أن الله تعالى بذاته مستوى على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، وأنه سبحانه وتعالى له العُلو الأعلى، وأنه سبحانه مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته، وأن عرشه هو سقف المخلوقات، فكل الكون تحت العرش ، والله فوق العرش، هذه الفكرة الواضحة البينة عند جميع أهل السنة والجماعة، أن الله سبحانه عال على خلقه، مستو على عرشه، ليس فيه شيء من خلقه، يعني لا اختلاط، ولا في خلقه شيء منه، لا حُلول، هذا مُعتقد أهل السنة والجماعة.

وأما أهل البدع فقد قالوا مقالات بائرة في هذا، وأتوا بالعجب العُجاب، فمنهم من يقول: **إن الله حالّ في كل مكان.** تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، **وهذه مقالة حُلولية الجهمية** الذين يقولون: إن الله في كل مكان .وقد تسمع من بعض الناس من يقول: ربنا في كل مكان. هذا قول باطل، علمه في كل مكان، أما هو بذاته سبحانه فلا يجوز أن يُقال : في كل مكان ؟ هل يكون في المساجد والبيوت والأسواق وكذا ؟ هذا لا يقول به من يقدر الله حق قدره، فالله تعالى فوق سماواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه ولا في خلقه شيء منه.

ومنهم من قال: لا يُوصف بأي جهة، فلا يُقال : فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا أمام ، ولا خلف.يعني نفوا عن الله الجهات الست، ولا مُحايث، ولا مُجانب، ولا مُحاذي، ولا.. ولا.. ، نفوا عن الله الجهات الست، سبحان الله! لو أُريد أن يُعرف العدم بشيء ما وُجد أحسن من هذا التعريف، أن تقول عن شيء من الأشياء : لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا أمام، ولا خلف، وليس مُجانبًا، ولا مُحاذيًا، ولا تجوز الإشارة الحسية إليه، ولا..،ولا..، ولا.. سلسلة من النفي، هذا في الحقيقة يُفضي إلى القول بالعدم، ولهذا تفطن أهل السنة فقالوا: إنما يُحاولون أن ليس فوق السماء إله. يعني مقالتهم هذا تُفضي إلى القول بإنكار وُجود الله، فهذه المقالة هي مقالة مُتأخري الجهمية، الذين قالوا بنفي الجهات الست،بالنفي المطلق، فهذه مقالة تأباها العقول وتُناقض أدلة الكتاب والسنة.

أما أهل السنة والجماعة فكما سمعتم على الجادة، على ما يُوافق العقل والفطرة والشرع، لا ينبو كلامهم على شيء من ذلك، الله سبحانه وتعالى بذاته، فوق سماو اته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، هذه مقالتهم، أما المقالات الباطلة الفاجرة كمقال ة الحُلول، وكمقالة الاتحاد بنوعيهما العام والخاص، فكلها مقالات كُفرية لا تمتّ إلى الحق بصلة، ويجب دفعها وإنكارها.

والله أعلم.

الدرس (18)

إثبات معية الله لخلقه

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[الحديد: 4] .**

{مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[المجادلة: 7] .

هاتان الآيتان أتى بهما المصنف بعد ذكر آيات الاستواء والعُلو وهذا من حُسن صنيعه وتصنيفه، ليُبين أن عُلو الله تعالى واستواءه على عرشه لا يمنع من معيته لخلقه، فإنه سبحانه قريب في عُلوه، عليّ في دُنوه، فلا تناقض بين كونه سبحانه فوق السماوات العُلى مستويًا على العرش، وبين كونه مع خلقه، إذ أن هذ هالمعية معية علم، معية بصفات الربُوبية، بسمعه، وبصره، وقدرته، واطلاعه، فلا تنافي بين الأمرين، لئن كان هذا يتنافى في حق المخلوقين فإنه لا يتنافى في حق الخالق، فالمخلوق رُبما لو وجد شخص مثلًا فوق سطح هذا المسجد فإنه لا يعلم ما نحن فيه، ولا يسمع كلامنا، ولا يرى فعالنا، هذا في حق المخلوقين، ناهيك فيما لو كان في مكان ناء بعيد، فقد يتوهم مُتوهم أن كون الله تعالى فوق عرشه مستو عليه فوق سماو اته،أن هذا يُفضي إلى عدم عِلمه ومعيته بخلقه، **فأردف الشيخ آيات العُلو والاستواء بما يدل على أنه لا تعارض بين المعية والعلو.**

قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} :إذن هذا فيه إثبات العُلو والاستواء.

قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} :وسبق تفسير هذه الجُمل.

قال: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} : إذن في آية واحده جمع سبحانه وتعالى بين المعية والعلو، فلا يُمكن أن يكون بين المعية والعلو تعارض، هذه المعية هي معية بعلمه، وسمعه،وبصره، وقدرته، وإحاطته سبحانه، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[الشورى: 11].

قال: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ}: النجوى هي حديث الهمس.

قال: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ}: {رَابِعُهُمْ}:يعني جاعلهم أربعة، فهو معهم.

قال: {لا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ}:يعني جاعلهم ستة.

قال: {وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ}:يعني أدنى من الأربعة.

قال: {وَلا أَكْثَرَ}: أكثر من الستة، أو أكثر من الخمسة.

قال: {إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} :إذن هو بما تعملون بصير، وهو بكل شيء عليم.

قال الإمام أحمد –رحمه الله–: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم . أراد بذلك –رحمه الله– الرد على حُلولية الجهمية، يعني حينما فسر السلف المعية بالعلم ليس مُرادهم إن العلم مُطابق للمعية، وإنما مُرادهم بذلك تفسير الشيء بلازمه، يعني أنه يلزم من معيته سبحانه العلم بأحوالهم، وأرادوا بذلك الرد على حُلولية الجهمية الذين يزعمون أن الله موجود في جميع الأشياء وأنه مُنبث في الكون كانبثاث الهواء والضياء، تعالى الله عما يقولون، وأن الأرض ظرف له، تعالى الله عن ذلك، فلهذا السلف قطعوا عليهم الطريق وقالوا: معهم بعلمه . افتتح الآية بالعلم، أين افتتحها بالعلم؟ في سورة المجادلة: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} ، واختتمها بالعلم: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ، فهذه الآيات دلت على إثبات أحد نوعي المعية، وهي المعية العامة التي يشترك فيها جميع المخلوقات.

ثم إن الشيخ أردف الآيات الدالة على معيته العامة بالآيات الدالة على معيته الخاصة، ذلك أن **المعية تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: معية عامة.

القسم الثاني: معية خاصة.

📖**قال الم ؤلف –رحمه الله–: وقوله: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40].{إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}[طه: 46].{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل: 128].{وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ**

الصَّابِرِينَ}[الأنفال: 46].{كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[البقرة: 249].

قال: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} : جاء ذلك في خبر النبي صلى الله عليه وسلم في حادث الهجرة : {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40]، وذلك أن نبينا صلى الله عليه وسلم حين أوى إلى غار ثور مع صاحبه أبي بكر، وأرسلت قُريش الطلب إثرهما فبلغوا إلى موضع الغار، حتى قال أبو بكر – رضي الله عنه – للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله:والله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لرآنا. قال ذلك شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم فهو يُفديه بنفسه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40]، فهذهالمعية معية خاصة، أما المعية العامة فإنها تشمل من في الغار ومن خارج الغار، فإن الله مع هؤلاء الذين يتبعون أثره بسمعه وبصره وعلمه، كما أنه مع من في الغار بسمعه وبصره وعلمه، وزاد من في الغار على من خارج الغار أنه معهم بنصره وتأييده وحفظه، فهذا هو الفرق بين المعيتين.

قال: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} : هذا خِطاب من الله تعالى وطمأنة لموسى وهارون عليهما السلام، فإنه لم ا ندبهما إلى لقاء فرعون ودعوته، قال موسى وهارون عليهما السلام: {رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى} [طه: 45]، وهو محل ذلك، إذ كان طاغيًا جبارًا غشومًا، لا سيما أنه قد سبق لموسى عليه السلام ما يعدونه خطيئة وهو قتله للقبطي، فقال الله تعالى مُطمئنًا: {لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46]، فهذه المعية معية خاصة تقتضي أن الله تعالى يرعاهما ويكلؤهما بعنايته ويدفع عنهما، وإلا فإن الله مع فرعون ومَلَئِهِ ومع موسى وهارون معية عامة، معية الرُبوبية المقتضية للعلم بالسمع والبصر والقدرة والإحاطة وسائر صفات الرُبوبية.

قال: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} : هذه معية للمُتصفين بوصفين كريمين، وهما: التقوى والإحسان، فالله تعالى مع المتقين عامة، ومع المحسنين عامة، مما يدلنا على أن معية الله تعالى لا تختص بأفراد كنبينا صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، و موسى وهارون وسائر الأنبياء، وإن كان لهؤلاء القدح المعلى، والقدر الأكمل، لكن معية الله الخاصة يندرج فيها جميع أوليا ئه من المتقين، والمحسنين، والصابرين، والمجاهدين في سبيله، كما في هذه الآيات وغيرها، والذين اتقوا هم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أوامره واجتناب مناهيه، هذا هو العهد الذي بينك وبين ربك، إنك إن اتقيت الله وقاك، وليس شيء آخر من نسب أو مزاعم أو شرف أو غير ذلك، {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحُجرات: 13]، فمن اتقى الله وقاه، وتقوى الله تكون بأن يتخذ الإنسان بينه وبين عذاب ربه وقاية ، بأن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، فإن فعل فليبشر {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: 62]، من؟ {الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} [يونس: 63]، كذلك أيضًا المحسنون، والمحسنون هم المنتهيون إلى الإحسان التي هي أعلى مراتب الدين، فإن أعلى مراتب الدين: الإحسان، ثم الإيمان، ثم الإسلام، فيدخل الإنسان أصلًا بعقد الإسلام، وتحصل له عِصمة الدم والمال به، ثم يمن الله تعالى عليه فيأتي بمُقتضيات الإيمان من الطاعة وترك المعصية فيكون من المؤمنين بفعل

الأوامر واجتناب المناهي، ثم يترقى في ذلك حتى يصل إلى درجة الإحسان التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: [أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك]، وهاتان أيضًا درجتان

الدرجة الأولى: درجة الطلب.

الدرجة الثانية: درجة الهرب.

فدرجة الطب: [أن تعبد الله كأنك تراه]، يعني تعبده مُشتاقًا إليه، راغبًا فيه، مُنجذبًا إليه، مُتألهًا له، تعبده بمحبة، فهذه درجة الطلب، دونها، [فإن لم تكن تراه] إن لم تبلغ هذا المبلغ فاعبده كأنه يراك، وهي درجة الهرب بمعنى أنك تشعر بخشيته وخوفه وإجلاله، فلا يبدر منك ما يُسخطه عليك، هؤلاء هم أهل معية الله، ولهذا لا يرفع الله عنهم يده، المتقون والمحسنون، وسائر من اتصف بهذه الصفات الكريمة يكون الله معهم في السراء والضراء يُسددهم ويُصلح أحوالهم كما قال في الحديث عز وجل القُدسي:]وما تقرب إليَّ عبدي بأحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه]، يعني زيادة على الفرائض، قال سبحانه وتعالى: [فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطينه، ولئن استعاذني لأُعيذنه]، بل قال: [وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبد مؤمن يكره الموت وأكره مساءته]، هذه هي الولاية الحقيقة، من كان لله تقيًا كان لله وليًّا، ولهذا إذ أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر قدر الله عندك ، انظر ما يقوم في قلبك من تعظيم الرب تبارك وتعالى، وإجلاله ومحبته، فإن وجدت خيرًا فاحمد الله، واعلم أن لك عند الله منزلة، وإن كان غير ذلك فتعاهد قلبك وأصلحه.

قال: {وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} : هذه معية لمن اتصفوا بهذه الصفة الحميدة وهي الصبر، والصبر في الدين بمنزلة الرأس من الجسد، وقد تقدم معنا أنه ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فهو في أقدار الله المؤلمة حبس للنفس عن التسخط والجزع، وحبس للسان عن مقالة السوء، يعني بالنسبة للنفس حبس للنفس عن الجزع، واللسان عن التسخط، والجوارح عن شق الجيوب وضرب الخُدود، وفعل أفعال الجاهلية، ولا شك أن الصبر منزلة كريمة، وعواقبه حميدة ، {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 249]، قالها المؤمنون للمُخذلين الذين أرادوا أن يغمزوا في قناتهم، ويصدوهم عن الجه اد في سبيل الله فقالوا: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 249]، {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: 251] فمن تولى الله واعتصم به فإن الله تعالى يكون معه، ومن كان الله معه فليبشر.

وخُلاصة هاتين الطائفتين من الآيات أن معية الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: معية عامة.

القسم الثاني: معية خاصة.

المعية العامة تقتضي العلم والإحاطة بجميع صفات الرُبوبية من السمع والبصر والقُدرة ونحوها، والمعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد، هذا من حيث المقتضى.

لمن تكون المعية العامة؟ ولمن تكون المعية الخاصة؟ تكون المعية العامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم، يعني المقصود لمن تكون من جهة الرب للخلق ؟ تكون لجميع الخلق، فلا أحد يخرج عن معية الله العامة، لكن ليس معنى ذلك أن جميع الخلق يستشعرون معية الله العامة، لا يستشعر معية الله العامة إلا المؤمنون المتقون، المحسنون الصابرون، هم الذين يشعرون بمعية الله ورقابته، أما الكُفار والفُساق فإنهم لا يستشعرون هذه المعية، وإن كانت حاصلة شاؤوا أم أبوا، أما معية الله الخاصة فإنها خاصة بالمؤمنين، يعني من حيث صُدورها من الله هي تختص بالمؤمنين الصابرين المحسنين، المتقين المجاهدين، فالله تعالى يبذلها لهم، فأرجو أن تُميزوا بين هذين المقامين.

معية الله العامة من حيث صُدورها من الله شاملة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم.

معية الله الخاصة من حيث صدورها من الله تختص بالمؤمنين، بأوليائه المتقين المحسنين، الصابرين، الموصوفين بصفات الكلمة التي علق الله بها المدح، لكن استشعار المعيتين لا يجتمع إلا في حق المؤمن، فالمؤمن يستشعر معية الله العامة ويستشعر معية الله الخاصة، أما الكافر فلا يستشعر أيًّ من المعيتين، أما الخاصة فالأمر واضح إذ أنه ليس من أهلها، وأما العامة فإنه لا يشعر بها، ولا يُحس بتقوى الله ورقابته حتى يستشعر معية الله العامة.

الفرق الثالث: الأثر. وهو الذي نُسميه دومًا: الأثر المسلكي، ما الذي تُثمره معية الله العامة في نفس المؤمن بها؟ تُثمر كمال مُراقبة الله تعالى، فمن آمن بمعية الله العامة علم أنه تحت سمع الله وبصره، وأثمر ذلك في قلبه خشيته، هذا أثرها المسلكي وياله من أثر! إذا قال قائل: الله معي.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل بُرهة من الدهر أو ما تُخفي عليه يغيب

أما معية الله الخاصة فإنها تُثمر في نفس المؤمن القوة والثبات، لأن من علم أن الله معه لم يُبال بكائن من كان، يُحس أن الله معه فيُقويه، حتى إنه وقع للإمام النووي –رحمه الله– أنه كُلم مرة في شأن مُنكر وقع من بعض سلاطين زمانه أو غيره وكان مهيبًا بطاشًا ، فدخل عليه فكلمه في هذا الأمر بكلام قوي، فقالوا له: كيف جرأت عليه؟ . فقال –رحمه الله–: "والله إنه قد بدا لي كأنما هو هِر". فهذا يدلنا على أن المؤمن إذا امتلأ قلبه بخشية الله وتقواه، أثمر ذلك في قلبه القوة والثبات، ولهذا فتح المسلمون الأمصار وهم قوة قليلة، جميع المعارك التي خاضها الفاتحون من الصحابة والتابعين، خاضوا معارك ليس فيها تناسب عددي، لا مع الفُرس ولا مع الروم، ومع ذلك غلبوهم بإذن الله، لما في قُلوبهم من القوة والثبات، وهذا أمر يجده المؤمن الصادق، إذا قام لله عز وجل، تأملوا – يا رعاكم الله – قول الفتية أصحاب الكهف، قال الله تعالى مخبرًا عن حالهم: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} [الكهف: 14] أرأيتم؟ {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} [الكهف: 14]، قد يتهيب الإنسان أن يخوض في أمر من الأُمور من خشية الناس، لكنه إذا طرح ذلك كُله وترك المخاوف وقام لله، وجد الأثر والثمرة مباشرة، أن الله يربط على قلبه {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} [الكهف: 14]، ولطالما مثلنا بقصة صاحب القرية، حينما

نادى قومه ودعاهم إلى الإسلام بلسان مُبين، كل هذا من آثار المعية الخاصة، وشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– مُحرر هذه الأسطر حينما ذهب لملاقاة قازان، وكان من مُلوك التتار، وكان يهم أن يستبيح دمشق، فخرج إليه ومعه وفد من أهل دمشق من شيوخها ووجهها ها، فقام يُكلمه بلسان قوي ليس فيه تملق، وليس فيه مُحاب اة، ويشرؤه ويعيبه ويُقارنه بهولاكو وجنكيز خان اللذان كانا من أسلافه وكانا مشركين، قال: وأنت تدعي الإسلام، وتفعل كذا وكذا . وأخذ يُكلمه والناس مبهورين، حتى إن بعض من كان معه قالوا: كُنا نبتعد عنه، خشية أن يُصيبنا رشاش دمه ، ظنوا أنه سيُقتل في مجلسه، فعظمه أيما تعظيم، وقربه وأدناه، ولما انصرف من مجلس صار في ركابه رؤساء العساكر من التتار يُشيعونه، ويُقال:إن من طريف ما جرى أن بعض من كان معه فارقوه، قالوا: والله لا نرجع معك، لو رجعنا معك لا نأمن أن يُرسل السلطان في أثرك من يقتلك .فساروا في طريق آخر، ولم يزل شيخ الإسلام يسير مُعززًا مُكرمًا يُحيط به ويحتف به رؤساء العساكر من التتار حتى أوصلوه إلى دمشق، وأما من فارقه فيُقال: إنه تعرضت لهم عصابة حتى سلبتهم ثيابهم.

والمقصود: أن معية الله الخاصة لها آثار عظيمة في نفس المؤمن، وهي الثبات والقوة في ذات الله عز وجل.

أما الفرق الرابع بين المعيتين : فهو هل المعية الخاصة والعامة من صفات الله الذاتية ، أم الفعلية؟. المعية العامة على ضوء ما نذكره لكم دومًا من التفريق بين الذاتية والفعلية : المعية العامة ذاتية، لأن مُقتضياتها لا تنفك عن الله، ما مُقتضيات المعية العامة؟ الإحاطة، العلم، السمع، البصر، كل هذه لا تنفك عن الله، فلذلك المعية العامة من صفات الله الذاتية، وأما المعية الخاصة فهي مُتعلقة بمشيئته وحكمته، بمعنى: أنه إذا وُجد سببها وُجدت، وإذا ارتفع سببها ارتفعت، فحيثما وُجد الصبر، وحيثما وُجدت التقوى فإنها تُوجد المعية الخاصة، وإذا لم تُوجد ارتفعت، فهذه نحو أربع أو خمس فُروق بين المعيتين فاحفظوها.

وأما تقسيم المعية الخاصة إلى معية خاصة، ومعية خاصة الخاصة فيُمكن أن نقول هذا من باب التفصيل داخل أحد القسمين، يعني داخل أحد القسمين الذي هو المعية الخاصة يُمكن أن نقول : إنها تتفاوت بحسب درجات .يُمكن أن نجعلها أقسامًا كثيرة أيضًا بحسب درجة الولاية لله عز وجل تكون معية الله تعالى.

الدرس (19)

إثبات الكلام لله تعالى

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87].{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}[النساء: 122].{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} [المائدة: 116].{وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}[الأنعام: 115].{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164].{مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ} [البقرة: 253].{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143].{وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: 52].{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الشعراء: 10].{وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ}[الأعراف: 22].{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [القصص: 62].{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ**

فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: 65].{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}[التوبة: 6].

هذه الآيات تتعلق بإثبات عقيدة الكلام، بإثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، فعقيدة أهل السنة والجماعة أن الله تعالى يتكلم بكلام حقيقي لا يُشبه كلام المخلوقين، وأنه تعالى يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء بحرف وصوت، وأن كلامه الحُروف والمعاني، لا المعاني دون الحروف ولا الحروف دون المعاني.

مرة أخرى أقول: عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بكلام حقيقي وأنه صفة ذاتية فعلية، ذاتية باعتبار أصل الصفة، وفعلية باعتبار آحادها وأفرادها، وأنه يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء إذا شاء بكلام حقيقي تسمعه الآذان، وكلامه سبحانه وتعالى حُروف ومعان، لا الحُروف دون المعاني ولا المعاني دون الحُروف لأن هذه هي حقيقة الكلام في اللغة، وقد دلل الشيخ -رحمه الله- بأدلة كثيرة على إثبات صفة الكلام لله تعالى، ومن أوجه مُتعددة

قال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} : هذا استفهام يُراد به النفي، أي لا أحد أصدق من الله قِيلًا، والصدق هو مُطابقة الخبر للواقع، والشاهد من الآية: {قِيلًا} [النساء: 122]: إذ القول هو الكلام باتفاق، فمن أثبت القول لله تبارك وتعالى فقد أثبت له الكلام.

قال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}: استفهام يُراد به النفي، أي لا أحد أصدق من الله حديثًا، وينبغي أن يعي هؤلاء المحرفون من المتكلمين العابثين بآيات الصفات وأحاديثها هذه الآيات، إذا كان الله تعالى أصدق قيلًا وأحسن حديثًا فكيف يُسوغون لأنفسهم التحريف والتأويل ؟ وقد علموا أن الله أصدق قِيلًا وأحسن حديثًا من خلقه، هذا من أعجب العجب!.

قال: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} : جُملة مقول القول {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} ، مكونة من حُروف وأصوات، فهي تدل على أن كلام الله مؤلف من حرف وصوت، هذا بنص كلام الله عز وجل، كما تدلنا هذه الآية على أن الله تعالى يتكلم متى شاء، وأن كلامه مُتعلق بمشيئته، متى يكون هذا ؟ {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ} [المائدة: 116]، يكون هذا يوم القيامة، حين يُقيم الله تعالى الحُجج على أهل الملل، فدل ذلك على أن هذا قول سيقع في المستقبل، فالله يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء.

قال: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} : الشاهد منها: {كَلِمَةُ رَبِّكَ} : فأضاف الكلام إلى نفسه سبحانه وتعالى مما يدل على أنه صفته، وذلك أن المضاف – وانتبهوا لهذه جيدًا بارك الله فيكم- إلى الله تعالى إذا كان يُتصور أن يكون مُنفصلًا وذات مُستقلة فهو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، كقولنا: ناقة الله ، وبيت الله، وكعبة الله. ولا نقول عنها: صفات. بل هي مخلوقات، وإضافتها إلى الله تبارك وتعالى إضافة تشريف، أما إذا كان هذا المضاف إلى الله لا يقوم بنفسه، لا بد أن يقوم بشيء كالكلام والسمع والبصر فهذه الإضافة من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فلهذا إذا قال الله تعالى عن عيسى ابن مريم عليهما السلام: أنه كلمة الله وروح الله . ونحو ذلك، فهذه من باب إضافة المخلوق إلى

خالقه، لأن عيسى ابن مريم عين قائمة بذاتها، وكذلك {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا} [الشمس: 13]،الناقة عين قائمة بذاتها، لا تكون صفة لمن أُضيفت إليه، لكن سمع الله، بصر الله، علم الله، قُدرة الله، هذه لا يُمكن أن تكون عينًا قائمة بذاتها، إذ ن لا بد أن تكون صفة مُضافة إلى الموصوف بها.

قال: {كَلِمَةُ رَبِّكَ}: دلت على أن الكلام صفة من صفات الله تعالى.

قال: {صِدْقًا وَعَدْلًا} : صدقًا في أخبارها، وعدلًا في أحكامها، لأن كلام الله خبر وإنشاء، كلام الله، وكلام رسول صلى الله عليه وسلم، وكلام الناس كذلك، فالكلام نوعان: إما خبر، وإما إنشاء، فإذا قلت: جاء زيد. خبر، وإذا قُلت: أغلق الباب. إنشاء، فالإنشاء هو الطلب فعلًا أو تركًا، فكلام ربنا سبحانه تام صدقًا إذا كان خبرًا، وتامًا عدلًا إذا كان حُكمًا.

قال: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}: هذه الآية من أوضح الآيات الدالة على إثبات صفة الكلام لله عز وجل، إذ أن الله تعالى أسند الكلام إلى نفسه وأكده بالمفعول المطلق.

قال: {وَكَلَّمَ اللَّهُ}: من المتكلِّم؟ الله، من المكلَّم؟ موسى عليه السلام.

قال: {تَكْلِيمًا} : مفعول مُطلق مؤكد لعامله، فما بعد هذه الآية مزيد في إثبات الكلام إلى الله، ولهذا شرق بها أهل البدع وحاولوا أن يصرفوها عن ظاهرها، فأرادوا أن يستنطقوا أبا عمرو بن العلاء وهو أحد القراء المعروفين أن يقرأ لهم: وكلم اللهَ موسى تكليمًا.ليجعلوا الله مكلمًا لا مُتكلِّمًا، حينما تُعرب الآية تقول: {كَلَّمَ} : فعل ماض مبني على الفتح، {الله} لفظ الجلالة فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة، {موسى} مفعول به منصوب، {تكليمًا} مفعول مُطلق مؤكد لعامله، أرادوا أن يعكسوا القضية وأن يقولوا: {وكلَّم اللهَ} بأن يقولوا: الله مفعول به مُقدم، وموسى: فاعل مؤخر منع من ظهور الضم عليه التعذر، هكذا أرادوا، لكن أبا عمرو بن العلاء -رحمه الله- قال لهذا المبتدع: فما تصنع يا ابن اللخناء في قول الله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143]؟. هل يستطيع أن يُحرفها؟ لا يستطيع، هذا ضرب من ضروب التحريف اللفظي بتغيير الشكل، وقد نبهنا عليه في أوائل شرحنا لهذه الرسالة.

قال: {مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ}: من الرُسل، {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ }[البقرة: 253]، فمنهم من كلمه الله : مثل موسى بن عمران، ونبينا صلى الله عليه وسلم، ولهذا يُقال: موسى الكليم، كلمه الله كفاحًا في الطور.

قال: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} : جاء موسى لميقاتنا حيث وعده الله تعالى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، وكلمه ربه، حتى إنه لشغفه وتعلقه بربه قال: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف: 143]: تمنى أن ينظر إلى ربه، فقال الله عز وجل: {لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ}[الأعراف: 143] ... الآية.

قال: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} : دليل صريح على إثبات كلام الله عز وجل، ودليل أيضًا على أن كلامه مُتعلق بمشيئته، لأن عندنا حدثان: المجيء، والتكليم. بالله عليكم أي عربي يُدرك أدنى شيء من العربية ماذا يفهم؟

أيهما وقع أولًا المجيء ، أم الكلام؟ المجيء، ثم وقع بعده الكلام، هكذا يفهم كل عربي يقرأ القرآن، فهذا يدل على أن الكلام حدث بعد المجيء، وأهل البدع كما تعرفون يظنون أن هذا الحُدوث نقص في حق الباري، ويقولون: حصل له وصف بعد أن لم يكن . وغفلوا عن أمر مهم، وهو أن أصل الكلام ذاتي النوع فعلي الآحاد، يعني كما يُعبر ابن قُدامة وغيره –رحمه الله–: قديم النوع حادث الآحاد. فأصل الصفة قديمة، ولا يُقال: إنها طرأت على الله بعد أن لم تكن. بل هي قديمة، إنما من كماله سبحانه أنه يتكلم متى شاء، وكيف يكون ك مالًا على زعمهم ألا يتكلم؟ فهم يصفون الله بالخرس، زعموا بأنه لا يُمكن أن يتكلم متى شاء كيف شاء، حتى عند المخلوقين، أحدنا الذي يتكلم إذا اقتضى المقام الكلام أكمل من الأخرس الذي لا يتكلم أو تكلم في أول دهره ثم سكت، هذا لا يكون، وسنذكر مذاهبهم في هذا، إنما الآية دلت دلالة صريحة على ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن كلام الله من صفاته الذاتية الفعلية وأنه يتكلم متى شاء كيف شاء.

قال: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} : هذه الآية دلت على أن كلام الله له تصرفات، فتارة يكون نداءً، وتارة يكون مُناجاة، والمناداة هي الصوت لمن بعد، والمناجاة هي الصوت لمن قرب، فلما كان موسى عليه السلام بعيدًا نُودي، فلما قرُب نُوجي، والطور هو جبل معروف في بلاد الشام، أو في بلاد فلسطين، ويقال: إن الطور يُطلق على الجبل الذي لا نبت فيه، أيًا كان هناك جبل بهذا الاسم، وهو موقع شريف بلا شك.

قال: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ} :وصفه بالأيمن ها هنا بالنسبة للمُقبل عليه، وإلا فإن كل شيء يُمكن أن يكون له يمين ويسار باعتبار الجهة التي يُرصد من خلالها، فأنت إذا أقبلت على جبل أو على عين من هذه الجهة صار هذا جانبه الأيمن وهذا الأيسر، وإذا جئت من الجهة المقابلة صار العكس، فالمقصود من الأيمن بال نسبة لموسى عليه السلام.

قال: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} : إذن دلت على فضل موسى عليه السلام واختصاصه بكلام الرب مُناداة ومُناجاة، ودلت على تصرف كلام الرب وأنه كلام حقيقي منه ما يكون مُناداة، ومنه ما يكون مُناجاة.

قال: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} : {وَإِذْ}: هذه تدل على الظرفية، مما يدل على أنها مُتعلقة بمشيئته.

قال: {وَإِذْ نَادَى}: والمناداة نوع من أنواع الكلام.

قال: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}: وهم قوم فرعون، {أَلا يَتَّقُونَ}.

قال: {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ} : من هما؟ الأبوان عليهما السلام آدم وحواء، ناد اهما ربهما وكانا في الجنة، قال لهما: {أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ} [الأعراف: 22]، فسمع الأبوان بأُذنيهما كلام الباري سبحانه، هذا ما يفهمه كل قارئ للقرآن على فطرته وسليقته، لكن من احتوشته الشياطين وضللته الأهواء صار يُغرب في المقالات، أتدرون ماذا يقولون؟ يقولون في هذه وفيما تقدم من كلام الله تعالى لموسى عليه السلام، يقولون: إن الله تعالى

لم يتكلم بكلام حقيقي صادر منه وإنما خلق حُروفًا وأصواتًا في جو الجنة سمعها الأبوان، أو خلق حُروفًا وأصواتًا في الشجرة سمعها موسى عليه السلام، وهذه الحُروف والأصوات مخلوقة لتُعبر عن كلام الله، أو لتحكي كلام الله.

فهم حقيقة ما أثبتوا الكلام لله، ما هو كلام الله إذ ن؟ قالوا: كلام الله هو المعنى القديم القائم في نفسه . فجعلوا الكلام معنى دون حرف وصوت، وإنما هو معنى قائم في ذات الله بمنزلة العلم فقط، وليس الكلام التي تفهمه العرب من لُغتها، فإن العرب لا تُسمي كلامًا إلا ما كان معنى في النفس أصوات مُعبر بها عنه، متى يُقال: تكلم فلان؟ . إذا نطق، ولهذا لا يُعد الطلاق طلاقًا، ولا العِتاق عتاقًا، ولا الوقف وقفًا، والإنسان يُفكر به بخاطره، لا يكون حتى يلفظ به، فلو أن إنساناً خطر في باله أنه طلق زوجته، هل تطلق؟ لا تطلق حتى يقول: أنتِ طالق . لو أن إنساناً فكر أن يُعتق عبده، وقال في خاطره: عبدي عتيق لوجه الله . ما يعتقه حتى يلفظ، لو أراد أن يُوقف بيته أو بُستانه، لا يكون وقفًا بأن يُحدث نفسه بأنه جعله لوجه الله حتى ينطق بذلك، فلا يكون الكلام كلامًا إلا بالجمع بين المعنى واللفظ، فلهذا لما صارت عندهم هذه المقدمات الفاسدة ،ودومًا أُنبهكم عليها أن فساد المقدمات يؤدي إلى خلل النتائج، فالقوم أعنى المتكلمين من الجهمية والمعتزلة ومن شابههم من الأشاعرة والماتُريدية وغيرهم من الصفاتية لما التاثوا بهذه اللوثة واعتقدوا قبل أن يستدلوا شقوا بالنُصوص، وصاروا يبحثون لها عن محامل مُتكلفة، فهل تعتقدون – يا رعاكم الله – أن أحدًا من الصحابة الكرام أو التابعين لهم بإحسان فهم من قول الله عز وجل في كلامه لموسى عليه السلام عند الشجرة أن الله خلق حُروفًا وأصواتًا في الشجرة لتُعبر عن كلامه؟ لا والله، لو حلف حالف بين الرُكن والمقام أن هذا لم يقع ما ح نث، لا يخطر هذا ببال أحد ولا يدور بخلده، هذا تكلف مذموم، ما حمل عليه إلا المقدمات الفاسدة {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ}[الأعراف: 22]: كل قارئ للقُرآن على فطرته وسليقته يفهم أن ما سمعه الأبوان هو كلام رب العالمين، لا أحد يفهم من العُقلاء فضلًا عن الفُضلاء أن هذا المسموع حُروف وأصوات خلقها الله في جو الجنة لتُعبر عن كلام الله كما قالت الأشاعرة والكُلابية.

قال: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} : دلت الآية على إثبات الكلام لله، لأن النداء نوع من أنواع الكلام، ودلت أيضًا على إثبات أن كلامه مُتعلق بمشيئته لأنه يقول: {ويوم يُناديهم}[القصص: 65]، ومتى يكون ذلك؟ يوم القيامة، إذن هذا كلام سيقوله الرب سبحانه يوم القيامة لهؤلاء المشركين، {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: 65]،الآية بعدها تتعلق بالقرآن.

وأيضا الكُتب المنزلة كلام الله، أي إذا صح ما أخبر الله أو تكلم الله تعالى به في التوراة والإنجيل فإننا نُصدق خبره، أما حُكمه فإنه رُبما كان منسوخًا بالقرآن العظيم، وهذا هو معنى قول الله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: 48] يعني مُصدقًا لما فيه م ن أخبار، ومُهيمنًا على ما فيه من أحكام.

قد علمتم الآن بالآيات الواضحات والدلائل البينات أن مُعتقد أهل السنة والجماعة في كلام الرب عز وجل مبناه الكتاب الصريح ناطق الكتاب وسيأتي أيضًا أدلة من السنة.

أما الضالون في هذا الباب فهم كُثر منهم من هم من أهل القبلة ، ومنهم من ليسوا من أهل القبلة بل من الملاحدة، وأذكر لكم على سبيل الإجمال هذه المقالات الباطلة لكي تعرفوا نعمة الله عليكم باعتصامكم بنُصوص الكتاب والسنة:

الفلاسفة من أكفر الكفرة، وأنا أقصد ها هنا الفلاسفة المتفلسفين يعني الذين تظاهروا بالإسلام، ورُبما يُطلق عليهم البعض فلاسفة الإسلام، وليس في الإسلام فلسفة، لكنهم أرادوا أن يُلبسوا فلسفتهم اليونانية والإغريقية بلبوس الإسلام وبعبارات الدين، ماذا يقولون عن كلام الله؟ يقولون : إن كلام الله فيض من العقل الفعال على بعض النُفوس الزاكية يُوجب لها تهيؤات وتصوُرات تقوى وتشتد حتى تُصبح كلامًا تسمعه الأذان . هذه مقال ملاحدة الفلاسفة كابن سينا والفارابي ومن لف لفهم عن كلام الله، يقولون: فيض من العقل الفع ال. والعقل الفعال يجعلونه الاصطلاح المقابل للرب والإله عند أهل الأديان، يُسمونه: العقل الفعال، فالعقل الفعال في زعمهم يفيض فيُوضات على بعض النُفوس الزاكية، من يقصدون بأصحاب النُفوس الزاكية؟ الأنبياء والمرسلين، وهذا الفيض يُوجب لها تصورات وتهيؤات تقوى وتشتد حتى تُصبح أشكالًا نُورانية، ما الأشكال النورانية هذه؟ ما تُسمونه الملائكة، فيسمعون كلامًا، الذي تُسمونه أنتم الوحي، هكذا زعمت، ولا حاجة للتعقيب على قولهم فهو كُفر صُراح يُدركه كل أحد.

المقالة الثانية: مقالة الاتحادية : وهم أصحاب وحدة الوُجود من الصوفية كابن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين، والقونوي ومن كان على طريقتهم، فإنهم يزعمون أن كل كلام في الوُجود كلام الله، كل شيء وكل صوت تسمعه يقولون: إنه كلام الله . وذلك لأن عقيدتهم الكُفرية أن الله سبحانه وتعالى هو عين الوُجود، هذه عقيدة وحدة الوُجود التي هي أكفر مقالات الكفر وأخبثها، يقولون: الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق، أنا من أهوى ومن أهوى أنا، نحن رُوحان حللنا بدنًا، إذا كُنت ليلي وليلي أنا، ويقول قائلهم:

الرب عبد والعبد رب يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب أنى يُكلف

في أبيات لابن الفارض عليه من الله ما يستحق، وهكذا، يعني كُل شيء يرونه في الكون يرونه مظهرًا لله عز وجل، تعالى الله عما يقولون، وسحبوا ذلك على قضية الكلام حتى قال قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه سواءً علينا نثره ونظامه

فأي صوت يسمعونه يعتبرونه كلام الله، حتى الخشخشة، وحتى صوت الآلات، وأزيز الطائرات، وصوت — تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا– الحيوانات، وغير ذلك، كل صوت يسمعونه يعتبرونه كلام الله، ويُذكر أن أحدهم كان على

المنبر فنعق غُراب على جدار المسجد، فخر مغشيًا عليه يقول: لبيك لبيك!!!! هكذا تتلاعب بهم الشياطين، فهذا هو معنى كلام الله عندهم:

وكل كلام في الوجود كلامه سواءً علينا نثره ونظامه

المقالة الثالثة: مقالة الجهمية: والجهمية كما تعلمون لا يُثبتون لله أسماء ولا صفات، فلا يُثبتون صفة الكلام لله عز وجل، ويقولون: إن الكلام الذي أضافه الله إلى نفسه مخلوق . فهو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، لا من باب إضافة الصفة إلى المتصف بها، فليس كلامه صفته، فحينما يقال: كلام الله. يعني مثل: ناقة الله، وبيت الله، وعبد الله . ونحو هذا، لا أنها صفته لأنهم يُنكرون أن يقوم به سبحانه وتعالى صفة ثُبوتية، والمعتزلة مثلهم، ولهذا المعتزلة كما تعلمون حملوا لواء القول بخلق القرآن، والقرآن كلام الله وسيأتينا -إن شاء الله- في الدرس القادم، فزعموا أن القرآن ليس كلام الله وإنما هو مخلوق، وأن إضافته إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه كأسلافهم الجهمية.

أما الصفاتية من الأشاعرة والماتريدية والكُلابية فإننا كما نُقرر لكم دائمًا أن هؤلاء الصفاتية قوم يُعظمون السلف ويشتغلون بالآثار، يُجلون الأئمة وينمون أنفسهم إليهم لكنهم لم يفقهوا طريق السلف -رضي الله عنهم- ولم يُدركوها كما أدركها السلف، والتبست عليهم شُبهات المعتزلة فلم يستطيعوا لها حلًا، ولم يُحيروا لها جوابًا فجاء مذهبهم مُلفقًا بين مقالة السنة المحضة ومقالة المعتزلة، ومن أقدم المتكلمين الذين كانوا يردون على المعتزلة ويُوالون السنة عبد الله بن سعيد بن كُلّاب، فالكُلّابية لم يستطيعوا التخلص من إلزام المعتزلة بأن إثبات الصفات الفعلية يقتضي حُدوث صفة في حق الله بعد أن لم تكن، فوجدوا أن الكلام إذا قِيل بأنه يتكلم متى شاء، أن هذا يقتضي طُروء الصفة عليه، فماذا قالوا؟ قالوا هم وتابعهم على ذلك الأشاعرة والماتُريدية، والسالمية، وفِرق شتي، قالوا: إننا نُثبت كلام الله، كما أثبته السلف ، فهو كلام الله مُنزل غير مخلوق، لكن كلام الله هو المعنى القديم القائم في ذاته . يعني أنه معنى، والحُروف والأصوات؟ قالوا: وأما الحُروف والأصوات التي سمعها جبريل عليه السلام وسمعها الأبوان في الجنة، وسمعها موسى عند الشجرة، ويسمعها عيسى ابن مريم عند القيامة، فهي مخلوقة، ليست صفة. **قالت الكُلابية: مخلوقة لتكون حكاية عن كلام الله . وقالت الأشاعرة: مخلوقة لتكون عبارة عن كلام الله، هكذا.** هؤلاء يقولون: حكاية . وهؤلاء يقولون: عبارة . ولا فرق الحقيقة في التعبير يُذكر، فكلهم مُتفقون على أن الحُروف والأصوات المسموعة ليست كلام الله، ولهذا قال بعض مُحققي الأشاعرة: عند التأمل والتحقيق لا فرق بين مقالتنا ومقالة المعتزلة. ما دام أن هذا الكلام المسموع ليس كلام الله فهم في الحقيقة لا يُثبتون كلام الله وإن تظاهروا بأنهم يعدونه من الصفات السبع التي يُثبتونها، فإنكم تعلمون أن الأشاعرة يُثبتون سبع صفات، وكذا الماتريدية وربما تزيد عليهم ثامنة الحياة والسمع والبصر والقدرة والكلام والعلم والإرادة، فيجعلون الكلام من الصفات السبع التي يُثبتونها لكنهم في الواقع ما أثبتوها كما يُثبتها أهل السنة والجماعة.

فهذا مُجمل أقوال الناس في مسألة كلام الله عز وجل، فوجب أن نُ بثت كلام الله تعالى إثباتًا حقيقيًا حُروفه ومعانيه، لا المعاني دون الحُروف ولا الحُروف دون المعاني، وسيأتي لهذا مزيد بسط في كلام الشيخ لاحقًا.

والله أعلم.

الدرس(20)

إثبات الكلام لله تعالى (2)

📖قال المؤلف –رحمه الله–: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: 6].{وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: 75].{يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا} [الفتح: 15].{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الكهف: 27].{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}[النمل: 76].

إثبات أن القرآن مُنَزَّل من الله تعالى:

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام: 155].{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: 21].{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل: 101–103].

تقدم الكلام في الدرس الماضي عن إثبات صفة الكلام لله عز وجل، وأن الكلام صفة ثابتة لله تعالى وأنه سبحانه وتعالى يتكلم بكلام حقيقي لا يُشبه كلام المخلوقين، يتكلم بكلام مُتعلق بمشيئته، فهو قديم النوع حادث الآحاد قد كلَّم الأبوين في الجنة، وكلَّم موسى عليه السلام عند الشجرة، وكلَّم نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم ليلة المِعراج، ويُكلم من شاء من عباده يوم القيامة، فصفة الكلام لله تعالى صفة ثابتة، وذكرنا مذاهب الناس في هذا، وهذه الطائفة من الآيات تتعلق بأمر أخص، وهو ما يتعلق بالقرآن خاصة، إذ القرآن العظيم نوع من كلام الله، فالله تعالى تكلم بكلام فيما مضى وفيما زال، وفيما لم يزل، لأنه لم يزل ولا يزال مُتكلمًا، تكلم بالتور اة، وتكلم بالزبور، وتكلم بالإنجيل، وتكلم بالقرآن، فهذا المبحث مبحث شريف وهو عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن، عند أهل السنة والجماعة: القرآن كلام الله، هذه الجُملة جُملة مُحكمة يعضون عليها بالنواجذ، لأن هذا نص كتاب الله كما سنتلو ا في الآيات، القرآن كلام الله، مُنزل غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود، تكلم الله به حقيقة، فأوحاه إلى جبريل عليه السلام فنزل به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وهو كلام الله حُروفه ومعانيه، لا المعاني دون الحُروف ولا الحُروف دون المعاني، بل مجموع الأمرين، وإضافته إلى الله إضافة صفة إلى المتصف بها، هذا مذهب أهل السنة والجماعة.

أُعيد تقريره: القرآن كلام الله، مُنزل غير مخلوق، منه بد ا وإليه يعود، تكلَّم الله تعالى به حقيقة، فأوحاه إلى جبريل فنزل به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وهو كلام الله حُروفه ومعانيه، لا الحُروف دون المعاني، ولا المعاني دون

الحُروف، ليس عبارة عن كلام الله، ولا حكاية عن كلام الله، بل هو كلام الله كما قال سبحانه عنه، و انظروا لهذه الأدلة من ناطق الكتاب.

قال: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ} :يعني طلب جوارك وهو المستأمن، **إذ المُشركون أو غير المُسلمين أربعة أصناف:**

الصنف الأول: ذمي.

الصنف الثاني: معاهد.

الصنف الثالث: مُستأمن.

الصنف الرابع: حَربي.

من غير المسلمين لا يخلون من هذه التوصيفات والتصنيفات الأربعة، فمنهم المستأمن.

قال: {وَإِنْ أَحَدٌ}: {أَحَدٌ}: نكرة في سياق الشرط فتدل على العُموم.

قال: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}: إذ استجار بنا مُشرك فالواجب علينا أن نُجيره، وأن نحفظه، وألا نُعرضه لخطر، ولا قتل، ولا أذى، بل نُقيم عليه الحُجة الرسالية، فنطلب قارئً ا ونقول: اقرأ عليه القرآن. فنكون بذلك قد امتثلنا أمر الله تعالى بقوله: {حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ} [التوبة: 6]، فبالله عليكم ماذا نُسمي هذا المسموع الذي قرع سمعه؟ نُسميه: كلام الله، بنص كتابه، هو لا يُمكن أن يسمع كلام الله من الله مُباشرة، لا سبيل أن يسمع كلام الله إلا من فِي القارئ الذي يقرأ عليه، فصدق حقًا أن هذا المسموع هو كلام الله، الصوت صوت القارئ ولكن الكلام كلام البارئ، لأن الكلام إنما يُضاف إلى من قاله مُبتد ئًا لا إلى من قاله مُبلغًا وم ؤديًا لهذا قال أهل السنة والجماعة جزمًا كما قال الله: القرآن كلام الله.

قال: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ}: يعني من يهود.

قال: {يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} : قد كانوا يسمعون ما أنزل الله تعالى فيما مضى، وربما سمعوا من نبينا صلى الله عليه وسلم بعض ما أُنزل إليه ثم يُحرفونه تحريفًا معنويًا بالقول بأن المراد كذا، والمراد كذا، وأن رسالتك إلى العرب خاصة دون غيرهم، إذ ن هذا المسموع هو كلام الله، ويصدق عليه أن يُقال عنه : هو كلام الله دون تأويل أو تكلف معان مجازية. فالله تعالى أعلم بما قال وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا، وكوننا نقول: هو كلام الله. لا يعني أن الصوت صوت القارئ والأداء أداء بشري يخرج من الشفتين واللسان والحُنجرة، لكن هذا الكلام يُقال عنه: كلام الله . حقيقة، وهذا من معايب يهود أنهم يتجرؤون على كلام الله عز وجل فيُحرفونه، وقد مر بنا أن **التحريف أنواع:**

النوع الأول: تحريف لفظي.

النوع الثاني: تحريف معنوي.

وأن التحريف اللفظي له عدة صور قد يكون بزيادة حرف، أو بزيادة كلمة، أو بتغيير الشكل، مر هذا في الدروس الأولى، ومنه التحريف المعنوي بأن يزعم زاعم بأن المراد كذا وكذا وليس كذا وكذا، فينقل الكلام عنه ظاهره إلى خِلاف ظاهره بلا دليل، فيكون هذا من التأويل بل التحريف في الواقع.

قال: {مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ} : وهذا يدل على أن كلام الله يُتعقل، وليس مجهولات وألفاظ جوفاء كما يدعي المفوضة، إذ ن كلام الله عز وجل قابل للتعقل، والفهم والإدراك كما قال ربنا: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}[ص: 29]، {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: 2]، {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الزخرف: 3]، فعُروبة القرآن سبب في تعقله وإدراك معانيه.

قال: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ}: من هؤلاء؟ المنافقون الذين خذلوا المؤمنين عن الخروج إلى الحُديبية، وأرادوا أن يفتوا في أعضادهم، ثم لما جاءت مغانم خيبر وغزو خيبر انتدبوا للخروج لأنه يُوافق هوى في نُفوسهم ومغانم يُريدون أن يأخذوها، لكن الله تعالى قد حكم فيما مضى وأنزل منعهم من الخروج وصُحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، والشاهد قوله: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ} [الفتح: 15] يعني المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فسمى الله القرآن كلامه، فالقرآن كلام الله بنص كتاب الله.

قال: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} : **{كِتَابِ رَبِّكَ}** : أي مكتوبه، وهو كلماته، لقوله إثرها: {لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الكهف: 27]، فقد تكفل الله بحفظه، فكتاب ربك قطعًا هو القرآن، لا مُبدل لكلماته دليل على أن كتاب الله هو كلامه، والآية ظاهرة جلية في إفادة هذا المعنى، {كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا}[الكهف: 27]:أي ملجأ ونصيرًا وظهيرًا، فهذه الآية تدل أيضًا على وصف القرآن بأنه كلامه.

قال: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}: ولولا أنه كلام الله لما كان هذا القرآن فاصلًا في الاختلافات السابقة، فإنكم تعلمون أن بني إسرائيل قد وقع بينهم من الخلاف في دينهم الشيء العظيم، أعني بهم اليهود والنصارى، لا اليهود فقط ولا النصارى فقط فكل ملة من هاتين المِلتين تشظت وتفرعت إلى فُروع كثيرة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة)[1]، فهذا التفرق حاصل في الأُمتين قبلنا فوقع بينهم خِلاف عظيم، أُهريقت بسببه الدماء، ووقع بينهم التكفير والحِرمان والحجب وغير ذلك من الاصطلاحات التي يُعبرون بها، ومن ذلك: خِلافهم في الكلمة، أول كلمة في إنجيلهم المتبوعة: في البدء كانت الكلمة . لا يعرفون ما معنى الكلمة؟ يزعمون أن عيسى عليه السلام هو بذاته جُزء من الله وكلمة الله، والمقصود بكونه {وَكَلِمَتُهُ} يعني أنه مخلوق بكلمته لا كما يزعم النصارى أنه هو نفسه عينه كلمة الله فهو جُزء من الله تجسد في جسد بشري في جسد يسوع كما يقولون، فجاء هذا القرآن ليفصل في هذه الأُمور الملتبسة على أهل الكتاب: { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة: 1] هذه هي البينة،

[1] سنن ابن ماجه (3992)، وصححه الألباني.

القرآن العظيم، يعني ما كان لليهود وما كان للنصارى أن يخرجوا من هذا المأزق الذي تردوا فيه من الخلافات العريضة بينهم إلا بوحي من الله يكون مُقنعًا وحاسمًا لأنه لو جاء واحد من الأحبار أو الرُهبان أو العلماء وقال قولًا لقالوا: هذا قولٌ جديد يُضاف إلى الأقوال السابقة . فلا يُمكن أن يحسم هذه الخُصومات إلا وحي مُنزل من عند الله، تكون له صفة العصمة والقُدسية، لهذا أتى هذا القرآن {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [النمل: 76]، فهذا وجه استشهاد المصنف بهذه الآية في هذا السياق لكي يدل على أن هذا الكلام المسموع المتلو بالألسنة المكتوب في المصاحف، المسموع بالأذان هو كلام الله.

قال: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ}: ليُفيد معنى آخر وهو أنه مُنزل، وكون القرآن موصوفٌ بالتنزيل في مواضع عديدة من القرآن العظيم ساق المؤلف طرفًا منها أو بعضها، وهو يدل من جهة على صدوره من الله، لأن الله تعالى له العلو المطلق في ذاته، كما له العُلو المطلق في أسما ﷻ وصفاته وقهره ومنعته، فلما كان سبحانه وبحمده له عُلو الذات وهذه عقيدة أهل السنة وقد قررناها مبسوطة، صار الصادر منه سبحانه من كلام ينزل نُزولًا لأنه من أعلى إلى أسفل، فالله تعالى له العُلو، والآدميين بالنسبة إلى الرب في السُفل، فلهذا عبر بالتنزيل قال سبحانه وتعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ} [الأنعام: 155] إذ المشار إليه: {وَهَذَا} ما هو؟ القرآن قطعًا.

قال: {كِتَابٌ}: أي مكتوب.

قال: {أَنزَلْنَاهُ}: يعني أُنزل من عند الله عز وجل بألفاظه ومعانيه.

قال: {مُبَارَكٌ}: أي كثير البركة، وبركة القرآن إن تُعد لا تُحصى، مُبارك في تلاوته، وفي حِفظه، وفي معانيه، وفي الحُكم به، وفي الاستشفاء به، وفي كل أمره، فالقرآن العظيم مُبارك لا حصر لبركاته {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ}[الفرقان: 1]، فالبركة مُحتفة به حتى في تنزيله، {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام: 92].

قال: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ}: إذن هو لم يُنزل على جبل، لكن أُنزل على صدر محمد صلى الله عليه وسلم {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} [الشعراء: 193، 194] لكن {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} {الحشر:21}: الله أكبر، لو أن الله تعالى أنزل كلامه على جبل من الجبال الصلدة الصلبة الجلامد لرأيت هذا الجبل يتهدهد ويُصبح دكًا، لكن الله تعالى أنزله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وأعطاه القدرة على تحمله، ومع ذلك فقد كان يعترى نبينا صلى الله عليه وسلم من المعان اة أثناء تنزل القرآن الشيء العظيم، فينزل عليه القرآن في اليوم الشديد البرد فيتفصد جبينه عرقًا في اليوم الشديد البرد، وينزل عليه القرآن فيُسمع حول رأسه دويًا كدوي النحل، وإذا اشتد عليه كان كصلصلة الجرس يُبصرها ويُشاهدها من حوله حتى يُسرى عنه، بل ويثقل جسمه صلى الله عليه وسلم حتى إنه نزل عليه مرة وهو على راحلته فأناخت ولم تتمكن من حمله، وكان مُتكئً ا مرة على فخذ زيد بن ثابت –رضي الله عنه– فكاد أن يُرض، قال تعالى: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: 5] فالأمر جد عظيم إذا تصور الإنسان كيف ينزل كلام البارئ سبحانه وتعالى على بشر ؟ عظيم جدًا، فهذا الأثر بعد إعانة

الله وتقوية نبيه صلى الله عليه وسلم له، ثم يُسرى عنه صلى الله عليه وسلم فيقرأ ما أُوحي إليه، وقد كان بأبي هو وأُمي صلى الله عليه وسلم في مبدأ الأمر إذا أُنزل عليه القرآن يُحرك به لسانه خشية أن يتفلت عليه يُريد صلى الله عليه وسلم أن يتحفظه، فأنزل الله تعالى: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة: 16، 17]:قرآنه، قرأه يعني جمعه، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}[القيامة: 17، 18]: الله أكبر، ماذا بقي؟ الجمع والبيان كُله مُتحقق {إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}[القيامة: 18] فهذا يدلنا على عظمة هذا القرآن وبركته وأثره وشدة الحاجة إليه.

قال: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ}: ماذا يُسمى هذا التبديل؟ نسخ، إذ النسخ معناه في اللغة: الإزالة، كما يقول: نسخته الريح. يعني مسحته وعفت على آثاره، فالنسخ هو الإزالة، أما في الاصطلاح عند الأُصوليين فهو: رفع حُكم نص مُتقدم بحُكم نص مُتأخر ، ولهذا النسخ فقط يتعلق بالأحكام لا يُمكن أن يقع النسخ في الأخبار، لماذا لا يُمكن أن يقع النسخ في الأخبار؟ لأن ذلك يقتضي تكذيب الخبر الأول وحاشا أن يكون كلام الله تعالى يتطرق إليه كذب، وإنما يتعلق النسخ بالأحكام، فما كان واجبًا يُمكن أن يكون مُستحبًا، وما كان مُحرمًا يُمكن أن يكون مُباحًا، وأمثلة هذا كثيرة جدًا في كتاب الله، فقد يُنسخ القرآن بالقرآن، وقد تُنسخ السنة بالسنة، وقد يُنسخ القرآن بالسنة والعكس، ومبحث هذا أو تفاصيله في كُتب الأُصوليين، لكن هذا قد شوش لدى المشركين واتخذوا منه ذريعة للطعن بالقرآن فنبه الله تعالى على هذا فقال: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ}[النحل: 101]: إذن هذا هو الشاهد على التنزيل، أنه مُنزل.

قال: {قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ}: من الفرية، والفرية هي أشد الكذب والبُهتان.

قال: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}:فدل ذلك على أنه يُمكن أن يقع النسخ وأن الله تعالى ينسخ لحكمة، {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 106]، فمن أنكر النسخ فقد أكذب الله تعالى وأكذب نبيه صلى الله عليه وسلم، وأكذب القرآن.

قال: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ}:وهو جبريل عليه السلام.

قال:{مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}: الباء هذه للتلبس، يعني مُتلبسًا بالحق، مصحوبًا بالحق، فلا يتطرق إليه الباطل، كما قال في الآية الأُخرى: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42]: بمعنى أنه لا يُمكن أن يلتبس وأن يُخلط بباطل، {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ}[فصلت: 41]: والعزة هي المنعة، {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 41، 42] لهذا قال ها هنا: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: 102]: إي والله هذه من ثمرات القرآن، القرآن يُورث الثبات في القلب، تجد الإنسان مُرتبكًا خائفًا قلقلًا خائفًا فما هو إلا أن يسمع آية أو بعض آية فكأنما هي أوتاد تُدق في قلبه فيستقر، ثبات، {لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ} [النحل: 102]، ثم فوق ذلك {هُدىً} [النحل: 102]: والهدى قسيم الضلالة، فيُجلي الله تعالى لك الحق بهذا القرآن، فتعرف أن هذا هو الحق وهذا هو الصواب بآية أو ببعض آية.

قال: {وَبُشْرَى}: فوق ذلك ينسم على قلبك من البشارة والأخبار السارة ما يتنعم به واجده.

قال: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} : قد هنا للتأكيد وليست للتقليل، {وَلَقَدْ نَعْلَمُ} [النحل: 103]يعني تحقيقًا لا شك أن الله يعلم.

قال: {أَنَّهُمْ يَقُولُونَ}: أي المشركين.

قال: {إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} : زعم المشركون أن النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى هذه العلوم والأخبار المتعلقة بالأنبياء السابقين وأُممهم من نصراني في مكة، ويُصغي إليه، ثم يُخرجه بلغة عربية، فلهذا نبه الله رسوله صلى الله عليه وسلم على هذه الفرية الباطلة ونقضها، فقال: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل: 103]، أنَّ لذلك الأعجمي أن يأتي بهذا الكلام العربي المبين ؟ أنَّ له ذلك؟! مُستحيل ولا يُمكن لذلك الشخص المزعوم أن يأتي بهذا الكلام البيِّن الفصيح الحكيم الذي تخضع له الرِقاب، ويذل له فُصحاء العرب وعُقلاؤهم، فهذا أبعد ما يكون، والشاهد أن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات المتتابعات من سورة النحل بيّن حقيقة القرآن ومصدره، وأنه مُنزل من عند الله، وأبطل الدعاوى التي تزعم بشريته، وهذه الدعوى لم يزل الزنادقة من المشركين والمستشرقين في الأزمنة الأخيرة والملاحدة يزعمونها، ويزعمون أن محمدً ا صلى الله عليه وسلم كون القرآن من ثقافات يهودية ونصرانية كما يقول هذا جيبِ، ومرجليوس، وجو لد زيهر وغير ذلك من المستشرقين من قبل نحو مائة سنة ويبثونه بين المسلمين، {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ}[فصلت: 41]، مهما حاولوا فإنهم لا يستطيعون، القرآن يعلو ولا يُعلى عليه، فالقرآن منيع بذاته، مؤثر بذاته، ولهذا ينبغي على طالب العلم أن يُعول عليه في دعوته، وتأثيره، وبيانه فيستعمل الجُملة القُرآنية في خِطابه وفي تأثيره ويستخدم أُسلوب ومنهج القرآن في التأثير، وإلا فالقرآن مكنز للمعاني والمواعظ وقصص الذين اهتدوا واعتنقوا الإسلام بسبب سماعهم للقرآن لآيات منه أكثر من أن تُحصر.

إذن دلت هذه الآيات بمجموعها على ما سبق أن قررناه من أن القرآن كلام الله وأنه مُنزل غير مخلوق، وهذه الجُملة هي الجُملة التي جابه بها أهل السنة المعتزلة حينما زعموا أن القرآن مخلوق، وقد ذكرت لكم مرارًا أن دعوى المعتزلة أن القرآن مخلوق جزء من منظومة عقائدية باطلة، وهي منظومة الجهمية الذين يُريدون القول بإنكار الصفات، فقالوا: القرآن مخلوق. ليصلوا إلى ماذا؟ إلى أنه ليس صفته، لأن الصفة لا يُمكن أن تكون مخلوقة، وأن إضافته إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، كبيت الله ، وناقة الله، وعبد الله وما أشبه، ثم يتوصل من ورا ها إلى الزعم بأن الله لا تقوم به صفة ثُبوتية ، ولكن السلف عندهم من العلم الحِذق والفطنة ما يتبينون به هذه المحاولات البدعية، فلذلك قاموا في وجههم، ومن أعظم من قام في هذا لله قومة صادقة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل – رحمه الله–، فإنه أبى في فترة عصيبة حرجة ألمت بالأُمة، حيث ساندهم السلطان، ووقف المأمون والمعتصم والواثق مع المعتزلة في دعواهم هذه، فأبى إمام أهل السنة– ووقفت الأُمة من خلفه– أن يقولوا بمقالتهم، وقال: يا أمير المؤمنين: اِتوني بشيء من كتاب الله أو سنة رسول الله . فينقطعون بين يديه، وهو يصب عليهم الأدلة صبًا من الكتاب والسنة على وصف القرآن بأنه كلام الله وأنه مُنزل، وهم لا يأتون إلا بمُجرد الشُبهات والكلام الذي يُزخرفونه، فينقطعون بين يديه ، حتى ثبت الله تعالى به السنة، قال الإمام على بن

المديني –رحمه الله–: إن الله نصر هذا الدين بأبي بكر عام الردة، وبأحمد عام المحنة. وصدق –رحمه الله– فقد كان هذا الحديث عصمة للأُمة منعها من أن تنجرف في الاتجاه المقابل، وثبت الله جنان الإمام أحمد على هذا الحق حتى فاء الناس إليه.

ما معنى قول السلف: منه بدا وإليه يعود.وسيأتي لاحقًا في بسط الشيخ، منه بدا: أي ظهر، فمن تكلم به ابتداءً هو الله عز وجل، ومعنى قولنا: وإليه يعود. إما وإليه يُنسب كما تقول: هذا الكتاب يعود إلى فلان. وإما وإليه يعود ما ورد في بعض الآثار من أنه في آخر الزمان يُرفع من السُطور ومن الصدور، فلا يبقى على وجه الأرض قُرآن يُتلى.

هذه الطائفة من الآيات قررت خُصوصية أن القرآن كلام الله وهي فرع عما تقدم من إثبات كلام الله عز وجل.

الدرس(21)

إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}[القيامة: 22، 23] . {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} [المطففين: 24]. {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: 26]. {لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}[ق: 35].**

ما شاء الله، هذا مبحث شريف حبيب إلى النُفوس، لذيذ على القلوب وهو مبحث الرؤية، فمُعتقد أهل السنة والجماعة: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة عيانًا بأبصارهم، بأعينهم، يرونه في موضعين:

الموضع الأول: عرصات القيامة. أي مواقف الحساب.

الموضع الثاني: الجنة.

رؤية حقيقية، وقد دل على ذلك الكتاب، والسنة، والإجماع : فأما الكتاب فهذه الآيات، وأما السنة فستأتينا أدلتها، وانعقد إجماع أهل السنة والجماعة على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، ولم يُنازع في ذلك إلا المعتزلة ومن وافقهم من الإباضية والزيدية والرافضة، فقد أنكروا الرؤية، أما أهل السنة والجماعة فقد أثبتوا الرؤية يوم القيامة ولم يُثبتوها في الدنيا وغلت الصوفية وبعض الخُرافية فزعموا أنهم يرون الله تعالى في الدنيا، فهذا غُلو يُقابل ذاك الغُلو، وأما أهل السنة والجماعة فقد اعتصموا بما دلت عليه النصوص فكانوا وسطًا بين طرفين وعدلًا بين عِوجين.

قال: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} :ما الفرق بين الأولى والثانية؟ الأولى من النضرة، وهي البهاء والرونق والجمال، فتلك الوُجوه وجُوه تتسم بالرونق وبالبهاء والجمال. و{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 23]: من النظر وهو المعاينة بالأبصار، فأكسبها النظر إلى وجه الله الكريم هذا الجمال وهذا البهاء وهذا الرونق، ولهذا قال ابن القيم في ميميته:

فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة أمن بعدها يسلو المحب المتيمُ

ولكننا سبي العدو فهل تُرى نُرد إلى أوطاننا ونُسلم

وقد زعموا أن الغريب إذا نأى وشطت به أوطانه فهو مُغرم

وأي اغتراب فوق غُربتنا التي لها أضحت الأعداء فينا تحك م
فحي على جنات عدن فإنها منزلك الأولى وفيها المخيم

إلى آخر ما قال –رحمه الله–، واعلموا أن كلمة: نظر، لها استعمالات عِدة، فإذا جاءت مُعدا ة بفي فهي تدل على التدبر والاستبصار، وإذا جاءت مُعداة بإلى فهي تدل على المعاينة بالأبصار، فإذا قلت: نظرت في الأمر. يعني تأملته وفكرت فيه، وإذا قلت: نظرت إلى الشيء. فهذه لا تحتمل إلا المعاينة بالأبصار، وإذا جاءت مُطلقة فهي بمعنى التربص والانتظار، نظر، فنظر، يعني أنه انتظر، **فصارت . كلمة نظر . لها استعمالات ثلاث:**

الاستعمال الأول: إذا جاءت مُطلقة فإنها تدل على التربص والانتظار.

الاستعمال الثاني: إذا جاءت مُعداة بفي فإنها تدل على التدبر والاعتبار.

الاستعمال الثالث: وإذا جاءت مُعداة بإلى فإنها تدل على المعاينة بالأبصار.

هذه استعمالاتها في اللغة، وارجع إلى مفردات اللغة للراغب الأصفهاني وغيره من أهل اللغة تجد هذا، إذن إذا قال الله:{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22، 23]: فهذا يدل على إثبات رؤية حقيقة لله عز وجل، وكما أسلفت فإن المؤمنين يرون ربهم في موضعين: في عرصات يوم القيامة كما دل عليه حديث أبي سعيد و أبي هُريرة – رضي الله عنهما– المشهوران في الصحيح، ويرونه يوم القيامة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ)[1]، وسيأتي إن شاء الله.

قال: {عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}: من؟ {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}[المطففين: 22، 23]، كيف دلت هذه الآية على إثبات النظر إلى وجه الله عز وجل ؟ هذه مما استنبطه الإمام الشافعي وغيره من أئمة السنة قال: لما حُجب أُولئك في السخط نظر هؤلاء في الرضا، ألم تروا أن الله قد قال في أول سورة المطففين: {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} [المطففين: 15]، من هم؟ الفُجار، فلما ذكر الأبرار قال: {عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} [المطففين: 23]، فلما حُجب أُولئك في السخط نظر هؤلاء في الرضا، فكانت هذه من أدلة أهل السنة على إثبات النظر إلى وجه الله الكريم.

قال: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}: أما الحُسنى فهي الجنة، جعلنا الله وإياكم من أهلها، وهي فُعلى لأنها قد بلغت في الحُسن غايته.

قال: {وَزِيَادَةٌ}: النبي صلى الله عليه وسلم فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم.

قال: {لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}: أيضًا ورد في الآثار تفسير المزيد بأنه النظر إلى وجه الله الكريم.

[1] صحيح البخاري (554)، صحيح مسلم (633).

فدلت هذه الطائفة من الآيات على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة عِيانًا بأبصارهم بناطق الكتاب، وختم بها الشيخ –رحمه الله– ما أراد من سياق الآيات القُرآنية على إثبات الصفات الربانية، فلهذا قال إثرها:

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ ، وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.**

قال: وَهَذَا الْبَابُ: الباب المشار إليه هو ما تقدم من إثبات الصفات الربانية من الآيات القُرآنية.

قال: وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ :وصدق –رحمه الله–، فإن من قرأ القرآن وجد أنه لا يكاد تمر آية إلا وقد تضمنت اسمًا أو صفة من صفات الله عز وجل.

قال: فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ : وكأنما يقول: إنه لم يُرد –رحمه الله– الحصر والاستيعاب، وإنما أراد به التمثيل على رؤوس بعض المسائل، وإثبات بعض الصفات كما تقدم معنا من إثبات صفات معنوية، وإثبات صفات فعلية، وإثبات صفات خبرية. كل ذلك قد تقدم وأقام عليه الأدلة.

قال: وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ ، وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّإذن لا بد من أمرين: متى يُهدى الإنسان إلى الحق؟ **يكون ذلك بتوفر شرطين:**

الشرط الأول: البحث، والعزيمة، وبذل الجهد . وهذا نأخذه من قوله: ومن تدبر . أما الذي يمر مرُورًا سريعًا ولا يُكلف نفسه عناءً قد لا يُوفق لإصابة الحق.

الشرط الثاني: النية الصالحة. لقوله: طالبًا للهُدى. فإذا أقبل الإنسان مُستهديًا مُسترشدًا فلا بد بعون الله وإذنه أن يُهدى إلى الحق، أما الذي يأخذ القرآن ليبحث عما يُعجبه وما يؤيد قوله ويتبع المتشابه ويُعرض عن المحكم فلا، لن يهتدي بالقرآن، فلهذا إذا أردت أن تنتفع بالقرآن العظيم فتكيف تكيفًا نفسيًا بين يدي القرآن بأن تشعر بأن هذا كلام عظيم، هذا كلام رب العالمين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الحق مكنوز فيه، وأنه فيه الهُدى لمن أراد أن يستهدي، فإذا أقبلت بهذه الرُوح فإنك تُهدى بإذن الله، وقد يقع عند الإنسان مثلًا شيء من الخطأ والوهم ، فعليه أن يرجع إلى كلام العُلماء، ويرد إلى الله ورسوله في فهم ما أشكل عليه، وغالب القُرآن بحمد الله بالمتناول كما قال ربنا عز وجل: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ} [آل عمران: 7]، يعني واضحات الدلالة، {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آل عمران: 7]، أكثر القرآن هكذا يُدرك معناه بمُجرد السماع، ولهذا خاطب النبي صلى الله عليه وسلم به العرب، وفيهم الأعراب، وفيهم السُذج، وفيهم العامة وغير ذلك، وأدركوا على درجات مُتفاوتة، فيهم الراسخون في العلم ومنهم دون ذلك، القصد أنه ليس مُغلقًا ولا غامضًا كما يرى الإنسان في بعض الكُتب الفلسفية أو فيما في أيدي أهل الكتاب، فبحمد الله تعالى من تدبر القرآن طالبًا للهُدى منه تبين له طريق الحق، ولهذا أدعوكم معشر طلبة العلم أن يكون مُعولكم على القرآن العظيم، ليس تحصيل العلم بكثرة اقتناء الكُتب وسماع اختلاف الرجال، وإن كان هذا يقع تبعًا، لكن العلم يُطلب من منبعه، لا تأخذوا من الروافد والسواقي بل خذ وتزود من العين والأصل، خذ من المنبع الصافي الذي لا تُكدره

الدلاء كما أخذ من سبقك، فأقبل على القرآن بُكليتك، فالبناء العلمي لطالب العلم ينبغي أن يبتد ئ من العناية بالقرآن العظيم بفهم كلام الله ومعرفة مُراده وتدبره والصُدور عن رؤية واضحة، هذا في الواقع هو طريق الراسخين في العلم، وبعض طلبة العلم يُخيل إليه أن العلم هو أن يخوض في اختلاف الرجال والمذاهب والأقوال. لا، هذه تأتي مرحلة مُتأخرة عند الحاجة إليها وإلا فلسنا مُتعبدين باستعراض أقوال الرجال واختلافاتهم، نحن مُتعبدون بأن نصدر في فهمنا عن كلام الله سبحانه وتعالى، ألم تروا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هُم أعمق الناس علمًا وأقلهم تكلفًا وأصدقهم لهجة لم يكن بين أيديهم إلا القرآن العظيم وسنة سيد المرسلين ؟ هل تعلمون أن أحدً ا من الصحابة عنده مكتبة ملأ ى بالمجلدات أو عنده أقراص ليزر مُحمل عليها شيء من الكُتب؟ لا، ما عندهم إلا هذا العلم العميق الراسخ الذي صدروا به من الكتاب والسنة، لا أقول هذا تقليلًا من النظر في كلام أهل العلم، لكن يجب أن تُرتب الأُمور حسب أولويتها وأن تصدر في علمك وأن تبني لبناته لبنة لبنة من مصدره، وأصله ومادته الأولى، حينئذٍ يكون بناؤك العلمي مُحكمًا، وتنتفع بعد ذلك بأن تعرض كل شيء من أقوال الرجال على كتاب الله، فيتبين لك الحق من الباطل.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: ثُمَّ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ.**

قال: ثُمَّ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هذا العطف على جُملة سابقة، وإن كان بينها وبينه أمدًا بعيدًا وهو **قوله: وقد دخل في هذه الجُملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص** . ثم أعقبها بعدة نصوص قُرآنية، ثم قال بعد ذلك: ثم في سنة رسول الله. يعني دخل في هذه الجُملة من إثبات الربانية ما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: سُنَّةِ: السنة: لغة: الطريقة، سن سنة، أي اختط طريقة وسيرة مُعينة.

اصطلاحًا: ما أُضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خِلقية أو خُلقية. يعني ما أُضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الأشياء فإنه يُعد سُنة، والسنة لها تعريف عند المحدثين، ولها تعريف عند الأُصوليين، ولها تعريف عند الفقهاء، وليس المراد ها هنا تعريفها عند الفقهاء التي هي بمعنى: ما يُثاب فاعله ولا يُعاقب تاركه، لا، وإنما المقصود بالسنة هنا: ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال وتقريرات، لهذا قال مُبينًا منزلة السنة بالنسبة للقرآن: فالسنة تُفسر القرآن.

قال:تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ،وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ : لقول الله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: 44]، فمهمة نبينا صلى الله عليه وسلم في بيانه أو في كلامه أن يُبين للناس ما نُزل إليهم من ربهم، هذه هي السنة، الآثار المروية الشفهية عنه صلى الله عليه وسلم هي السنة التي تُفسر القرآن، وما معنى تُفسر؟ تُبين وتُوضح، كما يقول: فسرت عن ساعدي. يعني كشفته وأوضحته، فالسنة تُفسر القرآن وتُبينه وتدل عليه، وتُعبر عنه، وهي كلمات معانيها قريبةبعضها من بعض، بمعنى: أنه لا يُمكن الاستغناء عن السنة، بل السنة مصدر أصيل كما القرآن، {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:3، 4]، فالسنة هي أحد الوحيين، وحينما نقول: المصدر الثاني. فلا

نقصد بقولنا: الثاني. أنها في الدرجة الثانية في الأهمية، لا، وإنما فقط على سبيل التعداد الرقمي، وإلا فكلٌ من عند الله، فلا يخرج من بين فكي النبي صلى الله عليه وسلم إلا حق، وذلك لأن الله عصمه، ولو قُدر أنه أخطأ، سها بحُكم بشريته فإن الله تعالى لا يُقره على ذلك بل يُنبهه عليه، وهذا هو المعنى الحقيقي للعصمة، فالمقصود أن سنة نبينا صلى الله عليه وسلم بإزاء القرآن تُفسره وتُبينه وتُعبر عنه وتدل عليه، ولا يُمكن الاستغناء عنها، ولما قال رجل مرة في مجلس عِمران بن حُصين – رضي الله عنه– وكان يُحدث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: دعونا من الأحاديث وأعطونا من القرآن. فالتفت إليه عِمران –رضي الله عنه– وقال له: أيَنِ تجد في كتاب الله أن صلاة الظهر أربع، والعصر أربع، والمغرب ثلاث، والعشاء أربع، والفجر اثنتين؟. فسكت الرجل. قال: أين تجد في كتاب الله أن في خمس من الإبل شاة ، وفي عشر شاتان، وفي كذا كذا وكذا. وذكر له الأنصبة؟ فسكت. قال: أين تجد في كتاب الله أن الطواف بالبيت سبعة أشواط ؟ والسعي بين الصفا والمروة كذا؟ . وأخذ يُدلي عليه أُمورًا. فأُسقط في يده، وعلم بأن مُقتضى الإيمان بالقرآن الإيمان بالسنة، ألم يقل الله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [الحشر: 7]؟ ألم يقل الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} [الأحزاب: 21]؟ فإذا رأيت الإنسان يُهون من السنة ويقول: دعونا من السنة فيها أحاديث ضعيفة وموضوعة فاعلم أن هذه شُعبة زندقة، وقد وُجد طائفة من الزنادقة يُسمون أنفسهم: القُرآنيون. موجودون في بلاد الهند وفي بلاد أُخرى ، يُسمون أنفسهم: القُرآنيون. زعموا أنهم فقط يعتمدون على القرآن ولا يلتفتون للسنة، ولا ريب أن الاحتجاج بالسنة ثابت بالأدلة الصريحة حتى ألف الإمام السيوطي –رحمه الله– كتابًسماه: ظلال الجنة في الاحتجاج بالسنة. فمن أنكر السنة فقد كفر قطعًا لأنه أنكر الشق الثاني من الشهادة، ما معنى شهادة أن محمدًا رسول الله؟ تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر ، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ)[1] وفي لفظ أنه قال: [ألا وإني أُوتيت الكتاب ومثليه معه]، فكل هذا يدل على أن سنة نبينا صلى الله عليه وسلم أصل أصيل مُستقل، لهذا قال:

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ، مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

فما ثبت من الأحاديث وجب القول به وقبوله، ولا يجوز رده بشكل من الأشكال، فمن رده فقد ضل ض لالًا مُبينًا، لكنه اشترط –رحمه الله– أن يكون ذلك من الأحاديث الصحاح، ما هو الحديث الصحيح؟ الحديث الصحيح عند أهل المصطلح: هو ما رواه عدل تام الضبط بسند مُتصل وسلم من الشُذوذ والعِلة القادحة، هكذا، فإذا انطبق هذا المِعيار على المأثور فإننا نُصدقه إن كان خبرًا، ونمتثله إن كان أمرًا، ونجتنبه إن كان نهيًا.

[1] سنن أبي داود (4604)، صححه الألباني.

عدل: لا بد أن يكون الراوي عدلًا، من العدل؟ العدل هو المستقيم في دينه ومُروءته، فلا يُتلم في دينه بفسق، ولا في مروءته بخوارم المروءة.

تام الضبط: لا بد أن يكون ضابطًا لم يتحمل وما يؤدي.

بسند مُتصل: لا يكون فيه انقطاع.

سلم من الشذوذ : والشذوذ: مخالفة الثقة لبقية الثقات ،أما مخالفة الضعيف للثقات تُسمى عند أهل الحديث: مُنكر، لكن لو خالف الثقة بقية الثقات لعلمنا أنه وقع عنده وهم بشري فيُسمى شاذًا.

والعلة القادحة: وهي عيب خفي لا يطلع عليه إلا جهابذة الحديث لعلمهم بالاتصال والانقطاع وغير ذلك، فإذا توفرت شروط الحديث الصحيح في نص ما وجب قبوله والإيمان به كذلك سواءً كان في صفات الله تبارك وتعالى أو كان في غير ذلك.

والله أعلم.

الدرس(22)

إثبات بعض صفات الله من السنة النبوية

شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– بعد أن فرغ من التدليل على إثبات أسماء الله وصفاته بالأدلة القُرآنية ثنى بأدلة السنة النبوية، وابتدأ بذكر منزلة السنة من القرآن وأنها تُفسره وتُبينه، وتدل عليه وتُعبر عنه، ولكن شرط ذلك أن يكون واردًا من طريق صحيح، ومن المعلوم عند أهل الصنعة الحديثية أن الحديث الصحيح ما رواه عدل تام الضبط بسند مُتصل وسلم من الشذوذ والعِلة القادحة، كما أنه يُحتمل في هذا أيضًا ما كان حسن الإسناد، والإسناد الحسن: ما اختل فيه أحد شُروط الحديث الصحيح وهو تمام الضبط بأن يكون خفيف الضبط، فإن العُلماء لم يزالوا يستدلون بالأحاديث الحسنة في الأُمور العلمية والعملية، ثم إنه بعد ذلك شرع في ذكر بعض الأمثلة من الصفات الربانية التي ثبتت بالأحاديث النبوية فقال:

📖قال المؤلف –رحمه الله–: مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

في إثبات الفرح لله عز وجل:

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ ... » الْحَدِيثَ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

في إثبات الضحك:

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

في إثبات العجب وصفات أخرى:

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ؛ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»، حَدِيثٌ حَسَنٌ.

في إثبات الرجل أو القدم:

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؛ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا – وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا – قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ وَتَقُولُ: قَط قَط»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هذه طائفة من النصوص الحديثية التي ساقها الشيخ –رحمه الله– للتدليل على إثبات الصفات الربانية، فمنها هذا الحديث الذي بلغ مبلغ التواتر، وهو حديث النزول، فقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: [ينزل ربنا] فأسند النزول إلى ربه عز وجل، مما يدل على أنه وصفٌ ثابت له، لم يُسنده إلى غيره.

قال: [ينزل ربنا إلى السماء الدنيا أو إلى سماء الدنيا]: وإنما سُميت بهذا الاسم لأنها أقرب السماوات إلى الأرض، فسُميت بذلك لدُنوها من الأرض، وإلا فإن السماوات سبع طباق: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: 12].

قال: [كل ليلة]: إذن هذا النزول يقع كل ليلة، ومتى تحديدًا؟ [حين يبقى ثُلث الليل الآخر]، وإذا قسم الإنسان ما بين مغرب الشمس إلى طُلوع الفجر أثلاثًا فإن القسم الأخير منه هو ثُلث الليل الآخر وقت تنزل الرب سبحانه وبحمده.

قال: [فيقول]: أي الله عز وجل.

قال: [من يدعوني فأستجيب له؟]: لماذا نصبنا [فأستجيب]؟ لأنها منصوبة بأن مُضمرة.

قال: [من يسألني فأُعطيه، من يستغفرني فأغفر له] ،متفق عليه: هذا حديث رواه جمع من الصحابة وبلغ مبلغ التواتر لكثرة رُواته، وما زال أهل السنة يحتملونه في كُتبهم وقد جمع أبو عثمان الصابوني –رحمه الله– في كتابه : عقيدة السلف وأصحاب الحديث، عدة روايات منه، فدل هذا الحديث على إثبات النزول الرباني إلى سماء الدن يكل ليلة حين يبقى ثُلث الليل الآخر، فكان لزامًا على كل من بلغه هذا الحديث أن يُثبت للرب ما أثبته النبي صلى الله عليه وسلم لربه سبحانه وتعالى من النزول الحقيقي اللائق بجلاله وعظمته الذي لا يُماثل نُزول المخلوقين، ولا يجوز أن يُتعرض لهذ ا النزول بأي لون من ألوان التمثيل والتكييف ولا بأي لون من ألوان التحريف والتعطيل، كما هي قاعدة أهل السنة والجماعة في جميع أسماء الله وصفاته، إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو نبيه في سُنته من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، غير أن أهل البدع شرقوا بهذا الحديث وأمثاله وعدوا أن إثباته مما يُوجب الوقوع في التمثيل والتكييف زعموا وما هم بأعلم من الله بالله ولا أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحسن منهما قِيلًا، ولا أصدق منه م ا حديثًا، ولا هم أغير من رسول الله صلى الله عليه وسلم على ربه عز وجل، فكيف وقد قال ما قال ؟ ثم إنَّا نُبين ما الذي

عاملوا به هذا النص، فإن هؤلاء لما أبوا أن يُثبتوا ما أثبت الرب لنفسه سبحانه **زعموا أن الذي ينزل هو أمره أو رحمته أو ملك من ملائكته** ، وغير خافٍ أن هذا ليس موجودًا في الحديث وأنه لو شاء النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لقاله، لو شاء صلى الله عليه وسلم لقال: ينزل أمر ربنا. لقال: تنزل رحمة ربنا. لقال: ينزل ملك من ملائكة ربنا. لكنه لم يقل وأسند النزول إلى الله سبحانه، والأصل في الكلام عدم الحذف، فلا مُوجب لادعاء الحذف، ومن ادعى الحذف فعليه الدليل فالأصل عدمه، فإذا قال: ينزل ربنا. مثل ما إذا قال: يغفر ربنا، يرحم ربنا. فتأويلهم هذا يقتضي أن في الكلام محذوفًا، والأصل عدم الحذف.

الرد الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم أسند النزول إلى ربه، فالواجب علينا أن نُسند إلى الله ما أسنده إليه رسوله صلى الله عليه وسلم دون أن نتعرض له بأي شيء من أنواع العبث.

الرد الثالث: أن هذا الذي ينزل يقول: [من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأُعطيه، من يستغفرني فأغفر له]، ولا يُمكن أن يصدر هذا إلا من الله عز وجل، لا يُمكن أن يصدر من ملك، ولا من رحمة، ولا من أمر أو غير هذا، كلام لا يصدر إلا ممن يملكه، هو الذي يستجيب الدعاء، وهو الذي يُعطي السائلين، وهو الذي يغفر الخطايا.

الرد الرابع: أنه لو قُدر كما زعموا أن الذي ينزل هو أمره، لكان مُنتهى نزوله إلى أين؟ إلى السماء الدنيا، لكان يختص بهذا الوقت من الزمن وهو ثُلث الليل الآخر، ونحن نعلم أن أمره سبحانه وتعالى مُستمر: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: 29]، فأُوامره سبحانه لا تختص بفترة زمنية مُحددة.

الرد الخامس: أنه لو كان الذي ينزل هو رحمته فأي فائدة للعباد أن يكون مُنتهى النزول إلى السماء الدنيا ؟. إذا لم تبلغهم الرحمة لم يستفيدوا من هذا النزول.

وبه يتبين أن كل من ادعى دعو ى مُخالفة لمراد الله ومُراد رسوله صلى الله عليه وسلم في نص من النصوص فإن الكلام يعود حُجة عليه لا له، وهذا مما أودعه الله تعالى من العصمة في كلامه وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، فتبين بذلك بُطلان ما ذهبوا إليه، ولا حاجة أن يُقيد هذا النزول بالقُيود التي أحدثها المبتدعة، يُقال :إن الإمام أحمد –رحمه الله– مر بقاص يقص في المسجد ويروي هذا الحديث، ويقول: وينزل ربنا . ثم يقول : بلا حركة ولا نُقلة . فوجم الإمام أحمد، وقال لحنبل أو صالح ممن كان معه: ارجع بنا إلى هذا المتهوك . فقام عليه وقال: يا هذا قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. لا تقل: بلا حركة ولا نُقلة. من أين لك ذلك؟ قل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وكما فهمه الصحابة، فهو نُزول لائق بجلاله، وهذا النزول يدلنا أيضًا على إثبات أن الله سبحانه وتعالى في جهة العُلو، ولا يلزم من نزوله سبحانه أن يعلوه شيء من مخلوقاته، فلو شاء الله سبحانه وتعالى لنزل وتفهق كل شيء يُمكن أن يكون بين يدي نزوله، فلا يعلوه شيء، فإن الله تعالى هو الظاهر ليس فوقه شيء ، إذ العُلو صفة ذاتية، أم ا ما قد يقوله بعض ا لم وردين النافين لعُلو الله تعالى: أن ذلك يستلزم إثبات الجهة. فنقول: نعم، الله تعالى في جهة العُلو . لفظ: الجهة، ليس من الألفاظ الواردة لا بنفي ولا إثبات، وبالتالي فلا يجوز أن تُنفى بإطلاق ولا أن تُثبت بإطلاق، وإنما نتوقف في لفظها ونستفصل عن معناها، فإذا

قال القائل: مُراده بالجهة جهة سُفل أو جهة على وجه تُحيط به شيء من مخلوقاته .قلنا: هذا المعنى معنى باطل. وإذا قال: أردت بالجهة جهة العلو. قلنا: حي هلا، فالعلو ثابت لله تعالى. فإذا عُبر بالجهة مُضافة إلى العُلو زال المحظور، فبهذا يتبين أن الله سبحانه وبحمده ينزل نزولًا حقيقيًا يليق بجلاله وعظمته ، ولا نقول نزل من السماء السابعة، بل نقول: نزل سبحانه وبحمده من علياهُ إلى سماء الدنيا

تنبيه: سيأتي في كلام الشيخ أن هذا الإيراد الذي يفهمه بعض الناس من كلمة : في، في قول النبي صلى الله عليه وسلم للجارية: [أين الله؟]، قالت: في السماء. ومن قول الله تعالى: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ} [الملك: 16]، فقد يتوهم بعض الناس أن في ها هنا تدل على الظرفية المكانية، أي على وجه تُحيط به سماواته، فسيُبين الشيخ –رحمه الله– في كلامه أن هذا وهم باطل، إذ أن لفظ: في، في لغة العرب تأتي بمعنى على ،كقوله: {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: 71]: يعني عليها، {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا} [الملك: 15]: يعني على مناكبها، {فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ} [آل عمران: 137، النحل: 36]: أي على الأرض، فتأتي في لغة العرب بمعنى على ، أو أن نقول: إن السماء يُراد بها العُلو . وحينئذٍ تكون في على وجهها، ويكون معنى قوله: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ} [الملك: 16]، أو قول الجارية: في السماء .أي في العُلو، ولا يقتضي ذلك أن يُحيط به شيء من مخلوقاته.

مسألة: هذا إيراد أيضًا يُورده البعض ويقول: إن ثُلث الليل يختلف من موضع إلى موضع حسب تفاوت الحال، لكن نقول: الله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[الشورى: 11]، فلا يُقاس بخلقه وإذا قال النبي صلى الله عليه وسلم كلامًا ثبت ثبوتًا قطعيًا فإنه لا يُمكن أن يكون مُعارضًا أو يُقابل بالأُمور التي يعهدها الناس من مُدركاتهم، فالذي نطق بهذا لا ينطق عن الهوى، فيجب على كل مؤمن أن يعتقد أن الله سبحانه وتعالى في الثُلث الأخير في حقه نازل إلى سماء الدنيا ولا يُقال: يلزم من ذلك أن يكون الله نازل طُوال الوقت . الله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[الشورى: 11]، فالواجب علينا أن نعتصم بالنصوص، وألا نُخليها من معانيها الظاهرة.

ثم ذكر حديثًا يدل على إثبات صفة الفرح لله تعالى،وذكر الشيخ طرفه: [لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته]،تمة الحديث وهو مُتفق عليه: [لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته ضلت عنه في أرض فلاة]:يعني في صحراء دوية ، [فقام يطلبها وعليها طعامه وشرابه حتى إذا أيس منها أوى إلى جذع شجرة ينتظر الموت، فانتبه فإذا بخطامها قد علق بالشجرة، فقام فقبض على خطامها وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح] ، هذه صورة تُمثل غاية ما يُمكن أن يقع الفرح لإنسان أشرف على الهلكة ويأس من النجاة في صحراء دوية، ليس معه طعام ولا شراب، إذ ذهب طعامه وشرابه مع راحلته، فصار كما يُقال في لغُة العصر: يعد العد التنازلي للموت. فساقها الله تبارك وتعالى إليه حتى علق خطامها بالشجرة، الشجرة التي نام تحتها، فقبض عليها وقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أراد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك. فأخطأ من شدة الفرح ، مع ذلك فالله أشد فرحًا بتوبة عبده من ذلك الرجل، والحديث دليل على إثبات صفة الفرح لله عز وجل، وليس مُقتضى ذلك أن يكون كفرح المخلوقين، فلله فرحٌ يليق

به، وللمخلوق فرح يليق به، ففرح المخلوق تعتريه خفة وطيش وذهول، لكن فرح الله ليس كذلك، فهناك قدر مُشترك في الأذهان حول معنى الفرح، وأنه شيء يُسر به ويُستبشر به، أما اللوازم التي تلزمه فتختلف من شيء إلى آخر، حتى فرح المخلوقين يتفاوت، فمن الناس من يفرح ولا يظهر عليه آثاره، ومن الناس يفرح ويفقد صوابه، ومن المخلوقات كالحيوانات العجماوات ما تفرح فرحًا يتناسب مع خلقتها لا يُشبه فرح المخلوقين، وهكذا، فلا يلزم من الاتفاق في الاسم الاتفاق في المسمى، لا يلزم من الاتفاق في أصل الصفة الاتفاق في حقيقتها، وما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم أثبت لربه هذه الصفة فالواجب علينا أن نُثبت ما أثبت النبي صلى الله عليه وسلم لربه، ولا نستشنع ذلك ولا نستعظمه، ولا ننفر منه، فإن نبينا صلى الله عليه وسلم أكثر الناس تعظيمًا لجناب الله وأرعاهم لحقوقه تبارك وتعالى فلا يتظاهرن امرئ بأنه أغير على الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: المقصود بفرح الله كذا. من أين لك ذلك؟! نبينا صلى الله عليه وسلم قال كلامًا بيَّنًا فصلًا، فلا حاجة إلى الاستدراك عليه والتعقب عليه.

ثم ذكر حديثًا آخر ذكر طرفه أيضًا، وهو مُتفق عليه: (يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ يَدْخُلاَنِ الجَنَّةَ)[1] كيف ذلك؟ بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم كيف يكون الحال ؟ رجلان يقتل أحدهما الآخر، وكلاهما يدخل الجنة قاتل ومقتول؟ بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن أحدهما قتل صاحبه حال كُفره فمات الأول شهيدًا في سبيل الله، ثم منَّ الله تعالى على هذا الكافر فأسلم ، فقُتل في سبيل الله، فنال الشهادة، واجتمعا في الجنة، فزال بذلك الإشكال، إذ ن هذا الضحك ناشئ عن اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة، يعني كيف يكون قاتل ومقتول وكلاهما في الجنة ؟ فهذا مما يكون سببًا لحُصول الضحك، فلله عز وجل ضحك يليق به لا يُشبه ضحك المخلوقين، ضحك المخلوق يُصاحبه كما أسلفنا خِفة وطيش وقهقهة ويحتاج إلى لسان وشفتين ولهوات وأسنان حتى يُقال عن هذا : ضحك.لكن هذا هو المعهود في بني آدم في المخلوقات، ولا يلزم أن يكون ذلك في حق الخالق، تعالى سبحانه أن يُشبه أحدًا من مخلوقاته، فلله تعالى ضحك يليق به، ولولا أن نبينا صلى الله عليه وسلم أخبرنا بأن الله يضحك ما قلنا هذا ، ولم تنبو هذه الكلمة على أسماع الصحابة الكرام مع أنهم أعظم توقيرًا وتعظيمًا لله عز وجل، حتى إن لقيط بن عامر بن المنتفق لما أتى النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث: [عجب ربنا من قُنوط عباده وقرب غِيَرِه]: [قُنوط عباده]: القنوط هو أشد اليأس، ومتى يحصل لهم هذا القنوط؟ إذا أيسوا من نزول المطر ونبات الأرض، يعني حينما يقنط العباد من أن الله يعلم بقُرب تغير الحال.

قال: [وقُرب غِيَرِه]: يعني قُرب تغييره من قحط إلى خصب، ومن انحباس المطر إلى نُزوله، فإذا اجتمع هذان الأمران، قال صلى الله عليه وسلم: [ينظر إليكم أزلين قنطين].

قال: [أزلين]: يعني مُحلين.

قال: [قنطين]: يعني يائسين.

[1] صحيح البخاري (2826).

قال: [فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب] : يعني كأنما هم في هذه الحال من الكآبة والسآمة واليأس البالغ إلى حد القُنوط أول النهار، مع علمه سبحانه أنهم سيُمطرون في آخر النهار، فالله تعالى يضحك، مما يُقرب لك ذلك: أن ترى طالبًا قلقًا على نتيجته، هل اجتاز، أم لم يجتز؟ وهو يضرب أخماس بأسداس، ويُقبل ويُدبر، وأنت تعلم بأنه قد نجح، فأنت تضحك لأنه اجتمع حالان: حال علمك بفرجه وحُصول مُراده، وجهله هو بذلك ، فيكون هذا مما يبعث عندك الضحك، الله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }[الشورى: 11]، لكن اجتماع هذين الأمرين في حق المخلوق، يعني: شدة القنوط مع قُرب الغِير وعلم الله بذلك هذا مما يضحك الله تعالى له سبحانه بحمده، ولما سمع لقيط بن عامر بن المنذر – رضي الله عنه– هذا الكلام من فِي رسول الله صلى الله عليه وسلم: قعد على رُكبته وقال يا رسول الله: أويضحك ربنا؟ . قال: [نعم]، قال: لن نعدم خيرًا من رب يضحك. لم يقل: الضحك يلزم منه شفتان، ولسان، ولهوا ت، وأسنان، وإثباته يقتضي كذا وكذا . ما خطر بباله ولا دار بخلده شيء مما يدعيه هؤلاء المتكلمون الذين صرفوا النصوص عن ظواهرها، بل تقبل الأمر قبولًا حسنًا، ولم ير أن ذلك مُوجبًا لتشبيه الله بخلقه، بل أثبت له سبحانه هذا الوصف الكريم وتفاءل به ، ألم تروا أنه قال: لن نعدم خيرًا من رب يضحك . لأن هذا من معقولات بني آدم، أنت الآن مثلًا إذا كان لك طلب أو مُعاملة لدى مُديري دائرة من الدوائر، فأقبلت عليه، فوجدته مُستبشرًا يضحك مُتهللًا، ألا تتفاءل بحصول طلبك؟ بل ى، فكيف لو كلمته بالأمر وتبسم لك ؟ لزاد هذا تفاءلك، ولو أقبلت عليه ورأيته مُقطبًا عابسًا لوقع في نفسك أن أمرك لا يتم، ولو حدثته بالأمر فوجدت منه اقفهرارًا وتضايقًا لزاد في قلبك أن أمرك تعسر، فلهذا قال على البديه ة–رضي الله عنه–: لن نعدم خيرًا من رب يضحك . فدل هذا على أن لربنا سبحانه وتعالى ضحك يليق به، لا يجوز لأحد أن يستشنعه، ولا أن يستبشعه ولا أن ينفر منه، وإنما يقع ذلك لمن سبقت لوثة التشبيه والتمثيل إلى قلبه، فتبادر إلى قلبه معنى مُشابهة الآدميين، فهرب من التمثيل إلى التعطيل أو التحريف، أما من تقبل الأمر قبولًا حسنًا واعتقد لله ما يليق بجلاله، وأثبت إثباتًا بلا تمثيل، ونزه الله تنزيهًا بلا تعطيل فليس عنده مُشكلة.

أيضًا تضمن الحديث إثبات صفة العجب لله تعالى: [عجب ربنا] وهذا أيضًا مما يُثبته أهل السنة والجماعة ويأباه أهل البدع، لماذا يأبونه؟ يقولون: لأن العجب لا يكون إلا عن جهل: بمعنى أن الإنسان يتعجب من الشيء بسبب جهله به، والحقيقة أنه عند التأمل يجد الإنسان أنه مُمكن أن يقع العجب عن جهل ويُمكن أن يقع العجب عن اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة، فمثلًا لو قدرنا أنك مثلًا مُعلم وتعلم من أحد الطُلاب شيئًا من الإهمال وعدم الاكتراث، ثم بعد إجراء الامتحان وجدت أنه أحسن الجواب وحصل على درجة النجاح، فإن هذا يُوجب لك عجبًا، تقول: سبحان الله ! فلان اجتاز الامتحان .وأنت قد علمت ذلك ، لسرت جاهلًا، عملت أن جوابه صائب وأن حاله السابقة لا تُخوله لذلك ، فحصل لك عجبٌ مع العلم، فليس دومًا يكون العجب ناشئًا عن الجهل، قد يكون العجب ناشئًا عن اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة، حتى مع العلم بهما.

قال: [لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا]:جهنم اسم من أسماء النار، قِيل سُميت بذلك لجُهومتها وظُلمتها.

قال: [يُلْقَى فِيهَا]:يعني يُلقى فيها أهلها، فإنهم يُلقون فيها دفعات ، وهي تقول: {هَلْ مِن مَّزِيدٍ }كما قال ربنا في ناطق كتابه: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ } [ق: 30]، وقد جاء في الحديث أن الجنة والنار اختصمتا: [فقالت الجنة: أنا كذا . وقالت النار: أنا كذا. فقال الله عز وجل: أنت جنتي أعددتها لأوليائي. وللنار: وأنت عذابي أعددتها لأعدائي]، أو كما قال سبحانه في الحديث القدسي: [ولكل منكما ملؤها]، فهي تقول: {هَلْ مِن مَّزِيدٍ} تطلب الزيادة، حيث قد تكفل الله لها بملئها وقد فني من يستحقونها فماذا يفعل الرب سبحانه وبحمده؟ [يضع رب العزة –وهذا من إضافة الموصوف إلى الصفة– فيها رجله] وفي رواية: [يضع عليها قدمه] ، وهذا موضع الشاهد، إذ فيها إثبات لفظ الرجل، أو صفة الرجل أو صفة القدم [فينزوي بعضها إلى بعض] : يعني ينضم بعضها إلى بعض ويتضاغط بعضها على بعض، فتقول: [قطٍ قطٍ] يعني اكتفيت اكتفيت ، وبذلك يتحقق امتلا ؤها، فإنه إذا تلا ءمت على بعضها بعضًا والعياذ بالله ضاقت بأهلها وغصت بهم ، فتحقق ما وعدها الله تعالى به من امتلائها، والحديث مُتفق عليه، فدل ذلك على إثبات القدم أو الرجل لله سبحانه وتعالى على الوجه اللائق به، فلا يجوز لكائن من كان سمع هذا الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما من إثبات هذا الوصف الذاتي أو الخبري من صفات الله تعالى أن يتعرض له بشيء من التمثيل بأن يعلق في ذهنه صورة القدم البشرية مثلًا، أو أن ينزع إلى شيء من التعطيل والتحريف فيقول: ليس المراد بالقدم والرجل الصفة، المراد بها كذا وكذا . حتى إنهم تعسفوا وتكلفوا مقالات مُغربة جدًا تنبو ا على السمع والذهن فقالوا بها فرارًا من إثبات الصفة، وما كانوا بحاجة إلى ذلك، ولا اضطروا إليه، وكانوا يسعهم ما وسع السابقين الأولين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فالواجب على المؤمن حِيال هذ هالنصوص الإثبات والإقرار والإمرار مع اعتقاد تنزيه الرب عن النقائص والعُيوب ومُماثلة المخلوقين، ودومًا تذكر أيها المؤمن أن قائل ذلك ليس فُلان وعلان، بل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى } [النجم: 3، 4]، وأنه أعلم بربه وأصدق قِيلًا وأحسن حديثًا من سائر الناس، فكيف يليق بأحد أن يستدرك عليه ، أو أن يتعقبه بالقول؟ ما هذه بغيرة إيمانية، ولكنه ا خطأ منهجي.

الدرس (23)

إثبات صفات الله من السنة النبوية

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمَ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ..». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ».

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ! تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوْبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ»، رَوَاهُ «أَبُو دَاوُد».

في إثبات العلو أيضًا:

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، رَوَاهُ «الْبُخَارِيُّ» وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»، رَوَاهُ «أَبُو دَاوُد» «وَالتِّرْمِذِيُّ» وَغَيْرُهُمَا.

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللَّهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» ، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، رَوَاهُ «مُسْلِمٌ» .

في إثبات المعية:

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ» . حَدِيثٌ حَسَنٌ.

قال: [يقول الله تعالى]: إذن هذا حديث قُدسي، فأيما حديث نبوي صُدر بقال الله، أو يقول الله، فيُقال عنه: حديث قدسي. والفرق بين الحديث القدسي والنبوي: أن الحديث النبوي لفظه ومعناه من النبي صلى الله عليه وسلم، أما الحديث القدسي فلفظه من النبي صلى الله عليه وسلم ومعناه من الله عز وجل، وأما القرآن فلفظه ومعناه من الله تعالى.

قال: [يا آدم]: آدم هو أبو البشر.

قال: [فيقول عليه السلام: لبيك وسعديك]: لبيك أي إجابة لك بعد إجابة، وسعديك أي إسعادًا بعد إسعاد، وهي من عبارات اللباقة وحُسن الجواب في مُخاطبة الأعلى.

قال: [فيُنادي بصوت]: من الذي يُنادي؟ الله عز وجل كما قال في القرآن: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ} [مريم: 52]، {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: 65]، فلا عجب، فالله تعالى يُنادي، وتأمل هنا قال: [بصوت]: والصوت هو الشيء المسموع الذي تسمعه الآذان، وليس كما ادعى محرفو الكَّلم عن مواضعه أن المراد بكلامه هو المعنى النفسي القائم في ذاته، فإن كثيرًا من الصفاتية: كالأشاعرة والماتُريدية والكُلابية والسالمية الذين يدعون أنهم يثبتون صفة الكلام لا يُثبتونها كما يُثبتها أهل السنة والجماعة، بل يُثبتون الكلام بوصفه معنى فقط، معنى قائم بنفسه منذ الأزل، أما ما تسمعه الآذان فإنها كما يقولون: مخلوقة، حُروف وأصوات مخلوقة خُلقت لتُعبر عن كلام الله، أو لتحكي كلام الله. على اختلاف بينهم في التعبير، فالأشاعرة يقولون: هي عبارة عن كلام الله. والكُلابية يقولون: هي حكاية عن كلام الله، لكنهم مُتفقون أن ما سمعه آدم عليه

السلام هنا وما سمعه آدم وحواء في الجنة، وما سمعه موسى عليه السلام عند الشجرة، وما سيسمعه عيسى عليه السلام يوم القيامة حين يقول: {أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ}[المائدة: 116] أن هذا ليس هو كلام الله، عندهم أن هذا حُروف وأصوات مخلوقة، خُلقت لتُعبر أو لتحكي كلام الله، ولا يخفى ما في هذا من التكلف والتعسف الذي لم يدر بخلد أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أهل القُرون الفاضلة، وإنما ألجأت إليه المقدمات الفاسدة التي اتخذها هؤلاء المتكلمون بسبب تأثرهم بالمنطق اليوناني والمقدمات العقلية، أما المعتصمون بالآثار والروايات فإنهم لم يجنحوا إلى شيء من هذا.

قال: [إن الله يأمرك أن تُخرج من ذُريتك بعثًا إلى النار]: تتمة الحديث موحشة فقد قال: [يا ربِي وما بعث النار؟. فقال الله: من كل ألف تُسعمائة وتسع وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة]،فشق ذلك على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الواحد؟. قال صلى الله عليه وسلم: [إنكم في أُمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه]، من؟ يأجوج ومأجوج، وهذا دليل على أن يأجوج ومأجوج من بني آدم، من ذرية آدم وأنهم يعيشون على وجه الكرة الأرضية، وأن أعدادهم هائلة، حتى إنهم هم أكثر أهل النار، لا كما يتوهمه بعض الناس أن يأجوج مأجوج أُمة غيبية لا سبيل إلى الوصول إليها ولا يُعلم مكانها إلى غير ذلك، أو ما يتوهمه بعض الناس من أن أشكالهم وهيئاتهم غريبة الشكل، كل هذا من الخُرافات التي لا تقوم على مُستند صحيح.

والمقصود ها هنا هو إثبات صفة الكلام لله تعالى وأنه بحرف وصوت، فأما الصوت فبلفظه: [فيُنادي بصوت]، وأما أنه بحرف فذلك لأن جُملة مقول القول عبارة عن حُروف: [إن الله يأمرك أن تُخرج من ذُريتك بعثًا إلى النار]، فهذا موافق لما قررناه آنفًا من إثبات صفة الكلام لله عز وجل وأن الله تعالى يتكلم بكلام حقيقي تسمعه الآذان بحُروف وأصوات لا تُماثل كلام المخلوقين، وأن كلامه سبحانه وتعالى مُتعلق بمشيئته، فهو قديم النوع حادث الآحاد، فها هو سبحانه وتعالى يُخبر بأنه يقول يوم القيامة لآدم كذا وكذا، مما يدل على أن كلامه سبحانه مُتعلق بمشيئته.

قال: [ما منكم من أحد إلا سيُكلمه ربه ليس بينه وبينه تُرجمان]: حديث مُتفق عليه.

قال: [ما منكم من أحد]: والمقصود من المؤمنين.

قال: [إلا سيُكلمه ربه]: بكلام حقيقي.

قال: [ليس بينه وبينه تَرجُمان]: والترجمان هو الذي ينقل من لغة إلى لُغة، فالله تعالى ليس بحاجة إلى تَرجمان ليُبلغ عبده ما يُريد، فإنه يُكلمه بما يفهم عنه، فهذا يقع لجميع المؤمنين، وقد جاء في حديث عبد الله بن عُمر –رضي الله عنهما– في صحيح مسلم: [إن الله يُدني عبده يوم القيامة، ويضع عليه كنفه ويستره، ويقول: أتعرف ذنب كذا يوم كذا؟ أتعرف ذنب كذا يوم كذا؟. فيقول العبد: أي ربي، أي ربي. حتى يظن أنه قد هلك،

فيقول: إني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم]، نسأل الله من فضله، فدل هذا الحديث على إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى.

قال: رُقية المريض: الرُقية هي الأدعية التي يدعى بها طلبًا للشفاء، والرُقية تكون من كتاب الله، ومن سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكون من الأدعية الصحيحة المأثورة وتكون أيضًا بالأدعية المباحة، فهذه الرُقى كُلها مشروعة وجائزة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: [اعرضوا عليَّ رُقاكم] وقال صلى الله عليه وسلم: [لا بأس بالرُقى ما لم تكن شركًا]، فإذا تضمنت الرُقى كلامًا غير مفهوم أو طلاسم أو دعاء غير الله فإنها باطلة، فهذا الحديث يتضمن رُقية، إلا أن الحديث هذا وإن حسنه شيخ الإسلام –رحمه الله– فقد ضعفه آخرون.

قال: [رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ! تَقَدَّسَ اسْمُكَ]: [في السماء]: هذا موضع الشاهد، أي أن الله سبحانه وتعالى في السماء، فوصف ربه بأنه في السماء، وقد بينا آنفًا معنى كونه [في السماء] أي: على السماء، أو في العُلو.

قال: [تَقَدَّسَ اسْمُكَ]: أي تنزه عن النقائص والعُيوب ومُماثلة المخلوقين، ولا شك أن لله اسم، وله أسماء {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} [الأعلى: 1]، {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الأعراف: 180].

قال: [أَمْرُك فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ]: هذا نوع من التوسل والتملق لله تعالى بما يليق به سبحانه، أي أن أمرك ماض في السماء والأرض ورحمتك في السماء، فاجعل رحمتك في الأرض.

قال: [اغْفِرْ لَنَا حُوْبَنَا وَخَطَايَانَا]: الحوب هو الإثم الكبير، والخطايا دون ذلك، وذلك أن الداعي ينبغي بين يدي دُعائه أن يطلب المغفرة، لأنه كما قِيل: التخلية قبل التحلية. فيسأل الله تعالى أن يغفر له ليكون مدخلًا لطلبه، وهذا أمر معقول في النظر، فلو قُدر أنك تُريد أن تطلب من شخص ما طلبًا، وقع منك تُجاهه ما يعتب به عليك، فإنك قبل أن تطلب الطلب تُقدم بالعُذر عما بدر منك، والأسف، فتقول: أنا أعتذر عما جرى مني وآسف، وكذا وكذا، وأرجو أن تُعطيني كذا وكذا. ولا يليق أن تتقدم بالطلب وبينك وبينه ما يُوجب أن يسخط عليك، فهذا من محاسن الدعاء، أن يستغفر العبد ربه بين يدي دعائه ويسأله الصفح، ثم يتقدم بطلبته.

قال: [أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ]: وكل مؤمن فهو طيب.

قال: [أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ]: هذه الرحمة التي طلب إنزالها ليست الصفة ولكنها المخلوقة، لأن الرحمة تارة يُراد بها الصفة، وتارة يُراد بها أمرًا مخلوقًا، فإذا قال الله: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: 156] فهي صفة، {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}: اسم وصفة، أو اسم مُتضمن لصفة، أما إذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: [إن الله خلق مائة رحمة، فأنزل منها رحمة إلى الأرض فمنها تتراحم الخلائق، حتى إن الدابة ترفع حافرها

خشية أن تُصيب وليدها، وادخر تسعة وتسعين ليوم القيامة]: هذه رحمة مخلوقة، أما الرحمة الصفة فهي القائمة به سبحانه، ولا شك أن الرحمة المخلوقة من أثر الرحمة التي هي صفة، {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [الروم: 50].

قال: [عَلَى هَذَا الْوَجَعِ فيبرأ]: أي يبرأ بإذن الله تعالى، فهذه رُقية صالحة.

والحديث وإن كان ضعيفًا فإنه لا بأس أن يستعمله الإنسان ولو لم يقطع بصحة رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه دعاء صالح، وله أثر نافع في رُقية المريض، فيحصل به بإذن الله تعالى البُرء، وهناك من الأدعية سواه مما قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما الشاهد من إيراده قوله: [ربنا الله الذي في السماء] فأثبت أن الله تعالى في العُلو.

قال: [أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ]: هذا حديث مُتفق عليه، وقد قاله النبي صلى الله عليه وسلم لما قال ذو الخُويصرة وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حُنين وأعطى بعض المؤلفة قُلوبهم وترك بعض الأنصار وبعض الصحابة، فقام هذا المتهوك هذا الخارجي وصاح في وجه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: اعدل يا مُحمد. قبحه الله، يقول هذا لمن؟ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ويلك! من يعدل إن لم أعدل، ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟] يعني الله تعالى يأمنني على وحيه، وأنت لا تأتمنني على شاة وبعير؟! [ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟] والشاهد منه قوله: [من في السماء] فهو دليل على العُلو، كما أسلفنا أن [من في السماء]: أي من على السماء، أو من في العُلو.

قال: [وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ]: رواه أبو داود وغيره، وقد حسن إسناده بعض أهل العلم، وهو يدل على عُلو الله بذاته، فقد قدمنا لكم فيما مضى أن **عُلو الله ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: عُلو الذات.

النوع الثاني: عُلو القدر.

النوع الثالث: عُلو القهر.

ولا أحد من أهل القبلة يُنازع في عُلو القدر وعُلو القهر، لا أحد يستطيع أن يُنكر قهر الله لعباده{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}[الأنعام: 18]، ولا أحد يستطيع أن يُنكر كمال صفات الله، وإن اختلفوا في إثبات بعضها، أو نفيه، لكن الخلاف الواسع وقع في إثبات عُلوه، وهذا من العجب، ولا ريب أن الله تعالى بذاته فوق سماواته مُستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، هذا مُعتقد أهل السنة والجماعة، فهذا الحديث يُبين ذلك.

قال: [والعرش فوق الماء]: قال الله عز وجل في كتابه: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: 7]، فالعرش فوق بحر الله أعلم بصفته.

قال: [وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ]: فالله تعالى له الفوقية المطلقة.

قال: [وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ]: أي أن عُلوه فوق عرشه ليس مانعًا من علمه بأحوالكم مع البُعد السحيق بين عُلوه سبحانه وبين خلقه وسُفول خلقه، فهو سبحانه وتعالى عليّ في دُنوه قريب في عُلوه، إذ هو سبحانه أقرب إلى كل أحد من كل شيء، فهذا يدل على إثبات صفة العُلو، ويدل أيضًا على إثبات صفة المعية إذ أن قوله: [وهو يعلم ما أنتم عليه] يدل على أنه سبحانه وتعالى مع عباده بعلمه.

قال: وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللَّهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» ، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»: هذه جارية معاوية بن الحكم –رضي الله عنه– كان قد جعلها على غنم له، فغفلت فأكل الذئب واحدة منها، فلما جاء وأخبرته، أخذته غضبة بني آدم، فلطمها، ثم إنه ندم، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم يستشيره في عِتقها تكفيرًا لما بدر منه تُجاهها من لطمه إياها، فدعا بها النبي صلى الله عليه وسلم فسألها سؤالين ليرى إيمانها، قال: [أين الله؟]، قالت: في السماء. قال: [من أنا؟]، قالت: أنت رسول الله. فقال صلى الله عليه وسلم: [أعتقها فإنها مؤمنة]: فدل هذا على إقرار النبي صلى الله عليه وسلم للجارية على أن الله تعالى له صفة العُلو وأنه فوق سماواته، ولا ينقضي العجب من بعض المتهوكين الذين يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما قبل قول هذه الجارية لأنها أعجمية، ولأنها ساذجة وأنه يُقبل منها ما لا يُقبل من غيرها، وإلا فليس الأمر كذلك، سبحان الله!! هل يُمكن أن رسول الله يُمرر جوابًا باطلًا خاطئًا يتعلق بصفة من صفات الله حتى يُقال: إنه فعل ذلك لأنها أعجمية ساذجة فقبل هذا منها؟!. هذا في الواقع طعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما بالك إذن بمعاوية سيدها الذي سمع هذا الكلام ورواه، وتناقلته الأئمة من بعده، هذا لا يكون، ثم أين تذهبون وجوابها مُطابق لما في القرآن؟ الله تعالى يقول: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ} [الملك: 16] فأي أمر أتت به الجارية زيادة على القُرآن؟ قالت بما قال به القُرآن، فهكذا هذه المسالك الضيقة الحرجة التي سلكها المتكلمون حملتهم على الإتيان بما لا ينقضي منه العجب، فإلى الله المشتكي.

قال: [أَفْضَلُ الْإِيمَانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ]، حديث حسن: وهذا قد رواه الطبراني وضعفه بعض أهل العلم، وشيخ الإسلام يستشهد به في مواضع عدة من كُتبه.

قال: [أَفْضَلُ الْإِيمَانِ]: هذا يدلنا على أن الإيمان يتفاوت، وأنه درجات.

قال: [أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ]: هل هي المعية العامة، أم المعية الخاصة؟ لا مانع من حملها على كليهما، وذلك لأن المؤمن هو الذي يجتمع في حقه إثبات المعيتين: العامة، والخاصة، أما الكافر فإنه لا معية

خاصة له، وربما يُنكر ويجهل حتى المعية العامة، فإذا كان الإنسان المؤمن مُستصحبًا لمعية الله بمعنى أنه يعلم أن الله يرى مكانه، ويسمع كلامه، ويعلم بحاله، فهذا إثبات للسمع والبصر والعلم وسائر صفات الرُبوبية، ويُورث هذا في قلبه كمال مُراقبة الله، كذلك إذا استصحب المؤمن أن الله معه يُؤيده، وينصره، ويُثبته فإن هذه معية خاصة تُثمر له ثبات القلب ورباطة الجأش، فهذا أفضل الإيمان، إذا وقع هذا للإنسان واستشعر معية الله في جميع تقلباته وأحواله فهذا هو الإيمان الذي يجعل الإنسان يسير على نور من الله مُستأنس بإيمانه، فرحًا بربه عز وجل، فهذا أفضل الإيمان وإن لم يصح الحديث سندًا فإن معناه صحيح.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: في إثبات كون الله قبل وجه المصلي:

وَقَوْلُهُ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هذا حديث مُتفق عليه يؤدب فيه النبي صلى الله عليه وسلم أُمته حال صلاتهم وينهاهم عن أن يبصق أحدهم قِبل وجه، ويُعلل ذلك بقوله: **[فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ]**:إذن الله تعالى قِبل وجه المصلى، فإذا قال قائل: كيف نجمع بين العُلو والمقابلة، يُقال: لا مانع ولا تعارض بين العُلو و المقابلة، ألست ترى الشمس عند بُزوغها أو عند غُروبها والقمر إذا كان على خط الأُفق، أليس قِبل وجهك؟ أليس هو في السماء؟ فاجتمع عُلو ومُقابلة، فلا تعارض بين العُلو والمقابلة، وإنما ينشأ مثل هذا بسبب الجهل أو التوهم الفاسد.

قال: [وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ]: يعني إذا احتاج إلى البُصاق، واجتمع في فيه ما يُشوش عليه ويُشغله عن صلاته، فإما أن يبصق تحت قدمه أو عن يساره، ولكن مثل هذا لا يصلح في المساجد الحالية التي اتُخذت فيها الفرشات، فإن هذا مما يأنف منه الناس، وقد أعاضنا الله عن هذا بهذه المناديل التي يحملها الإنسان في جيبه، بل قد وصف النبي صلى الله عليه وسلم طريقة أُخرى وهي: أن يأخذ الإنسان بطرف ردائه فيجعل بعضه على بعض فيضع فيه بُصاقه دون أن يبدر منه ما لا يليق في حق الله أو في حق ملائكته أو في حق إخوانه المؤمنين.

📖قال المؤلف –رحمه الله–:في إثبات العلو وصفات أخرى:

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ! رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ! رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ! فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى! مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ! أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ؛ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ؛ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ؛ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ؛ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنْ الْفَقْرِ»، رَوَاهُ «مُسْلِمٌ».

هذا حديث رواه مسلم –رحمه الله– ويتضمن هذه الأسماء الأربعة التي فسرها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي تتضمن إثبات صفة العُلو.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: في إثبات قرب الله تعالى:

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قال: [ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ]: ترفقوا بأنفسكم؛ فتضمن ذلك إثبات صفة القُرب لله تعالى وليس معنى ذلك أن الله بين الراكب وبين عُنق راحلته ولكنه قريب بملائكته وبسمعه وببصره وبعلمه.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: إثبات رؤية المؤمنين لربهم:

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ؛ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هذا الحديث دل على إثبات الرؤية، وأن المؤمنين يرون ربهم عيانًا بأبصارهم كما قدمنا في الآيات القُرآنية.

قال: [لَا تُضَامُّونَ]: أي لا ينضم بعضكم إلى بعض وتتزاحمون، أو لا تُضامون من الضيم والمذلة، فيقع الأمر في غاية الكرامة، وذلك في عرصات القيامة، أو في الجنة، فدل هذا الحديث المتفق عليه بل المتواتر على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة عيانًا بأبصارهم.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ عَنْ رَبِّهِ؛ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ.

أي أنه أراد –رحمه الله– مُجرد ضرب المثال وليس الاستقصاء، فالواجب أن نسير في هذه الأحاديث على هذا النسق من الإثبات والإقرار والإمرار وعدم التعرض لها بشيء من التمثيل، والتكييف، أو من التحريف والتعطيل والحمد لله رب العالمين.

والله أعلم.

الدرس (24)

وسطية أهل السنة والجماعة

📖قال المؤلف –رحمه الله–: إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ عَنْ رَبِّهِ؛ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ. فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ.

كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، مِنْ غَيْرِ: تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ: تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

الفصل الرابع:وسطية أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة:

بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ.

الأصل الأول: باب الأسماء والصفات: فَهُمْ وَسَطٌ فِي: بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ.

الأصل الثاني: أفعال الله: وَهُمْ وَسَطٌ فِي: بَابِ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ، وَالْجَبْرِيَّةِ.

الأصل الثالث: الوعيد: وَفِي: بَابِ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ، وَبَيْنَ الْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.

الأصل الرابع: أسماء الإيمان والدين:وَفِي: بَابِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ ، وَالْجَهْمِيَّةِ.

الأصل الخامس: في الصحابة رضي الله عنهم: وَفِي: أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الرَّوَافِضِ، وَبَيْنَ الْخَوَارِجِ.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن هذه القطعة من هذه العقيدة الواسطية تكشف عن سعة اطلاع شيخ الإسلام – رحمه الله– ومعرفته بمقالات الناس وإدراكه للفرق وتطرفها ووسطية أهل السنة والجماعة، وينبغي أن يُعلم أن الوسطية خصيصة من خصائص أهل السنة والجماعة وسِمة من سماتهم، فكما أن هذه الأُمة وسط بين الملل كما قال ربنا عز وجل: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة: 143] فأهل الإسلام أو المسلمون وسط بين اليهود والنصارى، فاليهود ينزعون إلى التشديد والغُلو، والنصارى ينزعون إلى التفريط والتساهل، كانت هذه الأُمة أُمة وسطًا أحكمت الدين والشريعة بين الأُمة الموسوية والأُمة العيسوية، وأهل السنة والجماعة وسط بين فرق الأُمة أي أنهم وسط الوسط، فلزموا الطريق الوسط، ومعنى الوسط كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة: 143] أي: عُدولًا خِيارًا، والعدل والخيرية إنما تُنال بلزوم الصراط المستقيم، وقد أوضح الشيخ –رحمه الله– هذه الوسطية من خلال خمسة أبواب من أبواب الدين، تتبين فيها وسطية أهل السنة والجماعة بين فرق الأُمة:

قال: [فَهُمْ وَسَطٌ]: يعني أهل السنة والجماعة.

قال: [فَهُمْ وَسَطٌ فِي: بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ] نقول: نعم والله، فأهل السنة والجماعة وسط بين طرفي نقيض: بين قوم غلوا في الإثبات حتى صاروا إلى التمثيل، وقوم غلوا في التنزيه حتى صاروا إلى التعطيل، فأهل التمثيل الذين يُقال عنهم أحيانًا المشبهة أو أهل التشبيه، هم من يعتقدون أن صفات الله كصفات المخلوقين، ويزعمون أن الله خطبنا بما نعهد في الموجودات، فلابد أن يكون وصف الرب من جنس ما هو معهود في الذهن في الموجودات، فشبهوا الله بالخلق تعالى الله عما يقولون.

واعلموا – يا رعاكم الله – أن أول القائلين بالتمثيل في هذه الأُمة هم الرافضة: هشام بن الحكم الرافضي، وهشام بن سالم الجواليقي، وداود الجواربي، وكل هؤلاء من الروافض كما حكي مقالاتهم أبو الحسن الأشعري.ثم إن مذهب التمثيل لعله انقرض أو كاد؛ وذلك لشناعته.

وقابل هؤلاء أهل التعطيل الذين ادعوا تنزيه الرب عن سمات المخلوقين، فحملهم ذلك إلى أن ينفوا عن الله ما أثبته لنفسه، **إلا أن أهل التعطيل –كما مر بنا في دروس خلت– مراتب:**

أولًا: أشد فرق التعطيل تعطيلًا هم القرامطة الباطنيين ، الذين قالوا بنفي النقيضين عن الله، يعني ينفون عن الله عز وجل الشيء وضده، فيقولون: لا حي ولا ميت، لا موجود ولا معدوم، لا عالم ولا جاهل، لا كذا ولا كذا.

هذه أشد المقالات تعطيلًا، لماذا؟ لأنهم فروا من تشبيه الله بالموجودات، ومن تشبيه الله تعالى بالمعدومات ووقعوا في أشد من ذلك حيث شبهوا الله بالممتنعات، فإن النقيضين لا يُمكن أن يجتمعا ولا يُمكن أن يرتفعا، فمثلًا الحركة والسكون لا يُمكن أن يجتمعا في عين واحدة، لا يُمكن لعين واحدة أن تكون مُتحركة ساكنة في آن واحد، ولا يُمكن أيضًا ألا تكون مُتحركة ولا ساكنة، فهذا مُمتنع ببداهة العقول.

ثانيًا: يليهم في التعطيل: الجهمية، وهم المنسوبون إلى الجهم بن صفوان السمرقندي، فإن هؤلاء قد نفوا عن الله الأسماء والصفات، وقالوا: إن إثبات الأسماء والصفات يقتضي تمثيله بالموجودات. إذن فبزعمهم؛ لا أسماء ولا صفات.

وزعموا أن الله هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، يعني إثبات وجوده في الأذهان لا حقيقة له في الأعيان، فهذا تعطيل الجهمية، ولم يتردد أهل السنة في تكفيرهم، حتى قال ابن القيم –رحمه الله– في نونيته:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

ثالثًا: يليهم في التعطيل: المعتزلة ، وهم الذين أثبتوا الأسماء وأنكروا الصفات، فيقول قائلهم: نعم سميع وبصير وعليم وقدير، لكن سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قُدرة، أي أنهم أثبتوا أسماءً بمنزلة الأعلام المحضة، لكن لا تتضمن صفة.والحقيقة أنه لا فرق بين مقالتهم ومقالة من سبقهم من الجهمية من حيث المعنى، لأنهم فرغوا الأسماء من دلالتها فما بقي إلا الحروف والألفاظ.

رابعًا: ثم إن أيضًا من مقالات التعطيل الشنيعة مقالة أهل التفويض فإن المفوضة وإن كانوا يعتقدون أن لله أسماء وصفات إلا أنهم يقطعون طريق العلم بها، فيقولون: لا يُمكن العلم بها، لا يعلمها إلا الله، فيزعمون أن الواجب هو إثبات الحروف والألفاظ التي سمى الله بها نفسه أو وصف بها نفسه، وأما المعاني فإنه لا سبيل إلى إدراكها، وبالتالي لم ينتفعوا من دلالة الكتاب والسنة.

وقد ذمهم شيخ الإسلام ذمًا بليغًا، فلما حكى مقالتهم في كتابه **"منهاج السنة النبوية في درء تعارض العقل والنقل"** قال –رحمه الله–: فتبين بذلك أن مقالة أهل التفويض الذين ينتسبون إلى السنة واتباع السلف من شر مقالات أهل البدع والإلحاد، لأنهم يسدون باب العلم بالله عقلًا ونقلًا.

هؤلاء الذين سميناهم أصحاب التعطيل الكُلي، على أن هناك قوم من المثبتة صار عندهم تعطيل جُزئي، وإن كان الأصل فيهم الإثبات كالأشاعرة والماتريدية، والكُلابية، وأتباع أبي العباس القلانسي، وأتباع الحارث بن أسد المحاسبي ومن شابههم، فإن هؤلاء خلافًا للمُعتزلة والجهمية يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يتصف بصفات الكمال ونُعوت الجلال، لكن أشكل عليهم بابان من أبواب الصفات، وهي الصفات الخبرية: كالوجه واليدين والعينين والساق، والصفات الفعلية: كالنزول، والاستواء، والمجيء، والضحك، والعجب، فاستعملوا فيهما التأويل الذي هو في الحقيقة تحريف، فوقعوا في ضرب من التعطيل، وهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختُلف فيه من الحق بإذنه فأثبتوا إثباتًا بلا تمثيل ونزهوا الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل. إذن هم وسطٌ في هذا الباب الشريف الخطير.

المثال الثاني: في باب أفعال الله ، أي ما يُدبره الله ويقضيه ويأمر به، **فقد انقسم الناس في هذا الباب إلى طرفين ووسط:**

القسم الأول: قومٌ غلوا في إثبات أفعال الله؛ حتى سلبوا العبد فعله ومشيئته وقدرته، وهؤلاء هم الجبرية.

القسم الثاني: قومٌ غلوا في إثبات أفعال العباد حتى أنكروا القدر السابق، وهم القدرية، وسيأتي لهم مزيد تفصيل إن شاء الله.

القسم الثالث: قومٌ وسط، هدى الله أهل السنة والجماعة لما اختُلف فيه من الحق بإذنه فأثبتوا للعبد مشيئة وفعلًا واختيارًا لكنه داخل تحت مشيئة الله وفعله وقدره، فقالوا كما قال ربهم: { لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: 28-29] فللعبد مشيئة وللعبد فعل، {لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} فأثبت له مشيئة واستقامة، والاستقامة فعل، لكنه جعل ذلك داخل تحت مشيئة الله وقدره السابق { وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

كذلك في الباب الثالث: وهو باب وعيد الله، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قد توعد العُصاة بوعيد، فانقسم الناس حِيال وعيد الله تعالى إلى طرفين ووسط:

أحد الطرفين: هم أهل التساهل والتفريط وهم المرجئة الذين أخرجوا العمل عن مُسمى الإيمان، كل من أخرج العمل عن مُسمى الإيمان فهو مُرجئ.

الطرف الثاني: الوعيدية الذين قالوا بكفر مُرتكب الكبيرة، وبوجوب إنفاذ الوعيد.

فأما المرجئة فإنهم قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، يعني بمعنى أن نُصوص الوعيد مُهدرة وباطلة، ما دام أن عنده معرفة في القلب فلا يضره زناه، وأكله للربا، وقصفه للمحصنات، وتوليه يوم الزحف، لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهؤلاء يُقال عنهم: المرجئة، وهم أهل التساهل والتفريط، فأبطلوا وعيد الله عز وجل.

ويُقابلهم على النقيض الوعيدية الذين يقولون بإنفاذ الوعيد ويُنكرون الشفاعة، فيقول قائلهم: كل من توعده الله تعالى بعقوبة فإنه يجب على الله أن يُنفذ وعيده، **وهؤلاء صنفان، وهم:**

أولًا: الخوارج.

ثانيًا: المعتزلة.

فالخوارج والمعتزلة تُنكران الشفاعة، فلا يعترفون بالشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها من عُصاة الموحدين، ولا من دخلها أن يُخرج منها بشفاعة الشافعين، فلذلك سُموا: وعيدية.

أما أهل السنة والجماعة فقد قالوا قولًا عدلا، قالوا: إن من توعده الله تعالى من عُصاة الموحدين فهو يوم القيامة تحت المشيئة والإرادة، إن شاء الله تعالى عفا وغفر له وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ومآله إلى الجنة؛ فصار قولهم وسطًا واعتصموا بقول الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ } [النساء: 48] وبالأحاديث المتكاثرة المتواترة الدالة على أنه يُخرج من النار، من كان في قلبه مثقال ذرة، مثقال بُرة، مثقال شعيرة من إيمان.

الباب الرابع: بين الشيخ –رحمه الله– فيه وسطية أهل السنة والجماعة، وهو قريب مما سبقه **وهو يتعلق بأسماء الإيمان والدين**، ماذا نقصد بأسماء الإيمان والدين؟ أي: مؤمن كافر، هذه هي أسماء الإيمان والدين، فالله تعالى قد قسم الخليقة إلى قسمين: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ } [التغابن: 2] فالناس قد خاضوا في هذا الباب خوضًا واسعًا، فقومٌ غلوا في التكفير وإخراج الناس من الملة، ووصموهم بالكفر، وقومٌ فرطوا وتساهلوا حتى لا يكاد يقع اسم الكفر على أحد من العالمين، **فأهل السنة والجماعة وسط بين فرقتين:**

أولًا: بين الحرورية وهم الخوارج، والمعتزلة من جهة.

ثانيًا: وبين المرجئة والجهمية من جهة.

–الحرورية والمعتزلة هؤلاء سلبوا الفاسق مُرتكب الكبيرة اسم الإيمان، وقالوا: لا يُسمى مؤمنًا، من زنى، من سرق، من أكل الربا، من شرب الخمر، من اغتاب، من نم، من قذف زال عنه وصف الإيمان، فليس بمؤمن.

–فأما الخوارج فطردوا المسألة وقالوا: ليس بمؤمن ويكون كافرًا، لأن الناس إما مؤمن وإما كافر.

–وأما المعتزلة فقالوا: خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر، فأين ذهب؟ قالوا: إنه صار في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وأتوا بقول لم يُسبقوا إليه، وهي دعوى المنزلة بين المنزلتين.

فالفريقان – الحرورية والمُعتزلة– كلاهما قد غلا في هذا الباب وسلب الفاسق ومُرتكب الكبيرة اسم الإيمان.

يُقابلهم في الجانب الأخر: المُرجئة والجهمية، وهما من بابة واحدة، فالمرجئة والجهمية قالوا: كلا، من أقر وعرف بقلبه فهو مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وكإيمان أبي بكر وعمر –رضي الله عنهم–.

أرأيتم – يا إخوان – هذا التناقض الفظيع بين قوم يُعطونه الاسم المطلق، وقوم يسلبونه مُطلق الاسم، قوم يُعطونه الاسم المطلق وهم المرجئة والجهمية، يقولون: له اسم الإيمان كامل، والإيمان شيء واحد، خلاص إذا عرف بقلبه وأقر بقلبه فهو مؤمن كامل الإيمان.

وأولئك – أعني الحرورية والمعتزلة– أزالوا عنه وصف الإيمان بالكلية، أما أهل السنة والجماعة فقد قالوا قولًا وسطًا عدلًا يقوم على نُصوص الكتاب والسنة، فقالوا: مُرتكب الكبيرة مؤمن، لكنه مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، والمؤمنون أطباق ومراتب ليسوا سواءً، كما قال ربنا عز وجل: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [فاطر: 32] وكل هذه الأنواع الثلاثة مُصطفون {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } فكلهم تجللهم سِمة الإيمان ووصف الإيمان لكنهم مراتب فيه، فمنهم من هو في أدني السُلم، ومنهم من هو في أعلاه، ومنهم من هو بين بين؛ فهُدي بهذا إلى الحق.

الباب الخامس من أبواب المُقارنة وبيان الوسطية: في باب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعونا أيضًا ننبه على سبب التسمية، لِم سُميت الحرورية بهذا الاسم؟ الجواب: نسبة إلى موضع قريب من الكوفة يُقال له: حروراء، وهو موضع انتحى إليه الخوارج بعد انفصالهم من جيش علي – رضي الله عنه –، انفصلوا عن جيش علي وولوا عليهم عبدالله بن وهب الراسبي وانحازوا إلى ذلك الموضع، وجعلوا لأنفسهم طريقة وجماعة إلخ، فنُسبوا إليها وقِيل لهم: الحرورية. كما في حديث أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– لما قالت لمعاذة: [أحرورية أنتِ؟]. لما رأت فيها نوع تشدد.

–وأما المعتزلة فقد اختُلف في سبب تسميتهم، ومن أشهر التفسيرات وإن كان قد لا يثبت من الناحية الإسنادية: أن واصل بن عطاء شيخهم ومُقدمهم كان في حلقة الحسن البصري – رحمه الله– فدخل داخل المسجد وسأل الحسن عن مُرتكب الكبيرة: أمؤمن هو أو كافر؟ فأطرق الحسن ليصوغ جوابًا كما هي طريقة السلف تأتي أجوبتهم مُحكمة بينة بعبارات لو شاء العاد أن يعُدها لعدها، فتعجل واصل ابن عطاء وقال: بل أنا أقول إنه لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين المنزلتين، ثم قام إلى سارية من سواري المسجد وأخذ يُقرر مذهبه، واجتمع عليه بعض من وافقه كعمرو بن عُبيد وغيره، فقال الحسن: اعتزلنا واصل. فسُموا مُعتزلة.

–وأما المرجئة فسميت بهذا الاسم من الإرجاء، وليس من الرجاء وإنما من الإرجاء وهو التأخير، يعني: إرجاء العمل عن مُسمى الإيمان.

–وأما الجهمية فقد أخبرناكم سابقًا أنها نسبة إلى الجهم بن صفوان السمرقندي.

أما الباب الخامس: فهو في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما **كان باب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبواب الاعتقاد لأمرين:**

الأمر الأول: لأنهم هم الواسطة في التبليغ بيننا وبين نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلهم في الأُمة مقام لا يُدانيهم فيه أحد، هم الواسطة في التبليغ –رضوان الله عليهم–، وحظوا بمشاهدة التنزيل ومعرفة التأويل وثناء الله تعالى عليهم في كتابه.

الأمر الثاني: أنه وُجد في الفرق الضالة كما ها هنا وكما سيأتي مُفصلًا من يطعن فيهم وينال منهم بُغية هدم الدين من أُسسه، وقطع الطريق بيننا وبين نبينا صلى الله عليه وسلم، فلذلك صار موضوع الصحابة – رضي الله عنهم –

من مباحث الاعتقاد، وإلا في الأصل أنه لا يتعلق بقضية عقائدية، بأُصول الإيمان الستة، لكن لما كان له هذا التعلق أدرجه أهل العلم في أبواب الاعتقاد.

قال: [إنهم وسط في باب أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الرَّوَافِضِ، وَبَيْنَ الْخَوَارِجِ]:

الرافضة هذا هو الاسم الذي صار السلف – رضي الله عنهم – يُطلقونه على المتشيعة وذلك أن الشيعة مرت بمراحل مُتعددة فكانت في مبدأ أمرها تشيعًا لنقل سياسيًا، يُقال: شيعة عليًّا، وشيعة معاوية، وشيعة عُثمان، بمعنى حزبه وأنصاره وجماعته، ثم بعد ذلك تحول التشيع إلى تشيع بدعي حيث ادعى أصحابه أن عليٍّ وآل البيت – رضي الله عنهم – أحق بالإمامة وأن النبي صلى الله عليه وسلم نص على عليٍّ –رضي الله عنه– باسمه، وأنه هو الوصي، وأنها تسري في أولاده من بعده، فخرجوا على ضرب من البدعة.

ثم إن التشيع انحط إلى مراحل كُفرية من الزندقة والباطنية كحال الفرق الباطنية من أمثال الدروز وإخوان الصفا وخلان الوفا، وفرق التشيع كالقرامطة فقد آلوا إلى مقالات شنيعة كُفرية، حتى إنه قد وُجد في زمن عليٍّ – رضي الله عنه– من زعم أن عليًّا هو الله وهم السبأية، وخد لهم الأخاديد وحرقهم بالنار.

فهؤلاء الرافضة غلوا في عليٍّ – رضي الله عنه – وآل بيته غلوًا عظيمًا، منهم من بلغ بعلي – رضي الله عنه– كما ذكرنا مرتبة الأُلوهية وقالوا: أنت، أنت. يعني أنت الله. وقال عليٍّ –رضي الله عنه–:

لما رأيت الأمر أمرًا مُنكرًا أججت ناري ودعوت قُنبرًا

خد لهم الأخاديد في باب كِندة، وأضرمها بالنار وألقاهم فيها.

وبعضهم دون ذلك، لكن يجمعهم الغلو في آل البيت، على النقيض منهم: الخوارج، فإن الخوارج أبغضوا عليًّا وكفروه ولعنوه وهؤلاء هم المحكمة الأولى الذين انشقوا عن جيش علي بعد صفين وقضية التحكيم، وقالوا: قد كفرت، حكمت الرجال في كتاب الله { وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة: 44] وصاروا يصرخون بذلك في مسجد الكوفة، حتى قال عليٍّ –رضي الله عنه–: كلمة حق أُريد بها باطل.

ولم يزل شرهم ينتشر حتى جرد لهم – رضي الله عنه – جيشًا من الصحابة من المهاجرين والأنصار وقاتلوهم في معركة النهروان المشهورة، **فهؤلاء يغلون في عليٍّ ويرفعونه فوق منزلته، أعني الروافض، والخوارج على النقيض من ذلك.**

أما أهل السنة والجماعة: فقد عرفوا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منازلهم ومراتبهم وترضوا عنهم وأحبوهم في ذات الله وعرفوا لهم مناقبهم وذبوا عن أعراضهم والتمسوا لهم المعاذير فيما قد يكون من قبيل الخطأ.

فكان أهل السنة بحمد الله في جميع هذه الأبواب وسطًا بين طرفين وعدلًا بين عِوجين، واعلموا –يا رعاكم الله– أن هذه الوسطية سارية في جميع أبواب الدين في أُمور الاعتقاد، وفي أُمور العبادة، وفي أُمور العمل، هي سِمة ومِزاج،

وكيفية، ولهذا ينبغي لطالب العلم أن يكتسب هذه الخاصية، وأن تمتلئ نفسه غِبطة بهذه النعمة التي هي نعمة التوسط، فإنه كما قيل:

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأُمور ذميم

فعود نفسك يا طالب العلم أن تكون مُطمئنًا، وادعًا، هادئًا ساكنًا، لا يحملك نزق وغضب وحمية وطفرة أن تشتط يمينًا وشمالًا، اعلم أن الحق دائمًا مع سكينة، ومع طُمأنينة ومعه روح وهُدوء، فإن آنست في نفسك أو في غيرك شيئًا من هذه النزعات فتوجس ريبة واحذر أن تنقل خُطاك قبل أن تتوثق، واعتصم بالكتاب والسنة، فإن النفس لها آفات، وقد يُخيل للإنسان في وقت من الأوقات أنه إنما غضب لله، وأنه انتصر لدين الله ونحو ذلك، ولا يكون على نور من الله وبينة، فسل الله دومًا يا عبد الله أن يمن عليك بالسكينة والاعتدال والاستقامة.

وانظروا إلى أولئك النفر الذين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجدوه؛ فأتوا إلى بيُوت النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عن عمله؟ فكأنهم تقالوه، تقالوا عمل النبي صلى الله عليه وسلم وهو مُعلم الناس الخير حتى قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: (أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[1] ذلك أن دين الإسلام دين وسطي يُلبي حاجات الروح وحاجات البدن، ويُلبي جميع الحقوق، إن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا –يعني أضيافك– فأعطِ لكل ذي حق حقه، فعليك يا طالب العلم أن تتشرب وأن تصطبغ بهذه الصبغة الوسطية ولا تنجرف يمنة ولا يسرة، واجعل دومًا معيار الوسطية هو النص والدليل، لأنه من الناس من يرى نفسه دومًا في موقع الوسط، ويرى الآخرين يمنة ويسرة في الأطراف، وهذا ليس صوابًا يجب أن تُحدد نُقطة الوسطية بما دل عليه الكتاب والسنة، بعض الناس تجده مثلًا يُقارف معصية، ويقول: أنا أحسن من الذي يفعل كذا وكذا، أنا لست مثل من يفعل كذا وكذا، ويظن أنه بذلك قد توسط، لكنه قد يكون أقرب إلى الوسط ممن ضرب بهم مثلًا، لكن لا يعني أنه في الوسط، فتحديد الوسطية ليست لي ولا لك، وإنما الذي يُحدد الوسطية هو الشرع وما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فتأملوا تجدوا في حياة الناس من يُبرر أفعاله بأني أنا والله متوسط فلست كذا ولست كذا، لكن هذا ليس هو مِعيار الوسطية: ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله وصفه بذلك { وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم: 4] حتى إن من هؤلاء، من إذا احتججت عليه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر من الأُمور قال: هذا رسول الله أين نحن منه؟. إذن لماذا كان رسول الله؟ { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ } [الأحزاب: 21] فعلينا أن نتنبه لهذا المنزلق وألا نُجر لنوع من خِدع النفوس وحِيلها وآفاتها؛ فيقع الإنسان في شيء من الشطط مُعتقدًا بأنه يُمارس الوسطية.

[1] صحيح البخاري (5063)، صحيح مسلم (1401).

وعُمومًا فإن مبحث الوسطية مبحث مُهم، وينبغي لطالب العلم أن يُدركه في جميع أبواب الدين، ومن تأمل شرع الله عز وجل وجده عين الحكمة وعين المصلحة في كل زمان ومكان وجيل وقبيلة، ويُدرك ذلك الراسخون في العلم.

الدرس (25)

فصل

إثبات علو الله مع معيته لخلقه

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ:**

الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ: مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا؛ يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ.

كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد:4]

هذا الفصل عود من الشيخ –رحمه الله– إلى إحدى مسائل الصفات، فقد خص مسألة العُلو بمزيد بسط وبيان، وذلك لوقوع الاختلاف فيها في زمنه، وقبل زمنه، وبعد زمنه إلى يومنا هذا مع أنها من الوضوح والبيان بمكان، فإن **عُلو الله سبحانه وتعالى كما تقدم معنا ثلاثة أنواع:**

أولًا: علو قدر.

ثانيًا: علو قهر.

ثالثًا: عُلو ذات.

علو قدر وهو: عُلو الصفات، وعلو قهر كونه سبحانه وتعالى قد علا وقهر جميع المخلوقات، وعلو ذات وهو ما قصده الشيخ ها هنا، لأن النوعين الأولين لا يختلف عليهما أهل القبلة، لا يوجد أحد من أهل القبلة يُنازع في أن الله تعالى مُستحق للكمال، وإن اختلفت عبارتهم، ولا يُنازع أحد من أهل القبلة في أن الله تعالى قد قهر جميع مخلوقاته { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: 18]، وإنما وقع الاختلاف في عُلو الذات، فأهل السنة والجماعة يعتقدون ما قرره الشيخ ها هنا بقوله: **[الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ]** إذن هذه أنواع الأدلة الرئيسية، **لأن الأدلة ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: أدلة رئيسية.

النوع الثاني: أدلة ثانوية.

فالأدلة الرئيسية الأصلية: الكتاب والسنة والإجماع.

والثانوية: العقل، والفطرة، والحس.

فالأُولى هي التي عليها المعول، والعقل والحس والفطرة مما يكون رافدًا ومُكملًا، فقد جاء في كتاب الله وتواتر عن رسول الله وأجمع عليه سلف الأُمة على ما يدل على أنه سبحانه فوق سماواته، يعني أنه بذاته سبحانه، لأن مرجع الضمير أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه عليٍّ على خلقه، هذا هو عُلو الذات، وهو ما يعتقده أهل السنة والجماعة قاطبة لا يتمارون في ذلك ولا يترددون أن ربهم ومعبودهم في العُلو، وأنه لا شيء فوقه كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم مُفسرًا قول الله تعالى: [وأنت الظاهر فليس فوقك شيء] فالله تعالى له العُلو المطلق، هو العلي، وهو الأعلى، وهو المتعال، وقد ذكرنا أنواع الأدلة على إثبات علو الله تعالى.

كذلك يُثبتون استواءه على عرشه، فالعرش هو سقف المخلوقات وأكبرها وأعظمها والله تعالى فوق عرشه مستوٍ عليه، ومعنى مستوٍ عليه: أي عالٍ عليه سبحانه وبحمده، ومع ذلك مع كونه سبحانه وتعالى له العُلو المطلق في ذاته فإنه مع خلقه، لكن هذه المعية معية علم لا معية ذات، بمعنى أنه ليس معنى ذلك أن الله تعالى مُختلط بمخلوقاته حال فيها، تعالى الله عن ذلك عُلوًا كبيرًا.

قال: [وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا؛ يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ]: وذلك -يا رعاكم الله- أن لفظ المعية لفظ مُطلق، يُحدده السياق والإضافات والقرائن، فتارة يكون لفظ المعية دالًا على الحُلول والاختلاط كقولك مثلًا: جعلت الماء مع اللبن، إذن هذه المعية معية اختلاط، أو تقول: محمد مع أصحابه. يعني مُختلط فيهم، وتارة تدل المعية على النصر والتأييد، كأن يقول شخص لآخر: اذهب وأنا معك. يُريد بذلك تأييده، أو يراه واقعًا في بئر مثلًا أو حُفرة، فيقول: لا تخف أنا معك. مع أنه ليس معه في الحُفرة، وإنما يعني: أُساعدك وأُعينك، وتارة تكون بمعنى التهديد والوعيد، كأن يقول الشرطي للجاني: اذهب وأنا معك، فيكون لها معنى آخر، وأحيانًا تكون معية حُكمية كأن يقول الرجل في المشرق عن امرأته التي في المغرب: زوجتي معي. يعني في عصمتي، لا زالت في عِصمة النكاح وعقد النكاح؛ فتبين بذلك أن لفظ المعية لفظ يدل على مُطلق المقارنة والمصاحبة، والذي يُحدد نوعه هي الإضافات والقرائن والسياق، فكونه سبحانه أثبت لنفسه المعية؛ لا يعني حملها على أحد المعاني وهو الحُلول والاختلاط، وإنما يدل على معية العلم، والمعية بجميع صفات الرُبوبية من السمع والبصر والعلم والقُدرة، والإحاطة إلى غير ذلك، كما أنه مر بنا أن من المعية ما تكون معية خاصة، وهي معيته للمؤمنين بالنصر والتأييد والتثبيت إلى غير ذلك.

واستدل الشيخ على اجتماع العُلو والمعية بآية جمعت بين العُلو والمعية وهي آية سورة الحديد: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد: 4]: فجملة {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} تدل على العلو.

ثم قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [الحديد: 4]: هذه الجُملة تدل على المعية، { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }: إذن لا تعارض بين عُلوه ومعيته، فهو

سبحانه وتعالى عليٌّ في دُنوه قريب في عُلوه، لا تعارض بينهما، بل إننا نستطيع أن نقول أن لا تعارض حتى بين المخلوقات بين العُلو والمعية، أليس مثلًا قائد الطائرة يكون في أجواز الفضاء ويتكلم مع بُرج المراقبة كأنما هو معهم، لا بل إنهم يذهبون إلى القمر وربما كواكب أُخرى، ويقع اتصالات مع المركز الذي يكون في الأرض ويرون صورهم ويسمعون أصواتهم، فإذا كان هذا مُتحقق في المخلوقات فيما بينها بشكل من الأشكال فلئن يكون في حق الخالق من باب أولى؛ ففيما الاستبعاد؟!.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: [وَهُوَ مَعَكُمْ] أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ ؛ بَلْ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ، وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ مُطَّلِعٌ إلَيْهِمْ؛ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.**

في هذه القطعة كشف الشيخ شُبهة من الشُبهات، وهو توهم بعض الناس أن المعية تقتضي الحُلول والاختلاط، فبين أن

هذا الوهم باطل من عدة أوجه:

الوجه الأول: أنه خلاف اللغة، قال: [فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ] ولاحظوا دقة التعبير، ما قال: لا تدل عليه اللغة. وذلك لأن إحدى دلالات المعية تدل على الحُلول والاختلاط كقولنا جعلت الماء مع اللبن، لكن قال: لا تُوجبه، بمعنى أنه لا تُعينه دون غيره وتنفي ما سواه، فهذا لا تُوجبه اللغة، بل اللغة تُوجب عدة معاني هذا أحدها.فهذا من حيث اللغة.

الوجه الثاني: خِلاف الإجماع، فجميع سلف الأُمة ما قال قائل منهم أن معية الله تقتضي الحُلول، بل هم على النقيض من ذلك، حتى إنهم فسروا آية سورة المجادلة بأنهم معية العلم، قال الإمام أحمد – رحمه الله–: ابتدأ الآية بالعلم، وختمها بالعلم، في قول الله تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7] فاستنبط الإمام أحمد من هذا أن هذه المعية المذكورة في أثناء الآية في قوله: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} أنها معية العلم.

إذن الدليل الثاني: إجماع السلف على نفي هذا الوهم وأنه لا يدل على معية الحلول والاختلاط.

الوجه الثالث: خلاف الفطرة ، فجميع الخلق ذوو الفطر السليمة السوية مفطرون عل الاعتقاد بعُلو الله، ويأبون بفطرهم أن يكون الله حال بينهم، ما تجد صاحب فطرة سوية يعتقد أن الله تعالى مُمازج للمخلوقات سبحانه وتعالى، وإنما يقول بهذه المقالات الشُذاذ أصحاب العقول المنحرفة والنُفوس المريضة من أصحاب وحدة الوجود والاتحاد الخاص والعام

وغير ذلك، هم الذين يقولون بهذه المقالات الضالة، أما أصحاب الفطر السوية فسل أي شيخ أو أي عجوز أو أي طفل: أين الله؟ تجده يُجيبك: أنه في السماء. ولا يقبل أن يعتقد أو يتصور بأن الله تحويه الأماكن والمواضع المشاهدة.

كذلك أيضًا ذكر دليلًا حسيًا يُبين أنه لا تلازم، فضرب مثلًا بالقمر، **قال: [بَلْ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ]** صحيح القمر بالنسبة لبقية الكواكب والأجرام السماوية يُعتبر من أصغر المخلوقات، تابع صغير للأرض.

قال: [هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ]: قال تعالى: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا} [نوح: 16].

قال: [وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ، وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ]: أليس أحدنا يقول: بت البارحة والقمر معي، أو: ما زلت أسير في الطريق والقمر معي. وأين القمر؟ في السماء، لا أحد يفهم من قوله: ما زلت أسير والقمر معي. أنه قد تأبط القمر، ومضى به، لا أحد يفهم هكذا، يعلم كل أحد أن قوله: ما زلت أسير والقمر معي، يعني: أن القمر في السماء لكن هذا نوع معية، لأن المعية كما أسلفنا تدل على مُطلق المقارنة والمصاحبة.

قال: [وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ مُطَّلِعٌ إلَيْهِمْ؛ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ]:

إذن هو سبحانه لا تنافي بين عُلوه ومعيته، فهو في عُلوه يعلم ما الخلق عاملون.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ؛ مِنْ: أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا؛ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: {فِي السَّمَاءِ} . أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ؛ إلاَّ بِإِذْنِهِ، وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ.**

نبه هنا على أمر مهم ينبغي أن تستصحبه يا طالب العلم: أن كل ما أخبر الله تعالى عنه في كتابه أنه حق على حقيقته، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: 122]، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87]، لا أحد، فيجب أن يمتلئ قلبك يقينًا بأن خبر الله وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم حق على حقيقته، لا يحتاج إلى استدراك، ولا إلى تعديل، ولا إلى تزويق فالله تعالى غني عن هذه التدخلات التي يُمارسها بعض المتكلمين، ويقولون: ليس مُراده كذا وإنما مُراده كذا وكذا؟. سبحانه الله!! أأنتم أعلم بالله من الله؟!، أأنتم أصدق من الله قِيلًا؟!، أأنتم أحسن من الله حديثًا؟! – سبحان الله– كيف تجرؤون على أن تستدركوا على الله كلامه؟! الله أعلم بما قال: فإذا أخبر الله تعالى بأنه عليّ؛ فعلوه حقيقي، وإذا أخبر الله تعالى بأنه معنا، فمعيته حقيقية لائقة بجلاله، ولكن كما قال الشيخ –رحمه الله–: **يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ**. من جنس ماذا؟ من جنس ما سبق، أن يظن ظان أن المعية تقتضي الحُلول والاختلاط، وأن يظن ظان أن معنى قوله: أنه [فِي السَّمَاءِ] أن السماء تحويه تُظله أو تُقله، قد يتبادر إلى بعض العقول القاصرة أن قول الله تعالى:

{أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ} أن السماء تُقله يعني تحمله، أو تُظله يعني فوقه، فهذا باطل، هذا وهم، وليس من دلالة اللفظ أصلًا، لماذا؟ قال: هذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان. هذه واحدة. فجميع أهل العلم والإيمان لم يقل قائل منهم بأن مُقتضى أنه في السماء أن السماء تُظله أو تُقله، ما قال أحدٌ بذلك، لم؟ قال: فإن الله قد وسع كُرسيه السماوات والأرض، إذا كان الله تعالى قد وسع كُرسيه السماوات والأرض، ويُمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، { وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ } [الروم: 25] علام تدل هذه النصوص؟ تدل على أن السماوات والأرض ذرة بالنسبة إلى الرب سبحانه وتعالى، لا يُمكن أن تحويه أو تُقله أو تُظله، وقد جاء في الحديث: [ما السماوات السبع، والأرضون السبع في كف الرحمن إلاكخردلة في كف أحدكم] فكيف يتوهم مُتوهم هذا المعنى الفاسد؟ إذن علينا أن نعتقد بأن ما أخبر الله به أو أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم أنه حق على حقيقته وأن نصون إثبات الحقيقة من الظنون الكاذبة والأوهام الفاسدة.

وقد تقدم معنا أن المراد بقوله: [فِي السَّمَاءِ] أن لها توجيهان:

التوجيه الأول: أن نقول: أن [في] بمعني: على ، وهذا سائغ في لغة العرب، التناوب بين حُروف الجر، فمعنى قوله:

{فِي السَّمَاءِ} أي: على السماء، وعلى هذا فالسماء ها هنا هي المبنية، السبع الطباق، { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} فإذا فسرنا [في] بـ [على] فالمقصود إذن بالسماء: السبع الطباق، السماوات المبنية، ونظير هذا في كتاب الله كثير قال تعالى: {فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ} يعني على الأرض، { وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ } أي: على جُذوع النخل، { فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا} أي: على مراكبها.

التوجيه الثاني: أن نقول: أن [في] على وجهها للظرفية ، لكن حينئذٍ ينبغي أن تكون السماء بمعنى العلو، فيكون معنى {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ}يعني أأمنتم من في جهة العُلو؟!، ولا شك أن الله تعالى في العُلو المطلق، ليس فوقه شيء، فبذلك يزول هذا الوهم.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ: الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: 186] .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ].

وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ، لَا يُنَافِي مَا نَذْكُرُ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

أضاف الشيخ ها هنا أن صفة القُرب له سبحانه وتعالى لا تتنافى أيضًا مع عُلوه، فإنه سبحانه وتعالى قريب من خلقه بسمعه وبصره وبملائكته أيضًا، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مرة مع أصحابه فصعدوا شرفًا فضجوا بالتكبير والدعاء، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: [يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم] يعني أبقوا على أنفسكم ولا تُعنتوا أنفسكم، [فإنكم لا تدعون أصم ولا غائب، وإنما تدعون سميعًا بصيرًا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عُنق راحلته] ليس المقصود أن الله سبحانه بين راكب الراحلة وعُنق الراحلة فتعالى سبحانه، هو سبحانه فوق سماواته، لكنه قريب بسمعه وبصره وعلمه وبملائكته.

وسألوه مرة فقالوا: يا رسول الله: [أقريب ربنا فنُناجيه أم بعيد فنُناديه] فأنزل الله تعالى: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة: 186] إذن لا حاجة أن يصرخ الإنسان بالدعاء ظنًا منه أنه يُسمع الله، فالله تعالى يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وحكى الله عن بعض أنبيائه { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا } [مريم: 3] وسمعه، { ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } [الأعراف: 55] فالله تعالى لا تخفى عليه خافية.

ثم ختم الشيخ –رحمه الله– هذا المبحث بأن جميع ما ذُكر في الكتاب والسنة من إثبات القُرب وإثبات المعية لا يُنافي ما ذُكر من إثبات العلو والفوقية لا تنافي بينهما، فالله تعالى ليس كمثله شيء، يعني كأنما الشيخ يقول: إذ أعيى فهمك ولم يتسع عقلك للجمع بين هذا وهذا فتذكر أن الله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } في جميع نُعوته، فهو سبحانه عليٌّ من دُنوه، قريب في عُلوه.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

والله أعلم.

الدرس (26)

فصلٌ

القرآن كلام الله

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ الإيمانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لاَ كَلامَ غَيْرِهِ. وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلامِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ؛ بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لاَ إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا. وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلاَ الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛

فهذه المسألة التي بين أيدينا مسألةٌ كبيرة شريفة تتعلق بكلام رب العالمين، وكان قد تقدم معنا إثبات كلام الرب – سبحانه وتعالى – عند الحديث عن سرد الآيات المتعلقة بالصفات الربانية، ثم الأحاديث المتعلقة بها كذلك، وبيّنا أن أهل السنة والجماعة يثبتون صفة الكلام لله عز وجل ، وأن الله تعالى يتكلم بكلامٍ حقيقي يُسمعه من يشاء من خلقه ، كما أسمع الأبوين في الجنة ، وكما يسمعه جبريل، وكما يسمعه عيسى يوم القيامة، وكما سمعه محمد صلى الله عليه وسلم وموسى، فالله تعالى يتكلم بكلامٍ حقيقي لا يشبه كلام المخلوقين من حروفٍ وأصوات، وفي هذه القطعة أراد المؤلف أن يتكلم بشكلٍ خاص عن مسألة القرآن ؛ فإن القرآن العظيم كلام الله، فالوصف الذي يُعرف به القرآن أولًا أنه كلام الله؛ فلهذا عقد هذا الفصل لتجلية الأمر في هذه المسألة التي حصل فيها اختلافٌ من قِبل أهل الأهواء والبدع ، ونجم ذلك الخلاف كما تعلمون في المحنة المشهورة **"محنة القول بخلق القرآن"**، وذلك أن من أصول المعتزلة أنهم لا يعتقدون أن لله سبحانه وتعالى صفات ثبوتية، وكان من ناتج ذلك ألا يثبتوا صفة الكلام لله تعالى؛ فإذا جُوبهوا بالآيات الدالة على إثبات أن القرآن كلام الله ، أو أن الله يتكلم قالوا: إن هذه الإضافة من إضافة المخلوق إلى خالقه لا من إضافة الصفة إلى المتصف بها؛ فزعموا أن القرآن كلام الله مثل عبد الله، وناقة الله، وبيت الله وما أشبه، وكان هذا سائرًا عندهم حتى تمكنوا من أحد خلفاء بني العباس : وهو المأمون بن هارون الرشيد – رحمه الله – ولبّسوا عليه حتى قال بقولهم ، ولما وَلي الخلافة مضى شطرٌ من خلافته لا يُحدث الناس بهذا الأمر حتى كانت سنة 218 للهجرة فحمل الناس على القول بخلق القرآن، واضطرهم إلى ذلك أشد الاضطرار حتى أن المعتزلة بسبب تمكنهم ، وتسيدهم في زمنه صاروا يمتحنون الناس ؛ فيعزلون عن الولايات الدينية من الإفتاء والتدريس والخطابة والإمامة وغير ذلك من لا يقول بقولهم ، ويؤتى بالمحدثين ويُمتحنون فمن أجاب تركوه ومن أبى حبسوه وعزروه، وتصدى لهذه المحنة إمام أهل السنة بحق: الإمام المبجل أحمد بن حنبل فقام لله قومةً صادقة، وأبى أن يوافقهم إلى ما ذهبوا إليه، ولم يكتب الله أن يلتقي بالمأمون رغم أنه حُمل إليه أسيرًا وكان قد دعا الله تعالى ألا يجمع بينه وبينه فحُمل إليه ؛ فمات المأمون وهو في الطريق، ثم إنه قام بين يدي المعتصم، ثم الواثق وكان يقول بين يديه: يا أمير المؤمنين ائتوني بشيءٍ من كتاب الله ، أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول به ؛ فينقطعون بين يديه، وناله –رحمه الله– في هذا من الأذى والحبس والجلد ما كان سببًا في رفعة شأنه، فإن الله تعالى إذا أراد للعبد أن يُمكّن ابتلاه فصبر في هذه المحنة حتى صار علمًا ، ومرجعًا لأهل السنة ، وعاد الأمر بحمد الله إلى نصابه في زمن المتوكل ، ورُفعت هذه المحنة التي ألمت بالأمة، واستقر بحمد الله ما عليه أهل السنة والجماعة سابقًا ولاحقًا في هذه العقيدة، وهو ما سطره الشيخ هاهنا " **وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ** " أما كونه من الإيمان بالله فلأن كلامه صفته، وأما تعلقه بالإيمان بالكتب فلأن القرآن أحد الكتب بل هو أعظم الكتب ؛ فلهذا قال " **وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ** "؛ لأنه كان قد قال في مستهل هذه الرسالة "**ومن الإيمان بالله :الإيمان بما وصف وسمى به نفسه في كتابه** " فأراد أن يبين أن هذه المسألة الشريفة لها تعلقات، تعلقٌ بالإيمان بالله وتعلقٌ بالإيمان بالكتب، ماذا؟ " **بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ** "،

هذه الجملة جملة محكمة قرآنية ودليلها من كتاب الله قول الله عز وجل: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: 6]ماذا نُسمعه؟ نأتي بقارئ ونقول اقرأ عليه القرآن فيصدق عليه أن هذا المقروء هو كلام الله، إذن القرآن كلام الله بنص كتاب الله، ومن السنة ما كان يفعله صلى الله عليه وسلم من عرض نفسه على القبائل في الموسم كان يقف على كل قبيلة ويقول: ألا رجلٍ يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي ، وإنما كان يبلغهم القرآن {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: 19] فالقرآن كلام الله وإضافته إلى الله إضافة الصفة إلى الموصوف.

قال: " مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ ": هذه الجملة تدل على وصفٍ وصف الله تعالى به كتابه في غير ما موضع قال الله تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [الشعراء: 193، 194]، وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: 1]،{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} [الدخان: 3]،{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ} [ص: 29]،{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ} [الحشر: 21]؛إذن هي جملة محكمة مستمدة من ناطق الكتاب " **مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ** "، وأما قول السلف "**غير مخلوق**" فإنه لا يمكن أن يكون وصف من أوصاف الله تعالى مخلوقًا؛ لأن ما قام في الخالق لا يمكن أن يكون مخلوقًا ؛ فالله سبحانه وتعالى ليس من أسمائه ولا من صفاته أن يكون مخلوقًا، وأرادوا بهذه الجملة الرد على المعتزلة الذين زعموا أن القرآن مخلوق، أرادوا بها الرد على المعتزلة في دعواهم أن القرآن مخلوق؛ إذ إن المعتزلة يستطيلون بالشبهات لا بحججٍ وبينات فيقول قائلهم: الله الخالق وما سواه مخلوق، الله خالق كل شيء. هل القرآن شيء؟ فيقول لهم المجيب: نعم شيء، فيقولون: إذن هو مخلوق؛ لأن الله خالق كل شيء، بمثل هذه الشبهات يُشوشون، مع أن شيء ربما أُطلق على الله نفسه – سبحانه – ألم يقل الله: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ} [الأنعام: 19]؛ فلازم كونه كذلك أن يكون مخلوقًا؛ **فكلامه سبحانه ليس شيئًا غيره، بل هو وصفٌ قائمٌ فيه**. والمضاف إلى الله تعالى نوعان:

– إما أن تكون عينًا قائمة بنفسها مستقلة فهي مخلوقة كقولنا: عبد الله، ناقة الله، بيت الله، "**عيسى عبد الله ورسوله هو كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** "، عيسى، وناقة صالح، والكعبة هذه أعيان يُتصور استقلالها ووجودها بنفسها فإضافتها إلى الله تعالى إضافة مخلوقٍ إلى خالقه من باب التشريف ، وعباد الرحمن إضافة تشريف ، وقد تكون الإضافة لا على سبيل التشريف؛ وإنما على سبيل الخلق المجرد.

–أما إذا كان ذاك المضاف إلى الله لا يُتصور قيامه بنفسه ؛ بل لا بد أن يقوم بغيره فحينئذٍ يكون صفة لله كقولنا: علم الله، سمع الله، قدرة الله، كلام الله، إذن هي صفته.

قال: "مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ ": هذه الجملة مما تواتر السلف – رحمهم الله – على إطلاقها على القرآن " **منه بدا**" أو "**منه بدأ**" إن قلنا: "منه بدا" بمعنى ظهر بمعنى أنه خرج من الله سبحانه وتعالى؛ لأنه كلامه على الصفة التي تليق به سبحانه من البدو، ولو قلنا: " **منه بدأ**" يعني أن الله تعالى ابتدأ به؛ فهو أول من تكلم به ، ثم بعد ذلك تلاه عباده من

بعده، ونزل به جبريل على قلب محمد ، وتلاه المؤمنون في مصاحفهم، فيكون ابتداؤه من الله عز وجل بمعنى : أنه هو المتكلم به ابتداءً، وعلى كلا المعنيين فالأمر دال على أنه صفته منه خرج سبحانه وتعالى.

قال: "وَإِلَيْهِ يَعُودُ ": هذه أيضًا قد بيّنا لكم آنفًا أنها تحتمل أحد معنيين لا تعارض بينهما:

–إما أن يكون العود هنا بمعنى النسبة ؛ كأن نقول مثلًا هذا الكتاب يعود إلى فلان ، هذا القلم يعود إلى فلان، هذا البيت يعود إلى فلان بمعنى: ينسب إليه وينمى إليه بمعنى العود والنسبة.

–وإما أن يكون المراد ما ورد في بعض الآثار من أن القرآن العظيم يُرفع في آخر الزمان من السطور ومن الصدور، وذلك –والله أعلم– حينما يهجر الناس العمل به فيُسرى به في ليلة فلا يبقى في صدور الناس ولا في مصاحفهم شيء من القرآن تكرمة له.

قال: " وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً ": هذه الجملة رد على أهل التأويل الذين يزعمون بأن القرآن كلام الله بمعنى المجاز لا بمعنى الكلام الحقيقي؛ لأن الكلام عند العرب هو الحرف والصوت معًا، لا يكون الشخص متكلمًا في لغة العرب إلا أن يصدر منه صوت مسموع هذا هو الكلام، فأراد الشيخ بهذا أن يرد على مزاعم الذين ادعوا أنهم يثبتون كلام الله ، وأن القرآن كلامه لكنهم يلتفون بطريقةٍ أخرى توافق ما قالت المعتزلة أعني بهم الأشاعرة، والكلابية، والماتريدية، والسالمية، وفرق متعددة من الصفاتية قالوا بالمعنى النفسي، قالوا: إن الكلام هو الكلام النفساني بمعنى أنه شيءٌ قائمٌ في نفس الله تعالى، فأما ما سمعه جبريل، وما سمعه الأبوان في الجنة، وما يسمعه أي أحد من خلقه؛ فإنما هو عبارة أو حكاية عن كلام الله، فيقصرون كلام الله على الكلام النفساني، على المعنى دون اللفظ؛ فلهذا قال الشيخ: " **وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً** " ما المانع أن يكون الله تكلم به، بل هذا هو ظاهر الكتاب، ومن قال بذلك فهو أسعد بالدليل {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ} [هود: 119]، {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: 52]،{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الشعراء: 10]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله يتكلم متى شاء بما شاء كيف شاء ، {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143]،{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164]؛ فكل هذا يدل على أن الله تعالى يتكلم حقيقة.

وليس معنى قولنا حقيقة أنه ككلام المخلوقين فكما نثبت لله ذاتًا لا تشبه الذوات نشبه لله صفات لا تشبه الصفات سواءً بسواء، فالقول في الصفات كالقول في الذات فمن أثبت لله ذاتًا لا تشبه الذوات ليس كمثله شيء فليثبت لله صفات لا تشبه الصفات، ما المشكلة؟، لكن أهل البدع بسبب ما استصحبوه من شبهاتٍ باطلة ومقدمات فاسدة صاروا يأتون بالمتناقضات ويفسدون الواضحات ويعكرونها كل هذا من شؤم اتباع المناهج الدخيلة، أما الصحابة والتابعون وتابعوهم الذين تلقوا من النبع المحمدي الصافي فإنهم بحمد الله لم يجدوا غضاضة ولا إشكال في كل ما أخبر الله به ورسوله.

قال: "وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ": هذه الإشارة للتحقيق أي القرآن المعروف الذي نحفظه ونكتبه ونسمعه.

قال: "وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لاَ كَلامَ غَيْرِهِ":

نعم كلام الله حقيقة كما تقدم لا كلام غيره أي لا كما يدعي المعتزلة ومن سار على طريقتهم أنه كلام جبريل أو كلام محمد حتى أنهم يشبهون مثلًا بمثل قول الله تعالى:{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [الحاقة: 40] فيقولون: أرأيتم قد أضاف الكلام تارة إلى محمد وتارة إلى جبريل، فنقول: لو أعطيتم الآية حقها لعلمتم أن هذا ضدكم لا لكم فإنه قد قال:{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [الحاقة: 40] في موضعين قال في سورة الحاقة: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الحاقة: 40 – 42] فالرسول في الحاقة من؟ محمد، وفي سورة التكوير قال: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} [التكوير: 19، 20] من؟ جبريل – عليه السلام – فلو كان القول هذا بمعنى أنه كلام أي منهما لم يصح أن يطلق المضاف إلى اثنين مختلفين، وإنما أراد الله تعالى أن يبين بأنه الناقل له؛ لأنه قال الرسول وما معنى الإتيان بكلمة رسول في هذا السياق إلا لبيان أنه ناقل فهو لا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل وأن جبريل قد قاله والصحابة –رضوان الله عليهم– سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قاله؛ فهذا لا ينافي أن يكون كلام الله قاله وكلام الله حقيقة لا كلام غيره.

قال:"وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلاَمِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ ": في هذا إشارة إلى مذهبين شهيرين:

مذهب الكُلابية المنسوبون إلى عبد الله بن سعيد بن كلاب، وكان عبد الله بن سعيد بن كلاب – رحمه الله وعفا عنه – من المتكلمين القدامى الذين ينافحون عن مذهب السنة، لكنه لم يتقن عبارات أهل السنة تمامًا رغم تعظيمه للأئمة المتقدمين وخاض في علم الكلام على طريقة المعتزلة فأصاب وأخطأ ؛ فجاء مذهبه هجينًا بين السنة المحضة وبين مذهب المعتزلة، فلم يكن كلامه كلامًا نقيًّا مصفى فشابه ما شابه، ونظيره أناس آخرون سلكوا هذا المسلك يُقال عن جملتهم الصفاتية، لماذا سُموا الصفاتية؟ لأن الأصل عندهم إثبات الصفات خلافًا للمعتزلة كأبي العباسي القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي وهم من أهل الفضل ولكنهم أخطئوا، وسار على طريقة ابن كلاب الأشعري في هذا الباب وفي غيره ، وكثيرًا ما يوافق الأشعري ابن كُلاب لكونه متكلمًا وافقه في طريقته وأسلوبه.

الكُلابية ماذا تقول عن القرآن؟ تقول: هو المعنى القديم القائم في نفسه والحروف والأصوات حكاية عنه.

وماذا تقول الأشاعرة؟ تقول: كلام الله هو المعنى القديم القائم في نفسه والحروف والأصوات عبارة عن كلام الله.

وقد يبدو أن لا فرق بين أن يُقال حكاية أو عبارة المؤدى واحد كلهم متفقون أن الحروف والأصوات المسموعة هذه ليست كلام الله وإنما كلام الله هو المعنى فقط، فإذا قيل لهم: ما الذي سمعه الأبوان في الجنة {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} [الأعراف: 22]، هذا الذي قرع سمع آدم وحواء كلام من؟ قالوا: لا هذه أصوات خلقها الله في جو الجنة لتعبر عن الكلام القائم في نفسه لا أنها كلام الله، وما هذا الذي سمعه موسى عند الشجرة؟{إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص: 30] أليس كلام الله؟ قالوا: لا هذه حروف وأصوات خلقها الله في الشجرة لتعبر أو لتحكي الكلام النفسي القائم فيه سبحانه ، ولو حلف حالف بين الركن والمقام أن هذا ما

دار في خلد أحدٍ من الصحابة ما حنث، فإن هذا تكلف وتعسف اضطرهم إليه ما استصحبوه من المبادئ الفاسدة وهو مبدأ اعتقادهم بأن مقتضى نفي حلول الحوادث عن الله يقتضي إنكار الصفات الفعلية والحقيقة أن ربنا سبحانه لم يزل فعالًا ولم يزل متكلمًا؛ فجنس الكلام وجنس الفعل ذاتي وآحاده وأفراده متجددة؛ فلهذا أهل السنة والجماعة يقولون كلام الله قديم النوع حادث الآحاد، قديم النوع؛ لأنه لم يزل سبحانه وتعالى متكلمًا؛ لأنه لم يزل فعالًا وفعله سبحانه يكون بم؟ بأن يقول للشيء كن فيكون، فهذا الذي أدى بهؤلاء إلى ولوج هذه المضائق وموافقة أهل البدع؛ ولهذا قال من قال من محققيهم: إنه لا فرق بين قولنا في صفة الكلام وقول المعتزلة؛ لأنه في النهاية يتضمن إنكار أن يكون الله تعالى قد تكلم بكلامٍ حقيقي، ويقتضي ألا يكون القرآن كلام الله حقيقة.

ثم إن الشيخ – رحمه الله – رفع إشكالًا يطرأ على العقول، فقد يتصور بعض الناس أننا إذا قلنا:إن القرآن كلام الله غير مخلوق أن المصحف غير مخلوق أو أن الكاسيت (الشريط) الذي فيه تسجيل قرآن غير مخلوق ، أو أن ما يتلفظ به الإنسان ويحرك به شفتيه ولسانه وحنجرته غير مخلوق، لا لا ، يجب أن نفرق بين مقامين بين التلاوة والمتلو، القراءة والمقروء، الكتابة والمكتوب، التسجيل والمسجَل، السماع والمسموع، فالتلاوة فعل العبد والمتلو كلام الرب، والكتابة فعل العبد والمكتوب كلام الرب، والتسجيل فعل العبد والمسجَل كلام الرب، السماع فعل العبد والمسموع كلام الرب، أليس الله تعالى قد قال:{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: 6] إذن ما هو المسموع؟ كلام الله ولا يعني ذلك أن حركة العبد بشفتيه وتحريكه للسانه أنه غير مخلوق، ولا يعني ذلك أن الورق والجلد والحبر غير مخلوق، لا هذه مخلوقات قطعًا لكن المضمون والمحتوى يصدق عليه أنه كلام الله.وشاهد ذلك يرعاكم الله أن أحدًا لو أنشد قصيدة من القصائد المشهورة فقام وقال مثلًا:

يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِي

وسرد هذه المعلقة فقال قائل هذا الكلام من ؟ لقلنا كلام عنترة لم نقل كلام هذا المنشد؛ لأن الكلام إنما يُضاف إلى من قاله مبتدئًا وكذا لو اختطب إنسان خطبة فقال:

أيها الناس من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آتٍ آت ليل داج وسماء ذات أبراج فقال قائل" خطبة من هذه؟لقلنا خطبة قس بن ساعدة الإيادي، وهكذا قل في سائر الكلام وهذا معنى ما قاله الشيخ قال " **بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ**": أي قرؤوا القرآن.

قال:" أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً ": هو كلام الله وإن كان مكتوبًا وإن كان مسموعًا وإن كان مسجلًا.

قال:" فَإِنَّ الْكَلامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لاَ إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا ": فإضافته حقيقة هي إلى من قاله مبتدئًا والله هو الذي قاله ابتداءً، منه بدأ.

قال:" وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ ": لأن الكلام هو مجموع الأمرين معًا.

قال:" لَيْسَ كَلامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلاَ الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ ": هذا ما قرره أهل السنة والجماعة في هذا المقام بكلامٍ بين حتى أن الإمام أحمد –رحمه الله– أنكر على الواقفة وأنكر على اللفظية، وحمل الجميع على القول بما قاله السلف المتقدمون، والواقفة: هم الذين يبدون التوقف في هذه المسألة ويُظهرون ورعًا باردًا فذمهم الإمام أحمد؛ لأن هذه الأمور من القطعيات التي لا يجوز التوقف فيها، بل يجب القطع فيها ولو قال الإنسان أنه متوقف في مسألة الملائكة يثبت أو ينفي هل يُذم أو يحمد؟ يذم ذمًا بليغًا، بل يُقال هذا كفر ، فكذلك هذه المسألة لا يجوز التوقف فيها وادعاء الورع؛ فلذلك ذم الواقفة،كما أنه أيضًا – رحمه الله – تكلم عن اللفظية : وهي طائفة نشأت في زمنه في معترك هذه الأحداث والتجاذبات فقال كلمة مشهورة قال: "من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع"، لماذا؟ لأن كلمة لفظ موهمة تحتمل أحد معنيين تحتمل الملفوظ وتحتمل التلفظ، فإذا قال قائل لفظي بالقرآن مخلوق كأنه بذلك يوافق المعتزلة في أن هذا المقروء وهذا الملفوظ مخلوق؛ فلهذا قال فهو جهمي، وتعرفون أن السلف يطلقون لفظة التجهم على الجهمية والمعتزلة بل وأحيانًا على بعض الصفاتية لكنه تجهم نسبي، والثانية من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع؛ لأن هذا ليس من تعبير أهل السنة ، فقد يتوهم متوهم أن حركة الشفتين ومثلًا الحبر والمداد والورق والجلد غير مخلوق، فهذا ليس من ألفاظ أهل السنة، فعلينا أن نميز في هذا المقام ونتبين بين اللفظ والملفوظ والتلاوة والمتلو والكتابة والمكتوب ، وهي مما امتُحن الناس فيه ووقع بسبب ذلك التباس وربما ظلم واتُّهم بعض الأئمة بما ليس فيه م في هذا الأمر، فينبغي أن تستقر الأمور على هذا الذي عليه السلف وهذا الكلام بحمد الله كلام أهل السنة قاطبة وللإمام أبي حنيفة – رحمه الله – كلام حسن جيد في الفقه الأكبر موافق لهذا الذي قرره الأئمة، هذا ما يتعلق بمسألة القرآن ثم انتقل بعد ذلك إلى مسألة أخرى.

الدرس (27)

رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: فصلٌ: وَقَد دَّخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلاَئِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى** . لعلكم تلاحظون أن الشيخ – رحمه الله – أعاد ذكر هذه المسألة وهي مسألة الرؤية، وكان قد ذكرها فيما مضى مرتين عند ذكر الآيات القرآنية، ثم عند ذكر الأحاديث النبوية، ثم أعاد ذكرها مرة ثالثة، وهذا شهيد على أن الشيخ – رحمه الله – كتب هذه الرسالة على سجيته بمعنى أنه لم يعد هذه الرسالة بحثًا كما يفعل الباحثون ويضعون لها أبوابًا وفصولًا، وإنما امتشق القلم ووضع سنه على القرطاس بعد صلاة العصر أو بين الظهر والعصر وكتب هذه الرسالة، فربما حصل عنده انتقال ذهني فكرر المسألة أو أراد تأكيدها مثلًا بخلاف كتابته للتد مرية فإنه في **"التدمرية"** يظهر فيها

الأثر الفني في الترتيب والكتابة، ومعظم ما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية كان يكتبه على سجيته يغترف من بحر طامن ويصب فيه من معارفه وعلومه فهذه المسألة سبق تقريرها أيضًا.

قال: " وَقَد دَّخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلاَئِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ ": هذه المرة علقها بأربعة أركان وهي مسألة الرؤية، الإيمان به ا واضح، تعلُق مسألة الرؤية – رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة – بالله؛ لأنه يتعلق بتجليه للمؤمنين يوم القيامة فصار ذلك مرتبطًا بالإيمان به، وبكتبه؛ لأن ذكر هذه المسألة موجود في كتب الله تعالى ، موجود في القرآن العظيم وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: " وَبِمَلاَئِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ": مسألة الرؤية ما وجه تعلقها بملائكته وبرسله؟ لا يظهر لي مناسبة ظاهرة وقريبة سوى العمومات من أن الملائكة هم المبلغون عن ربهم إلى أنبيائه، وأما برسله؛ فلأن رسل الله أخبروا بهذه المسألة.

قال: " الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ ": إنما المقصود النسبة إلى الرؤية العينية نسبة للعين، واعلموا –يرعاكم الله– **أن لفظ نظر في كلام العرب له ثلاثة استعمالات:**

- إما أن يتعدى بـ (إلى)، فإنه حينئذٍ يدل على الرؤية بالأبصار.
- وإما أن يتعدى بـ (الباء) فحينئذٍ يدل على التفكر والاعتبار.
- وإما لا يتعدى بحرفٍ من حروف الجر فيكون دالًا على التريث والانتظار.

فتقول مثلًا: نظرت في الأمر علام تدل؟ تدل على التفكر والاعتبار، تقول: نظرت الأمر يعني انتظرته، تقول: نظرت إلى الشيء بمعنى بعيني رأسي، وعلى هذا قول الله تعالى {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22، 23]فلما تعدت نظر بـ إلى صارت دالة على الرؤية بالأبصار وهي المعاينة.

قال: " الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ ": أي من المعاينة بالأبصار أي أنها رؤية حقيقية لا تخيلية.

قال: "كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ ": بهذا نطق من لا ينطق عن الهوى : (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته)، وذكر أحاديث بمثل هذا التحقيق جمعها أبو عثمان الصابوني –رحمه الله –في عقيدة السلف وأصحاب الحديث، وقد بلغت مبلغ التواتر وذكر هذا ابن حجر في المتواتر حين قال:

مما تواتر حديث من كذب ومن بنى لله بيتًا واقترب

ورؤية شفاعة والحوض ومسح خفين وهذه بعض

قال: "كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ ": أيُ بيان أوضح من هذا؛ ولهذا جاء في أثر "على مثلها فاشهد أو دع"، دائمًا إذا أُريد التمثيل بأمرٍ محقق مقطوع به ماذا يُقال كالشمس في رابعة النهار هذه لا تخفى على أحد رؤية الشمس في رابعة النهار.

قال: " وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ ": البدر ليلة أربعة عشر أو خمسة عشر اكتمل نوره، وتمت استدارته يصبح من البيان بمكان لا يقع ضيم في رؤيته أي مذلة ، ولا يقع تضام أي ازدحام في رؤيته ، فهذه التأكيدات النبوية مسبوقة بالآيات القرآنية لا تبقي ولا تذر أدنى شك لدى مؤمن بأن هذه الرؤية بإذن الله وفضله ومنه متحققة للمؤمنين.

قال: " يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهَ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ": هذا موضع والمقصود بعرصات القيامة: عرصات جمع عرصة وهي مواقف الحساب ، وهي الأرض المبدلة التي يبعث عليها الناس يوم القيامة، وقد جاء ذلك مفصلًا في حديث أبي سعيد وفي حديث أبي هريرة كما في **"صحيح البخاري"** وغيرهما أن الله تعالى يتجلى لهم ويخاطبهم ويكلمهم في حديثٍ طويل.

قال: " ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ": {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: 23، 35] وهو أعظم نعيم يراه أهل الجنة أن يروا ربهم سبحانه وتعالى فيتنعمون برؤيته.

قال: " كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى ": نعم أي على كيفية لا يعلمها إلاه سبحانه ، وقد مر بنا أن أهل البدع ردوا هذا الأمر وشرِقوا به وزعموا بناءً على أصولهم الفاسدة إنكار الرؤية وقالوا: إنه لا بد من التناسب بين الرائي والمرئي ولا تناسب بين الخالق والمخلوق وبالتالي لا يمكن رؤية الباري بمثل هذه العلل أو هذه التعليلات العليلة يهدمون النصوص وينكرون المعلوم بالضرورة فأين يذهبون؟ وماذا يصنعون بآي الكتاب والسنة المتواترة؟ ! هذه لا تُواجه بمثل هذه التعليلات،الله تعالى قادر على أن يريهم نفسه سبحانه، ولو لم يكن هناك تناسب، وها نحن في هذه الدنيا نرى أشياء ليست من جنسنا أليس نرى الشمس والقمر ! وليسوا من جنسنا فهذه تعليلات باردة، كما أنهم أيضًا ربما ادعوا بدعاوى أسقط منها كقولهم مثلًا:إنه يلزم لرؤية الله أن يكون في جهة والجهة منفية عن الله – سبحان الله – هذا من الاعتضاد بالمذهب الضعيف بدليلٍ ضعيف أو باطل، وذلك أننا نقول نعم الله تعالى يُرى من جهة العلو، ما المانع؟ هم ينكرون العلو والعجب أن الأشاعرة لما كان مذهبهم ملفقًا هجينًا بين المعتزلة وأهل السنة ورأوا أهل السنة مجمعين على إثبات الرؤية قالوا يُرى لا في جهة – سبحان الله –كيف يُرى لا في جهة؟ هذا من التناقض الذي لا تحتمله العقول، بل يُرى ربنا – سبحانه وتعالى – من جهة العلو؛ ولهذا جاء في بعض ألفاظ الأحاديث فيُشرف عليهم من فوقهم فيرونه – سبحانه وبحمده – ؛ لهذا فالواجب علينا أن نثبت ما أثبت الله لنفسه وما أثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم.

كما أنهم حاولوا أن يتشبثوا بأدلة أثرية فقالوا: ها قد قال الله تعالى {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} [الأنعام: 103] فهي دليل على عدم إمكانية الرؤية، **ولأهل السنة عن هذا جوابان:**

الجواب الأول: جواب عائشة –رضي الله عنها– لا تدركه الأبصار أي في الدنيا.

الجواب الآخر: لأهل السنة لا تدركه الأبصار بمعنى لا تحيط به؛ لأن الإدراك غير الرؤية، فقد ترى ما لا تدرك، ألسنا نرى الشمس ولا ندركها !، ألسنا نرى القمر ولا ندركه !، ألسنا نرى الجبل الأشم ولا ندركه ! أي لا نحيط بتفاصيله

هذا هو الواقع؛ ولهذا أثبت الله سبحانه وتعالى رؤية لم يصاحبها إدراك فقال في قصة أصحاب موسى:{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)} [الشعراء: 61، 62]، إذن حصلت الرؤية هنا ولم يحصل إدراك فهذا الجواب عن شبهتهم هذه، كذلك أيضًا استدلوا بقول موسى – عليه السلام – حين قال لربه:{رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف: 143] فقال الله تعالى:{لَنْ تَرَانِي} [الأعراف: 143] قالوا: هذا دليل على نفي الرؤية، والجواب عن هذا أن يُقال أن قوله تعالى لموسى:{لَنْ تَرَانِي} [الأعراف: 143]أي لن تراني في الدنيا؛ لأنك لا تطيق ولا تحتمل ذلك، و"لن" لا تُفيد النفي المؤبد دائمًا قد تدل أحيانًا على النفي المؤبد لكنها ليست قطعيًا تدل على النفي المؤبد ولهذا ابن مالك يقول:

ومن رأى النفي بلن مؤبدًا فقوله اردد وسواه اعضدا

فلهذا قال الله لموسى:{لَنْ تَرَانِي} [الأعراف: 143]، فتأملوا – يرعاكم الله –أن موسى كليم الرحمن لا يمكن أن يبلغ عبد هذه المنزلة ويسأل الله أمرًا ممتنعًا، ولو كان سأل الله تعالى ما لا ينبغي له أن يسأله لعاتبه الله كما عَتِب على نوح، نوح لما قال:{إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} [هود: 45] عتب الله عليه قال:{إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [هود: 46]، لكن موسى لما قال:{رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف: 143]، قال تعالى: {لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ} [الأعراف: 143]، فأحاله على ممكن ولم يعتب عليه لشوقه وطلبه رؤيته فإذا ضممنا إلى هذا ما صح من أحاديث وما ثبت في كتاب الله لم يبق شائبة شك في أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة رؤية حقيقية عيانية بأبصارهم لا شك في ذلك.

وبهذا يكون قد تم الكلام على ما يتعلق بأسماء الله تعالى وصفاته فيما قرره الشيخ في هذه الورقات، ولا ريب أن في هذا إشارة لهذا الباب الشريف وينبغي لكل طالب علم أن يقرأ في كتب السلف المتقدمين ليقف بنفسه على قوتهم في التحقيق، وأن من ادعى عليهم دعاوى باطلة وزعم أنهم يؤمنون إيمانًا إجماليًا أنه في الحقيقة مجازف ويقول عليهم بغير علم.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: فصلٌ: وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ،وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ. فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَن رَّبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟وَمَن نَّبِيُّك؟**

فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيَقُولُ الْمؤْمِنُ :رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلاَمُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم نَبِيِّي .وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إلاَّ الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ.

هذا شروعٌ من المؤلف في بيان ركنٍ عظيم من أركان الإيمان ألا وهو الإيمان بالمعاد، الإيمان باليوم الآخر، ويجب أن يُعلم أنه ما من رسالةٍ من الرسالات السماوية إلا وتضمنت ثلاثة أمور: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح، والدليل على ذلك قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَعَمِلَ صَالِحًا} [البقرة: 62] فلا يمكن أن تأتي رسالةٌ من عند الله عز وجل ليس فيها ذكر المعاد، والإيمان باليوم الآخر من أعظم أصول الإيمان بل إنه من الأمور التي كان إنكارها سببًا لتكفير المشركين، {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [التغابن: 7]، فكان مشركو العرب عامة ومشركو قريش خاصة يستعظمون هذا الأمر ويقول قائلهم: أرحامٌ تدفع، وأرضٌ تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر.

فالناس في مسألة المبدأ والمعاد ينقسمون أقسامًا، منهم من أثبت المبدأ والمعاد، ومنهم من أنكر المبدأ والمعاد، ومنهم من أثبت المبدأ وأنكر المعاد، كيف ذلك؟

- أما أهل الملل السماوية الذي ينمون إلى شريعةٍ من عند الله وينتسبون إلى نبي من الأنبياء فإنهم يثبتون المبدأ والمعاد أي يقرون بأن الله خالقهم ويقرون بأن إيابهم إليه سبحانه، وأنه لا بد من يومٍ يُجازى المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، هكذا يعتقد جميع أصحاب الرسالات السماوية من المسلمين واليهود والنصارى.
- على النقيض منهم تمامًا الفلاسفة الدهرية الذين يقولون بقدم العالم وخلود العالم، يقولون بقدم العالم فيزعمون أن العالم متناهي في القِدم ليس له أول، وأنه مستمرٌ دائمٌ لا يزول ليس له آخر، ولا شك أن هذا كفرٌ صريح.
- وهناك طريقٌ ثالث وهو ما عليه مشركو العرب وهو إثبات المبدأ فهم مقرون بأن الله تعالى هو الذي خلقهم {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان: 25]{لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} [الزخرف: 9] لكنهم ينكرون المعاد حتى إن أحدهم - أُبي بن خلف - يأتي بعظم الرميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيفته ويذروه ويقول: أتزعم يا محمد أن الله يحيي هذا بعد أن صار رميمًا ويُنزل الله تعالى فيه: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس: 78، 79]. فهذه طرائق الناس حيال هذا الأمر ولا أعلم أحدًا عكس بمعنى أنه أنكر المبدأ وأقر بالمعاد.

وأمر الإيمان باليوم الآخر يفخمه الله تعالى ويعظمه ويقرنه بالإيمان به في غير ما موضع في كتابه ، فمن شواهد ذلك قوله تعالى ما تلونا آنفًا: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [البقرة: 177] ومن شواهد ذلك قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} [الأحزاب: 21]، فالإيمان باليوم الآخر من أعظم أصول الإيمان ولا يمكن أن يتم إيمان دون الإيمان بالمعاد.

والإيمان باليوم الآخر يتضمن عدة أشياء ذكر الشيخ هاهنا:

أولها وهو: الإيمان بما يكون بعد الموت، أي عقيب الموت وهو ما يقع في القبر.

الثاني: الإيمان بالبعث وهي القيامة الكبرى.

الثالث: الإيمان بالحساب، أي محاسبة الله للخلائق.

الرابع: الإيمان بالجزاء، وهما الجنة أو النار، كما سيأتي تفصيله.

هذه المحطات الأربع تنتظم أمر الإيمان باليوم الآخر.

فقال الشيخ هاهنا "**وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ**" إذن "من" هنا للتبعيض، ولم سُمي اليوم الآخر بهذا الاسم؟ لتأخره عن الدنيا واعلموا – يرعاكم الله – أن له أسماء عدة حتى ذكر القرطبي نحوًا من ثمانين اسمًا، وذكر ابن كثير أربعين اسمًا من أسماء اليوم الآخر والقيامة: الصاخة، والواقعة، والقارعة، والآزفة، ويوم التغابن، ويوم الدين، أشياء كثيرة، واعلموا أيضًا أن هذه الأسماء أعلامٌ وأوصاف كما نقول في أسماء ربنا عز وجل ، أو أسماء نبيه صلى الله عليه وسلم ، أو أسماء القرآن أنها أعلام وأوصاف، هي أيضًا هاهنا أعلام وأوصاف بمعنى أنها علم على ذلك اليوم ووصف له، فالصاخة : هي التي تصخ الآذان بصوتها، والقارعة: هي التي تقرع القلوب، والآزفة :لقرب حصولها وهكذا، فأسماء اليوم الآخر دالة على معانٍ معينة؛ ولذلك كثرت أسماؤه جدًا، من أسمائه اليوم الآخر ولعله أشهرها ، وعرفه الشيخ بقوله: " **الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ** ": إذن هذا يدخل في الإيمان باليوم الآخر، وهاهنا فائدة "أن ما يتضمنه اليوم الآخر يبتدئ من حين مفارقة الروح للبدن" وهذا يدخل في الإيمان باليوم الآخر، **وهذه المرحلة تتضمن أمرين:** فتنة القبر، وعذاب القبر ونعيمه.

فأما فتنة القبر فالمراد بها سؤال الملكين للمقبور عن ثلاث مسائل: عن ربه، ودينه، ونبيه، والمراد بالفتنة الاختبار من قولهم: "فتن الصائغ الذهب" أي إذا أدخل الذهب المشوب في أتون النار فسقط ما شابه هـمن عوالق؛ لهذا سُميت الفتنة فتنة {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: 3]، فسُميت فتنة القبر لأنها تهز هذا المقبور هزًّا، وتستخرج خبيئة قلبه فيتبين أمؤمن هو أم مرتاب وشاك؟ حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: (قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيبًا، أَوْ مِثْلَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ)[1] ، وسمع جلبة يومًا فقال هذه اليهود تفتن في قبورها، فتأتي الفتنة بمعنى الاختبار والامتحان وتأتي بمعنى العذاب.

فقال – رحمه الله هاهنا – : " **فَيُؤْمِنُونَ** ": أي أهل السنة والجماعة " **بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ،وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ** " ثم فصّل فقال: " **فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَن رَّبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّكَ؟**" قد ثبت ذلك في "**صحيح مسلم**" وجاء مفصلًا مبسوطًا في حديث البراء بن عازب في غير الصحيحين لكنه حديث إسناده جيد وهو من أتم الأحاديث سياقًا لما يكون في القبر وهو حديث مشهور.

فيُقال بعد أن يُوضع الميت في قبره وينصرف عنه أهله يأتيه ملكان فيقعدانه ، وهذا القعود قعود برزخي ليس كالقعود الحسي؛ لأنه لو قال قائل: كيف يقعد واللحد ضيق ولا يتسع المقام، يُقال: أمور البرزخ لا تُقاس على أمور الدنيا وهذا أمر لا بد من استصحابه في جميع الأمور الغيبية ، الدور الثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة، ولكل دار أحكامها التي تناسبها فليس صوابًا أن يقيس الإنسان أحكام دارٍ على دارٍ أخرى، والواجب على المؤمن إذا سمع شيئًا مما قاله الله، أو قاله نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يتلقاه بالقبول ولا يقابله بالاعتراض بالأمور المعهودة له في هذه الدنيا؛

[1] صحيح البخاري(86)، صحيح مسلم(905).

فإن للدنيا أحكامًا وللبرزخ أحكامًا وللآخرة أحكامًا، فيقعدانه ويسألانه هذه المسائل الثلاث: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟.

يقول:" **فَيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**": بهذه الآية استدل نبينا صلى الله عليه وسلم لما ذكر هذا قال: فأما المؤمن فيقول ربي الله والإسلام ديني ونبيي محمد يجيب أجوبة مباشرة صائبة، يجيب بهذه الأجوبة فينشأ عن ذلك أن يفتح له بابٌ إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها ويأتيه رجلٌ حسن الريح حسن المنظر فيقول: أنا عملك الصالح فلا يزال يؤانسه في قبره حتى تقوم الساعة، حتى أنه ليقول: ربي أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، وقوله: أرجع إلى أهلي ومالي لا يقصد الذين في الدنيا، وإنما أراد بالعود والرجوع هنا أي ما يكون له في الآخرة؛ إذ قد علم أن ما أعد الله له في الجنة مما يستقبل أفضل مما هو فيه الآن فيُلهم هذا الجواب الصائب؛ لأنها كانت مستقرة في قلبه مطمئنًا بها قلبه في الدنيا يعتقد أن الله ربه خالقه ومالكه ومدبر أموره، وأنه سبحانه المستحق للعبادة دون ما سواه، وأنه متصفٌ بصفات الكمال ونعوت الجلال، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو نبيه المبلغ عنه سبحانه فيجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن شريعته هي شريعة الإسلام الناسخة لما سبقها من الأديان وقد التزم بها وسار عليها ولزم الصراط المستقيم، فما أسعده! وما أهنأه! فقد انتهى عناؤه بهذه البشارات التي يلقاها في قبره.

قال: ولهذا تلا النبي صلى الله عليه وسلم " **فَيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** " فلما كانت قلوبهم مطمئنة بأصول الإيمان في هذه الدنيا رافقهم هذا في البرزخ فثبت الله قلوبهم وسدد جوابهم

أما المنافق أو المرتاب أو الشا ك فيقول: "**هاهاها**" وهي كلمة اندهاش وتعجب وفجأة " **فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لاَ أَدْري، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ** ": وهذا يدل على أن قد سمع جواب هذه المسائل في الدنيا لكنها خانته وقت الحاجة، لم؟ لأنه كان في دنياه لا تتجاوز سماخي أذنيه، وإذا نطق بها لا تتجاوز ترقوته أو حنجرته؛ بمعنى أن هذه المعارف لم تتجذر في قلبه ولم تصبح يقينًا، بل كان مشغولًا بدنياه ، لا يأبه ولا يرفع رأسًا بعلمٍ نافع ولا بعملٍ صالح، فلما ألقيت عليه لم يحر جوابًا؛ لأنها في الحقيقة لم تكن قد تمكنت من قلبه، لا أنه لم يسمع بها، لا، ألا ترون أنه قد قال " **سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا** " فقلت: كان إمعة يردد ما يقول الناس دون وعي، يا له من ببغاء عقله في أذنيه، فهذا يدلنا على ضرورة تحقيق الإيمان، وأن يكون الإنسان على بينة من دينه فيعرف ماذا يعتقد وماذا يتطلب علمه بالله وبرسوله وبدينه وشرعه؛ حتى لا يخونه ذلك في أحرج المواقف وأضيق المضائق. فماذا يكون من حاله حينما يجيب بهذا الجواب البئيس؟.

قال: " **فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ** ": والمرزبة هي الكتلة من الحديد يتخذ لها عصا تستعمل في الدق والقرع وما أشبه فيضرب بهذه الضربة.

قال: " **فَيَصِيحُ صَيْحَةً** ": لا شك أنها ضربة مؤلمة.

قال: " **فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلاَّ الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ** " أي لأصابه غشية جراء هذا السماع الموحش، ولا ريب أن هذا أمر عظيم وجزاء وبيل وهو ينذر بما وراءه؛ ولهذا يُفتح له بابٌ إلى النار فيأتيه من

حرها وسمومها وقشبها، ثم بعد ذلك يأتيه رجل منتن الريح، قبيح المنظر، فيقول:أنا عملك السيئ حتى إنه يتمنى ألا تقوم الساعة، لم؟ لأنه يعلم أن ما أعد الله له بعد هذا أشد مما هو فيه الآن – أجارنا الله وإياكم – فيجب علينا الإيمان بما يكون في القبر، ولا يجوز إنكار عذاب القبر ونعيمه، وقد اتفق المسلمون على إثبات عذاب القبر ونعيمه وعلى إثبات هذه الفتنة في القبر، ولذلك دلائل من الكتاب أي ما يكون في القبر.

والله أعلم.

الدرس(28)

فتنة القبر

📖قال المؤلف –رحمه الله: ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرى، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ، وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهُ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ.

الشيخ – رحمه الله –" **ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ** " أفادنا – رحمه الله – بأنه يعقب هذه المساءلة آثار وهو إما نعيم وإما عذاب:

~~ف~~أما النعيم فيكون خالصًا للموحدين الذين سلموا من الكبائر ، فلا يزالون في نعيم متصل كما سمعتم في حديث البراء بن عازب إلى أن تقوم الساعة.

~~و~~أما الكافرين فيكونون في عذابٍ متصل كما سمعتم في حديث البراء بن عازب إلى أن تقوم الساعة.

~~ب~~قي قسم ثالث وهو من استحق عقوبةً برزخية من عصاة الموحدين فهذا يتعرض لعذابٍ مؤقت، غير دائم، عذابٍ منقطع، يُعذب ما شاء الله بسبب جريرته تلك بعذاب البرزخ، ويكون ذلك مكفرًا له عن عذاب النار، فقد عد العلماء من المكفرات ما يقع لعصاة الموحدين في القبور، ودليل ذلك ما رواه الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عباس:(يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِير) ثُمَّ قَالَ: (بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ)[1]، كيف نجمع بين قوله وما يعذبان في كبير، ثم قوله بلى إنه لكبير ؟ ما يعذبان في كبير أي في أمر يشق عليهما تركه، ليس أمرًا شديدًا فيه عنت، لكنه في حقيقته كبيرٌ عند الله، [أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة]، كان أحدهما لا يستبرئ من البول كالبهيمة إذا بال – أكرمكم الله – لوث فخذيه وثيابه وبقعته فهو لا يستبرئ من البول فاستحق هذه العقوبة في القبر، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة وبئست الصنعة، كان يحب نشر القال بين الناس وإثارة الضغينة، يأتي إلى فلان ويقول: قال فيك فلان كذا وكذا، ثم يذهب إلى الآخر فيقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وهذه دناءة وانحطاط أن تكون هواية الإنسان إثارة الشغب والشجار بين الناس، هذه هي النميمة وهي العضة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم "القالة بين الناس" فاستحق هذه العقوبة، ثم إن نبينا صلى الله عليه وسلم أخذ جريدة رطبة خضراء فشقها نصفين وغرز على كل قبر منهما

[1] صحيح البخاري (216)، صحيح مسلم (292).

وقال: [أرجو أن يُخفف عنهما ما لم تيبسا]، ولا شك أن هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم؛ بمعنى أنه لا يُشرع لنا أن نغرز على قبور الناس مثل ذلك، ولا يُقال أن هذا من السنن التي تُتبع، لم؟ لأنهليس لنا سبيل أن نعلم بحال أهل القبور، رسولنا صلى الله عليه وسلم قد علم وبناءً على علمه فعل ما فعل، وأيضًا شفاعته صلى الله عليه وسلم مقبولة عند الله، وليس من شأن أمته أن يصنعوا هذا الصنيع؛ ولهذا لم يفعل هذا الفعل أحدٌ من الصحابة، ومن يفعلون هذا من الجهلة فيأتون إلى المقابر ويضعون عليها الأوراق الخضراء والزهور وغير ذلك، فهؤلاء ليسوا على السنة والغالب أنهم يتشبهون بالنصارى أو غيرهم من أمم الكفر، فهذا ليس من سنن أهل الإسلام، والشاهد أن النبي صلى الله عليه وسلم أثبت في حديث عبد الله بن عمر عذابًا لبعض عصاة الموحدين، فهذان ليسا كافرين بل هما من جملة المسلمين.

أما عذاب غيرهم من المشركين فقد دل عليه الكتاب والسنة فمن ذلك:

قول الله عز وجل عن آل فرعون : {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: 46]، تبين من هذه الآية أن ثَم عذاب قبل دخول النار {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} [غافر: 46]، الغدو: أول النهار، والعشي: آخره، ثم بعد ذلك {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: 46]فهذا من أجلى وأقوى أدلة أهل السنة والجماعة على إثبات عذاب القبر.

قول الله عز وجل: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [الأنفال: 50]فدل ذلك على أن هؤلاء الكافرين عند قبض أرواحهم يتعرضون لضربٍ مبرح من الملائكة وهذا بداية العذاب، فهي دليل على وقوع العذاب في حياة البرزخ.

مما يدل على ذلك أيضًا وهو استنباط دقيق استنبطه بعض أهل العلم قول الله عز وج ل: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: 124]، قالوا: هذه المعيشة الضنك هي عذاب البرزخ، يتلوها بعد ذلك أن يُحشر يوم القيامة أعمى، وذهب غيرهم إلى أن المقصود بالمعيشة الضنك: ما يكون في هذه الدنيا مما يلحقهم من المصائب أو القلق أو الهم أو غير ذلك، لكن من استدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر قالوا: إنا نجد من الكفار من يتنعم في هذه الدنيا بالطيبات فأين المعيشة الضنك؟ فلا يمكن حملها إلا على عذاب البرزخ، وله وجه على كل حال أن يكون ذلك دالًا على الضنك الذي يحصل له في قبره.

من الأدلة التي ستدل بها حبر هذه الأمة وترجمان القرآن ابن عباس قول الله تعالى : {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ} [السجدة: 21]، قال: العذاب الأدنى: عذاب القبر، والعذاب الأكبر: عذاب النار، وقال غيره من المفسرين بل العذاب الأدنى : ما يقع عليهم في هذه الدنيا من الهزائم كما وقع عليهم يوم بدر والأحزاب وغيرها، والعذاب الأكبر : هو عذاب النار، ومن قال بهذا القول قال: لأنه قال في آخر الآية: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة: 21]، وهل هناك فائدة أن يُعذبوا في القبر ليرجعوا، لا يمكن أن يرجعوا، لكن ما كان هذا

ليغيب عن بال ابن عباس – رضي الله عنهما – لا يمكن لابن عباس أن يفسر قول: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة: 21]، يعلم ابن عباس أنه لا رجوع لهم، لكن يُحمل ذلك علام؟ على أن تخويفهم بهذا العذاب قد يكون رادعًا لهم كتخويفهم بعذاب النار، العذاب الأكبر هو عذاب النار، ولا يمكن أن يرجعوا، لكن حينما يُقال لهؤلاء الكفار: إن من ورائكم عذابًا في القبر وعذابًا في النار فقد يكون هذا موقظًا وواعظًا لهم فيرجعون إلى الحق.

هذه بضعة أدلة من كتاب الله تدل على إثبات عذاب القبر.

وأما من السنة فقد تضافرت أيضًا أدلة كثر على ذلك:

كتعليم النبي صلى الله عليه وسلم لنا في الصلاة أن نستعيذ بالله من أربع: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ)[1].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه مرة : (أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَعَوَّذُوا مِنْ عَذَابِ القَبْرِ)[2]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم في مبدأ الأمر لا يعلم بعذابٍ في القبر فعن عروة بن الزبير، أن عائشة قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي امرأة من اليهود، وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (إِنَّمَا تُفْتَنُ يَهُودُ) قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هَلْ شَعَرْتِ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟) قَالَتْ عَائِشَةُ: «فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدُ يَسْتَعِيذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ)[3]

ومن شواهد ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان راكبًا بغلة له ومعه بعض أصحابه فمر بستة أو سبعة أقبر فحادت به بغلته حتى كادت أن تطرحه، فالتفت فإذا بهذه الأقبر الستة أو السبعة فقال: قبور من هذه؟ فذكروا أناسًا ماتوا في الجاهلية فقال: (إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا ، لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ)[4] ، أي – أجارنا الله وإياكم- لو سمعنا أصوات المعذبين في قبورهم لما دفن أحدٌ أحدًا من شدة الفزع، فإنها أصوات منكرة بشعة، لكن الله تعالى أسمعها نبيه صلى الله عليه وسلم، وسمعتها الدابة حتى أن الدابة حادت به.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله – وتلميذه ابن القيم وغيرهما أن المسلمين في بلاد الشام إذا أصاب دوابهم وخيولهم مرض يقال له "المغل" أي يكون في انحباس في جوف الدابة وفي بطنها فلا تُخَرِّج وهو معروف عند

[1] صحيح البخاري (1377)، صحيح مسلم (588).

[2] صحيح البخاري (1050).

[3] صحيح مسلم (584).

[4] صحيح مسلم (2867).

أصحاب الدواب، ماذا يصنعون؟ يستاقون دوابهم وخيولهم إلى قبور النصيرية، فما هي إلا أن تسمع أصوات المعذبين حتى تهر ما في بطونها من شدة الفزع، وهذا أمر متواتر عند المسلمين في بلاد الشام يذهبون بدوابهم إلى قبور النصيرية – والنصيرية الذين يحكمون سوريا ويذيقون أهلها سوء العذاب الآن –؛ لأنهم كانوا أكفر من اليهود والنصارى وعقائدهم غاية في الكفر؛ ولذلك كانوا حقيقين بعذاب البرزخ قبل عذاب النار.

فهذه أدلة من الكتاب والسنة على إثبات عذاب القبر ونعيمه، فيجب اعتقادها وأن القبر هو أول مراحل الآخرة، وكان عثمان – رضي الله عنه – إذا قام على قبر علته صفرة ووجل وخشية وقال: هذا موقف أو مقام له ما بعده وصدق – رضي الله عنه– له ما بعده فإذا كان قبر الإنسان روضة من رياض الجنة فهو مقبل على ما هو خير منه، وإن كان – والعياذ بالله – حفرة من حفر النار فما بعده أشد منه ؛ لهذا كان من أصول اليوم الآخر الإيمان بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه.

والعذاب المؤقت قد يذهبه الله تعالى، العذاب المؤقت في القبر الذي يكون لبعض عصاة الموحدين قد يذهبه الله بدعوة صالحة أو بنفقة أجراها الإنسان قبل مماته فما زالت تدر عليه حتى أذهب الله عنه ذلك، أو يكون برحمة أرحم الراحمين؛ ولهذا كان نبينا صلى الله عليه وسلم يدعو لأهل القبور وربما خرج ليلًا فدعا لهم، وينبغي على المؤمنين أن يتعاهدوا إخوانهم الذين سبقوهم فيزورون المقابر ويدعون لهم، وكثيرٌ من الناس قد يتبع الجنائز ويدخل المقبرة ويذهل عن أن يدعو لأهل القبور، فإذا دخلت المقبرة فابدأ بالدعاء لإخوانك وقل: السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم، وله أن يتجه إلى قبرٍ معين ممن له خصوصية فيقف عليه ويسلم عليه ويدعو له، فالمسلمون ينتفعون بزيارة إخوانهم لهم وبدعائهم لهم.

ثم بين الشيخ – رحمه الله – أن بعد ذلك " **تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرى**": ما القيامة؟ لم سميت بهذا الاسم؟ سميت بهذا الاسم لأسباب:

قيل: لقيام الناس يوم القيامة ، قال الله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: 6] فسميت قيامة أي يقومون من قبورهم.

وقيل: سميت بذلك لقيام العدل {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: 47]؛ فهي إقامة للعدل.

وقيل: لقيام الأشهاد {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: 51].

فهذه ثلاثة أسباب لتسمية القيامة بهذا الاسم، ولا مانع من اجتماعها.

قال: " إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرى ": إي والله إنها لكبرى، أمرٌ مهول، أمرٌ عظيم، حدثٌ مجلل، سبحان الله هذه الدنيا التي انقضت وطويت صفحاتها سرتعقبها حالة أخرى، ما الذي يجري؟ يفنى كل من عليها كما قال ربنا عز وجل: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [الرحمن: 26] يأتي على هذه الأرض زمنٌ لا يوجد أحد ولا يتنفس أحد، أخبر النبي صلى

الله عليه وسلم بأن آخر من يُحشر وآخر من يموت رجلٌ من مزينة حتى إذا صعد على الثنية خر على وجهه، يفنى كل من عليها، ثم يطوي الله السم اوات بيمينه ويقبض الأرضين وينادي: أنا الملك، أنا الجبار، أين المتكبرون؟ !، أين المتجبرون؟! فلا يجيبه أحد، يقول: لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد، لا أحد، فيجيب الجبار نفسه: لله الواحد القهار. يجري – أيها الكرام – تغييرات كونية وفلكية وأرضية فتُبدل الأرض غير الأرض والسم اوات كما قال ربنا عز وجل: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: 48]، فيقع في هذه الأرض التي نحيا عليها تغييرات جغرافية هائلة فتتحول من هذه الأرض الكُرية إلى أرض تمد مد الأديم، الأديم هو البساط الذي يُمد فينطلق، أرض مبسوطة ممهدة مستوية ليس فيها معلم لأحد، لا فيها جبل يُرتقى ولا وادٍ يُهبط فيه ولا كهف يُكن أحدًا، بل هم بارزون ضاحون لله تعالى، أين الجبال؟ {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [طه: 105 – 107]، الله أكبر، هكذا يبدو المشهد، أرض ممدودة لم يُسفك عليها دم كالخبزة، كالقرصة يتكفؤها الجبار بيده، هكذا تبدو الأرض قبل أن ينفخ في الصور النفخة الثانية، فإذا أذن الله تعالى، وأمر إسرافيل بالنفخ كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسَّمَّعُ مَتَى يُؤْمَرُ، فَيَنْفُخُ)[1]، فإذا نُفخ في الصور حصلت القيامة الكبرى، وقام الناس من قبورهم لرب العالمين في مشهد مهيب، وموكب عجيب يقول الله عز وجل: {يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6)خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8} [القمر: 7 – 9]، هل رأيتم مشهد الجراد حينما يغطي مساحات هائلة من الأرض؟ تراه من علٍ فترى الناس يدبون فيه يمشون، هكذا الناس يوم القيامة يبعثون من قبورهم على اختلاف أحجامهم وأطوالهم وألوانهم منهم من كأبينا آدم ستون ذراعًا في السماء، ومنهم من هم في مقاسنا، يحشر الناس جميعًا، تنشق هذه الأرض عن ساكنيها يقول الله عز وجل: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ} [يس: 51]، ما هو النسلان؟ الإسراع في المشي أي مهطعين {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ} [القمر: 8]، يعني يمشون ويلهثون ويجرون خلفهم من يسوقهم، فهم متجهون إلى الموضع الذي يشاؤه الله تعالى ، فتنشق الأرض عن ساكنيها ويخرج الناس من هذه الأجداث، مهما سرّحت الخيال فالأمر لا يمكن أن يُدرك بتفاصيله لكنه مروع مهيب؛ ولهذا يُنزل الله سكينته على المؤمنين {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: 30]. أما الآخر – والعياذ بالله – فقد قال الله عز وج ل: {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا} [يس: 52] هكذا يتساءلون هذا السؤال حينما يفيقون ويقومون يقول قائلهم: {مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس: 52]، فإما أن يجيبهم المؤمنون أو تجيبهم الملائكة تبكيتًا لهم {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس: 52، 53].

[1] مسند أحمد (3008) قال شعيب الأرنؤوط حسن لغيره.

هاهنا يبتدئ فصل جديد وهو الإيمان بالقيامة، الإيمان بما يكون بعد البعث، فلا يتم إيمان امرئ باليوم الآخر حتى يؤمن بالبعث، {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي} [التغابن: 7]، وهذا أحد مواضع ثلاث يؤمر فيها النبي صلى الله عليه وسلم أن يقسم بهذا القسم {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ} [التغابن: 7]، انظر: قسم، لام القسم، نون التوكيد الثقيلة {ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [التغابن: 7].

هذه التغييرات أرضية، وهناك تغييرات سماوية {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا} [الفرقان: 25] جاء في بعض الآثار أن كل سماء تنشق فينزل ملائكتها فيحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم، ثم السماء التي تليها فينزل ملائكتها فيحيطون بمن قبلهم إحاطة السوار بالمعصم وهكذا، حتى كل ذلك إرهاص وتمهيد لنزول الرب سبحانه وتعالى ومجيئه لفصل القضاء بين عباده، فالناس إذن يخرجون في هذه المسيرة وهذا الموكب العجيب ليقفوا في أرض المحشر في عرصات القيامة، هذا أمر سيقع لي ولكَ وله ولها ولهم ولهن ولكل أحد، أين المفر؟ {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} [الرحمن: 33]، أنى لهم أن ينفذوا هم في قبضة الله سبحانه وتعالى، فعلى هذه الأرض المبدلة يقع الحشر، قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث عائشة – رضي الله عنها – قال: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً)[1] وفي رواية: [بُهْمًا] هذه صفة البعث، حفاة: غير منتعلين، عراة: غير مكتسين، غرلًا :غير مختونين حتى الزائدة اللحمية التي تكون على رأس الذكر وتقطع بعد الولادة بالختان تعود مع صاحبها {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: 104]، بُهْمًا: أي ليس معهم شيء لا أحد يحمل حقيبة، شنطة، جوال، أغراض شخصية ، لا، تأتي هكذا كما ولدتك أمك حتى أن عائشة – رضي الله عنها – لما حدّث النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث قالت: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ)، تأملوا – يرعاكم الله –في المرأة المسلمة العفيفة ما هو أول شيء تبادر إلى ذهنها؟ الستر والحشمة، فقبل أن تفكر في هول الموقف تبادر إلى ذهنها الستر والصيانة والديانة والعفاف، خلافًا لمن انتكست فطرتها فذهبت تكشف سوأتها، أما المسلمة العفيفة فانظر ردة فعلها [واسوأتاه يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض]؛ لأنهم عراة، قال: يا عائشة الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض، لا يأبهون لهذا، لا يفكرون في هذا، أحدهم لا يدري إلى أين ينتهي به المطاف إلى جنةٍ أو نار فالأمر جد عظيم، إذن من تفرق لحمه في بطون السباع، وفي حواصل الطير، وفي أجواف الحيتان يجمع الله أجزاءه، الذي احترق وصار رمادًا يعيده الله كما كان، وتذكروا قصة الرجل من بني إسرائيل الذي لما حضرته الوفاة جمع بنيه، وقال لهم: أيُ أبٍ كنت لكم، قالوا: خير أب، قال: فإنه لم يبتئر عن الله خيرًا قط– أي يقول عن نفسه أنه ما صنع خيرًا قط – فإذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني، فإذا كان في يوم شديد الريح فذروني نصف في البر ونصف في البحر فإني أخاف إن قدر الله عليَّ أن يعذبني، هكذا اعترته حالة نفسية وخوف شديد لدرجة أنه رأى أن لا مفر له فقرر إلا أن

[1] صحيح البخاري (6527)، صحيح مسلم(2859).

يفعل هذا الصنيع، قال: احرقوني ثم اسحقوني أي دقوا عظامي ولحمي ثم ذروني أي انثروا رمادي نصف في البر ونصف في البحر، ثم علل ذلك بقولهم: فإني أخاف إن قدر الله عليّ أن يعذبني، وأخذ على ذلك عهودهم ومواثيقهم، فلما مات فعلوا به ما أمرهم نصف في البر ونصف في البحر، فأقامه الله خلقًا سويًا بين يديه سبحانه، وقال: [أي يا عبدي ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا ربي، مخافتك]، فما تلافاه الله أن غفر له، والشاهد من هذا أن الله يحيي الموتى، الله تعالى قادر على إعادتهم، هذا الأمر كان مستبعدًا شديدًا على الكفار، لكن الله لم يزل يقيم عليهم الأدلة العقلية والحسية، تأملوا قول الله عز وجل في سورة ق: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)} [ق: 9 - 11]الذي يحيي الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى وجمعهم، كذلك قال تعالى : {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: 27]، يعني القادر على الخلق قادر على إعادته بل هو أهون عليه؛ لأنه على مثالٍ سابق فأين تذهبون؟ فيجب الإيمان بهذا ولا يجوز معارضته بالحسابات المادية والدعاوى، وإنما يهرب عن الإيمان باليوم الآخر الملاحدة الذين يخشون سوء العاقبة فتجدهم يتحاشون هذا ولا يؤمنون به وينكرون المعاد بصورٍ مختلفة ، كما يفعل الكفرة من الهندوس والبوذيين الذين يقولون بتناسخ الأرواح وينكرون البعث الجسماني ، أو الفلاسفة أو غير ذلك، لكن أهل الملل مجمعون على إثبات البعث أو المعاد الجسماني، إذن هذه هي القيامة.

قال: " فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ" كيف تعاد؟ ينفخ إسرافيل في الصور فتعود كل نَسمة إلى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا فتدب الروح والحياة من جديد فيقوم الناس يتحركون، هكذا يحييهم الله تعالى بعد موتهم.

قال:" وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهُ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ ": إذن في هذا إشارة إلى دلائل إثبات البعث، وهو الكتاب والسنة والإجماع، فأدلة الكتاب متكاثرة، وأدلة السنة كذلك، وانعقد إجماع المسلمين على إثبات البعث، فمن زعم أنه مؤمن وأنكر البعث فلا إيمان له، واعلموا – يرعاكم الله – أن الزنادقة يدعون أن ما أخبر به الأنبياء أنه من ضروب التخييل والتخويف لأجل ضبط الناس ، وإلا ليس ثم شيء من ذلك ، وهم الذين يسميهم شيخ الإسلام أهل التخييل وهم زنادقة باطنية ملاحدة ينكرون المعاد ويزعمون أن ما أخبر به الأنبياء لا حقيقة له، ويوجد في هذا الزمان من يسمون بالملاحدة الجدد وهي حركة ناشئة منذ سُنيات قليلة تجتاح العالم يُسمون الملاحدة الجدد، وهؤلاء الملاحدة لهم أربعة رؤوس في هذا الزمن يُنظِّرون لمقالاتهم ويؤلفون الكتب ويعقدون المناظرات ويوصلون الوصلات الإعلامية لأجل إنكار الخالق، وإنكار المعاد، وإنكار حقائق الإيمان، وزحفهم جارٍ وحاصل، فيجب على أهل الإسلام التنبه لما يصل من إلقاءاتهم وكفرياتهم حتى لا تزِّل قدم ولا يضل فهم، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يعظنا موعظةً حسنة وأن يرزقنا من الإيمان به والإيمان باليوم الآخر ما يحجزنا عن معاصيه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

الدرس(29)

الإيمان باليوم الآخر (1)

📖قال المؤلف –رحمه الله–: **وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ ، فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَاد، {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103)}. وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَّرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتعالى: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)}.**

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دخلنا في الدرس الماضي في الحديث عن هذا الركن العظيم وهو الإيمان باليوم الآخر، وقلنا إن الإيمان باليوم الآخر يتطلب الإيمان بأربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بما يكونُ في القبر، وهو أمران: فتنة القبر، وعذاب القبر ونعيمه.

الأمر الثاني: البعث؛ وهو إخراج الناس من قبورهم أحياء يوم القيامة على صفةٍ تكلمنا عنها.

الأمر الثالث: الحساب.

الأمر الرابع: الجزاء.

ولا زلنا في الأمر الثاني وهو ما يتعلق بالبعث، فقد تقدم أن الناس يخرجون من قبورهم يوم القيامة حفاةً عراةً غرلًا بُهما، وجرى وصف ذلك الحال. ولكن يوم القيامة يومٌ طويل تجري فيه أحداثٌ عظيمة متلاحقة لا يمكن حصرها، فهذا اليوم يومٌ طويلٌ جدًّا جدًّا، فتقع فيه أحداثٌ جسام أشار الشيخ –رحمه الله– إلى شيءٍ منها. فمنها: دنو الشمس من العباد، وإلجامهم العرق. فقد أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– بأن الشمس تدنو من العباد يوم القيامة قدر ميلٍ أو ميلين، هل الميل ميل المسافة؟ أو ميل المكحلة؟ الله أعلم، لكن هذا الدنو ينتج عنه تعرقٌ شديد بسبب دنو الشمس، ثم إن الناس يعرقون على قدر أعمالهم، ويسيخ العرق في الأرض سبعين ذراعًا، ثم بعد ذلك يطفو؛ فمن الناس من يبلغُ العرقُ كعبيه،ومنهم من يبلغُ ركبتيه، ومنهم من يبلغُ حقويه، ومنهم من يبلغُ ثدييه، ومنهم من يبلغُ تراقيه، ومنهم من يلجمهُ العرق إلجامًا، وهذه من الأمور الغيبية التي يجب قبولها والتصديق بها وعدم إخضاعها للمقاييس المادية، فإنه كما أسلفنا الدور ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة. ولكل دارٍ حُكمُها فلا يسوغُ أن يقول قائل: هذا لا يتفق مع النظريات الفيزيائية (قاعدة الأواني المستطرقة). كيف يكون الماء غير متساوٍ على سطحٍ واحد؟ كل هذا يجب أن يطرح ولا يقابل به النصوص القطعية والثابتة، فالله الذي خلقهم وأجرى سنَنَهم فيهم قادرٌ على هذا التفاوت، فلهذا يعرقون على قدرِ أعمالهم، ولهذا جعل الله تعالى تكرمةً لنبيه –صلى الله عليه وسلم– في ذلك المقام (الحوض المورود) الذي سيأتي ذكره لاحقًا –إن شاء الله تعالى–، فيكون ذلك لأجل ما يلحقهم من العرق والعطش الشديد.

ومما يجري يوم القيامة نصبُ الموازين، والموازين جمع ميزان. وهو ما تُوزنُ به الأعمال. وما الذي يوزن؟، قيل: الذي يوزن العمل، وقيل: العامل، وقيل: صحائف الأعمال، ولكلٍ دليل.

-فمن قال: توزن صحائف الأعمال . استدل بحديث البطاقة أنه ينادي برجل من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلًا -يعني من الذنوب والخطايا- حتى يظن أنه قد هلك. فيُقال: إنك لا تُظلم إن لك عندنا شيئًا، فتبرز له بطاقة فإذا مكتوبٌ فيها لا إله إلا الله. قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فوضعت السجلات في كِفة ووضعت البطاقة في كِفة، قال: فطاشت السجلات وثقُلت البطاقة. وهذا الحديث فوق ما يدل عليه من فضل التوحيد وتكفيره للذنوب ، فإنه يدل على أن الذي يوزن ماذا؟ صحائف الأعمال.

-وقول من قال: أن الذي يوزن هو العامل نفسه . استدل بقصة عبد الله بن مسعود حينما صعد يُصلح شيئًا في المسجد فكشفت ساقاه؛ فإذا هما ساقان دقيقتان كأنهما قصبتان ، فجعل الصحابة يتعجبون من دقة ساقية . فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: أتعجبون من دقة ساقيهِ؟! فوالله لهما أثقل في ميزان الله من جبل أحد.

ابن مسعود قال عنه عمر -رضي الله عنه- : "كُنَيْفٌ مُلِيء علمًا"، اختزن العلم -رضي الله عنه- ، وكان من أقرب الناس سمتًا وهديًا برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حتى إنه إذا جاء الكلام عن ابن مسعود يَشتبه عليك أهو مرفوع أم موقوف؛ لحسن نظمه ونسقه.

-ومما يدل على أن الذي يُوزن هو الأعمال . ما ورد كثيرًا في كتاب الله {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103)} [المؤمنون: 102، 103]، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه} [الزلزلة: 7، 8] ، فهذه النصوص المتكاثرة تدُل على أن الذي يُوزن هو العمل.

ونقول: لا تعارض فكل هذه الثلاث تُوزن. لكن الذي به العبرة هو وزن الأعمال ، وإنما قد يزن الله العامل لإظهار فضله، أو لإظهار خزيه -أعاذنا الله وإياكم-، فقد جاء في الحديث أنه يُؤتى بالرجل الفاجر الكبير الضخم يوم القيامة لا يساوي في ميزان الله جناح بعوضة ، فهذا يكون لإظهار خزيه . وغيرهُ يكون لإظهار فضله لكن العبرة في الوزن هو بوزن الأعمال {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: 47]، {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} [المؤمنون: 102 - 103].

أما {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}: ففي سورة الأنبياء، فدل ذلك على إثبات الموازين.

وهل الموازين متعددة أم هو ميزان واحد؟ يحتمل؛ فلفظ الجمع في قوله الموازين يدل على التعدد ، لكن ربما أنها تعددت باعتبار الموزونات، وربما أنها بالفعل موازين متعددة.

ومما يجب اعتقاده أن الميزان ميزانٌ حقيقي له لسان وكِفتان هذا لفظها الصحيح لِفتان بكسر الكاف لا كَفق كِفتان فله لسانٌ وكِفتان، لا كما تدعيه المعتزلة فإن المعتزلة كما تعرفون من منهجهم ينزِعون إلى التأويل؛ فلا يُثبتون ميزاناً حقيقيٌّ بل يقولون المقصود بالميزان: إقامة العدل. ونحن نقول: بل المقصود بالميزان إقامة العدل بواسطة الميزان الذي أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأخبر الله تعالى به فهو ميزانٌ حقيقي، وهذا يدل على كمال عدل الله عز وجل-سبحانه وبحمده-، إذن لا بد من الإيمان بهذا. وهذا يجري في عرصات القيامة وزن الأعمال.

ومما يجري أيضًا في عرصات القيامة نشر الدواوين، والدواوين جمع ديوان، نشر الدواوين وهي كلمةٌ فارسية، جمع ديوان وهو الجامع للشيء كما يقال: ديوان الجند، ديوان ال... كما يستعمل ديوان الموظفين، ديوان المظالم، ديوان كذا. أي الجامع للشيء المحيط به يقال له ديوان. فتُنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال، ودليل ذلك قول الله عز وجل: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)}[الإسراء: 13، 14]، وقال تعالى: {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[الكهف:49].

قوله تعالى: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ} [الإسراء: 13]، ما معنى طائره؟ أي ما طار من عمله؛ لأن العمل الذي يصدرُ منك، والقول الذي يتفلت منك؛ كالطائر الذي غادر لا يمكنك أن ترده، فلذلك سُمي طائرًا.

قال:{وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ}: ولماذا في عنقه؟ لأن ألزم ما يكون في الإنسان ما ربط بعنقه لأنه بذهاب عنقه يذهب، فقد تربط الشيء بيدك أو برجلك أو غير ذلك، لكن أوثق ما يكون إذا رُبط بالعنق؛ لهذا قال: {أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ}.

قال: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا} [الإسراء: 13]: هذا الكتاب هو في الواقع مستنسخ مما كان قد عمله وطار من عمله في الدنيا. {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[الجاثية: 29].

قال: {مَنشُورًا} ما معنى منشورًا؟ أي مفتوحًا ليس مغلقًا، بل ها هو بين يديك، محاكمة علانية، كل شيء بالبينات، بالدلائل؛ ولهذا إذا اطَّلع على كتابه تصيبه صدمة {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: 49]. حتى إن الأمر يبلغ بالكافر إلى اتهام وتخوين الملائكة الكرام.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد ضحك قالوا: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: من حال الرجل يوم القيامة يقول لربه: يا ربِّ ظلمني كتبتك، ظلمني الكرام الكاتبين، فيقول الله عز وجل: أو لا ترضى أن نبعث عليك شاهدًا من نفسك؟ فيقول: بلى يا رب -ما أعظم من هذا الشاهد أن الإنسان يشهد لنفسه، ما هذا؟- قال: فيختم على فيه، ويؤمر جوارحه فتنطق، فيكون أول ما ينطق فخذه، فيحدث بما صنع، وهكذا بقية جوارحه، وهذا ما ذكرهالله عز وجل في سورة فصلت: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}[فصلت: 21]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ثم يُخلى بينه وبين الكلام. فيقول: بعدًا لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل ؛ -يعني يقول

الشخص لجوارحه: بعدًا لكن وسحقًا، يدعو عليهن فعنكن كنت أناضل- ، فيقيم الله تعالى عليه الحجة. {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: 14]، إي والله: لا شهادة أعظم من هذه الشهادة.

إذن هذا مما يجري يوم القيامة آخذٌ كتابهُ بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله أو من وراء ظهره. هكذا نوع الشيخ بشماله أو من وراء ظهره، لأن هذا ورد في القرآن على لفظين ففي سورة الحاقة: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ } [الحاقة: 25]، وفي سورة الانشقاق: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ} [الانشقاق: 10]، فبعض العلماء سلك مسلك الجمع وقال: إنه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره؛ بمعنى أنها تلوى ذراعه ويُعطى كتابه بشماله من وراء ظهره. وظاهر كلام الشيخ هنا أنه تارةً يُعطى من وراء ظهره، وتارةً يُعطى بشماله، وكلا الصورتين تدل على التبكيت والترغيب والتحقير؛ لأن الأصل في الإنسان هو التناول والإعطاء والأخذ باليمين، فإذا جُعل على غير هذه الصفة كان ذلك يعني لإظهار خزيه وتبكيته، فالذين يؤتون كُتبَهم بأيمانهم هم أهل اليمين هم أهل الجنة، والذين يؤتون كُتبهم بشمائلهم هم الذين حق عليهم العذاب.

ثم انتقل بعد ذلك إلى فصلٍ آخر.

📖قال المؤلف -رحمه الله-:

وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لاَ حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا.

(ويجزون بها) ليست عندك؟ في نسختي (ويجزون بها).

نعم هذا هو الأمر الثالث الذي يجب الإيمان به مما يكون في اليوم الآخر: وهو الإيمانُ بالحساب، واعلموا - يرعاكم الله - أن محاسبةالله للخلائق نوعان: محاسبةٌ للمؤمنين، ومحاسبةٌ للكافرين.

-أما محاسبةُ المؤمنين فنوعان أيضًا: عرضٌ ومناقشة، فمن سبقت له من الله الحسنى وأراد الله تعالى أن يقيه النار، فإنه يحاسب محاسبة العرض وهي التي دل عليها حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: [يُدني الله عبده المؤمن يوم القيامة ويضع عليه عليه كنفه -يعني ستره- ويستره عن الناس، ويقول: أتعرف ذنب كذا يوم كذا ؟ أتعرف ذنب كذا يوم ك ذا؟ يذكره بذنوبه، وهو يقول: أي ربي، أي ربي، يتذكر حتى يظُن أنه قد هلك، فيقول له الرب الرحيم: إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم]، -نسأل الله من فضله- ما أهرأها! ما أسعده! حين يقرع سمعه هذا الكلام حين يقال له: إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، حلَّت عليه السعادة نجا، زُحزح عن النار بهذا الحكم الرباني -جعلنا الله وإياكم ممن يسمعها من ربٍ رحيم -، إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم. هذا هو العرض.

أما المناقشة: فيدل عليه ا حديث عائشة –رضي الله عنها– في الصحيح أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: [من حوسب عُذب]، قلت: يا رسول الله ، أليس الله –تعالى– قد قال: **{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}** [الانشقاق: 8، 9]. فهمتهم؟ يعني إشكالها أن النبي –صلى الله عليه وسلم–يقول: من حوسب عُذب وهي قرأت قول الله –تعالى–: { فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: 8، 9]، ها قد حوسب ولكنه {وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا} فقال لها النبي –صلى الله عليه وسلم–: [يا عائشة، ذاك العرض، ومن نوقش الحساب عُذب]. وفي الفظ الأول : [من حوسب هلك]، ثم قال في اللفظ الثاني : [من نوقش الحساب عُذب]، فتبيَّن بهذا أن الحساب نوعان: عرضٌ وهو يكون للمؤمنين الذين شاء الله تعالى أن يجنبهم النار {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء: 101–102].

وأما المناقشة: فهي في حقِّ من أراد الله أن يناله شيءٌ من العذاب من عُصاة الموحدين ؛ من أهل الكبائر الذين لم يشأ الله أن يغفر لهم . فإنكم تعلمون أن صاحب الكبيرة تحت المشيئة والإرادة يوم القيامة إن شاء الله عذبه بقدر ذنبه ومآله إلى الجنة، وإن شاء عفا عنه مجانًا وأدخله الجنة. فمن نوقش ودقق معه الحساب فهذا دليلٌ على أنه سيعذب.

إذن هذا هو حساب المؤمنين على اختلاف طبقاتهم ونحن نعلم أن المؤمنين أطباق { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [فاطر: 32]، ليسوا سواء.

أما الكفار فكيف يكون حسابهم ؟ قال: فلا يحاسبون محاسبة من تُوزن حسناته وسيئاته ، لم؟ لأنه لا حسنات لهم، فقد قال الله عز وجل: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: 23].

سألت عائشة –رضي الله عنها– رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن رجلٍ شريف من أهل الجاهلية من أهل مكة، يقال له: عبد الله بن زيد بن جدعان كان يفكُّ العاني، ويطعم الحجيج ويسقيهم، ويعني له مآثر ومناقب هل نفعه ذلك عند الله؟ قال: [لا. إنه لم يقل يومًا من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين]، بمعنى أن الكافر إذا عمل أعمالًا صالحة محمودة فإنها لا تنفعه في الآخرة، لكن تنفعه في الدنيا. وهذا من كمال عدل الهي أن الكفار إذا عملوا أعمالًا صالحة من البِر والإحسان والصدقة –وهذا يقع منهم بلا ريب– فإن ذلك يعود عليهم أثره ونفعه في الدنيا؛ سعةً في الرزق، وصحةً في الأبدان، وتمكينًا في الأوطان. وأنتم تلاحظون هذا، تجدون بعض الأمم الكافرة يعيشون في نوعٍ من الرفاهية ويعني لا يعانون مما يعاني منه غيرهم، وتجدون تنشط عندهم الجمعيات الخيرية، وجمعيات النفع العام، وإعانة؛ ليس كلها بغرض التنصير أو بغرض أغراض معينة أحيانًا يفعلونها بدوافع أخلاقية محضة، كما قال الله عز وجل عن النصارى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا} [الحديد: 27] ، فعندهم شيءٌ من الصفات البشرية الإنسانية المشتركة فإذا وقع منهم فعلٌ حميد فإنهم يكافئون عليه في الدنيا ولا ينفعهم في الآخرة. أما المؤمن فإنها تنفعه أعماله الصالحة في الدنيا والآخرة، فالمقصود أن الكفار يوم القيامة لا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته لسببٍ

بسيط أنه لا حسنات لهم، إذن كيف يكون حسابهم؟ من كمال عدل الله عز وجل أن يظهر الله عدله في العالمين، فتُعدد أعمالهم، وتحصى، ويوقُفون عليها، ويقررون بها، ويعترفون بها، ثم يجزون عليها. فيكون ذلك يعني على الملأ نكايةً بهم وكشفًا لسترهم، ولهذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم– [يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان ابن فلان]، أما المؤمن فكما سمعتم يطفي الله عليه ستره؛ يضع عليه كنفه ويستره لا يفضحه على رؤوس الخلائق. إذن هذا هو ما يتعلق بالحساب. ثم انتقل إلى ذكر بعض ما يجري يوم القيامة أيضًا.

الدرس (30)

الإيمان باليوم الآخر(2)

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ماؤُه أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَن يَّشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

نعم هناك اختلاف بين النسخ وإن كان يسيرًا لا يؤثر.

حوض النبي –صلى الله عليه وسلم– مما يجبُ الإيمانُ به، لأنه ثبت بالتواتر. فقد رواه بضعٌ وثلاثون صحابيًّا وهذا يعني حد التواتر، وعده ابن حجر من الأحاديث المتواترة في بيتيه الشهيرين:

مما تواتر حديث من كذب ومن بنى لله بيتًا واحتسب

ورؤية شفاعة والحوض ومسح خفين وهذي بعض

والحوض في اللغة: هو مجمع الماء" يليط أحدكم حوضه" ؛ وهو الماء الذي يجعله لدوابه وبهائمه.

أما في الاصطلاح فالمقصود بالحوض المورود: هو حوضٌ عظيم يجعله الله تعالى لنبيه محمد –صلى الله عليه وسلم– في عرصات القيامة، يصبُّ فيه ميزابان من نهر الكوثر، ونهر الكوثر: نهرٌ أعطاه الله نبيه في الجنة. لا ندري كيف؟ لكن نصدق، وهو خبرٌ متعقل. يصبُّ فيه ميزابان من نهر الكوثر. وصفه النبي –صلى الله عليه وسلم– في أحاديثه بأن ماءه أشدُّ بياضًا من اللبن. وهذا أحسن ما يكون من الألوان في المشروبات، وأحلى من العسل، طوله شهر وعرضه شهر، وفي بعض الألفاظ كل زاويةٍ من زواياه مسيرة شهر. واستنبط شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– من هذا أن هذا الحوض مستدير؛ لأنه إذا كان القطر واحدًا في كل اتجاه مسيرة شهر فينبغي أن يكون مستديرًا لا مربعًا ولا مستطيلًا ولا بيضاويًّا بل يكون مستديرًا.

قال: آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، آنيتهُ يعني كيزانه أو كؤوسه عدد نجوم السماء؛ يعني أنه عدد هائل جدًّا.

قال: مَن يَّشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا: يقول نبينا –صلى الله عليه وسلم– كما في "صحيح البخاري": [أنا فرطكم على الحوض]، وفرط القوم هو الذي يتقدمهم إلى مورد الماء؛ وهذا يدل على كمل شفقته

-صلى الله عليه وسلم- بأمته حتى إنه يتقدمهم ليُهيئ لهم الشراب. فحينما يقوم الناس عطاشى يلهثون وقد دنت منهم الشمس يكونون أحوج ما يكونون إلى أن يبلوا حلوقهم بالماء، فيهوي النبي -صلى الله عليه وسلم- وينزع ويناول.

قال: مَن يَّشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.يعني يكتسب مناعة من العطش دائمة طبيعية لا يحتاج إلى شرب بسبب هذه الشربة، ومع ذلك فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-:[ليذادنَّ رجال من أمتي عن حوضي فأقول أصيحابي أصيحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك]. وهذا لا شك أنه من أشد أحاديث الوعيد في حق المبتدعة، فإن الإحداث في الدين بدعة، فمن كان من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-وأحدث فيها فإنه يُذاد عن حوضه، ثم بعد ذلك يُنظر إن كان إحداثه وبدعته بدعة مكفرة فإنه مآله إلى النار، وإن كان إحداثه وبدعته دون ذلك فإنه يحرم من الشرب من الحوض لكن ربما يكون مآله إلى الجنة بسبب حسنة التوحيد.

والرافضة اللئام اتخذوا من هذه اللفظة دعوة لتكفير الصحابة الكرام؛ فزعموا بأن الصحابة ارتدوا بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأنهم نكصوا على أعقابهم لكونهم لم يُبايعوا عليًّا بالخلافة وبايعوا أبا بكر وعمر. واستدلوا بهذا الحديث [ليذادنَّ رجالٌ] ولا شك أن هذه دعوة باطلة؛ فإن الذين ذكرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إنما هم أفرادٌ قلائل ولهذا قال: أصيحابي، وهذا لفظٌ يدل على التقليل، فقد يكون هؤلاء كما قال الخطابي وغيره: من المرتدين الذين ارتدوا بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- مما هو معروف في زمن أبي بكرٍ الصديق، لكن حاشا الصحابة الكرام أن ينالهم هذا الأمر فإنهم هم الذين مسكوا بالكتاب وتمسكوا بالكتاب وصانوا الشريعة وحفظوها، بل أولى بهذا الحديث الروافض اللئام لأنهم هم الذين أحدثوا في الدين، وينطبق عليهم فعلًا قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث: [إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقًا لمن أحدث بعدي وبعدًا]، فهم الذين أحدثوا في الدين وأدخلوا فيه ما ليس منه.

إذن يجب الإيمان بحوض النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن يرجو الإنسان أن ينال شربةً من حوض النبي ﷺ.

وهل لبقية الأنبياء أحواض؟

قال بعض العلماء بذلك، وبعضهم جعلها من الخصائص النبوية. ولا يبعُد أن يكون لبقية الأنبياء أو لكل نبي حوض يختص به، لكن الحوض العظيم؛ الحوض الكبير هو حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا سأله أصحابه وقالوا: يا رسول الله، كيف تعرفُنا من بين الأمم؟ قال: بالغرة والتحجيل. يا لها من علامة يعني بآثار الوضوء، كما تعرفون الخيل إذا رأيتم الخيل في يديها وفي رجليها وفي ناصيتها أثر البياض هذه هي الغرة والتحجيل.

الغرة: ما يكون في الجبين، والتحجيل: ما يكون في أطراف الأقدام والأيدي فهذه هي مواضع الوضوء وهذا يدل على فضل الوضوء؛ ولهذا فإن النار لا تمس من ابن آدم مواضع الوضوء، ثم انتقل إلى ذكر شيءٍ آخر.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمَنْهُم مَن يُخْطَفُ وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلاَلِيبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ. فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

نسأل الله من فضله، جعلنا الله وإياكم منهم.

هذا الحديثُ عن الصراط وهو من أصعب مواقف القيامة، حتى إن الأنبياء دعاؤهم يومئذ: اللهم سلم سلم.

والصراط في اللغة: هو الطريق الواضح. الطريق المستقيم يقال له صراط. ولهذا نقول في صلاتنا: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة: 6]، فالطريق الواضح يقال له صراط جادة.

فالصراط نوعان: حسي ومعنوي.

فالصراط المعنوي: هو الإسلام، هو الدين، هو الملة. وهو الذي نقوله في كل ركعة من ركعات الصلاة {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة: 6]، يعني الطريق المستقيم الذي هو دين الإسلام وملة أبينا إبراهيم.

أما الصراط الحسي: فهو الجسر المنصوب على متن جهنم. كما عرفه الشيخ –رحمه الله– قال: وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، يقول الله عز وجل: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: 71، 72]، لا بد لكل أحد، لا بد لكل مؤمن أن يمر على الصراط، لا بد. أما الكفار فلا يمرون على الصراط لم؟ لأنهم يقذفون في النار مباشرة تُغل أيديهم إلى أرجلهم إلى أعناقهم ثم يُقذفون في النار فلا يَعبُر على الصراط أصلًا إلا الموحدون، لكن عبورهم على الصراط الحسي يكونُ بحسب عبورهم على الصراط المعنوي في الحياة الدنيا، فيتفاوتون في ذلك كتفاوتهم في الحياة الدنيا. ألستم ترون الناس الآن يتفاوتون في طاعتهم لله، وامتثالهم لأوامره، واجتنابهم لمناهيه، ومبادرتهم إلى الخيرات، ومسارعتهم فيها؟ أو تلكؤهم وتباطؤهم؟ هذا موجود. كذلك يقع على الصراط الحسي. فمن كان سريعًا على الصراط المعنوي صار سريعًا على الصراط الحسي والعكس بالعكس.

يقول كما يُستفاد من الأحاديث: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وهذا أعظم شيء تُمثل به السرعة (كلمح البصر) التي تسمى في لغة الفيزياء الآن سرعة الضوء ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية -نسأل الله من فضله-، يعني أنت حينما تشعل المصباح لا يأخذ النور وقت لكي ينتقل للجدار بسرعة يمتلئ المكان بالنور لأن سرعتها هائلة. الشمس على شدة بُعدها عنا يصل ضوءها إلينا في ثمان دقائق، فأعظم سرعة يمكن أن يُضرب بها المثل في عقول الناس هي سرعة الضوء.

قال: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ: البرق إذا شعشع يأخذ بضع ثواني أو جزءًا من الثانية فهو دون الأول لكنه سريع، حينما يلوح في الأفق شعشعة البرق بسرعة تذهب.

قال: وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، الريح المرسلة تصل سرعتها أحيانًا ثلاثمائة كيلومتر في الساعة - أربعمائة كيلومتر في الساعة؛ أسرع أقل، أيضًا الريح المرسلة توصف بالسرعة، ولهذا لما وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- سرعة الدجال في الأرض قال: [كسيلٍ استدبرته الريح]؛ يعني أنه يمشي سريعًا.

ثم قال: ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ؛ إذن كما تلاحظون هذه المراتب من أعلى إلى أدنى. الفرس الجواد الفرس؛ المضمر سريع في جريه.

قال: وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ؛ الإبل المهجنة المتخذة للسير، أيضًا تكون سريعة لكن دون سرعة الجواد.

قال: ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا؛ يعني يركض على رجليه، تخيل هذا المشهد على الصراط رجُل يجري جريًا فوق الصراط.

وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا: منهم من لم يتمكن من إطلاق ساقيه في الجري يمشي مشيًا، وتكون معاناته أشد من معاناة ما قبله.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، كيف؟ ما هو الزحف؟ الزحف هو المشي على المقعدة وليس الحبو؛ يمشي على مقعدته فوق الصراط، وهذا أشق مما سبقه، لأن المشهد مهيب - عافانا الله وإياكم- يعني النار من تحته يعني تضطرب.

قال -صلى الله عليه وسلم-: فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلاَلِيبُ: والكلاليب جمع كلوب، الكلوب: هو عبارة عن حديدة معقوفة الطرف شبهها النبي -صلى الله عليه وسلم- بشوك السعدان وهي شيءٌ يعرفه أهل الغنم يلتصق بصوف الغنم شيءٌ من الشوك يكون فيه كالشوكة المعقوفة، فهذا العقف هو الكلوب. فيوجد على جنبتي الصراط هذه الكلاليب المتهاوية يمنة ويسرة تخطف الناس. وقال بعض أهل العلم: إن هذه الكلاليب متخصصة منها ما يخطف الزناة، منها ما يخطف أكلة الربا، منها ما يخطف المرابين، منها ما يخطف مثلًا أهل النميمة أهل الغيبة إلى غير ذلك- ع افنا الله وإياكم.

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-:[فمخدوشٌ ناجٍ ومكردسٍ في النار]؛ يعني منهم من يصيبه الكلوب فيخدشه لكن يمضي، ومنهم من يمسك به الكلوب فيلقيه في النار، لأن الله تعالى شاء أن يعذب في النار ما شاء.

قال: وَمَنْهُم مَن يُخْطَفُ وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلاَلِيبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم: وكل شيءٍ عنده بمقدار، يعني ليس الأمر خبط عشواء؛ لا، شيءٌ قد قدره الله وقضاه منذ الأزل.

إذن هذا حال الناس في مرورهم على الصراط، فماذا بعد ذلك؟ من مر على الصراط دخل الجنة انتهت معاناته، لأن ما بعد الصراط موضع يقال له القنطرة: وهو طرف الصراط مما يلي الجنة. وطبعًا نحن مهما أعملنا فكرنا لا نستطيع أن نتصور هذا على حقيقته في الواقع، لكن هذه معان متعقلة مفهومة وإن لم ندرك الكيفيات وهذا في كل شيء، فالله تعالى يُسمي لنا نفسه بأسماء، ويصف نفسه بأوصاف، ويخبرنا بأفعاله؛ ونعقل كلام الله وإن كنا لا ندرك كيفيته. فقد أخبرنا بأنه استوى على العرش، وأنه يجيء لفصل القضاء بين العباد يوم القيامة؛ فنعقل ذلك ونفهمه وإن كنا لا ندرك كيفيته. فكذلك نصوص المعاني نعقل معناها الدال الذي دلت عليه الألفاظ وإن لم ندرك كيفيتها.

قال: فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ. فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ: والقنطرة هي: المكان المرتفع. فيُقتص لبعضهم من بعض، لماذا؟ لأن بينهم مظالم وإن كانوا من الموحدين، لكن يكون قد جرى بينهم في هذه الحياة الدنيا مظالم؛ إما بالأقوال، أو بالأفعال، أو غير ذلك. فلا بد أن يدخلوا الجنة على أكمل زينة ظاهرة وباطنة، لا يليق أن يدخل الجنة وفي صدورهم غل، {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: 47]، أين يُنزع ذلك الغل؟ في القنطرة.

قال: فَيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ: يتعافون ويتغافرون فيما بينهم، فإذا صفت قلوبهم فإنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ طيبة، حينئذٍ يساقون إلى الجنة كما وصف الله عز وجل: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمر: 73، 74].

فيزفون إلى الجنة بهذه الصفة الجميلة، وتفاصيل ذلك في الكتاب والسنة كثيرٌ جدًّا وإنما أراد الشيخ -رحمه الله- الإلماح إلى أبرز هذه المسائل، ثم انتقل إلى مبحثٍ آخر.

📖قال المؤلف -رحمه الله-: وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ.وَلَه صلى الله عليه وسلم فِي الْقِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ: أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُوْلَى؛ فَيَشفَعُ فَي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسى ابْنُ

مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الْجَنَّة. وَهَاتَانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لاَّ يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا. وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

نعم؛ بيَّن الشيخ في هذا الفصل مسألةً مهمة وهي: مسألة الشفاعة، والشفاعة من الأمور الثابتة المتواترة التي يقطع بها أهل السنة والجماعة، فأحاديث الشفاعة بلغت مبلغ التواتر كما أشرنا آنفا، وقد تركنا المؤمنين في القنطرة، فكيف لهم أن يدخلوا الجنة؟

بيَّن الشيخ -رحمه الله- قال: وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم: لما ورد في الحديث [آتي باب الجنة فاستفتحه فيقول الخازن من؟ فيقول: محمد. فيقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك].

قال: وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ. نعم لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: [نحن الآخرون الأولون يوم القيامة]، ونحن أول من يدخل الجنة فنحن الآخرون في ترتيب الأمم لكننا الأولون في الحساب، وفي دخول الجنة.

ثم ذكر موضع الشفاعة؛ والشفاعة -يا كرام- معناها في أصل اللغة أو معناها في الوضع: من الشفع وهو ضد الوتر، والمقصود بالشفع الزوج، وإنما سُميت الشفاعة شفاعة لأن الشافع لما انضم إلى المشفوع له صار زوجًا بعد أن كان وترًا، هذا سبب تسمية الشفاعة شفاعة، ومنها قول الفقهاء: الشفعة؛ فلان له حق الشفعة لأن له شريك فطالب بهذا الحق المشاع فيقال: شفع.

وأما معناها في الاصطلاح: فهو سؤال الخير للغير. {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا}[النساء: 85]، إذن هذا هو معنى الشفاعة.

ولنبينا -صلى الله عليه وسلم-ثلاث شفاعات في الواقع، ذكر الشيخ منهما اثنتين:

أولاهما: الشفاعة العظمى التي هي المقام المحمود {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}[الإسراء: 79]، والمراد بها شفاعته -صلى الله عليه وسلم- للخلائق يوم القيامة أن يُقضى بينهم، وذلك أن الناس يوم القيامة يطول بهم المقام؛ مدة طويلة جدًّا مع دنو الشمس وإلجام العرق، فيتنادى البشر بعضهم

إلى بعض، ويقول: ألا ترون ما أنتم فيه؟ اذهبوا بنا إلى أبينا آدم؛ أول ما يتبادر إلى ذهنهم الأب، وهذا لحكمةٍ بالغة أن الله سبحانه وتعالى جعلهم يتداركون على هذه الصفة. فيأتون آدم ويقولون: أنت آدم أبو البشر، خلقك بيديه وأسجد لك ملائكته، ألا ترى ما نحن فيه؟! اشفع لنا عند ربك. فيعتذر آدم بأنه قد أكل من الشجرة، ثم يُحيلهم على نوح بوصفه أول رسول أرسله الله. فيأتون نوحًا فيقولون له مثل ذلك، ويقولون: أنت أول رسول أرسله الله، فيقول: إنني قد قلت: إن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق، فإني أستحي من ربي، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فإنه خليل الرحمن. فتنجفل الخلائق إلى إبراهيم ويقولون له كما قالوا لمن ما سبقه ويقولون: أنت خليل الله. فيقول إبراهيم عليه السلام: إني قد كذبت ثلاث كذبات. ما هي؟ إني سقيم، بل فعله كبيرهم، اثنتان في ذات الله ها هما، والثالثة: أنه قال لعظيم مصر أو للجبار عن سارة: إنها أخته. فأستحي. فيستحي إبراهيم عليه السلام من الشفاعة لحصول هذه منه، ثم يحيلهم إلى موسى قال: فإنه كَلِيمُ الرحمن. فيأتون موسى فيقولون له ما قالوا لمن سبقه ويقولون: أنت كلِيمُ الرحمن، كتب لله لك التوراة بيمينه. فيعتذر موسى بأنه قد قتل نفسًا فهو يستحي من الله أن يشفع، ويحيلهم إلى عيسى؛ وأن عيسى هو كلمة الله وروح الله. فيأتون عيسى فيقولون له ما قالوا لمن قبله، ولا يَذكر عيسى عليه السلام ذنبًا، قال العلماء: ليكون كالتوطئة لنبينًا -صلى الله عليه وسلم-، لكنه يحيلهم إلى نبينا -صلى الله عليه وسلم- فتأتي الخلائق فتنجفل الخلائق جميعها إلى نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ ويتلون عليه بما هو أهله ويقولون له: اشفع لنا عند ربك، فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: [أنا لها، أنا لها]، فيقول: فآتي فأسجد تحت العرش، ويفتح الله علي بمحامد لا أُحسنها الآن؛ يعني أن الله عز وجل يفتح عليه من أنواع الحمد، والله يحب الحمد [لا أحد أحب إليه المدحة من الله]، كما في صحيح البخاري. فيفتح الله عليه من المحامد فيقال له: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تُعطى، واشفع تُشفع. فأقول يا رب: أمتي أمتي، فتكون البداءة بأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- في الحساب.

أما الشفاعة الثانية: فهي ما سبق وهي شفاعته لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

وأما الثالثة التي لم يذكرها الشيخ هاهنا: فهي شفاعته لعمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب، وذلك أن الأصل في المشركين أنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لكن أبا طالب خاصة له نوعٌ جزئي من الشفاعة؛ فقد سأل العباس عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال له: يا رسول الله، إن عمك أبا طالب قد كان يحوطك في مكة ويدفع عنك، فهل نفعته بشيء؟ قال: نعم، وجدته في الدرك الأسفل من النار فأخرجته إلى ضحضاح من نار، تحت قدميه نعلان يغلي منهما دماغه، وإنه ليظن أنه أشد أهل النار عذابًا، وإنه لأخفهم عذابًا، فهذه حالة استثنائية لا نظير لها.

وهناك شفاعاتٌ مشتركة في الواقع منها؛ شفاعته -صلى الله عليه وسلم- فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لاَّ يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا: وهذه -طبعًا من عُصاة الموحدين- وهذه يشاركه فيها النبيون، والصديقون، والشهداء، حتى الفرط يَشفعُ لوالديه، والشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته. وهذان النوعان من الشفاعة تنكرهما المعتزلة والخوارج، يقولون: ما في شيء من هذا القبيل، ينكرون الشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها. ويقولون ببجاحة: من توعده الله بعذاب فإنه يجب على الله أن ينفذ فيه وعيد. ولهذا نسميهم وعيدية. أنكروا الشفاعة مع أن الأحاديث فيها متواترة أنه يُخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة، أدنى أدنى مثقال ذرة، بُرة، شعيرة، حبة، أشياء ذكرها النبي ﷺ حتى قال: [من لم يعمل خيرًا قط].

وهناك أيضًا شفاعاتٍ أخرى غير هذه تدل عليه النصوص، مثل الشفاعة في رفع درجات بعض أهل الجنة قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور:21].

ومن الشفاعات أيضًا؛ الشفاعة فيمن تساوت حسناته وسيئاته أن يدخلوا الجنة، وهم على الراجح أهل الأعراف.

ومن الشفاعات أيضًا؛ الشفاعة لبعض المؤمنين في دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب، كحديث عكاشة بن محصن لما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- [السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ثم دخل بيته فجعل الناس يخوضون في هؤلاء من هم؟ فخرج إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبرهم بأنهم هم الذين لا يتطيرون، ولا يكتوون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون]، فقام عكاشة بن محصن الأسدي وقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: أنت منهم. فهذه شفاعة.

إذن هناك شفاعات متعددة، ثم بعد الشفاعات جاء في الحديث الصحيح القدسي أن الله تعالى يقول: [شفعت الملائكة، وشفع النبيون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين؛ فيقبض الله قبضةً من النار فيجعلهم في الجنة]. فهذا بفضل الله ورحمته.

أيضًا الجنة يبقى بها فضل عن أهلها، وقد جاء في الحديث أنه لما تحاجت الجنة والنار قال الله في آخر الحديث: [ولكل ملؤها، فأما النار فلا يزال يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد.. هل من مزيد. حتى يضع رب العزة عليها رجله أو فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط]، يعني اكتفيت؛ اصطكت -والعياذ بالله- على أهلها.

أما الجنة فيبقى فضل ومساحات غير مشغولة، فينشئُ الله خلقًا ويسكنهم الجنة بمحض فضله هو السيد يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

ثم ختم الشيخ فيما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر ببيان أن ما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر من هذه الأشياء وتفاصيله موجودٌ في جميع الكُتب المنزلة من السماء، ولهذا تلونا عليكم في مستهل هذا الفصل قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا} [البقرة: 62]، فما من شريعةٍ سماوية إلا وتضمنت هذه الثلاثة: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح. وهذا موجودٌ بيِّن في كتب النصارى كما فيما يسمونه رؤيا يوحنا وغير ذلك. وأما في كتب اليهود فالحديث عن اليوم الآخر قليلٌ جدًّا وما ذلك -والعياذ بالله- لأنهم يعلمون أنهم مغبونون في ذلك الوقت {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً} [البقرة: 80].

قال: وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ: فعلى هذا ينبغي لكل مؤمن أن يَصقُل قلبه بالقراءة عن أحوال يوم القيامة، فإن هذا مما يُحيي القلب، ويُنعشه، ويحصِّل به التقوى.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

الدرس(31)

الإيمان بالقدر (1)

📖قال المؤلف -رحمه الله-: وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ. فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِما الْخَلْق عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ. فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلاَمُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، وَقَالَ: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ.

وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ.. وَنَحْوَ ذَلِكَ. فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فهذه مسألة القدر العظيمة؛ وذلك أن الإيمان بالقدر أحد أصول الإيمان، فقد ذكره الله تعالى في كتابه في غير ما موضع. فقال سبحانه: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 2] وقال: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 49].

وذكره النبي –صلى الله عليه وسلم– في حديث جبريل المشهور وفيه:(قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)[1]. فأعاد ذكر العامل وفصل فيه ما لم يُفصل فيما سبق من الأركان، وما ذاك إلا لأهميته.

–وبعض أهل العلم يرى أن أصول الإيمان خمسة، وأن ركن القدر داخل في الإيمان بالله تعالى، وذلك لأن متعلقاته ومراتبه تتعلق بصفات الله وأفعاله وبالتالي فهو جزءٌ من الإيمان بالله، لكن النبي –صلى الله عليه وسلم– خصه بالذكر من باب عطف الخاصِ على العام، فأعطاه مزيد عناية.

–وبعضهم يجعل الأصول ستة، ويجعل الإيمان بالقدر أصلًا مستقلًّا.

والناظر في كتاب الله يجد أن الله –تعالى– ربما ذكر الأركان الخمسة مجتمعة أو الأربعة، ولكن لم يذكر الستة بإدخال القدر معها في سياقٍ واحد، كما في قول الله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة: 177]، هذه خمسة، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} [النساء: 150] ، وقال في

آخر سورة البقرة: {كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [البقرة: 285].

فلا يذكر القدر معها، والظاهر –والله أعلم– أنه جزءٌ من الإيمان بالركن الأول الذي هو الإيمان بالله. ولهذا مشى شارح الطحاوية على القول الأصول الخمسة.

وأيًّا كان الأمر فالخُلف فيه يسير ولذلك فلا بد من بيان هذا الركن وتجليته، فإن كثيرًا من الناس يلحقهم في باب القدر نوع شبهة وإشكالات، وكثيرٌ من المؤمنين يُمسك ثقةً بالله وحسن ظنٍ به مع بقاء شيء يعترك في خاطره، والذي ينبغي للإنسان أن يكون على بينة من أمره، وأن يتبيَّن كل شيء؛ فإنه ما من شيء بحمد الله في

[1] صحيح البخاري (50)، صحيح مسلم(8).

ديننا وعقيدتنا إلا وهو واضح بيِّن، فالله تعالى وصف كتابه بأنه تبيان، ومُبين، وبيان وغير ذلك فما قد يخفى عليك يتضح لغيرك.

وبعضهم يُمسك على الخوض في القدر استصحابًا لآثار وأحاديث في هذا؛ بعضها يصح وبعضها لا يصح. ومعظمها لا يصح، وما صح منها فليس المراد فيه عدم الكلام في القدر مطلقًا من جنس مثلًا حديث (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه، وهم يختصمون في القدر، فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب) [1] يعني فنهاهم عن ذلك، ودعاهم إلى عدم الخوض فيه. فيجاب عن مثل هذا: بأن المنهي عنه هو الخوض فيه على وجه غير صحيح؛ إما بضرب بعض الآيات بعضها ببعض، وإما بما يدل على عدم إحسان الظن بالله تعالى، أو ما يدل على استطلاع المقدور والمغيب فهذه الأمورٌ لا سبيل للعلم بها.

ومما يُروى في ذلك أيضًا حديثُ: [إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا]، وعلى فرض صحته فليس المراد الإمساك المطلق، ولكن المراد الإمساك عن الخوض فيه بالباطل. بدليل أن ما ذكر معه في الجملتين لا يقصد بهما الإمساك المطلق. فالنجوم على سبيل المثال منها في تَعلُّمها ما هو محمودٌ مفيد ونافع ومنها ما هو منهي عنه. فعلم التسيير علمٌ نافع قال الله تعالى: {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [النحل: 16] ، وإنما المذموم منه علم التأثير واعتقاد أن للنجوم تأثيرًا في الحوادث الأرضية، كقولهم: مُطرنا بنوء كذا وكذا.

وكذلك أيضًا الصحابة –رضوان الله عليهم– الخوض فيهم بالباطل لا يجوز، لكن ذكر مناقبهم وفضائلهم وسيرهم العطرة أمرٌ محمود، ولم يزل أهل الإيمان وأهل العلم والسنة يُضمنون كتبهم بمناقب الصحابة أفرادًا وجماعات، فدل ذلك على أن الإمساك المنهي عنه هو الإمساك عن الخوض فيه بالباطل، وإلا فكيف يُثبت الله ذلك في كتابه، ويتكلم عنه نبيه –صلى الله عليه وسلم– في سنته، ويُجيب عن الإشكالات التي تطرأ على أصحابه في هذا ثم يقال لا يُقترب من هذا الأمر ولا يُتحدث فيه. لا، ليس هذا هو المراد وسيتبيَّن لنا –إن شاء الله تعالى– مما سنذكر هاهنا أن الأمر ولله الحمد في غاية البيان، وأنه عنوان ربوبية الله سبحانه وتعالى.

ولهذا قال ابن عباس: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده"، فالإيمان بالقدر نظام التوحيد والنظام هو السلك الذي تنظم فيه الخرزات، فلا يمكن أن يتمَّ إيمان إلا به.

ولما حضرت عبادة بن الصامت –رضي الله عنه– الوفاة دعا بابنه ووعظه موعظة بليغة وقال: "يا بني إنك لا تبلغ الإيمان ولن تذوق حلاوته حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك". فلا يمكنُ لأحدٍ أن يُحقق الإيمان إلا بالإيمان بالقدر، ولهذا عبر الشيخ في صدر هذه القطعة بقوله: وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ

[1] مسند أحمد (6668)، سنن ابن ماجه(84)، قال الألباني صحيح لغيرة (140) .

النَّاجِيَةُ: أعاد ذكر الوصف بالنجاة؛ لأن الذين ذلوا وضلوا وهلكوا في هذا الباب كثير إما من جهة الجبر وإما من جهة إنكار القدر. فأهل السنة والجماعة وسطٌ في هذا الباب بين طرفي الضلالة بين قومٍ غلوا في إثبات أفعال الله حتى سلبوا العبد فعله ومشيئته وقدرته وجعلوه كالريشة في مهب الريح، وهؤلاء هم الجبرية الذين يقول قائلهم: العبد مجبورٌ على فعله، العبد مُسير.

وفرقةٌ قابلتهم غَلت في أفعال العباد حتى أنكروا قدر الله السابق، وزعموا أن الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ولم يشأها منهم، وأن العبد يخلق فعل نفسه، وأن له مشيئة مستقلة عن مشيئة الله تعالى. فيقول قائلهم: العبد يخلق فعل نفسه. فأخرجوا أفعال العباد عن قدر الله تعالى، وبعضهم غلا حتى أنكر علم الله تعالى بما العباد عاملون، فهؤلاء على النقيض من أولئك، وكلاهما طرفا ضلالة في هذا الباب، وهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه ونجوا في الدنيا والآخرة؛ بأن أثبتوا القدر السابق وأثبتوا أفعال العباد لكنهم جعلوها تابعةً لقدر الله تعالى كما سيتبيَّن.

قال: وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ: المراد بالقدر هنا المقدور، وذلك أن لفظ القدر قد يُراد به القدر من حيث صدوره عن الله فهذا خيرٌ كله؛ كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ)[1] ، فالشر لا ينسب إلى الله، فكل ما حكم الله تعالى وقضى به فهو خير إما باعتبار حاله، أو باعتبار مآله، لكن الانقسام إلى خير وشر باعتبار المقدور نفسه، فالمقدور نفسه ربما كان خيرًا؛ كالصحة، والغنى والخصب، والعز. وربما كان شرًّا كأضدادها: كالمرض، والفقر، والجدب، والذل، وما أشبهه. فهذه يقال عنها: خير وشر ، حلو ومر. أما باعتبارها صدورها عن الله عز وجل فكل ما صدر عن الله عز وجل فهو خير؛ إما باعتبار ذاته وإما باعتبار مآله. ونزيد هذا –إن شاء الله– إيضاحًا لاحقًا.

قال: وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ: إذن كم المحصلة؟ أربع مراتب.

قال: وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ؛ أراد بالدرجةِ الأولى: مرتبتي: العلم والكتابة، وأراد بالدرجة الثانية مرتبتي: الخلق؛ المشيئة والخلق، وإنما قسم هذا التقسيم لأن منكري القدر على درجتين فمنهم من أنكر جميع المراتب الأربعة؛ وهم غلاة القدرية الذين ظهروا في أواخر عهد الصحابة، فأول حديث رواه الإمام مسلم في "صحيحه": أن رجلين من أهل العراق قدما ورغبا في لقاء أحدٍ من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال الراوي: كان أول من تكلم بالقدر رجلٌ يقال له "معبد الجهني" فخرجت أنا وصاحبي وقلنا لعلنا نوفق في أحدٍ من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فوفق لنا عبد الله بن عمر داخلًا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي وظننت أنه سيكل الكلم إلي فقلت: إنه قد ظهر قِبلنا أُناس يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم، ويزعمون أن الأمر أنف –يعني مستأنف على

[1] صحيح مسلم (771).

الله-؛ يعني بمعنى أنهم يزعمون بأن الله أمر ونهى ولا يعلم من سيطيعه ومن سيعصيه، فالله يعني الأمر بالنسبة له أُنف –مستأنف-، فقال عبد الله بن عمر: حدثنا أبي قال: [بينا نحن جلوس عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر وساق الحديث]، والشاهد منه، قوله: [وتؤمن بالقدر خيره وشره]، فساق الحديث لأجل هذه الجملة، ثم قال لهما: [إذا لقيتما أحد من هؤلاء فأخبراه أنني بريء منهم وأنه بريء مني]، تبرأ من القدرية.

وقال في سياق أخر؛ ويروى أيضًا عن ابن عباس: [والله لئن لقيت أحد منهم لأعضن بأنفه حتى ينقطع] من شدة حنقه وتغيظه على هؤلاء القدرية، فكان هؤلاء هم أوائل القدرية أتباع معبد الجهني.

ويقال أن معبدًا أخذ مقالته من رجلٍ مجوسي أو نصراني يقال له: سَنْسَوَيْه أو سوسن تعرفون الأسماء الأعجمية إذا نقلت للعربية يعتريها شيءٌ من التغيير فربما كان اسمه سوسن أو سَنْسَوَيْه أو غير ذلك فتلقى هذه المقالة منه؛ لأن الاضطراب في أمر القدر موجودٌ في الأمم قبلنا؛ موجودٌ عند جميع الأمم القديمة. فانتقل إلى هذه الأمة كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- [لتتبعُن سَنن من كان قبلكم ...] فأنكر صغار الصحابة يعني الذين عُمروا من الصحابة أنكروا على القدرية إنكارًا بليغًا وشنعوا عليهم، فكان القدرية الأوائل ينكرون أن الله تعالى يعلم ما العباد عاملون، ويقولون: إن الله لا يعلم إلا الأرزاق والأجل فقط، أما الطاعات والمعاصي من سيطيعه ومن يعصيه فهذا لا يعلمه ومن باب أولى أنه لم يكتبه، ومن لازم ذلك أنه لم يشأه منهم ومن لازم ذلك أنه لم يخلقه فأنكروا جميع المراتب الأربعة.

ثم جاء بعدهم المعتزلة فأرادوا تخفيف شناعة هذه المقولة فأثبتوا الدرجة الأولى التي هي: العلم والكتابة. وأنكروا: الخلق والمشيئة فقالوا: نعم قد علم وقد كتب، لكنه لم يشأ طاعة الطائع، ولا معصية العاصي، ولم يخلق ذلك فيهم، فأقروا بنصف الحق وردوا باقيه فالشيخ بناءً على هذا جعل الإيمان بالقدر على درجتين.

قال: كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ. وشرع في الدرجة الأول فقال: فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمٌ مِا الْخَلْق عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ:

هذه المرتبة هي مرتبة العلم فلا ريب أن ربنا سبحانه وتعالى له صفة العلم، وصفة العلم لله صفةٌ من صفاته الذاتية التي لا يتصور انفكاكها عن الله، فإن الله تعالى لم يزال ولا يزال ولن يزال عليمًا، لا يمكن أن يُوصف بضد العلم، ما ضد العلم؟ الجهل، {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: 231]، [الأنفال: 75]، [التوبة: 115]، [العنكبوت: 62]، [المجادلة: 7]{وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ} [يونس: 61]،{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: 19]، والآياتُ في ذكر علم الله عز وجل أكثر من أن

تُحصى، وقد مر بنا في مطلع هذه الرسالة؛ في مطلع العقيدة آيات كثر في بيان صفة علم الله عز وجل فلا داعي للإعادة.

إذن المرتبة الأولى من مراتب القدر التي هي القاعدة العريضة والأساس المتين: الاعتقاد الجازم بعلم الله المحيط بكل شيء جُملةً وتفصيلًا، أزلًا وأبدًا، كليًّا وجزئيًّا، ما يتعلق بأفعاله سبحانه من الآجال والأرزاق، وما يتعلقُ بأفعال عباده من الطاعات والمعاصي، فقد علم ما كان وما يكون وما سوف يكون وما لم يكن كيف لو كان يكون، هكذا يجب أن يمتلئ قلبك يقينًا بهذه الحقيقة أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية. (الاعتقاد الجازم بعلم الله المحيط بكل شيء جملةً وتفصيلًا). لماذا قلنا ذلك؟ لأن من أهل الأهواء والبدع من قال: إن الله يعلم بمجمل الأشياء دون تفاصيلها.

(كليًّا وجزئيًّا) لأن من أهل البدع من قال: يعلم بالكليات دون الجزئيات[1].

(أزلًا وأبدًا): أزلًا يعني ما كان في ما مضى، وأبدًا ما يكون في المستقبل، فليس علمه مقتصرًا على الواقعات، بل وحتى على ما لم يقع، علم ما كان في الماضي، وما يكون الآن، وما سوف يكون في المستقبل، لا وفوق ذلك وما لم يكن كيف لو كان يكون، من أين أتينا بهذا؟ قد دل عليه ناطق الكتاب قال الله تعالى: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام: 28]، وأمثال هذه الآية. وهم لن يردوا، لكن لو قدر أنهم ردوا، فقد علم الله أنهم يعودون لما نهوا عنه.

إذن علم الله متعلق بهذا كله؛ متعلقٌ بأفعاله سبحانه من الآجال، والأرزاق، والإحياء، والإماتة، وإنزال المطر، وإنبات الأرض، وإدرار الضرع، والكوارث، والفيضانات وغير ذلك. كل شيء قد علمه الله مما يتعلق بصفات ربوبيته، وعلم سبحانه أيضًا بأفعال العباد من الطاعات والمعاصي؛ قد علم الله تعالى أهل الجنة وفرغ منهم، وعلم أهل النار وفرغ منهم، وقدر ذلك عليهم سبحانه وبحمده قبض قبضة فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وقبض قبضة وقال: هؤلاء في النار ولا أبالي، فالله سبحانه وتعالى قد حكم هذا في عباده منذ الأزل علم من سيطيعه ومن سيعصيه فهذه المرتبة هي المرتبة الأولى التي يفارق فيها غلاة القدرية، فيْضل في مبتدأ الأمر، فالله سبحانه وتعالى له العلم بما سمعتم.

ثم قال: ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؛ هذه هي المرتبة الثانية وهي مرتبة: الكتابة؛ لا بد من الإيمان بها.

قال: ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ. يعني هذه المقدورات من الطاعات، والمعاصي، والآجال، والأرزاق؛ أثبتها الله تعالى كتابةً في اللوح المحفوظ. واللوح المحفوظ هو الكتاب المبين. هو الجامع أمُّ

---

(1) انظر الجواب الصحيح (353/1)، (5,27)، (34/6) ط العاصمة، الرد على المنطقيين (104/1)دار المعرفة ، الصفدية (299/2) مكتبة ابن تيمية، درء تعارض العقل (400/9) الكتب العلمية بيروت.

الكتاب؛ الجامع لكل شيء. ففي اللوح المحفوظ كل شيء، {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس: 12]،{يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: 39]، {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ } [البروج: 21، 22]، {فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: 78، 79]، هذا اللوح المحفوظ – الله أعلم– بصفته، ورد أحاديث بأنه من ياقوتة حمراء، لكن هذا لا يثبت، ولا يلزم أن ندرك كيفيته فهو غيبٌ من الله ويكفي بأن نؤمن بأن هذا اللوح ظرف للمكتوبات والمقادير.

ما الذي كتب الله فيه؟ جاء في حديث رواه أهل السنن وسنده حسن: [أولُ ما خلق الله القلم قال له: اكتب]. وفي ضبط أولَ ما خلق الله القلم قال له: اكتب، وعلى نصبها على الظرفية [أولَ ما خلق الله القلم]، يعني ساعة خلق الله القلم، حين خلق الله القلم قال له: اكتب، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ وهذا القلم هو قلم القدر الأول وهو أكبر الأقلام، فقال الله تعالى له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قَالَ: [اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]، والله تعالى إذا قال للشيء كن فيكون، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة بكل شيء، وهذه الكتابة للتوثيق؛ فجميع المقدورات مكتوبة، وقد روى الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنه عنهما– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: [إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء حتى العجز والكيس] يعني حتى الصفات صفات الناس من الحزم والكياسة، أو العجز والتفريط مكتوب كل شيء. فاللوح المحفوظ متضمن لجميع المقادير وإن دقت وإن بطلت، كل شيءٍ فيه، إذن لا بد من الإيمان بهذه، فقد كتب سبحانه وتعالى منذ الأزل جميع المقادير. إذن ما دام الأمر كذلك قد علمه الله وكتبه، قال الشيخ: فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلاَمُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ: وهذه عباراتٌ نبويةٌ أثرية جاءت في أحاديث. فقد رفع ذلك بعض الصحابة إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. وجاء في كلام عبادة بن الصامت ومثل هذا لا يمكن إلا أن يكون مرفوعًا، وجاء في وصية النبي –صلى الله عليه وسلم– لابن عباس الجملتان الأخيرتين؛ فقد قال –صلى الله عليه وسلم– لابن عباس: [واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وطويت الصحف]، أو [جفت الأقلام وطويت الصحف] إذن هذه حقيقة وكناية أيضًا عن أن الله تعالى أغلق هذا ويعني كتب ما الخلق عاملون، فما في اللوح المحفوظ لا يزاد فيه ولا ينقص ولا يُغير ولا يُبدل. إذن هاتان مرتبتان مرتبة العلم ومرتبة الكتابة.

ثم دلَّل على ذلك بقول الله تعالى، فقال:كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحج: 70]: هذه الآية جمعت المرتبتين: العلم والكتابة، تأملوا: {أَلَمْ

تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ}: أي المعلوم، {فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، فما أصرحها من آية في بيان هاتين المرتبتين! ثم ثنى بقوله: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد: 22].

قال: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ} أيًّا كانت فهذا يتناول يدل على العموم أي مصيبة، فالنكرة في سياق الشرط تدل على العموم، {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ}: مهما كانت {فِي الأَرْضِ}: من الحوادث الأرضية أو {وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ}: مما يقع في النفس من المرض والعلل والفرح والترح وغير ذلك، {إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}: أي من قبل أن نخلقها ونوجدها نخرجها إلى العيان، {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

فهذه هي الآيات الدالة على إثبات مرتبة العلم والكتابة.

ثم اتبع الشيخ بقوله: وَهَذَا التَّقْدِيرُ: أي الدرجة الأولى.

قال: التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا: أي يكون في مواضع جملة وفي مواضع تفصيلًا هذا هو المراد؛ يعني أن هذه المقدورات تكون في بعض النصوص أو تكون في بعض المواضع مجملة، وتكون في بعضها مفصلة.

ثم بيَّن ذلك فقال:فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ. وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ.. وَنَحْوَ ذَلِكَ: ما في اللوح المحفوظ جُملة شاملة لجميع مقدورات الخلائق؛ فقد أجُمل في اللوح المحفوظ جميع ما يتعلق بالخلائق، لكن هناك بعض التفاصيل المستنسخة المستنزلة من اللوح المحفوظ، فالتقادير أنواع يمكن أن نذكر منها أربعة: التقدير الكوني، والتقدير العمري (الجنيني)، والتقدير السنوي، والتقدير اليومي، أرأيتم كيف يكون التفصيل؟ هذا معنى قوله: (يكون في مواضع جملة وفي مواضع تفصيل).

فالتقدير الكوني: هو ما في اللوح المحفوظ، فهذا التقدير الكوني القدري هذا يكون في جميع المعلومات المتعلقة بالخلق.

والتقدير العمري أو الجنيني: هو ما دل عليه حديث عبد الله بن مسعود قال: حدثنا الصادق المصدوق، يعني من؟ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك. –كم صار المجموع؟ مائة وعشرين، أربعة أشهر– ثم يُرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، هذه المكتوبات الأربعة أو الكلمات الأربع من أين يأتي بها الملك؟ مما في اللوح المحفوظ. فهو يأخذ مما في اللوح المحفوظ هذه البيانات المتعلقة بهذا التفصيل لهذا المعين. إذن هذا نوع من التفصيل ولا تعارض بين هذا التقدير وبين التقدير الكوني.

والتقديرُ السنوي: هو الذي ذكر الله تعالى في ليلة القدر قال: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: 4]، والصحيح أن تقادير العام من الصحة، والمرض، والحياة، والموت يقع في ليلة القدر. فليلة القدر سميت بهذا الاسم لسببين: لعظيم قدرها. والثاني: لأنه يقدر فيها حوادث العامة. وليس معنى التقدير أنه حادث لا، وإنما هو شيءٌ مستمد مما في اللوح المحفوظ يجري تجديده في صحائف الملائكة فهذا هو التقدير السنوي، وبه يتبيَّن خطأ بعض الناس الذين يعتقدون أن ليلة السابع والعشرين من شعبان هي ليلة المحو والكتب، هذا ليس صوابًا، أو ليلة النصف من شعبان ليلة المحو والكتب وهذا ليس صحيحًا فإن المحو والكتابة والتقدير إنما يكون في ليلة القدر.

والتقدير اليومي: دل عليه قول الله تعالى: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: 29].

فهو سبحانه وتعالى يأمر وينهى، يعز ويذل، يجري من الأقدار ما لا حصر له ولا يُحيط به إلا هو سبحانه، فهذه التفاصيل لا تتنافى مع التقدير الإجمالي الذي في اللوح المحفوظ.

قال: فَهَذَا الْقَدِيرُ: أي فهذا القدر أو فهذا التقدير.

قال: قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ: أي مرتبة العلم والكتابة كان غُلاة القدرية "معبد الجهني" ومن على طريقته كانوا ينكرونه، لكن نظرًا لشناعته هذه المقالة ولأنها تتضمن وصف الله بم؟ بالجهل، انحسرت هذه المقالة وتلاشت أو ضعفت حتى كانت في زمن شيخ الإسلام لا يُعرف لها منكرًا إلا قليلًا.

الدرس (32)

الإيمان بالقدر (2)

قال: وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلاَ سُكُونٍ؛ إلاَّ بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، لاَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لاَ يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ إلاَّ اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ: هذه هي الدرجة الثانية وقد تضمنت كما قال الشيخ شيئين أو مرتبتين: أولهما: مرتبة المشيئة. ماذا تعني؟ تعني: الاعتقاد الجازم بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يكون في ملكه ما لا يريد، لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع، ولا راد لما قدر.

قال: وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلاَ سُكُونٍ؛ إلاَّ بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ. لاَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لاَ يُرِيدُ : إذن في هذا إثباتُ طلاقة المشيئة الإلهية، وأنه لا يُمكن أن يقع في مُلك الله ما لا يريده الله، فالمشيئة أخص من الإرادة.

الإرادة كما مر بنا في أول هذا الكتاب تنقسم إلى: كونية وشرعية. الإرادة الكونية: هي المشيئة فما شاء الله كونًا لا بد من وقوعه، أما ما يريده الله شرعًا فقد يقع وقد لا يقع. فالمقصود هاهنا المشيئة، فلا بد من الاعتقاد الجازم بمشيئة

الله النافذة وقدرته الشاملة، فإذا شاء شيئًا فلا بد من وقوعه، {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: 40] فلا يكاد يتصور أن يشاء الله كون شيئًا ثم لا يقع، أو يشاء العبدُ شيئًا والله لم يشأه فتقع مشيئة العبد وتتخلف مشيئة الرب. هذا ممتنع فمشيئته سبحانه وتعالى متعلقةٌ بكل حركةٍ وسكون، لا يكون في ملكه ما لا يريد؛ لأن هذا هو مقتضى ربوبيته لا يكون الرب إلا نافذ الأمر، لأن من خصائص الربوبية الملك والتدبير والخلق. فكيف يقع في ملكه ما لا يريد كما يزعم المنكرون؟! .

قال: وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ إِلاَّ اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ: هذه هي المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق وهي: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى خالق كل شيء، فالله الخالق وما سواه مخلوق، الاعتقاد الجازم بأن الله خلق جميع الموجودات ذواتها وصفاتها وحركتها، ذواتها يعني أصلها، وصفاتها يعني الأعراض التي تقوم فيها، وحركاتها ما تنفعل به من أفعال. كل شيء مخلوق لله عز وجل، إذن الله خلقك أيها العبد وخلق صفاتك المختلفة كالعجز الكيس، وخلق حركاتك وانفعالاتك من طاعاتٍ ومعاص، كل شيء مخلوق؛ الله الخالق وما سواه مخلوق، {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد: 16]، [الزمر: 62]،{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [الأنعام: 101]، [الفرقان: 2]،{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96].

إذن لا يتم الإيمان بالقدر إلا بهذا، وهذه الدرجة أنكرتها المعتزلة، وقالت: نعم نُقرُّ بالعلم ونُقرُّ بالكتابة لكن لا ننسب إلى الله مشيئة الطاعات والمعاصي، فكيف يترتب ثوابٌ وعقاب والله هو الذي شاءها منهم؟!، وكيف وينكرون الخلق يقولون: كيف يترتب ثواب وعقاب والله هو الذي خلق أفعال العباد؟! كيف يستحقون الجنة والله هو الذي شاء والله هو الذي خلق؟! وكيف يستحقون النار والله هو الذي شاء وهو الذي خلق؟! كيف يُقدِّر عليهم ويعذبهم؟!، هذا ظلم. هكذا بفهمهم القاصر تبادر الذي تبادر على أذهانهم؛ فحملهم على إنكار المشيئة والخلق.

ولا شك أن هذه شبهة قديمة وتّعْرَض لكثيرٍ من الناس حتى إنها عرضت الصحابة -رضوان الله عليهم- ولم يعنفهم النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما خطر ذلك ببالهم وسألوه بل أجابهم بجوابٍ بيِّن مُقنع في شفاء الصدور. فخرج مرة مع أصحابه في جنازة فاجتمعوا حوله والقبر لما يُلحد فقال: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ). ماذا يُفهم من هذا؟ أن الله قدر المقادير وأهل الجنة وأهل النار وكل شيء. فقالوا على البديهة: **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟** ما دام أن كل شيء مكتوب ومقدر فلم لا نتكل على كتابنا السابق وندع العمل لا نشتغل ولا نرهق أنفسنا بالطاعات والجهاد في سبيل الله، وصيام رمضان، وقيام الليل إلخ، ونأخذ راحتنا فيما نحتاج إليه وما تميل إليه نفوسنا قال: قَالَ: (اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ)، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى} [الليل: 6] الآيَةَ[1]، ولم يقل الصحابة شيئًا بعد ذلك، طابت نفوسهم واقتنعوا، وسرُّ

[1] صحيح البخاري (4949).

هذا الأمر كالتالي؛ الله سبحانه وبحمده قد قدر منذ الأزل ما الخلق عاملون وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، ولكنه سبحانه أخفى ذلك عن عباده وأعطاهم من الأدوات والآلات ما يتمكنون فيه من الفعل أو الترك، وأظهر لهم الشرع وقال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار فقد غيب عنهم سبحانه كتاب القدر وأظهر لهم كتاب الشرع وقال: اعملوا، وكل إنسان يُميز في نفسه بين أفعاله الاضطرارية وأفعاله الاختيارية بدليل أنه في أموره الدنيوية يبحث من الأعمال ما يلائمه ولا يتكَّل على القدر، أليس كذلك؟ أليس أحدنا مع إيمانه بالقدر يسعى في مصالحه الخاصة إذا أراد مالًا ذهب لطلب الرزق وضرب في الأرض وخرج في البرد القارس أو في الحر اللاهب يطلب رزقه، ولا يقول كل شيء مقدر إن كان لي رزق فسيأتيني في قعر بيتي؟ إذا أراد الولد تزوج ونكح وسأل الله تعالى أن يرزقه الولد، ولم يقل: إن كان الله قسم لي الذرية فسيطرقون علي الباب ويقولون: نحن أبناؤك! ما أحد يفكر بهذه الطريقة، لا أحد يفكر هكذا مع إيمانهم بالقدر، فالله سبحانه وتعالى كما قد أظهر لنا ما يُصلحنا في معاشنا وأظهر لنا ما يُصلحنا في معادنا فكيف نُعمل ما يناسب ويلائم دنيانا، ولا نعمل ولا نشتغل بما يناسب آخرتنا اتكالًا على القدر؟! فالأمر يرجع إلى أن على الإنسان أن يطوي صفحة القدر ويدعها إلى مُقدرها سبحانه وتعالى ويقبل بكُليته على الشرع فما أمر الله به امتثله، وما نهاه عنه اجتنبه، ويُحسن الظن بربه أن الله سييسره لليسرى إن هو عمل ذلك.

ولهذا كما بيَّنا لكم سابقًا إذا قيل لك هل العبد مسيرٌ أم مخير؟ فلا تقل مسير بإطلاق، ولا تقل مخير بإطلاق، إن قلت مسير بإطلاق فإنك بذلك تلغي مشيئة العبد وفعله، وقد قال الله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ}، وقال: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ} : إلى من أسند الله هذه الأفعال؟ للإنسان، وقال: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} [التكوير: 28]، فأثبت للإنسان مشيئة وفعل الذي هو الاستقامة، فلو قال قائل: العبد مسير كأنه يقول: العبد مجبور لا إرادة له، ولا فعل، ولا اختيار وكل واحد منا يجد من نفسه أن له إرادة حقيقة وله فعل حقيقي، كل واحد منا أتى إلى هذا المكان بمحض إرادته وطوع اختياره لم يأت مقهورًا مكسورًا، وإنما جاء من تلقاء نفسه بمحض إرادته وسبق إصراره. كذلك أيضًا هذا الذي يخشى محارم الله لا يجد من نفسه أنه محمولٌ على ذلك حملًا وإنما يجد في نفسه أنه يفعل هذا مع سبق إصراره ومحض اختياره.

فهذا يدلنا على أن الإنسان مستحقٌ للثواب والعقاب عدلًا من الله عز وجل، عدلًا من الله ورحمة للمحسنين، وعدلًا في الظالمين، فلا حجة لأحد في القدر السابق كما اشتبه هذا على المعتزلة بل ولا على عموم القدرية فإننا نقول لهم: لا شبهة لكم، لأن آحاد الناس قد غُيّب عنهم القدر وأُظهر لهم الشرع وأُعطوا من الأدوات والآلات ما يمكنهم من الفعل والترك.

متى يكون الأمر ظلمًا –وحاشا أن يكون– ؟ لو أن الله سبحانه أطلع عباده وقال: أنت يا فلان ويا فلان ويا فلان من أهل النار وعليكم أن تعملوا بالشر لكان ذلك ظلم؛ لأنه كيف يحملون على أمرٍ وهم قد علموا بأن منتهاهم إلى غيره؟! هذا هو الظلم. أما أن يُغيِّب الله عنهم ذلك ثم يدعهم يعملون وهم فيما يأتون وما يذرون يفعلون هذا عن علمٍ

وبينة فهذا ليس من الظلم في شيء، وبالجملة فإن التفكير في القدر بمعنى ما الذي يُمكن أن يكون القدر أو الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي وترك الطاعات هو المذموم الذي جاءت النصوص -إن صحت- في النهي عن الخوض فيه.

وقد أنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين احتاجهم بالقدر، فقال سبحانه: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 148]، هو صحيح لو شاء الله ما أشركوا ولا آباؤهم ولا حرموا من شيء، ليس الشأن هنا الشأن هل لهم حجة بالقدر على شركهم وتحريمهم ما أحل الله؟ لا، استمع كيف رد الله عليهم، رد عليهم في الآية من ثلاثة وجوه:

فقال أولًا: {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الأنعام: 148] فسمى مقالتهم كذبًا والكذب هو مخالفة الخبر للواقع.

ثم ثنى فقال: {حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا} [الأنعام: 148] ولو كان لهم حجةٌ في القدر ما أذاقهم الله بأسه؛ لأن الله حكم عدل مقسِط لا يظلم مقال ذرة.

ثم جاءت الثالثة التي تنسف أصل شبهتهم فقال لهم: {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} [الأنعام: 148] هل عندكم من علم؟ هل اطلعتم على اللوح المحفوظ فوجدتم أنكم تشركون وأنكم تحرمون ما أحل الله ففعلتم ذلك بناء على اطلاع سابق؟ هل يستطيعون أن يقولوا: نعم اطلعنا؟ لا. إذن ما حقيقة الأمر؟ {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام: 148].

وهذه الدعوة -يرعاكم الله- يمارسها أحيانًا بعض البطالين العطالين الفساق فتجد أحدهم حينما ينهى عن معصية يقول: يا أخي هذا شيء كرهت والله قدر علي هذا، يحتج بقدر الله على معصية الله. أو إذا أمر بالطاعة قال: لو كتب الله لي ذلك لفعلته، هل له حجة في القدر؟ لا والله، يقال له: وما يدريك أن الله سبحانه وتعالى قد كتب عليك أو لم يكتب عليك قبل الفعل؟، حينما يشتري الإنسان مثلًا عنقودًا من عنب بإمكانه أن يأكله حبةً حبة يسمي الله في أوله ويحمد الله في آخره فيؤجر أليس كذلك؟! وبإمكانه أن يعصره ويدعه يتخمر حتى يزبد ويصبح نبيذًا فيشربه فيسكر، أليس كذلك؟ يمكنه هذا ويمكنه هذا. فالأول مأجور، والثاني مأزور. وكل منهم أتى ما أتاه بمحض إرادته وسبق إصراره، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: 46].

فهذا الذي يحتاج بقدر الله على معصية الله لا حجة له. كيف تحتج بشيءٍ لم تعلم أنه قدر الله عليك إلا بعد صدوره منك؟ لو علمته أن هذا هو قدر الله عليك قبل فعلك له لكنت بذلك معذورًا، لكنك ما علمت بأن هذا هو قدر الله عليك إلا بعد أن عرفته عن علم وعن بينة، عصيت الله على بينة.

وكما أسلفنا أن هذا الذي يحتج بقدر الله على معصية الله لا يصنع ذلك في أموره الدنيوية؛ إذا جاء البرد لبس الملابس الدافئة، وإذا جاء الصيف تخفف منها. فإذا قيل له: لم تفعل هذا؟ قال: أخشى أن يلحقني مرض. لو قيل له: إن

كان الله قد كتب عليك مرضًا فستمرض ولو لبست جميع ثياب العالمين، هل يقبل بهذا؟ لا، لا يقبل أن يخرج عاريًا في شدة البرد، مع أنه يحتج بقدر الله على معصية الله.

ويقال إن سارقًا رُفع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد سرق فأمر عمر رضي الله عنه بقطع يديه فقال: مهلًا يا أمير المؤمنين إنما سرقت بقدر الله، -مسكين أن يحتج على عمر رضي الله عنه- قال: إنما سرقت بقدر الله. فقال عمر -رضي الله عنه-: ونحن نقطع يدك بقدر الله. وأضاف شيخنا -رحمه الله- قال أيضًا: وبشرع الله: ولهذا عتب عمر -رضي الله عنه- على أبي عبيدة حينما نزل طاعون عمواس بالشام فلم يدخل عمر -رضي الله عنه دمشق-، فكتب إليه أبو عبيدة "أن يا أمير المؤمنين أتفر من قضاء الله؟ فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نفر من قدر الله إلى قدر الله"، فلا حرج على الإنسان أن يستدفع القدر، لا يجب علينا أن نرضى بالمقدر، علينا أن ندفع المقدر ما استطعنا، الشيء الذي يمكننا دفعه وتخفيفه مشروع لنا أن نستدفعه بالدعاء، بكل وسيلةٍ لنا فيها مصلحة، (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[1].

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ،وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الْكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ.

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَلَقَ أَفْعَالَهُم. وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ .وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَقُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29) } [التكوير: 28، 29]، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

تقدم في الدرسين الماضيين من دروس القدر ذكر مراتب الإيمان بالقدر، وأنه لا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيق أربع مراتب: المرتبة الأولى: مرتبة العلم، وهو الاعتقاد الجازم بعلم الله المحيط بكل شيء جملةً وتفصيلًا، أزلًا وأبدًا، ما يتعلق بأفعاله وما يتعلق بأفعال عباده، أي من الآجال والأرزاق ومن الطاعات و المعاصي؛ فقد علم ما كان وما يكون وما سوف يكون وما لم يكن كيف كان يكون بعلمه الذي هو صفة من صفاته الذاتية.

والمرتبة الثانية: الاعتقاد الجازم بكتابة الله تعالى لمعلومه هذا في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وهاتان المرتبتان قد كان ينكرهما غلاة القدرية قديمًا، ويزعمون أن الأمر أنف، وأن الله تعالى أمر العباد ونهاهم ثم هو لا يعلم من يطيعه ومن سيعصيه.

[1] صحيح مسلم (2664).

وأما المرتبة الثالثة: فهي الاعتقاد بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، فما شاءا الله كان ولما لم يشأ لم يكن، لا يكون في ملكه ما لا يريد، ومشيئات العباد داخلة تحت مشيئته –سبحانه وتعالى– كما قال: { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29) } [التكوير: 28، 29].

والمرتبة الرابعة: هي الاعتقاد الجازم بأن الله خالق كل شيء، فالله الخالق وما سواه مخلوق، فقد خلق جميع الأشياء: ذواتها وصفاتها وحركاتها، فلا خالق معه سبحانه، لا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحصل هذه المراتب الأربعة، فمن أخل بشيء منها فقد بطل إيمانه بالقدر، ومن بطل إيمانه بالقدر فقد أخل بالإيمان بالله وربوبيته.

وهاتان المرتبتان الأخيرتان، أعني بهما المشيئة والخلق أنكرهما المعتزلة، وهم متأخرو القدرية، أقروا بالعلم والكتابة وأنكروا المشيئة والخلق، فلا بد من تحصيل هذه المراتب الأربع والتيقن منها.

ولما قرر الشيخ –رحمه الله– هذا بهذا البيان الجلي وأورد الأدلة من الكتاب والسنة أراد أن يرفع إشكالًا وهو ظن بعض الناس بوجود تلازم بين المحبة والمشيئة، فبين –رحمه الله– في القطعة التي جرت قراءتها بأنه قد يحب ما لا يشاء وقد يشاء ما لا يحب، فلا تلازم بين المحبة والمشيئة؛ وأن الناس في العلاقة بين الشرع والقدر مضطربون، كيف نضبط العلاقة بين الشرع والقدر؟ فقد يرد هذا بل إنه يرد هذا الإشكال على بعض النفوس، كيف قدر المقادير ثم هو يحاسب العباد ويثيب بعضهم ويعذب آخرين؟! وسر هذا كما أفصحنا عنه في أكثر من مرة أن لله كتابين: كتاب ظاهر بين مفتوح وهو الشرع وكتاب غيب مكنون وهو القدر، فالله تعالى أظهر لنا الشرع وقال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني دخل النار. وأخفى كتابًا هو القدر، فقد سبق في علمه من سيطيعه ومن سيعصيه، وبالتالي فإنه لا حجة لأحد بقدر الله على معصية الله، إذ الله تعالى قد أخفى مقادير العباد.

انقسم الناس في العلاقة بين الشرع والقدر إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: سماهم شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض كتبه المشركية، وهم الذي أقروا بالقدر وأنكروا الشرع.

القسم الثاني: وهم عكسهم تمامًا وهم المجوسية، وهم الذين أقروا بالشرع وأنكروا القدر.

القسم الثالث: سماهم الإبليسية نسبةً إلى إبليس، وهم الذين اعترفوا بالشرع والقدر لكن زعموا أن بينهما تناقضًا.

القسم الرابع: فهم أهل السنة والجماعة الذين أقروا بالشرع والقدر ولم يروا بينهما تناقضًا ولا تعارضًا.

وبيان هذا الإجمال كما يلي:

أما المشركية فنسبتهم إلى المشركين ، إذ المشركون زعموا وقالوا: { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام: 148] فأثبتوا القدر والمشيئة السابقة، لكنهم احتجوا بها على الشرع وأعفوا أنفسهم من الأمر والنهي؛ فكان نبي الله –صلى الله عليه وسلم– يأمرهم وينهاهم ولا يستجيبون الله. { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام: 148] فهؤلاء ومن شابههم في هذه الأمة يقال لهم مشركية، من يقابلهم في الأمة؟ من في

طوائف الضلال في هذه الأمة من أهل القبلة من يثبت القدر وينكر الشرع؟ **الجبرية، الجبرية الذين يقولون: العبد مجبور على فعله.**

والجبرية صنفان: غلاة، ودون ذلك، **فغلاتهم هم زنادقة الصوفية** الذين يزعم أحدهم بأنه يشهد المشهد الكوني، وأن جميع تصرفاته بمثابة حفيف الأشجار وجريان المياه في الأنهار وحركة الليل والنهار، وأنهم منساقون مع المشهد الكوني، فيعفون أنفسهم من الأوامر والنواهي، ويزعمون بأنهم مستغرقون في بحر وحدة الوجود، فيسوغوا لأنفسهم غشيان العاصي والكبائر بدعوى أنهم كما يقول قائلهم:

أصبحت منفعلًا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات

—عياذًا بالله– فهؤلاء هم أخبث الفرق.

أما المجوسية فنسبتهم إلى المجوس؛ لأن المجوس في بني آدم هو الوحيدون الذين أثبتوا خالقًا مع الله؛ فندوا بذلك وشذوا عن بني آدم جميعًا، **فشابههم في هذه الأمة القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه.**

والقدرية صنفان كما أسلفنا، قدرية غلاة وهم الذين أنكروا جميع المراتب الأربعة السابقة وإمامهم وشيخهم معبد الجهني الذي ظهر في أواخر الصحابة، ومتأخروهم أو مقتصدوهم هم الذين أثبتوا العلم والكتابة ولكنهم أنكروا المشيئة والخلق، فهؤلاء القدرية سموا مجوسًا؛ لأنهم يثبتون خالقًا مستقلًا مع الله وهو العبد، فيزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه لكنهم يعظمون الأمر والنهي، بمعنى أنهم يلزمون أنفسهم بفعل الأوامر واجتناب المناهي، ولهذا جعلهم شيخ الإسلام بن تيمية —رحمه الله– أقل شرًا وخبثًا من الطبقة الأولى الذين هم الجبرية ذلك لالتزامهم بالشريعة وإن كانوا قد وقعوا في أمر عظيم حينما أخلوا بالربوبية، لكن هذا بسبب الشبهة التي طرأت عليهم.

ونسيت أن أذكر الصنف الثاني من الجبرية؛ لأني قلت أن الجبرية صنفان: غلاة ودون ذلك، الذين دون ذلك **هم الأشاعرة؛** لأن الأشاعرة هم فئة أو فرقة من فرق الجبرية في الواقع لكنهم حاولوا أن يلفقوا مقالةً بين مقالة الجبرية وبين مقالة أهل السنة، فزعموا أنهم يثبتون للعبادة قدرةً ومشيئة لكنها قدرة غير مؤثرة، هم نعم وافقوا أهل السنة في إثبات القدر السابق وفارقوا في ذلك المعتزلة لكنهم لم يحسنوا فهم عقيدة أهل السنة والجماعة، فظنوا أنهم بإثباتهم القدر السابق أنه لا يسوغ إثبات قدرة حقيقة للعبد، فقالوا بقدرة مزعومة سموها الكسب، ولا علاقة لهذا اللفظ بقول الله تعالى: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة: 286] لكن هم ألبسوها هذا اللفظ الشرعي ولا علاقة له به في الواقع؛ فزعموا بالكسب وأن الله تعالى يخلق فعلًا مقارنًا للفعل الذي يتمظهر به العبد، وهم لا يستطيعون أن يعبروا عن هذا بلغة واحدة، ولا نحن الحقيقة نستطيع أن نعبر؛ لأنه أمر غير متعقل، حتى قال أو أنشد بعضهم:

مـــم ـــا يقال ولا حقيقة عـنـده معقولة تدنو الى الأفهام

الكسب عند الأشعري والحال عنـــ ـــد الهاشمي وطفرة النظام

ثلاث قضايا كلامية لا يمكن التعبير عنها بلغة واضحة مقنعة، فنظرية الكسب عند الأشاعرة تفترض وجود قدرة للعبد مقارنة للفعل لكن هذه القدرة غير مؤثرة، فكيف تكون إذًا قدرةً؟ هاتان فرقتان.

الفرقة الثالثة من فرق الناس حيال الشرع والقدر الإبليسية، وذلك أن إبليس كان مقرًا بالقدر، مقرًا بلزوم الشرع لكن زعم أن بينهما تناقضًا، {قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} [الإسراء: 61، 62]، كان عنده اعتراض مع أنه يثبت الربوبية لله،{ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: 82] {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: 12] يثبت الخلق ويرى أن الله أن يأمره وينهاه، ولذلك كان في عداد الملائكة، {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ} [الأعراف: 11] فلما وقع في قلبه – والعياذ بالله- ما وقع من الكبر والحسد زعم أن بين الشرع والقدر تناقضًا، ويشبه هذا في هذه الأمة أصحاب الإلحاد والشكوك الذين يطعنون في الشريعة ويدسون شبهاتهم فيها كقول أحدهم:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

هذا النفس التشككي الذي يقع عند بعض الملاحدة ويبثونه شعرًا ونثرًا يجعلهم ينمون إلى أهل الفئة.

أما أهل السنة والجماعة فهم بحمد الله قد أقروا بالشرع والقدر على وجه لا تناقض فيه، ورأوا أن يكون مقتضى الربوبية أن يكون الله خالق كل شيء، وأن له المشيئة المطلقة، وأنه قد علم وكتب، الخلق خلقه وهو السيد الآمر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولكنه درأ العباد وابتلاهم وأخفى عنهم قدرهم وأعطاهم من الأدوات والآلات ما يتمكنون فيها من الفعل والترك، فأحدهم يجد قبل أن يقدم على فعل إرادةً حقيقةً ومشيئةً حقيقةً، بها يأتي وبها يذر، وبالتالي ما كسبوه أو اكتسبوه يترتب عليه الثواب والعقاب، هذه هي التقسيمات الأربعة للعلاقة الممكنة بين الشرع والقدر.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

الدرس (33)

إثبات مشيئة العبد

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–: وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ،وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الْكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ.

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَلَقَ أفْعَالَهُم. وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ .وِلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَقُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29) } [التكوير: 28، 29]، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ

الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

يقول الشيخ –رحمه الله–: وَمَعَ ذَلِكَ . يعني ومع ما تقدم من إثبات القدر بمراتبه الأربعة، **فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ** . أي بمعنى لا تعارض بين القدر والشرع، هو الذي قدر وهو الذي شرع، فلا تعارض بين الشرع والقدر.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الْكُفْرَ، وَلاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ.

أراد بذلك أن يبين بأنه لا تلازم بين المشيئة والمحبة، الله تعالى يحب التقوى ويحب الإحسان ويحب المقسطين، ويحب أهلها المتقون والمحسنون والمقسطون، ومع ذلك فلم يجعل الناس جميعًا على هذه الصفة، لم يجعلهم جميعًا متقين ومحسين ومقسطين، فليس كل ما أحبه شاءه، كذلك أيضًا هو يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات –سبحانه– ورضاه عنهم لا يمنع أن يكون في الناس من يكون كافرًا لا يعمل الصالحات، وبالمقابل لا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد، ومع ذلك فإن بغضه لهذه الأشياء ولأصحابها لم يمنع من تقديره إياها.

فإن قال قائل: لما إذًا لا يشاء إلا ما يحب فقط ويمنع ما يبغض؟ فيقال: الله تعالى له حكمة في كل ما يصدر عنه سبحانه، فهذه الحكمة قد تكون حكمةً حاليةً وقد تكون حكمةً مآليةً.

وأضرب لذلك مثلًا واضحًا بينًا، خلق محمد –صلى الله عليه وسلم– أراده الله تعالى وشاءه لذاته، فالله تعالى يحب محمدًا –صلى الله عليه وسلم– وما جاء به من الهدى ودين الحق، فلذلك قدر الله تعالى خلق محمد وبعثته ورسالته ودينه وما استتبع ذلك، فأراد الله هذا لذاته، على النقيض تمامًا قدر الله تعالى خلق إبليس فالله تعالى هو خالق إبليس وهو الذي قدر عليه ما قدر وما ترتب على خلق إبليس من الكفر والفواحش والمعاصي، الكبائر والصغائر والفسوق والعصيان والبدعة والشهوات، إلى غير ذلك، هو قدره –سبحانه– لكنه –سبحانه– ما قدره لذاته وإنما لمآلاته وإنما لما يترتب عليه من الحكم والمصالح، فلولا خلق إبليس ما تميز المؤمنون من الكفار ولا الأبرار من الفجار ولا قام سوق الجنة والنار، ولا رفع علم الجهاد، ولا وجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا وجدت التوبة، بل ولا عرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، كأسماء العزة والجلال وأسماء الرحمة والمغفرة، فإن هذه إنما تتبدى بحصول هذا الأمر.

فالساذج المغفل يقول: لماذا يقع كذا وكذا؟ كما يقول مثلًا بعضهم: لماذا خلق الله الأمراض؟ لماذا خلق الله العقارب والحيات والذباب؟ هكذا، يظنون أن هذا خلاف الحكمة، ولكن الله –عز وجل– حكيم في كل ما قدر كما أنه حكيم في كل ما شرع، والواجب على المؤمن أن يحسن الظن بالله تعالى وأن لا يعتقد في الله إلا المثل الأعلى وأن يطهر قلبه من كل شائبة سوء وسوء ظن بالله رب العالمين، فإن سوء الظن أصل الكفر، إنما كفر من كفر بسبب سوء ظنه بالله، لهذا قال إبراهيم: {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: 87] وقال: { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: 23]

فإذا ظن العبد بربه الظن الحسن وأنه لا يصدر منه سبحانه وبحمده في شرع وقدره إلا ما هو خير فهذا هو المؤمن، ومن اتهم الله تعالى في شرعه أو قدره فهذا هو الكافر، فلا بد من التنبه لهذا الأمر واعتقاد أن لله تعالى حكمةً في كل شيء؛ ولهذا قال

نبينا –صلى الله عليه وسلم-: لبيك وسعديك، والخير بين يديك، والشر ليس إليك. فالشر لا ينسب إلى الله، ليس معنى ذلك أن الله لم يخلق شرورًا، لا، لكنه لا ينسب إليه كإرادة شر وذلك أن ثم قدر ومقدور، قضاء ومقضي، فالقدر والقضاء خير كله، والمقدور والمقضي ينقسم إلى قسمين: خير، وشر. الصحة خير والمرض شر، الغنى خير والفقر والبؤس شر، العز خير والذل شر، وهكذا، هذه تقسيمات باعتبار الواقع، لكن باعتبار صدروها من الله تعالى فهي خير كله، هذا الذي يظن بالله رب العالمين، لهذا تجدون أن مؤمن الجن قالوا كلامًا في غاية الأدب، قالوا: {وَأَنَّا لَانَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: 10] فما كان الكلام عن الشر لم يسندوه إلى الله بالاسم الظاهر وإنما أتوا بالفعل الذي لم يسم فاعله، {أَشَرٌّ أُرِيدَ} [الجن: 10]؛ لكمال أدبهم مع الله، ولما كان الكلام عن الخير أتوا بالاسم الظاهر قالوا: { أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: 10]

وكذلك غلام موسى، قال: { وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [الكهف: 63] فذكر السبب المباشر وإلا فكل شيء بقدر لا ريب.

ثم **قال: وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَلَقَ أَفْعَالَهُم. وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ،وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ**. إلى آخره.

هذه الجمل التي بين أيدينا منها ما يكون ردًا على الجبرية ومنها ما يكون ردًا على القدرية، تأملوا: **وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً**. رد على من؟ على الجبرية؛ لأن الجبرية تزعم أن العبد لا يفعل حقيقةً وأنه كالريشة في مهب الريح، كالقشة فوق ظهر الماء، كالمسمار في الترس ليس له إرادة ولا مشيئة ولا فعل، هكذا يعتقد الجبرية؛ لهذا قال الشيخ: **وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً**. ما الدليل؟ قال الله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} [التكوير: 28] لمن أسند المشيئة؟ إلينا، لمن أسند الاستقامة؟ إلينا، إذًا فاعلون حقيقةً.

قال: وَاللَّهُ خَلَقَ أَفْعَالَهُم . رد على من؟ على القدرية، الذين يقولون: العبد يخلق فعل نفسه، فالله تعالى قال: { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: 29] وقال: { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: 62] وقال: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [الفرقان: 2] إذًا والله خالق أفعالهم. وأوضح من ذلك قوله تعالى: {اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96]

ثم **قال: وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ،وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ** . أي أن هذه الأفعال والعبادات أو المخالفات تقوم فيه، العبد هو المؤمن، {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ } [التغابن: 2] ما قال: فمنكم مؤمن ومكفر، لا، أتى بها بصيغة اسم الفاعل، فمنكم كافر ومنكم مؤمن.

وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ. {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار: 13، 14] هكذا.

وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ. ألم يقل الله تعالى: { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى } [الليل: 5، 6] لمن أسند الله هذه الأفعال؟ إلى العبد، حقيقةً، فالعبد هو الذي أعطى واتقى وصدق، وبالمقابل: { وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} [الليل: 8، 9] فالعبد هو الذي بخل واستغنى وكذب بالحسنى.

فإذًا العبد هو المصلي وهو الصائم، ففي هذا رد على من؟ هذه الجمل: **وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ،وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ**. رد على من؟ على الجبرية الذين لا يجعلونها حقيقية بالنسبة للعبد حتى إنهم يشبهون بمثل قول الله تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الأنفال: 17] قالوا: أرأيتم؟! {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الأنفال: 17] يعني بمعنى أن حركك هذه مجرد حركة صورية، والآية كما تعلمون نزلت في أحداث غزوة بدر حينما أخذ النبي –صلى الله عليه

وسلم- كفًا من تراب ثم قذف به على معسكر الكفار، فما بقي من قريش أو من الكفار إلا ودخل في عينه منه شيء، فأنزل الله: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الأنفال: 17] فقالوا: إن هذا دليل على أن أفعال العبد أفعال قهرية قسرية وليس هو الذي فعل، فنقول: بل الآية رد عليكم، وهكذا كل من استدل بدليل صحيح على قضية باطلة فإن دليله ينقلب عليه، تأمل، الله تعالى في الآية أسند الرمي إلى نبيه، فقال: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ } [الأنفال: 17] فقوله: { إِذْ رَمَيْتَ } [الأنفال: 17] على أي شيء يدل؟ على أنه رمى ولا ما رمى. رمى، {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ } [الأنفال: 17] فالرمي يتناول شيئين القذف والإصابة، فأما القذف فمن النبي –صلى الله عليه وسلم- وأما الإصابة بحيث يدخل في عين كل واحد فمن الله –عز وجل- هذا هو المراد، { وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: 17]يعني أوصل رميتك إلى عين كل واحد من المشركين، فلا حجة لهم في ذلك.

ولو كان ما ذهبوا إليه صحيحًا لكان يجوز أن يقال: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى، وما مشيت إذ مشيت ولكن الله كذا، وما فعلت، لو كان هذا هو المراد لانسحب على جميع التصرفات التي تصدر من العبد، ولا يقول بهذا عاقل فضلًا عن مؤمن، فلا حجة لهم بذلك إن هي إلا شبهات تقع في نفوسهم.

قال –رحمه الله-: وِلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أفعالهم . أيضًا هذا رد على الجبرية، إذ الجبرية تنفي قدرة العبد، فقال: **وِلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أفعالهم.**

وَلَهُمْ إِرَادَةٌ. كذلك لهم إرادة، والدليل على هاتين الجملتين، أن لهم قدرةً وأن لهم إرادةً دليل شرعي ودليل حسي، أما الدليل الشرعي فالقرآن مليء بإسناد الأعمال إلى العباد، ألم يقل الله مثلًا: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ } [البقرة: 223]فهم يأتون ويشاءون بالإضافة إلى الآيات التي سبقت، والقرآن مليء بالأمثلة التي يسند الله تعالى فيها الأفعال إلى الأقوام والأشخاص وغير ذلك.

أما الدليل الحسي فهو الوجد الذي يجده كل واحد منا، فكل واحد منا يستطيع أن يميز بين أفعاله الاختيارية وأفعاله الاضطرارية، كل واحد منا أتى إلى هذا المسجد بطوع إرادته ونقل الخطى وركب السيارة مثلًا حتى جلس في هذا المجلس، هذه إرادة وقدرة أوتيت إياها وأعملتها فتحقق بها هذا الأمر، نحن لا نتحرك بصور آلية؛ فهذا دليل حسي على قوله: **وِلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أفعالهم وَلَهُمْ إِرَادَةٌ.**

ثم عاد **فقال: وَاللهُ خَالِقُهُمْ وخالقَ قُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ** . يعني الله خالق كل شيء بما فيها صفاتهم التي هي الإرادة والقدرات، ولا بين الأمرين، الله أودع فيهم هذا الشيء كما أودع الله القوى المختلفة في الأشياء، ألم يودع الله تعالى الماء خاصية الإرواء؟ ألم يودع الله في الطعام خاصية الإشباع؟ ألم يودع الله في النار خاصية الإحراق؟ ألم يودع الله في السكين والسيف خاصية القطع؟ هذه قوى أودعها الله في المخلوقات، فالله تعالى أودع فيك قدرات بها تأتي وبها تذهب. لكن عقول هؤلاء المبطلين عثرت، تعثرت عن فهم هذه الأمور مع بداهتها وشهادة الحس بها، وهذا كله من مقدمات الفساد.

قال: كما قال تعالى : كَمَا قَالَ تَعَالَى { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29) } [التكوير: 28، 29] فتأمل كيف أن هاتين الآيتين فيهما شفاء الصدور واطمئنان النفوس وراحة العقول، تغني عن كلام كثير مما يمكن أن يقوله المنظرون، { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29) } [التكوير: 28، 29].

ثم أتبع ذلك **بقوله: وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ** . لأنه منذ البداية قسم القدر إلى درجتين، كل درجة تتضمن شيئين أو مرتبتين، فهذه الثانية **يقول: وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ.** يعني بمعنى القدرية الغلاة والقدرية المقتصدون يكذبون بهذه الدرجة، مجمعون على التكذيب بها.

قال: وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ . من يقصد؟ الجبرية؛ لماذا سماهم أهل الإثبات؟ لأنهم غلوا في إثبات أفعال الله، **قال: وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ،حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ** . وهذا هو مذهب الجبرية، أنهم لا يثبتون للعبد قدرةً حقيقةً ولا اختيارًا حقيقيًا، ويزعمون أن إثبات ذلك يقتضي الشرك حتى أنهم أتوا بالمضحكات كما حدثناكم سابقًا، أنهم سلبوا الأشياء خصائصها، وقالوا مثلًا حينما تأتي بالورقة وتضعها على النار فتحترق، لو سألتك وسألت أي عاقل، لماذا احترقت؟ فما الجواب؟ بالنار، قالوا: هذا شرك، لا يجوز أن تقول: بالنار، إذًا ماذا نقول؟ قالوا: قل: عندها لا بها. سبحان الله، لم؟ قالوا: إذا قلت: بها فقد أثبت فاعلًا غير الله وهذا شرك في الربوبية، حينما تأخذ كأسًا من الماء وتشرب، فتحس بالارتواء، فتقول: رويت، فيقال لك: بم؟ فلو قلت: بالماء، لقالوا: أشركت؛ لأن قولك بالماء إثبات فاعل مؤثر مع الله وهذا شرك في الربوبية، إذًا كيف ارتويت؟ قالوا: الارتواء حصل عنده لا به، يعني إن الله خلق الارتواء لحظة مقاربة الماء لشفتيك وانحداره في جوفك وإلا فليس به، هكذا حينما تمر السكين على نحر الدابة وتقطع الودجين لو سئلت وقيل لك: بماذا قطعت رأسه؟ لقلت: بالسكين، قالوا: إن قلت: بالسكين، فقد أشركت؛ لأنك أثبت فاعلًا مؤثرًا غير الله، وهو السكين، هذا شرك في الربوبية، إذًا ماذا نقول؟ قالوا: قل: عنده لا به، أي أن الله خلق القطع عنده لا به، فسلبوا الأشياء خصائصها، هذا في الأشياء فما بالك بطاعات العباد ومعاصيهم، فلهذا كانوا ضحكةً للعقلاء، واستطال عليهم القدرية من المعتزلة وسخروا منهم وحق لهم أن يسخروا بهم.

وللأسف يظن أن هذا المذهب مذهب الأشاعرة وقولهم بالكسب أنه هو مذهب أهل السنة، حتى شاع عند كثير من المعاصرين إن هذا مذهب أهل السنة، وحاشا وكلا، بل إن بعض عقلاء الأشاعرة تبرأ من مقالتهم، أعني تحديدًا أبا المعالي الجويني، تعرفون أن أبا المعالي الجويني من كبار الأشاعرة وتلجلج هذا في خاطره حتى قال كلامًا مدهشًا، يعني خرج عن مقالة الأشاعرة وقرر الأمر قريبًا من إثبات أهل السنة والجماعة له، ثم قال: والآن أطلقت أنفاسي، يعني كالشخص الذي كان مخنوقًا فتحرر من أثار التقييد، قال: فقد أطلقت أنفاسي وقال كلامًا حسنًا في هذا.

ومن نتائج ذلك أن الإسلام صار يوصم بالجبرية بسبب مذهب الأشاعرة، لما كان مذهب الأشاعرة هو السائد في القرون الأخيرة في كثير من المعاهد والمجامع وغير ذلك ولا يدرس إلا منظوماتهم وكتبهم ظن أن هذا هو مذهب أهل السنة وأن هذا هو أهل الإسلام، والأمر ليس كذلك، حتى إن البابا بندكتس السادس عشر البابا السابق الذي استقال، في أول توليه للسدة البابوية كما يقولون ألقى محاضرةً في ألمانيا وهاجم فيها الإسلام ووصفه بأنه دين جبري، وعنفه من عنفه والواقع أنه إنما قال ذلك بناءً على أن المذهب الأشعري هو الذي يمثل الإسلام، فالواقع أن له عذرًا أن يقول هذا القول أقصد عذرًا مصوغًا لما قال إذا أنه فهم أن ما يقوله الأشاعرة هو دين الإسلام، والأشاعرة جبرية فلذلك وصم الإسلام بالجبرية، فلا بد من تجلية الأمر والتفريق بين مذهب أهل السنة المحضة ومذهب الأشاعرة في هذا الباب وغيره من أبواب الدين.

قال الشيخ –رحمه الله–: وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ–صلى الله عليه وسلم[1] – مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ.

هذا ورد في حديث واختلف في ثبوته، وبعض العلماء كالشيخ ناصر الدين الألباني –رحمه الله– يرى أنه بشواهده يرتقي إلى درجة الحسن أو الصحة وبعض العلماء لا يثبته، ولكن التشبيه صحيح هم في الواقع مجوس؛ لأنهم شابهوا المجوس في إثبات خالق مع الله، فلئن إن كان المجوس يثبتون إلهًا للنور وإلهًا للظلمة، إله النور يخلق الخير وإله الظلمة يخلق الشر، فهؤلاء قد أثبتوا خالقين بعدد الناس؛ لأن عندهم كل مكلف فإنه يخلق فعل نفسه، ويغلوا فيها قوم من أهل الإثبات وهم الجبرية، حتى إن غلوهم هذا أدى بهم إلى ما أسلفنا من سلب العبد قدرته واختياره.

ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها، وهذه أيضًا من طامات الجبرية، أن الجبرية أنكروا الحكمة والتعليل وقالوا: إن الله تعالى يفعل ما يفعل لمحض المشيئة، لا يفعل شيئًا لشيء فأنكروا الحكمة والتعليل، وهذا من العجب ، أن من شأن الجبرية إنكار الحكمة والتعليل، فيقولون: إن الله لا يفعل لحكمة ولا لعلة، لا يفعل شيئًا لأجل شيء، وهذا في الحقيقة طعن في الله، طعن في الربوبية، كيف؟ من أسماء الله الحسنى الحكيم، والحكمة هي وضع الشيء في موضعه، فالله تعالى حكيم ومن صفاته الحكمة، في كتاب الله ما أكثر ما ترد لام التعليل، وكي، ونحوها، وباء السببية، مثلًا قوله الله –عز وجل–: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ} [النساء: 160] أليس كذلك؟ قال الله تعالى: {كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [الحشر: 7] {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} [الحديد: 29] فما أكثر ما نجد في كتاب الله لام التعليل وكي وباء السببية، وكلها تدل على أن الله يفعل شيئًا لشيء، وهذا هو مقتضى الكمال، أما أن يقولوا: إن الله يفعل لمحض المشيئة لا لحكمة، فهذا بسبب المقدمات الفاسدة التي التزموا بها فأوردتهم هذه الموارد، واقتحموا بسببها وركبوا بسببها الصعاب والذلول، فهذا كله من الأمور التي تشين مذهب الأشاعرة.

وقد عقد ابن القيم –رحمه الله تعالى– في كتابه الحافل" شفاء العليل" بابًا كاملًا في بيان الحكمة والتعليل، بل دعوني أقول: إن من أحسن إن لم يكن أحسن، ما ألف في القدر هو كتاب " شفاء العليل" فمن أراد أن يتبين هذا الأمر ويستقصي جوانبه وأطرافه فعليه بهذا الكتاب فإنه اسم على مسمى " شفاء العليل" في القضاء والقدر والحكمة والتعليل لشمس الدين ابن القيم –رحمه الله–

وبهذا تم الكلام على مسألة القدر، وقد سأل بعض الإخوة فيما مضى عن إشكالات ترد في هذه الأمر، مثل قوله النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لا يرد القضاء إلا الدعاء). فينشأ ها هنا إشكال، كيف؟ هل القضاء المبرم المكتوب يمكن أن يغيره الدعاء ويحصل شيء خلاف ما كان في اللوح المحفوظ؟ الجواب: لا، ولكن المقصود بالقضاء في قوله: لا يرد القضاء إلا الدعاء، ليس الذي في أم الكتاب، وإنما الأمر الذي استجمعت أسبابه ودواعيه فيكون الله تعالى قد قدر في الأزل أن يعترض هذا الأمر الذي استوفى أسبابه ودواعيه سبب آخر هو الدعاء، فيرتفع الدعاء وينزل القضاء فيعتلجان في السماء، فربما غلب الدعاء القضاء فصرف عنه.

[1] في نسخة السلف بدل من النبي صلى الله عليه وسلم.

مثال ذلك، قول الله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس: 98] فقوم يونس خرج منهم يونس –عليه السلام– مغاضبًا بعد أن يأس منهم، فكانوا قد لزموا الكفر الصراح، وصاروا مستحقين لنزول العذاب، وحاق بهم العذاب. {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ} [يونس: 98] إذًا كان قد أطبق عليهم ما بقي إلا أن ينزل بساحتهم، فحينئذ آمنوا، فإيمانهم هذا صرف عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعوا إلى حين، كما قال الله: { مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148)} [الصافات: 147، 148]

فحينئذ لو قدرنا أن إنسانًا دعا الله –سبحانه وتعالى– فصرف عنه البلاء بسبب الدعاء، فالذي في اللوح المحفوظ أن الله تعالى كتب البلاء وكتب الدعاء، فيكون في سابق علمه –سبحانه– كتابة السبب والمسبب، الأثر والمؤثر، فلا يخرج شيء عن قضاء الله، ولا يقال: إن الله غير ما كتب، تأملوها.

أيضًا من الإشكالات التي قد تطرأ على الأذهان قول الله تعالى: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: 39] فيقول قائل: كيف؟ هل يقع محو وإثبات في القدر؟ فالجواب عن هذا أن يقال: إن المحو والإثبات ها هنا لا يتعلق بالمصائب أو الأقدار وإنما يتعلق بالحسنات والسيئات، فيمحو الله ويثبت أي من الحسنات والسيئات، كما ورد في حديث أن العبد إذا فعل سيئةً وهم ملك الشمال بكتابتها قال له ملك اليمين: أنظر ست ساعات فإن هو ندم واستعتب وإلا فأثبتها عليه، فقد يتوب العبد فلا تثبت وتمحى، { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: 114]هذا معنى قوله: { يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} [الرعد: 39]إذًا الأمر لا يتعلق بالمقدرات وإنما يتعلق بالحسنات والسيئات، وحتى على فرض أنه يتعلق بالمصائب والمقدرات فإن هذا لا ينافي ما في أم الكتاب؛ لأنه قال: { وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } [الرعد: 39] فأم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ لا يتغير فيه شيء وإنما يتغير ما في صحف الملائكة، ما في أيدي الملائكة من صحف فيما يبدو لهم في مقتضى الأحوال، أما الذي في اللوح المحفوظ فإنه لا يتغير.

ومن الإشكالات التي يمكن أن تطرأ على الأذهان في هذا المقام ما يشكل على بعض الناس قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه). فقد يقول قائل: سبحان الله، كيف؟ هل يمكن أن يتغير الأجل والرزق؟ أليس الله قد كتب الأرزاق والآجال؟ فالجواب: بلى، قد كتب الله الأرزاق والآجال، ولا إشكال في معنى الحديث وإن كان قد استشكله بعض الشراح وأتوا بأجوبة مغربة، حتى قال بعضهم: قد قدر الله قدرين، فإن هو وصل رحمه فأجله مائة أو تسعين ورزقه مثلًا كذا وكذا، وإن هو قطع رحمه فأجله ستين ورزقه كذا وكذا دون ذلك، فيكون الأمر محتملًا، وهذا جواب متهافت ضعيف، لأن هذا يعني أن الله ما قدر المقادير ولا فرغ من العباد، فيتنافى مع أصل الإيمان بالقدر، ومنهم من حمله على الأمر المعنوي بأن المقصود البركة، فمن أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله بمعنى أن يبارك فيه، والواقع أنه لا إشكال، وإنما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– ما قال ليكشف عن سنة من سنن الله في قدره وهو أن الله تعالى في سابق قدره يمد في آجال واصل الرحم، ويبسط في أرزاقهم، وأنه يقصر في عمر قاطع الرحم ويضيق أرزاقه، فهذا حفز من النبي –صلى الله عليه وسلم– للناس أن يصلوا أرحامهم، تمامًا مثل لو تقول لصاحبك: إن أردت أن تعيش صحيحًا معافى فاضبط نظامك الغذائي، فلا تكثر من السكريات ولا من الموالح ولا تكثر من كذا ولا كذا، فعلام تبني أنت؟ تبني على سنن الله، إن الذي يفعل السبب ويحافظ

على الأشياء في مواقيتها ومقاديرها أنه يعافى، تمامًا كما لو تقول لصاحبك: إذا ذهبت في طريق سفر فلا تتجاوز السرعة المقدرة، وانتبه لعلامات المرور، وإياك وكذا وكذا، فإن هذا أدعى أن تحفظ وتسلم من الحوادث، فلو قلت ذلك لكان هذا الكلام مقبولًا لأنه مبني على سنن الله، ولو قال لك قائل: لا، لا، المقدر يصير، لقلت له: هكذا جرت سنة الله، وهكذا من استعمل الدواء، فلا إشكال بحمد الله، فكل ما قد يخطر بالبال من إشكالات فإنها قد تشكل على أحد ولا تشكل على غيره، وشرعنا بحمد الله شرع متين متماسك { فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ } [الملك: 3، 4] وبهذا تم الكلام على الإيمان بالقدر.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس (34)

الإيمان قول وعمل

📖**قال المؤلف –رحمه الله–:فصل: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ:**

– أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ: قَوْلٌ، وَعَمَلٌ.

– قَوْلُ: الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ.

– وَعَمَلُ: الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه مسألة شريفة من أعظم مسائل الدين والاعتقاد، وهي مسألة الإيمان، وقد كانت هذه المسألة من أوائل المسائل التي وقع فيها الخُلْف في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فإن أول بدعة ظهرت في الإسلام هي بدعة الخوارج، **وبدعة الخوارج تتعلق بحد الإيمان وحقيقته**، إذ كانت الخوارج تقول بكفر مرتكب الكبيرة، فنشأ إثر ذلك قول مضاد، وهو قول المرجئة، كما سيتبين، فذكر الشيخ –رحمه– الله بأن من أصول، ومن كما يمر بنا كثيرًا للتبعيض، والأصول جمع أصل، وهو ما يُبنى عليه غيره، فتبين أن هذه المسألة من المسائل الكبار والأصول العظام، ومن أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل، وهذه من أعظم أصول أهل السنة والجماعة، وهي حقيقة الإيمان، فيعتقد أهل السنة والجماعة أن الإيمان له حقيقة مركبة من القول والعمل، لا القول وحده، ولا العمل وحده، بل مجموع الأمرين، فالإيمان قول وعمل، حتى قال الإمام البخاري – رحمه الله– : "أدركت نحو ألف ممن يُكتَب عنهم الحديث من العلماء في الحجاز، وخرسان، والشام، واليمن، وغير ذلك، كلهم يقول: الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص"، فهي محل إجماع بين أهل السنة والجماعة أن الإيمان له حقيقة مركبة من القول والعمل.

ثم إنه فصل هذه الجملة العامة بقوله: **قَوْلُ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وعَمَلُ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ.** فبعد أن ذكر بأنها تعود إلى أمرين؛ القول والعمل بيّن أن القول له شعبتان: قول القلب، واللسان. وأن العمل له ثلاث شعب: عَمَلُ: الْقَلْبِ، وعملَ اللِّسَانِ، وعملَ الْجَوَارِحِ. **فدعونا نتأمل في هذه البنود الخمسة لنميز بينها:**

- **الأمر الأول: قول القلب:** والمقصود به اعتقاده وتصديقه ويقينه؛ أي: ما يعقد عليه القلب من اليقينيات والمعارف الضروريات؛ كاعتقاد الإنسان بأن الله واحد لا شريك له، وأنه مستحق لصفات الكمال، ونعوت الجلال ، وأنه أرسل رسلًا وأنزل كتبًا، وأنه جعل يومًا يحاسَب فيه المرء، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، وأن ثَمَّ جنة ونار إلخ ، وقول القلب هو أصل الإيمان.
- **الأمر الثاني: قول اللسان:** فالمراد به: الاستعلان بالشهادتين؛ أي: قول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فإن هاتين الجملتين بوابة الإسلام، فلا يُحكم لأحد بإسلام حتى ينطق بهما، فمن أبى أن ينطق بهما فإنه لا يُحكم بإسلامه، بل القول الراجح أنه لو أقر بهما بقلبه، وأبى أن ينطق بهما بلسانه فإنه كافر ظاهرًا وباطنًا، بهذا قطع شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– أنه لو قدر وفرض أن امرأً قد أقر بقلبه بالشهادتين، لكنه أبى أن يتلفظ بهما بلسانه بلا عذر يمنعه من ذلك، فإنه يكون كافرًا ظاهرًا وباطنًا، لا نقول: ظاهرًا، ومؤمن باطنًا، لا، ما دام أنه لا يوجد مانع يمنعه من النطق بهما، وأبى أن ينطق بهما فإنه يعد كافرًا؛ لأنه أخل بركن من أركان الإيمان وحقيقته، وهو قول اللسان.
- **الأمر الثالث: عمل القلب:** فهو يختلف عن قول القلب، فعمل القلب المراد به: ما يتحرك به القلب من النيات والإرادات، وهذا شيء يختلف عن اعتقاد القلب وتصديقه؛ أي: ما يقوم في القلب من المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، ونحو ذلك من الأعمال القلبية هذا يسمى عمل القلب وليس قول القلب، فلا بد أن نميز إذن بين قول القلب وعمل القلب، **فقول القلب: هو تصديقه وإيقانه، وعمل القلب: هو إرادته ونيته** ، وقد مثّلنا لقول القلب باليقينيات والمعارف الضروريات؛ كأركان الإيمان الستة على وجه الإجمال، وأما عمل القلب؛ فالتوكل، والمحبة، والخوف، والرجاء، فبينهما فرق بيِّن.
- **الأمر الرابع: عمل اللسان،** ونقصد به: ما زاد على مجرد التلفظ بالشهادتين، وهو ما يلهج به اللسان من الكلم الطيب: كالتسبيح، والتهليل، والتحميد، والتكبير، وتلاوة القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، فإن هذا كله إيمان، فما زاد على مجرد الاستعلان بالشهادتين فإنه يعد إيمانًا، إذا كان من الكلم الطيب المشروع.
- **الأمر الخامس: عمل الجوارح** ، والمقصود بالجوارح: الأركان الأربعة، أركان الإنسان التي يتحرك بها، اليدين والرجلين وسائر أعضائه، فإنه يتعلق بها عبادات، فعمل الجوارح، مثل: الركوع، والسجود، والقيام، والقعود، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، ونقل الخطا إلى المساجد، وإماطة الأذى عن الطريق، ونحو ذلك، فإن هذه أعمال الجوارح، وهي من الإيمان، وبهذا يتبين لكم أن مفهوم الإيمان عند أهل السنة والجماعة يتناول الدين كله {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:162]

وإذا أردنا أن نقيم الأدلة على هذه الأمور الخمسة وجدنا شواهد ذلك في الكتاب والسنة وفيرة كثيرة:

فمثلًا:

قول القلب الذي هو اعتقاده وتصديقه، دليله : قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل حين سأله: (قال فأخبرني عن الإيمان، قال: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)[1] فهذا هو قول القلب.

قول اللسان، دليله : قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)[2] وفي رواية (حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)[3]، **ويصلح شاهدًا لقول القلب ولقول اللسان** : قول الله عز وجل {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: 136]، فإن هذا ربما تناول قول اللسان وقول القلب معًا، فقوله {قُولُوا}: يتضمن أن يقول الإنسان ذلك بلسانه معتقدًا إياه بقلبه، لا يمكن أن يؤمر بأن يقوله بلسانه ولا يواطئ قلبه لسانه، بل لا بد أن يتضمن الأمرين.

ومن أدلة أن عمل الجوارح من الإيمان، ومن أشهرها وأبينها: قول الله عز وجل: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة: 143]؛ فإن هذه الآية قد نزلت بعد تحويل القبلة، فقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته يصلي نحو سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس، ويقلب نظره في السماء يرجو أن يحول إلى الكعبة حتى أنزل الله تعالى:{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [البقرة: 144]، فقال قوم من الصحابة: ما بال إخوان لنا ماتوا على القبلة الأولى ضاعت صلاتهم، ظنوا أنهم صلوا إلى غير القبلة فحبطت صلاتهم وضاعت، فأنزل الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة: 143]، لم يقل صلاتكم، فسمى الصلاة إيمانًا.

ومن الدلائل أيضًا على هذه الخصال الخمس فيما يتعلق مثلًا بعمل القلب: قول الله عز وجل:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}[الأنفال:2]، فوجل القلب عمله، وجل القلب وخشيته من عمل القلب{ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2]، فالتوكل أيضًا عمل قلبي، وكذلك قوله في الآية الأخرى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} [الحجرات: 15]، فالريب مما يعتلي القلوب، فدل ذلك على أن الطمأنينة عمل قلبي؛ ولهذا قال في الآية الأخرى:{إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل: 106]، فالطمأنينة والسكينة من أعمال القلوب،{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح:4].

ومن شواهد هذه الخصال الجامعة: قول النبي صلى الله عليه وسلم (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ، شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)[4] ، لو تأملنا في هذه الجمل

[1] صحيح مسلم (8).

[2] صحيح البخاري(25)، صحيح مسلم (22).

[3] صحيح البخاري(392)، صحيح مسلم (22).

[4] صحيح مسلم(35).

النبوية لرأينا أنها موزعة على هذه الخصال، فقوله: [فأعلاها قول لا إله إلا الله]: يتضمن قول القلب وقول اللسان، فإن هذا يدل عليه قوله: [فأعلاها قول لا إله إلا الله]؛ لأنه يقولها بلسانه معتقدًا إياها بقلبه، [وأدناها إماطة الأذى عن الطريق]: وإماطة الأذى عن الطريق من أي الشعب؟ من عمل الجوارح، فإن الذي يمد يده ليرفع شوكًا أو حجرًا من طريق الناس يزاول عملًا بدنيًا، فهو من الإيمان أيضًا، ثم قال في آخر الحديث [والحياء شعبة من الإيمان] والحياء من أي هذه الخصال؟ من عمل القلب إذ الحياء دليل حياة القلب، وإنما سمي حياءً؛ لأنه يدل على حياة القلب.

فتبين بهذا- بحمد الله- أن ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن الإيمان له حقيقة مركبة من القول والعمل هو القول الصحيح الذي تدل عليه النصوص.

وقد زعم بعضهم أن معنى الإيمان في اللغة: التصديق، حتى إنه ربما بعض اللغويين حكى الاتفاق على ذلك، ولكن هذا لا يُسلَّم، فقالوا: الإيمان في اللغة هو التصديق، والواقع أنه عند التأمل، واستدلوا بقول الله تعالى: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف:17]، ولكن الحقيقة أن الإيمان نوع خاص من التصديق؛ إذ أن فيه معنى الائتمان، فلا يقال: (آمن) إلا في شيء مُغَيَّب، ففيه معنى الأمانة والائتمان بخلاف الأمور التي يمكن التحقق الحسي منها، فلو قال لك قائل مثلًا: طلعت الشمس. ما تقول : آمنت له، أو آمنت به – بطلوع الشمس-؛ لأن هذا أمر يدرك، لكن الأمور المغيبة الخفية التي يكون مدارها على الثقة والائتمان يقال عنها هذا المعنى، فإذن الواقع أن الإيمان ليس مرادفًا للتصديق، لكنه تصديق خاص، واستحب بعض أهل العلم تفسيره بالإقرار، وأن أقرب كلمة لتفسير الإيمان لغةً أنه: الإقرار المستلزم للقبول والرضا والانقياد، هذه حقيقة الإيمان، فلا يقال: (آمن) إلا لمن حصل عنده قبول ورضا وانقياد، وبهذا يتطابق المعنى اللغوي مع المعنى الشرعي، فنحن قد قلنا في التعريف الاصطلاحي أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

وربما عبر أهل السنة بتعبيرات مغايرة، لكن المؤدى واحد:

- كقول بعضهم مثلًا: الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، وهذا يدل على ما يدل عليه التعريف الأول.
- وربما قال بعضهم: قول، وعمل، ونية. خشية أن يظن أن كلمة القول لا تتناول إلا تلفظ اللسان، فأضاف (ونية) ليثبت اعتقاد القلب، فيكون قد زادها من باب التحوج.
- وبعضهم يقول مثلًا: قول، وعمل، ونية، واتباع للسنة. احترازًا من أن يكون العمل على خلاف السنة، فلا يكون مشروعًا.
- وبعضهم اكتفى بالعلم السابق بأن العمل المقصود هو العمل المشروع.

فلا يستنكر الإنسان وجود اختلاف في التعبيرات، فإن مآلها إلى حقيقة واحدة، فأهل السنة والجماعة مُطبِقون على هذا الأمر، وأن الإيمان له حقيقة مركبة من القول والعمل لا يختلفون في هذا.

أما المخالفون في هذا الباب فهم أصناف شتى، لكنهم يؤولون إلى مجموعتين: **المرجئة، والوعيدية:**

فالمرجئة هم كل من أخرج العمل عن مسمى الإيمان، لكنهم درجات وطبقات:

- **أولًا: أشد المرجئة إرجاءً هم الجهمية المنسوبون إلى الجهم بن صفوان السمرقندي**، وهم الذين اجتمعت فيهم الجيمات الثلاث الخبيثة؛ جيم الإرجاء، وجيم الجبر، وجيم التجهم، فأصحاب جهم اجتمعت فيهم هذه الجينات الخبيثة، جيم التجهم أي: نفي الصفات، جيم الجبر: إنكار أفعال العباد، وجيم الإرجاء: إخراج العمل عن مسمى الإيمان، فهؤلاء القوم قالوا: الإيمان هو معرفة القلب فقط، فمن عرف بقلبه فهو مؤمن، فجعلوا الإيمان هذا الحد الأدنى، وهذا الغِلاف الرقيق، فحصروه بمعرفة القلب، فعندهم أن من عرف بقلبه، فهو مؤمن، حتى إنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ولا ريب أن مجرد تصور هذا القول كافٍ في إسقاطه، لماذا؟

لأنه لو كان الإيمان هو مجرد المعرفة:

-لكان مشركو العرب مؤمنين ، فإنهم قد عرفوا: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان:25]، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} [الزخرف: 9]، فلازم ذلك أن يكون من سماهم الله مشركين أن يكونوا مؤمنين؛ لأنهم قد عرفوا، لازم ذلك أن يكون أبو طالب الذي مات على ملة عبد المطلب مؤمنًا؛ لأنه قد صرح بالمعرفة حتى إنه أنشد أبياتًا في هذا، منها قوله:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

فهو قد عرف، لكنها هذه المعرفة لم تنقله من الكفر إلى الإيمان، فهي مجرد معرفة.

-لكان اليهود والنصارى مؤمنين ؛ لأن الله تعالى قد قال عنهم {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم} [البقرة: 146]، شهد الله لهم بالمعرفة، فلو كان مجرد المعرفة كافٍ في إثبات الإيمان لما أكفرهم الله تعالى في كتابه في أكثر من ثلاثة مواضع؛ ثلاثة منها في سورة المائدة، وهي من آخر ما أنزل من القرآن، بل لو كان الإيمان هو المعرفة لكان فرعون وملؤه مؤمنين، لِمَ؟ لأن الله تعالى قد قال عنهم: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ}[النمل:14] ليس مجرد معرفة فقط، بل معرفة ويقين، ومع ذلك فهم أكفر الكافرين، وشهد عليه موسى عليه السلام، فقال:{لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ}[الإسراء:102] فقد علِم، لكن علمه ذلك لم يكن كافيًا في إثبات الإيمان له، فأين يذهبون؟!.

-لكان إبليس مؤمنًا؛ لأن إبليس قد عرف الله وقال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}[ص:82]، {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ}[الإسراء:62]، قال: {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[الأعراف: 12]،[ص:76]، قال: {فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[الحجر: 36]،[ص:79] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على معرفته بالله، وإثبات ربوبيته وبعض

صفاته، فلو كان الإيمان هو المعرفة لكان إبليس مؤمنًا، فأين تذهب الجهمية؟!، لا شك أن مقالتهم ساقطة، وأنها من أبعد الأقوال في باب الإيمان.

- **ثانيًا: يليهم من طبقات المرجئة فرقة يقال لها: الكرامية** ، وهم المنسوبون إلى محمد بن كرّام السجستاني، ولهم مقالات شاذة من ضمنها هذه المقالة، فإنهم زعموا أن الإيمان هو قول اللسان، وأن من قال بلسانه فهو مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وواضح جلي أن هذه المقالة أيضًا مقالة ساقطة؛ لأن لازمها أن يكون المنافقون مؤمنين، إذ المنافقون يقولون بألسنتهم، قال الله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}[المنافقون:1] ، فكيف يدّعي هؤلاء الكرامية أن مجردَ قول اللسان دليلُ الإيمان ظاهرًا وباطنًا!، هذا عجب، ومن تناقضهم أنهم يحكمون بأن من قال بلسانه فهو مؤمن، وأن المنافق في الدنيا مؤمن، ثم يحكمون عليه في الآخرة بأنه مخلد في النار، فيا سبحان الله! كيف تحكمون بإيمانه في الدنيا، ثم تحكمون بتخليده في النار في الآخرة، هذا تناقض بيِّن ظاهر، وقد أخطأ بعض الناس، ومنهم ابن حزم- رحمه الله- حينما نسبوا إلى الكرامية أنهم يقولون: إن المنافق يكون في الجنة، فقد ظنوا أن لازم القول قول، والواقع أنهم لا يقولون بذلك، وهذا دليل تناقضهم.
- **أما القول الثالث من مقالات المرجئة فهو مقالة مرجئة الفقهاء،** فقهاء من؟ فقهاء الكوفة، وهم أصحاب أبي حنيفة- رحمه الله- إذ الأحناف في هذا الباب خالفوا جمهور أهل السنة والجماعة، فقصروا الإيمان على قول اللسان واعتقاد القلب فقط، وقالوا: الأعمال ليست داخلة في مسمى الإيمان ولا حقيقته ولا ماهيته، بل هي لازم له وثمرة، فهي ليست منه بل شيء خارج عنه. وقد قال بهذا القول: حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة، وأبو حنيفة، وجمع من فقهاء الكوفة وعبادِها ونسّاكِها، ومقالة هؤلاء -في الواقع- ليست بعيدة ولا مغربة؛ ولهذا يفرق بينهم وبين المرجئة الغلاة، ذلك أنهم يوافقون أهل السنة والجماعة موافقة كثيرة في الأحكام، وإنما يختلفون معهم في الأسماء، فمرجئة الفقهاء أصحاب أبي حنيفة، ومنهم الإمام الطحاوي صاحب العقيدة الطحاوية حينما قال: "والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان"، ولم يذكر عمل الأركان، وهي من أهم المواضع التي تستدرك على متن العقيدة الطحاوية.

فلو أجرينا مقارنة بين مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب مرجئة الفقهاء في هذا الأمر لوجدنا عدة مواضع للاتفاق:

الموضع الأول: كلا الطائفتين يرون أنه يجب على الناس امتثال أوامر الله واجتناب مناهيه.

الموضع الثاني: كلا الطائفتين يقولون المطيع محمود في الدنيا ومثاب في الآخرة.

الموضع الثالث: كلا الطائفتين يقول العاصي مذموم في الدنيا مستحق للعقوبة في الآخرة.

الموضع الرابع: كلا الطائفتين يقولون: مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان، ولا يوصف بالكفر.

الموضع الخامس: كلا الطائفتين يقولون: بوجوب إقامة الحدود والتعزيرات على ما تقتضيه الشريعة.

فلهذا قال من قال إذن الخلاف بين جمهور أهل السنة وبين مرجئة الفقهاء أصحاب أبي حنيفة خلاف لفظي شكلي، ولكن عند التأمل نجد أنه فعلًا هناك اتفاق في الأحكام، وهناك خلاف في الأسماء والألفاظ، فهناك فروقات بين الطائفتين.

فكما ذكرنا نقاط الاتفاق لنذكر نقاط الاختلاف:

الفرق الأول: أهل السنة والجماعة، وهذا هو الفارق الأساس بين الطائفتين يقولون: الإيمان قول وعمل، فيدخلون العمل في حقيقة الإيمان ومسماه وماهيته وحده وتعريفه يجعلونه جزء مسمى الإيمان، أما مرجئة الفقهاء فيخرجون العمل عن مسمى الإيمان، ويقولون كلا بل العمل قدر زائد عن الإيمان، وأن الإنسان يمكن أن يكون مؤمنًا بلا عمل، فالعمل ثمرة لا أقل ولا أكثر.

الفرق الثاني: أهل السنة والجماعة يقولون: الإيمان يزيد وينقص، بينما مرجئة الفقهاء يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، بل هو شيء واحد؛ لأن الإيمان عندهم مجرد التصديق إما أن يوجد وإما ألا يوجد، إما أن يوجد كله أو يعدم كله.

الفرق الثالث: أن أهل السنة والجماعة يجيزون أو ربما يوجبون أحيانًا الاستثناء في الإيمان، وهو أن يقول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله، لِمَ؟ لأن الإيمان عند أهل السنة والجماعة درجات ومراتب فيه إيمان كامل وإيمان واجب وأصل إيمان، فأهل السنة يقولون بالاستثناء في الإيمان، يقولون: لا تقل أنا مؤمن بإطلاق، قل: أنا مؤمن إن شاء الله، لماذا؟ حتى لا تزكي نفسك، وتدعي أنك أتيت بجميع خصال الإيمان، بينما مرجئة الفقهاء يمنعون الاستثناء في الإيمان؛ لأن الإيمان عندهم شيء واحد هو التصديق، فلو قال أحد: أنا مؤمن إن شاء الله لعدّوا ذلك شكًّا وتردُّدًا؛ فلأجل ذلك منعوا الاستثناء في الإيمان.

الفرق الرابع: أن أهل السنة والجماعة يرون أن الكفر ينقسم إلى قسمين: اعتقادي وعملي، بينما مرجئة الفقهاء لا يرون الكفر إلا الجحود والاستحلال، يعني الاعتقادي فقط، وليس عندهم شيء اسمه كفر عملي، بينما أهل السنة والجماعة يقولون: كلا بل الكفر يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح، كما أن الإيمان يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح، فالكفر أيضًا يتعلق بالقلب بأن يقع عنده جحود واستحلال، وباللسان بأن يتلفظ بكلمة الكفر بلا مسوغ ولا إكراه، وبالجوارح بأن يفعل فعلًا كفريًّا؛ كالسجود لغير الله أو مثلًا إهانة المصحف أو مثلًا قتل نبي أو ما أشبه، فيقولون: إن الكفر حقيقي يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح، بينما مرجئة الفقهاء يقصرون الكفر على القلب فقط بناءً على أصلهم، وهو أن الإيمان هو التصديق.

الفرق الخامس: أن أهل السنة والجماعة يرون أنَّ المؤمنين يتفاضلون في إيمانهم {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}[فاطر: 32]، بينما يرى مرجئة الفقهاء أن المؤمنين سواء، وأنه لا تفاضل بينهم، وأن التفاضل في الأعمال، والأعمال خارج الإيمان، أما المؤمنون فهم في أصله سواء؛ لأن أصله عندهم هو التصديق، كما قال الطحاوي: "وهم في أصله سواء". فلا يفرقون بين المؤمنين، بل يجعلون الإيمان

حد واحد، حتى إنهم ليقولون: "إن إيمان أفجر الناس كإيمان أتقى الناس"، إيمان أفسق الناس كإيمان أبي بكر وعمر وعثمان، أو هذا لازم قولهم.

فتبين بهذا أن بين الطائفتين فروق بعضها حقيقي موضوعي معنوي وبعضها شكلي صوري.

طبعًا وهناك فرق إضافي أيضًا– الفرق السادس– : وهو ما يتعلق بالولاية، فأهل السنة والجماعة يرون أن الولاية تتفاوت بحسب الإيمان، فتبدل الولاية لمن كان أكثر إيمانًا، ومن كان دون ذلك تقل الولاية في حقه، فالولاية عند أهل السنة والجماعة تتفاوت بحسب الإيمان، فأنت توالي المؤمن بقدر ما فيه من إيمان، وبالتالي فسوف تتفاوت هذه الولاية، بينما مرجئة الفقهاء يجعلون الولاية واحدة، لا فرق بين مؤمن ومؤمن.

فإذن هناك فروق لكن مع ذلك فالخطب سهل، والخُلف بين أهل السنة والجماعة وبين مرجئة الفقهاء قليل، حتى إن الأئمة لا يشنعون عليهم التشنيع البليغ الذي يشنعونه على المرجئة الغلاة، فقد شنع السلف على المرجئة الغلاة أيما تشنيع، وذموهم وعابوهم، ولهم في ذلك مقالات شديدة في الرد على المرجئة، لكن مرجئة الفقهاء أمرهم قريب؛ لأنا وإياهم متفقون في التطبيق وفي العمل، فالجميع يأمر بفعل أوامر الله واجتناب مناهيه وإقامة الحدود والتعزيرات ورسوم الدين المختلفة، وكذلك أيضًا في قضية التكفير، مع أنهم لا يجعلون التكفير إلا بالجحود والاستحلال، لكنهم من أوسع المذاهب في التكفير– أعني مرجئة الفقهاء الأحناف– لأنهم يجعلون بعض الأشياء– وإن لم يقولوا هي كفر بعينها– يجعلونها دليلًا على الكفر في القلب، حتى إنهم قالوا: لو قال (مصحيف) أو (مسيجد) أو كذا لكان كافرًا؛ لأن هذا دليل على كفر في القلب، فيبقى أن كثيرًا من المسائل التي بين جمهور أهل السنة وبين مرجئة الفقهاء الخلاف فيها لفظي والتطبيق العملي شبه متفق.

وأبو عبيد القاسم بن سلام –رحمه الله–، وهو من كبار الأئمة–رحمه الله– ألف كتابًا في الإيمان في معالمه واستكمال درجاته، ذكر المرجئة الغلاة، وذمهم ذمًا ذريعًا، ونفاهم عن الدين والملة، ولما ذكر مرجئة الفقهاء ألان القول في حقهم، وقال: إنهم غلطوا في شيء يغلط في مثله، وهذا ينبه طالب العلم إلى أنه ينبغي أن يستعمل أسلوب العدل والإنصاف في أحكامه، فلا يحشر المخالفين في خندق واحد، بل يميز بينهم، فأهل البدع ليسوا سواءً، منهم من يكون قريبًا من السنة، ومنهم من يكون بعيدًا، ولا يحسن أن يعامل الجميع معاملة واحدة، لكن يعامل كل أحد بما يليق به، فـ {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل:90]،{ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا}[الأنعام:152].

كل هؤلاء الذين تحدثنا عنهم يقال عنهم مرجئة، فحد الإرجاء إخراج العمل عن مسمى الإيمان.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

الدرس(35)

الوعيدية

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإذا ما انتقلنا إلى الجانب المقابل، وهم الوعيدية فسنجد طائفتين إحداهما: الخوارج، والثانية: المعتزلة ، فإذا سمعت لفظ الوعيدية، فاعلم أن ذلك يتناول طائفتين: الخوارج والمعتزلة، ولِمَ سموا وعيدية؟ سموا وعيدية؛ لأنهم قالوا بإنفاذ الوعيد، كما أن المرجئة سميت مرجئة؛ لأنهم أرجئوا العمل عن مسمى الإيمان، أرجئوه يعني أخروه، والوعيدية سميت بهذا الاسم لأنهم قالوا بإنفاذ الوعيد، قالوا: كل من توعده الله تعالى فإنه يجب على الله أن ينفذ فيه وعيده، هكذا بهذه البجاحة، يقولون: يجب على الله أن ينفذ فيه وعيده، وبالتالي فليس عندهم شيء اسمه الشفاعة، بل يقولون: كل من توعده الله بعقوبة فإنه يتعين ويجب على الله أن ينفذ فيه وعيده، وينكرون أحاديث الشفاعة المتواترة، وأن الله تعالى يُخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة مثقال برة مثقال شعيرة أدنى أدنى مثقال ذرة خردلة، كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة المتواترة يردون ذلك كله.

إذن ما هي عقيدتهم؟ تقول الخوارج والمعتزلة معًا: الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان. هذا حسن، أليس كذلك؟! هذا عين ما يقوله أهل السنة والجماعة، قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان، لكنهم يفسدون ذلك أيما إفساد حينما يقولون: **من أخل بواجب أو فعل محرمًا حبط إيمانه كله** ، هذا هو الفارق بينهم وبين أهل السنة، فهم أصابوا في تعلق الإيمان بالقلب واللسان والجوارح، لكنهم أخطئوا أيما خطأ حينما جعلوا الإخلال بواجب من الواجبات أو الوقوع في محرم من المحرمات محبط للإيمان كله، هذا هو الفرق ما بينهم وبين أهل السنة والجماعة، ولا ريب أنه فرق عظيم وأثر كبير، فلهذا قلنا إن أول بدعة ظهرت في الإسلام بدعة الخوارج، إذ الخوارج كفرّوا أصحاب الجمل، وصفين، والحكمين، وقالوا بأنهم كفرة، وجابهوا عليًّا- رضي الله عنه- في جامع الكوفة، وقالوا له قد كفرت فجدد إيمانك، وانحازوا إلى موضع يقال له: حروراء، وأمروا عليهم أميرًا هو عبد الله بن وهب الراسبي، ثم إن عليًّا- رضي الله عنه- قال ندعهم ما ودعونا؛ يعني إذا لم يبدر منهم شيء ندعهم وحالهم، وراسلهم عدة مرات فيما ينقمون، لكن القوم أبوا إلا عنادًا، فعندهم من الإغلاق وضيق الأفق والشدة، كما وصفهم النبي- صلى الله عليه وسلم-، فقال: (تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ)[1]، ما الفُرقة التي وقعت في الأمة؟ الخلاف الذي جرى بين أهل الشام، وأهل العراق، بين عليٍّ- رضي الله عنه-، ومعاوية، أو بين عليٍّ- رضي الله عنه-، وطلحة والزبير، فقال صلى الله عليه وسلم:(يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي

[1] صحيح مسلم (1064).

القِدْحِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الفُوقِ)[1] تنظر في قدده تنظر في ريشه تنظر في نصله ما ترى فيها أثر الدم؛ وذلك لسرعة مروق السهم، فكأنهم دخلوا في الدين وخرجوا منه بسرعة فائقة، ومع ذلك وصفهم- صلى الله عليه وسلم- بما سمعتم أنكم تحقرون صلاتكم عند صلاتهم وصيامكم عند صيامهم، فهم أهل تشدد وغلو، فكما أن المرجئة ينزِعون إلى التساهل والتفريط، فهؤلاء على النقيض ينزِعون إلى التشدد والغلو، وقد استأذن ابن عباس- رضي الله عنهما- ابنَ عمه علي بن أبي طالب أن يأتي القوم، فقال: إني أخافهم عليك، قال: كلا، فأذِن له أن يأتيهم، فلبس ابن عباس- رضي الله عنهما- من أحسن الثياب اليمانية، ثياب فاخرة، وانتعل نعلًا حسنًا، وتطيب، وأقبل عليهم في نحر الظهيرة، قال: فوجدت قومًا قد ثفنت جباهم وركبهم وأرجلهم من أثر العبادة، واصفرت وجوههم من أثر الصيام، يعني: ثفنت جباههم، والثفن هو الذي يوجد في ركبة البعير وغيره نتيجة طول القيام، واصفرت وجوههم من طول الصيام، فلما أقبل عليهم، قالوا ابن عباس؟ ما جاء بك؟ فقال قوم: لا تسمعوا له. وقال آخرون: اسمعوا له. فقام فيهم ابن عباس- رضي الله عنهما- وهذا يدلكم- معشر طلبة العلم- على أثر العالم الراسخ في العلم، كيف يمكن أن ينفع الله تعالى به ويغير، فقال لهم ابن عباس- رضي الله عنهما- ما تنقمون على هذا الرجل؟ يعني علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله وزوج ابنته، قالوا: ننقم عليه ثلاثًا، قال: وما هنّ؟ قال: إنه قد حكّم الرجالَ في كتاب الله، وإنه قاتل ولم يغنمْ ولم يسبِ، وإنه محَا نفسه من إمرة المؤمنين، قال: أرأيتم إن أتيتكم بشيء من كتاب الله أو سنة رسول الله أترجعون؟ قالوا: إي، والله. وهم قوم عندهم مبدأ الصدق، لا يحسنون المراوغة، عندهم الصدق يبلغ بهم مبلغ الإغلاق ، فقالوا: إي، والله. قال: أما قولكم: إنه حكم الرجال في كتاب الله، ، وقد قال الله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:44]يعني: إننا أكفرناهم بهذه الآية. قال: فإن الله تعالى قد حكم الرجال في أرنب نتجت، فقال الله تعالى: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ}[المائدة: 95]، وحكم الرجال في امرأة نشزت على زوجها، فقال:{ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا}[النساء: 35]، فبالله عليكم أتحكيم الرجال في أرنب نتجت، وامرأة نشزت أحق أم في دماء المسلمين؟ فسكتوا، قال: ترجعون، قالوا: إي، والله، فرجعوا سكتوا، قال: وأما قولكم: إنه قاتل، فلم يغنم، ولم يسبِ، فأيكم يرضى، إلام يشيرون؟ يشيرون إلى أنه قاتل طلحة والزبير وعائشة، وقاتل أصحاب صفين، ولم يغنم، ولم يسبِ، فكأنما يقولون: إذن لِمَ قاتلهم؟ فإن كان قاتلهم بحق فليغنم وليسبي، وإن كان قاتلهم بباطل فإنه يبوء بإثم قتالهم، هكذا أرادوا، فقال: أيكم يرضى أن تكون عائشة في سهمه؟، فأطرق القوم لا أحد يستطيع أن يقول ذلك، من يرضى أن تكون أم المؤمنين عائشة في سهمه، فقال: أخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم. قال: وأما قولكم: إنه محا نفسه من إمرة المؤمنين، فإن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قد أملى عليه يوم الحديبية (هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: لاَ نُقِرُّ بِهَا، فَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ، لَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: (أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ)، ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ: (امْحُ رَسُولُ اللَّهِ)، قَالَ: لاَ وَاللَّهِ لاَ أَمْحُوكَ أَبَدًا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ

[1] صحيح البخاري (5058).

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكِتَابَ، فَكَتَبَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ)[1]، إذن نبينا صلى الله عليه وسلم وافقهم ومحا نفسه من وصف الرسالة موافقة للمفاوضة، فقال ابن عباس: أخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم، فرجع منهم بأربعة آلاف، وقيل: بثمانية آلاف، وقيل: بأكثر من ذلك [2]، بسبب هذه المحاورة العلمية، وهذا يدل على أن الذي ينبغي دومًا في مواجهة الشبهات أن تواجه بالحجج والبينات، فإنه ما من شبهة إلا وفي وجَاهِها حجة، وما من قاسمة إلا ولها من الله عاصمة، لكن هذا أمر يتفاوت فيه الناس، فمن الناس من يُرزق العلم والحكمة، ومنهم من يرزق العلم دون حكمة، ومنهم من يرزق حكمة بلا علم، ومنهم من لا علم ولا حكمة، فعلى طالب العلم أن يجمع بين الأمرين بين العلم والحكمة؛ ليحصل الأثر الحميد.

والمقصود أن الخوارج هم أول من ضل في باب الإيمان، وأخرج مرتكب الكبيرة عن مسمى الإيمان، فقالوا: إن من أتى كبيرة فقد أحبط عمله، وخرج من الإيمان ودخل في الكفر، وندب علي -رضي الله عنه- المهاجرين والأنصار إلى قتالهم لما وقع منهم عدوان وقطع طريق على المسلمين حتى إنه مر بهم عبد الله بن خباب بن الأرت -رحمه الله ورضي عن أبيه-، وكانت معه امرأته حاملًا، فلما أقبل عليهم استوقفوه، وقالوا: ابن صاحب رسول الله-صلى الله عليه وسلم- انزل فحدثنا عن أبيك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، وكان خائفًا وجلًا، كان عاملًا لعلي على بعض أعماله، فلما هشوا وبشوا له نزل، فرأى رجلًا منهم يمد يده إلى تمرة سقطت من نخلة، فقمع أحدهم يد صاحبه بالسيف قال تأكل مالًا لا يحل لك انظر هذه الشدة وهذا الورع البارد، فقالوا له حدثنا، ثم قالوا له: ما تقول في هذا الرجل؟ فقال: ابن عم رسول الله وزوج ابنته، فقالوا: كافر، فقال: لا، فقاموا عليه وبقروا بطن زوجته وقتلوه -رحمه الله-، فلما بلغ منهم هذا الأذى مبلغه ندب عليٌّ- رضي الله عنه- المهاجرين والأنصار إلى قتالهم، وقال هؤلاء هم الذين حدثنا عنهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وقال: (لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ)[3]، فالتقى بهم المهاجرون والأنصار في معركة النهروان، وقال لهم علي إنه لا يقتل منكم إلا عشرة، ولا ينجو منهم إلا عشرة، فكان كما قال؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم- أخبره بذلك، ولما انقشع غبار المعركة، قال: ابحثوا عن ذي الثُدَيَّة، رجل وصفه النبي - صلى الله عليه وسلم- بأنه مقطوع اليد وعلى عضده مثل الحلمة تدردر عليها شعرات علامة فارقة، النبي - صلى الله عليه وسلم- يا إخوة، ما وصف فرقة من الفرق كما وصف الخوارج؛ وذلك لالتباس أمرهم؛ لأنهم أهل صلاح في الظاهر ودين، فالناس يغترون بهم؛ فلذلك وصفهم النبي - صلى الله عليه وسلم-بأوصاف خُلقية وخِلقية لم يصفها غيرهم حتى وصف ذا الثُدَيَّة بهذا الوصف بأنه مقطوع اليد، وعلى رأس عضده حلمة عليها شعرات تدردر، فبحثوا فلم يجدوه، فتغير وجه عليّ- رضي الله عنه- وقال: والله ما

[1] صحيح البخاري (2699)، صحيح مسلم (4654).
[2] انظر تاريخ الطبري(65/5)، تاريخ الإسلام(333/2) بتصرف
[3] صحيح البخاري (7432)، صحيح مسلم (1064).

كَذبت ولا كُذبت، ثم خرج إلى الساحة فوجد ركامًا من القتلى، فأمر بها فنزحت، فإذا بذي الثديّة تحتها فكبر وكبر المسلمون[1].

ثم إن هذه المقالة انتقلت بعد ذلك إلى المعتزلة، والمعتزلة- كما تعلمون-يهجنون المقالات يحاولون تخفيفها، كما صنعوا في مسألة القدر التي مرت بنا آنفًا فخففوا مقالة القدرية الغلاة إلى مقالة دونها، وهكذا في مسألة الإيمان، فإنهم قالوا: نعم مرتكب الكبيرة زال عنه وصف الإيمان، لكنه لم يدخل في الكفر، فأين ذهب إذن؟ قالوا: إنه في منزلة بين منزلتين، فأتوا بقول لم يسبقوا إليه في الإسلام- وهو المنزلة بين منزلتين- ولا ريب أن هذا قول ساقط، فإن الله سبحانه وتعالى قد جعل الناس قسمين: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ}[التغابن: 2]، لا يوجد الطبقة الثالثة المنزلة بين المنزلتين، وحتى حين ذكر الله تعالى أصناف الناس قال: مؤمنين ومنافقين وكافرين، المنافقون يرجعون إلى الكفر هو نوع من أنواع الكفر كفر النفاق، فالناس إما مؤمن وإما كافر؛ فلذلك كانت مقالة الخوارج من حيث الاطراد أسلم من مقالة المعتزلة، فالخوارج من حيث الاطراد بصرف النظر عن بطلان المقالة، قالوا: خرج من الإيمان فدخل في الكفر، وأما المعتزلة فلفقوا هذه المقالة، وقالوا: خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر، وإنما صار في منزلة بين منزلتين، واتفق الفريقان في الحكم الأخروي على مرتكب الكبيرة بأنه مخلد في النار، وتحذلق بعض المعتزلة، فقالوا: إن هؤلاء - مرتكبو الكبائر- مخلدون، لكن في نار تختلف عن نار الكافرين، وهذا لا يغني شيئًا.

فتبين بهذا أصناف الناس حيال هذه المسألة العظيمة مسألة الإيمان، وأنهم فريقان؛ فريق المرجئة، وهم أهل التساهل والتفريط الذين أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان، وفريق الوعيدية الذين تشددوا وغلوا، وجعلوا ارتكاب الكبيرة مزيلًا لوصف الإيمان.

الإيمان يزيد وينقص

قال المؤلف -رحمه الله-: وَأَنَّ الْإِيمَانَ: يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

قال وَأَنَّ الْإِيمَانَ: يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ : هذا مما يعتقده أهل السنة والجماعة بناءً على أصلهم أن الإيمان له حقيقة مركبة، وأنه يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح، وأن خصاله متعددة، فلما كان الأمر كذلك عندهم خلافًا لغيرهم ممن يزعم أن الإيمان شيء واحد إما أن يوجد كله وإما أن يعدم كله بيّن الشيخ أنهم يعتقدون أن الإيمان يزيد وأنه ينقص فتدخله الزيادة والنقصان، **وقد دل ناطق الكتاب في سبعة مواضع من كتاب الله على هذا:**

١) فقال الله تعالى في سورة آل عمران:{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173].

٢) وقال في سورة الأنفال:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2].

[1] تاريخ الطبري(88/5)ط التراث بيروت ، البداية والنهاية(289/7)ط الفكر.

٣) وقال في سورة براءة:{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: 124].

٤) وقال الله تعالى في سورة الأحزاب:{وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: 22].

٥) وقال في سورة المدثر:{وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} [المدثر: 31].

٦) وقال في سورة الفتح:{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الفتح: 4].

إذن تبين بحمد الله تعالى أن زيادة الإيمان قد تواتر لفظها في كتاب الله تعالى، وأي شيء قابل للزيادة فهو قابل للنقصان، فإن الزيادة والنقصان بينهما علاقة تلازمية، فكل أمر يزيد فإنه ينقص، وسر ذلك أنه قبل أن يزيد كان أنقص منه بعد أن زاد، فهذا يدل على أن الزيادة والنقصان بينهما تلازم، وقد ثبت هذا عن السلف، كما ذكرنا لكم من كلام الإمام البخاري–رحمه الله تعالى– قوله: "أدركت ألفًا ممن يكتب عنهم العلم، أو من أهل العلم والحديث في: العراق، وخرسان، والحجاز، والشام، ومصر، وذكر أمصار المسلمين كلهم يقول: الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص"، فهذا بحمد الله أمر متفق عليه، لكن قد روي عن الإمام مالك–رحمه الله– وعن عبد الله بن المبارك التحفظ على لفظ النقصان؛ فالإمام مالك عنه روايتان: رواية بموافقة الجماعة، ورواية يقول: أقول يزيد، ولا أقول: ينقص.

وقد أجيب عن ذلك بجوابين:

الجواب الأول: أن الإمام مالك–رحمه الله– خشي أن يعبر بلفظ النقصان فيتخذ الخوارج ذلك ذريعة إلى باطلهم، ويقولون: هذا مالك قال الإيمان ينقص، وأي شيء قد نقص فقد زالت هيئته، فأراد أن يقطع عليهم الطريق.

الجواب الثاني: أن يقال: إنه أراد مراعاة لفظ القرآن؛ فالقرآن فيه ذكر الزيادة وليس فيه ذكر النقصان.

ولكن لفظ النقصان نجده في السنة، فقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم– عن النساء : [ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهبَ للب الرجل الحازم من إحداكن]، فهذا دليل من السنة على أن الإيمان ينقص.

وأدلة زيادة الإيمان ونقصانه من كلام الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان أكثر من أن تحصر.

كما أن ما ذكره الله تعالى من تفاضل أهل الإيمان فيه دليل على زيادته ونقصانه، استمع مثلًا إلى قول الله تعالى:{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [فاطر: 32] فدل ذلك على تفاضل أهل الإيمان فيه، مما يدل على أنه يزيد وينقص؛ فالظالم لنفسه يمكن أن يكون مقتصدًا، والمقتصد يمكن أن يكون سابقًا بالخيرات، وذلك بفعل الواجبات وترك المحرمات، أو أيضًا بفعل المستحبات وترك المكروهات، ثم إن هذا أيضًا أمر وجدي يجده كل إنسان في نفسه، فإن الإنسان إذا عمل بطاعة الله استروح وأحس ببهجة الإيمان وحلاوته، وإذا غشي شيئًا من الحرمات أحس بانقباض في قلبه، كما قال ابن مسعود أو غيره –رضي الله عنه–: [الإثمُ حَوَّازُ القلوب] يعني: إنه يحز القلب كما يحزه الحبل، فهذه أمور وجدية يدركها كل مؤمن أنه إذا فعل الطاعة زاد منسوب إيمانه، وإذا وقع في معصية نقص إيمانه.

فالدلائل متكاثرة على ذلك، والشيخ -رحمه الله- إنما ذكر شيئًا من أبين الأمور من أسباب الزيادة وأسباب النقصان، وهي الطاعة والمعصية، والواقع أن أسباب زيادة الإيمان أكثر من ذلك وأضدادها أيضًا في نقص الإيمان، **فنشير إلى بعض أسباب الزيادة.**

أولًا: النظر في ملكوت السم اوات والأرض، فإن من سرح طرفه في ملكوت السم اوات والأرض بعين باصرة وعقل متدبر زاد إيمانًا، قال الله عز وجل:{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: 101]، والإعراض عن النظر في ملكوت السم اوات والأرض والإغراق في الغفلة سبب لنقص الإيمان، فإن من أعرض عن هذا فإنه يصاب بنقص الإيمان؛ ولهذا نعى الله على المشركين غفلتهم عنه، فقال:{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [النبأ: 6 - 16]، لكنهم لا يعتبرون، ولا ينظرون بنور الله، فلذلك ما زادهم ذلك إلا كفرًا وبعدًا.

ثانيًا: تدبر القرآن، فإن من نظر في القرآن، وتأمله وتدبر في معانيه زاد إيمانه؛ ولهذا قال الله:{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: 2]، ونعى الله على المشركين إعراضهم عن تدبر القرآن، فقال:{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} [المؤمنون: 68]{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [محمد: 24]، فدل ذلك على أن الإعراض عن تدبر القرآن ينقص الإيمان.

ثالثًا: ما ذكره الشيخ –رحمه الله– فعل الطاعة تقربًا إلى الله تعالى ، وهذا شرط مهم؛ لأن مِن الناس مَن قد يفعل بعض الأمور المستحسنة، لكن لا بنية الطاعة والتقرب إلى الله، فحينئذٍ لا تنفعه، كمن مثلًا يفعل بعض الأشياء مراءاةً للناس، فلو أن إنسانًا حضر الجماعة، أو الجمعة، أو خرج للجهاد في سبيل الله، وهو لا يريد بذلك وجه الله لم يزده ذلك من الله قربة ولم يزدد إيمانه، بل العكس.ومما ينقص الإيمان: ترك الطاعة، فمن ترك طاعة أوجبها الله تعالى عليه نقص إيمانه بقدر ما ترك، فإن ترك الطاعات تسلب الإيمان، والمقصود بالطاعات هاهنا الواجبات، فمن ترك واجبًا فإنه يصبح في خانة الظالم لنفسه، وأما من ترك مستحبًا، فإنه يكون في خانة المقتصد، كما سبق تفصيله.

رابعًا: ترك المعصية خوفًا من الله تعالى، وتأملوا في هذا القيد-خوفًا من الله-؛ لأن من الناس من يترك المعصية لأسباب أخرى، فيترك مثلًا تعاطي الخمر أو المخدرات أو نحو ذلك حفاظًا على الصحة، فهذا لا يسهم في زيادة إيمانه؛ لأنه تركه لأمر صحي بدني، لكن إن تركه طاعة لله عز وجل زاد إيمانه، ولهذا [مَن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه]، **ومثاله:** أن يصرف الإنسان نظره عما حرم الله، فقد جاء في حديث [مَن كفَّ بصره عن حرام ألقى الله في قلبه حلاوة يجدها في قلبه]، فترك المعصية خوفًا من الله تعالى يزيد الإيمان، قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك: 12]، **وينقص الإيمان** فعل المعصية، فإن مَن فعل معصية نقص إيمانه بقدر ما اقترف من المعاصي،

فالمعاصي تسلب الإيمان ولا ريب، ويكون ذلك أيضًا بحسب قوة الداعي أو ضعفه، وبحسب كبر المعصية وصغرها، فهي تتفاوت، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: [ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ]،فهؤلاء لما ضعف الداعي في حقهم كان نقص إيمانهم أشد؛ لأن الأشيمط: وهو الكهل الذي شاب صدغًا لا يوجد له مسوغ للوقوع في الزنا؛ فلذلك كان نقص إيمانه لوزنا أعظم من نقص إيمان الشاب لو زنا مع الحرمة على الطرفين، وكذلك العائل المستكبر، الكبر مذموم مطلقًا، لكن أن يكون عائلًا، وهو الصعلوك الذي لا يملك شيئًا ثم يستكبر فإن الداعي في حقه ضعيف، وإن كان الكبر مذموم في حق الغني والفقير، وهكذا.

فلأجل هذا ينبغي أن نعلم أن للإيمان أسباب تزيده وله أسباب تنقصه، وأن على العاقل أن يسعى في زيادة رصيده من الإيمان أعظم من سعيه في زيادة رصيده من المال، فإن عامة الناس يسعون جاهدين إلى جمع الحطام وتكثير الأرصدة في الحسابات، ولا يفكر أكثرهم في زيادة رصيده من الإيمان ولا يتع اهد قلبه، وهل هو يؤدي ما خلق لأجله، وهل هو مستودع لمحبة الله وخشيته ورجائه أم أنه تسرح فيه جنود الغفلات والشبهات والشهوات، فهذا أمر ينبغي أن يتفطن له المؤمن.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

الدرس(36)

حكم مرتكب الكبيرة

قال المؤلف –رحمه الله–: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ:

– أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ: قَوْلٌ، وَعَمَلٌ.

– قَوْلُ: الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ.

– وَعَمَلُ: الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ.

وَأَنَّ الْإِيمَانَ: يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

– وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ، لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ «الْخَوَارِجُ»، بَلْ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي.

– كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: 178].

– وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: 9 – 10].

وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ الْإِسْلَامَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ، كَمَا تَقُولُهُ «الْمُعْتَزِلَةُ»، بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ، كَمَا فِي قَوْله: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء: 92].

– وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: 2].

– وَقَوْلُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ].

– وَنَقُولُ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ، فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ؛ فَلَا يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ.

ومن حسنات مذهب أهل السنة والجماعة تقرير أن الإيمان يزيد وينقص، فإذا علم المؤمن بأن الإيمان يزيد وينقص فإن ذلك ينشئ في نفسه حافزًا لزيادة الإيمان بخلاف طرفي الضلالة في هذا الباب، وهم المرجئة والوعيدية، فإن ما اعتقدوه من أن الإيمان شيء واحد إما أن يوجد كله أو يعدم كله يصيبه بالإحباط وعدم الرغبة في الازدياد؛ فالمرجئة يعتقدون أن الإيمان شيء واحد، كما يمتلك أحدنا بطاقة الهوية الوطنية ويضعها في جيبه فيكون بذلك يحمل جنسية بلد ما، يقولون الإيمان كذلك هو عبارة عن وصف إما أن يوجد أو لا يوجد، وبالتالي فلا ينشأ عندهم دافع لزيادة الإيمان؛ لأنهم يقولون: تجاوزنا القنطرة وحصلنا على المراد فهذا أهم شيء، فنحن قد حققنا الإيمان؛ لأن الإيمان عندهم شيء واحد لا يزيد ولا ينقص.

وأشد من ذلك الوعيدية، فإن الوعيدية وإن كان يدخلون العمل في مسمى الإيمان إلا أنهم –والعياذ بالله– يهدرون الإيمان بمجرد فعل الكبيرة أو ترك واجب، فيؤدي ذلك بصاحبه إلى اليأس والقنوط من رحمة الله فلا يطلب زيادة الإيمان.

ثم إنه بعد ذلك دخل في أسماء الدين والإيمان، وذلك أن الناس قد اختلفوا في اسم مرتكب الكبيرة، ما اسمه في الدنيا؟ وما حكمه في الآخرة؟ **فانقسموا إلى طرفين ووسط:**

أما من حيث أسماء الدين:

- **فأهل السنة والجماعة** فإنهم يعدون مرتكب الكبيرة مؤمنًا، لكنه مؤمن ناقص الإيمان، أو يسمونه مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، لكنهم لا يزيلون عنه وصف الإيمان، وسر ذلك أن أهل السنة والجماعة يرون أن الإيمان مراتب ودرجات، فمن فاته الحد الأعلى منه ربما بقي له أصل الإيمان، فلا يخرجونه من الإيمان إلا بفعل مكفر.

- **وأما المرجئة** فإنهم يعدون مرتكب الكبيرة مؤمنًا كامل الإيمان حتى إنهم يعدون إيمان أفجر الناس كإيمان أتقى الناس، يعدون إيمان أفجر الناس كإيمان أبي بكر وعمر وجبرائيل وميكائيل؛ لأن الإيمان عندهم التصديق، والتصديق حاصل لهذا ولهذا، فحينئذٍ لا فرق بين إيمان هذا وإيمان هذا، فبالتالي يعتبرون من صدَّق مؤمنًا كامل الإيمان
- **على النقيض منهم الخوارج والمعتزلة الذين نسميهم الوعيدية** ، فإنهم يزيلون عن مرتكب الكبيرة اسم الإيمان، فالطائفتان متفقتان على إزالة اسم الإيمان عمن وقع منه كبيرة أو ترك واجبًا، فيقولون: ليس بمؤمن، غير أن الخوارج تطرد القول فتقول هو كافر، إذ الناس إما مؤمن وإما كافر، وهذا حق{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [التغابن: 2]، فتخرجه من الإيمان وتدخله في الكفر، وأما المعتزلة، فقالوا: خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر، فبقي في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر، **هذا من حيث أسماء الدين.**

وأما من حيث الحكم الأخروي:

- **فإن أهل السنة والجماعة** يحكمون على مرتكب الكبيرة في الآخرة بأنه تحت المشيئة والإرادة؛ لقول الله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: 48]، ولأحاديث الشفاعة المتكاثرة التي فيها أن الله تعالى يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة مثقال ذرة مثقال برة مثقال شعيرة مثقال خردلة أدنى أدنى مثقال ذرة من ذلك من النار.
- **وأما المرجئة فإنهم يقولون:** من أتى بالإيمان وحصل له التصديق فهو في الجنة **غير أن مرجئة الفقهاء خاصة يقولون بما تقول به أهل السنة والجماعة،** ويقولون: إن مرتكب الكبيرة في الآخرة تحت المشيئة والإرادة خلافًا لغلاة المرجئة من الجهمية.
- **وأما الوعيدية** فإنهم جميعًا يقولون: إنه مخلد في النار، وبيّن الشيخ رحمه الله هذا ورد عليهم، فقال: **وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ**-أي: أهل السنة والجماعة- **لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ «الْخَوَارِجُ»**. **وهم مع ذلك** يعني مع اعتقادهم بأن الإيمان يزيد وينقص وأن الإيمان قول وعمل مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، يعني لا يكفرون بأي معصية أو بأي كبيرة، وذلك أن المعاصي والكبائر تنقسم إلى ما هو مكفِّر وما ليس بمكفِّر؛ فالسجود لغير الله، والاستهزاء بدين الله، وإلقاء المصحف- شرفه الله- في القاذورات، وقتل نبي هذه مكفرات ولا ريب، لكن الزنا، السرقة، أكل الربا، الفرار والتولي يوم الزحف هذه كبائر، فأهل السنة والجماعة لا يكفرون أهل القبلة، وهذا المصطلح "أهل القبلة" يراد به عموم من تسمى بالإسلام واستقبل الكعبة، فهو لفظ واسع، فكل مَن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، واستقبل القبلة يقال عنه: إنه من أهل القبلة، فهذا المصطلح من أوسع المصطلحات فيندرج فيه أهل السنة، وأهل البدع غير المكفِّرة، فلا يكفرونهم بمطلق المعاصي والكبائر.

قال: كَمَا يَفْعَلُهُ «الْخَوَارِجُ»، بَلْ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي: هذا رد على الخوارج الذين يكفرون بارتكاب الكبيرة، فاستدل الشيخ -رحمه الله- بإبقاء الله تعالى للأخوة الإيمانية لمرتكب الكبيرة، فاستدل بقول الله تعالى:**{فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: 178]** فيم هذا؟ في القاتل الذي قتل نفسًا، قال الله: **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ** ، من أخيه المقتول، **فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**، فسمى الله القاتل أخًا للمقتول، فدل ذلك على أن القتل مع كونه كبيرة بل من أعظم الكبائر، ومع ذلك فإنه لم يُزِل وصف الإيمان، بل أثبت الله الأخوة الإيمانية للقاتل.

والدليل الآخر: قوله تعالى: **{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} [الحجرات: 9]**: تأملوا كيف أن الله عَدَّ الطائفتين من المؤمنين، مع أن اقتتال المسلمين فيما بينهم كبيرة، وأي كبيرة حتى سماها النبي صلى الله عليه وسلم كفرًا، ولكنه ليس الكفر الذي يخرج عن الملة، فقال: [سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ]، ومع ذلك فقد سماهم الله مؤمنين، وأثبت لهم الأخوة الإيمانية بقوله:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: 10].

فهاتان الآيتان في الواقع رد قوي على مذهب الخوارج الذين يزيلون اسم الإيمان عن مرتكب الكبيرة ، فأين يذهبون؟! ونضيف إليها آية ثالثة استدل بها الإمام الشافعي -رحمه الله -في الرد على مذهب الخوارج، وهو أن الله سبحانه وتعالى قال في كفارة اليمين وفي كفارة قتل الخطأ:{فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء: 92]، فقد أجمع الفقهاء على أن مَن أعتق عبدًا-زانيًا، سارقًا، مغتابًا، نمامًا، مقترفًا لأنواع الكبائر- أنه يحصل له بذلك التكفير، فهذا دليل على أنه يستحق اسم الإيمان، لكنه إنما نال من الإيمان مطلق الاسم لا الاسم المطلق، فإن الإيمان -أيها الكرام- درجات كما أسلفنا: أصل الإيمان والإيمان الواجب والإيمان الكامل:

فأصل الإيمان هو الإتيان بالشهادتين واعتقاد معناهما والتهيؤ للعمل بمقتضاهما.

والإيمان الواجب أن يضم إلى ذلك فعل الواجبات وترك المحرمات وحسب.

ثم الإيمان الكامل أن يضم إلى ذلك فعل المستحبات وترك المكروهات، فبهذا يتمايز المؤمنون.

فلذلك يمكن أن يكون مؤمنًا مَن كان متلطخًا بشيء من أسباب الفسق، ولا يخرجه ذلك عن مسمى الإيمان.

قال: وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ: الفاسق مأخوذ من الفسق، والفسق في اللغة هو الخروج، تقول العرب: فسقت التمرة، إذا خرجت من قشرها، فإذا أراد الإنسان مثلًا أن يتناولها من القِنْو فخرجت من قشرها، قال: تمرة فاسقة، وسمي العاصي فاسقًا؛ لخروجه عن طاعة الله عز وجل، والْمِلِّيَّ نسبة إلى ملة الإسلام، فهم لا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية: يعني لا ينفون عنه الإيمان تمامًا، وفي نسختي: **ويخلدونه في النار**، يعني: ولا يخلدونه في النار، يعني العطف على قوله: «**ولا**»، **ولا يخلدونه في النار** كما في نسخكم: كما تقوله المعتزلة، وذلك أن المعتزلة توافق الخوارج على مسألة سلب الفاسق الملي اسم الإيمان، وإن لم تبلغ به أن تسميه كافرًا، لكنها تخلده في النار؛ فلذلك هذه الجملة خص بها المعتزلة، والشيخ دقيق في عباراته؛ لهذا قال: **وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الْإِيمَانِ:** ولم يذكر مسألة التكفير، وإنما ذكر

مسألة التكفير فيمن مضى، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة كما يفعله الخوارج، فالمعتزلة من تحزلقهم أنهم نزعوا عنه اسم الإيمان ولم يصفوه بالتكفير، فبين الشيخ براءة أهل السنة من طريقة الخوارج ومن طريقة المعتزلة.

والمعتزلة قيل: إنهم سموا بهذا الاسم لَمّا وقف رجل على حلْقة الحسن البصري، وسأله عن مرتكب الكبيرة أمؤمن هو أم كافر؟ فأطرق الحسن –رحمه الله– ليصوغ جوابًا، فبادر واصل بن عطاء، وقال: أنا أقول إنه لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين منزلتين، ثم قام إلى سارية من سواري المسجد –مسجد البصرة– يقرر مذهبه انضم إليه عمرو بن عبيد وآخرون، فقال الحسن: اعتزلنا واصل، فسموا معتزلة، هكذا جاء في رواية تاريخية، فالمهم أن هؤلاء يسمون المعتزلة، وقد صار لهم شيء من الشنآن إبّان عهد بعض خلفاء بني العباس الثلاثة: المأمون والمعتصم والواثق، وحصل بسببهم المحنة بالقول بخلق القرآن، وطال أهل السنة منهم الأذى الكثير، وهم أول مَن مارس الامتحان والإرهاب الفكري على المسلمين، فهم مع ادعائهم للعقلانية إلا أنهم في الحقيقة هم الذين صادروا العقول وتسلطوا عليها وأرادوا حمل غيرهم بقوة السلطان على اعتقاد الباطل.

قال: بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ فِي مِثْلِ قَوْله: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء: 92]: فتأملوا قول الله تعالى: **{فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}**« رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ »هكذا بالإطلاق، فيدخل في ذلك أي رقبة، ولو شابها شيء من ارتكاب الكبائر، فيحصل بها الكفارة سواء كانت كفارة يمين أو جماع في نهار رمضان أو ظهار أو قتل خطأ أو غير ذلك مما رتب الله تعالى عليه كفارة العتق.

قال: وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ، كَمَا فِي قَوْله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}: تأملوا الآية هذه : **إِنَّمَا** وهي أداة حصر. **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال: 2 – 4]**: إذن هذا هو اسم الإيمان المطلق؛ أي: الإيمان الكامل، فهذا قد لا يقع لكثير ممن نسميهم مؤمنين، لأنها لا تتوفر فيهم جميع هذه الصفات، وكذلك قول الله تعالى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات: 15] إذن أعطاهم الله اسم الإيمان المطلق؛ لتوفر هذه الصفات فيهم.

ولما أن ذكر الشيخ –رحمه الله– الأدلة القاضية على مذهب الخوارج أراد أن يبين ما يحتج به الخوارج ويبين خطأ فهمهم وأن الدليل عليهم لا لهم، وهو قول النبي –صلى الله عليه وسلم– **[لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ]**: نهبة ذات شرف، يعني: ذات قيمة تتعلق بها هم الناس، لا حبل أو عصا أو شيء لا قيمة له ولا يلتفت إليه، فمن قارف شيئًا من هذه الأمور الأربعة وما شابهها فليس بمؤمن، لكن ما الإيمان الذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم؟ زعمت الخوارج والمعتزلة أن الإيمان المنفي هو الإيمان كله، وأنه لم يبقَ له

من الإيمان شيء، وهذا باطل بل الإيمان الذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الأمثلة الأربعة هو الإيمان الواجب، فيقال: لو كان النبي صلى الله عليه وسلم نفى عن هؤلاء الأربعة أصل الإيمان لما اكتُفي بقطع يد السارق، ولا بجلد الزاني غير المحصن، ولا بجلد شارب الخمر، ونحو ذلك لكان يقطع رأسه لو كان زال عنه اسم الإيمان مطلقًا، فعاد هذا الدليل الذي استدلوا به دليلًا عليهم، وهي قاعدة عظيمة، وهو" أن كل من استدل بدليل صحيح على قضية باطلة فإن الدليل يعود دليلًا عليه لا له"، وهذا أمر قد نبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–وذكر له شواهد، وانتدب عددٌ من طلبة العلم جمع هذه الشواهد من جميع المسائل في قلب الأدلة على الطوائف المضلة؛ أي: ما استدلوا به من أدلة صحيحة كيف تعود عليهم لا لهم، وهذا مصداق قول الله تعالى:{وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 41، 42] فكل من أراد أن يسخِّر القرآن لباطله فإن القرآن يعود عليه لا له.

إذن تبين المراد بقول النبي صلى الله عليه وسلم: **[لَا يَزْنِي الزَّانِي]**: أن المنفي هنا هو الإيمان الواجب وليس أصل الإيمان، وقد تجدون في بعض عبارات السلف أنهم يقولون: أن المنفي هو الإيمان الكامل، وهم يريدون بالكمال هنا الكمال الواجب لا الكمال المستحب فلينتبه لهذا.

ثم بيّن الشيخ –رحمه الله– ما يقوله أهلُ السنة والجماعة بعد مقالة هؤلاء وهؤلاء، فيقولون: **هو مؤمن ناقص الإيمان**، إذ الإيمان عند أهل السنة والجماعة يزيد وينقص، فهذا الفاسق الملي مؤمن لكنه **ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته**، وهذا أيضًا من تعبيراتهم أنهم يقولون: مؤمن بإيمانه؛ أي: ما أتى به من خصال الإيمان فهو مؤمن بها حصل له وصف الإيمان بها، وأما ما اقترفه من الكبائر والمعاصي فهو فسق فيه.

قال: فَلَا يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ، (فَلَا يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ) ؛ أي: الإيمان الكامل.**(وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ)** : أي:لا ينفى عنه الإيمان بالكلية. وهذا هو القسطاس المستقيم، وهو ميزان الاعتدال والتوسط كما هي طريقة أهل السنة والجماعة في جميع أبواب الدين.

ومما يلتحق بمسائل الإيمان التي لم يذكرها الشيخ –رحمه الله– في هذا المقام "مسألة الاستثناء في الإيمان"، وهي الثنية؛ بمعنى: هل يقول الإنسان أنا مؤمن إنه شاء الله أم لا يقول؟ فهي من المسائل، وقد ألمحنا إليها في الدرس الماضي، وقلنا: إن أهل السنة والجماعة كانوا يقولون بالاستثناء في الإيمان، وهذا محفوظ عن عبد الله بن مسعود وأصحابه وغيرهم أنهم يقولون بالاستثناء في الإيمان، يعني يقولون: قل أنا مؤمن إن شاء الله.

وسبب ذلك بالنسبة لأهل السنة والجماعة: راجع إلى اعتقادهم بأن الإيمان مراتب ودرجات وأن إطلاق القول في ذلك؛ بأن يقول الإنسان: أنا مؤمن، ولا يستثني. تزكية لنفسه، وقد قال تعالى:{فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: 32]، فهذا هو مأخذ أهل السنة والجماعة في هذا الأمر أن الاستثناء لدفع تزكية النفس؛ ولهذا قال ابن مسعود لما حدثه بعضُ أصحابه أنهم لقوا ركبًا فسألوهم مَن؟ فقالوا: نحن المؤمنون، فقال: هلا قالوا نحن أهل الجنة؛ لأن مَن يصف نفسه بأنه مؤمن كأنما يقول عن نفسه أني من أهل الجنة، ومَن ذا الذي يقطع لنفسه بأنه من أهل الجنة.

وأما المرجئة فإنهم منعوا الاستثناء في الإيمان، قالوا: لا يجوز الاستثناء في الإيمان، ومن استثنى في إيمانه فهو شاك؛ لأن الإيمان عندهم، ما هو؟ التصديق فقط، فلما كان الإيمان عندهم هو مجرد التصديق صار مَن يقول: إن شاء الله. متردد، كما لو قيل لرجل من الناس مثلًا: هل أنت مثلًا مصري؟ هل أنت عراقي؟ هل أنت سعودي؟ فقال: إن شاء الله. فهذا لا يستقيم، لماذا؟ لأن مثل هذا إما أن يقول: نعم أو لا، فهم قالوا إذا قيل: أمؤمن أنت، فلا تقل إن شاء الله قل نعم، لِمَ؟ لأن الإيمان عندهم هو التصديق، فبناءً على أصلهم منعوا الاستثناء في الإيمان وعدوا من يستثني شُكَّاكًا حتى إنهم ينبزون أهل السنة بهذا اللقب ويسمونهم شُكَّاكًا، لكن هذا مبني على أصلهم الفاسد.

وكذلك أيضًا الوعيدية يمنعون الاستثناء في الإيمان؛ لأنهم يطلبون القطع فيه، والإيمان عندهم شيءٌ واحد، فكل من اعتقد أن الإيمان شيء واحد إما أن يوجد كله أو يعدم كله فإنه يمنع الاستثناء في الإيمان.

وخروجًا من هذا الالتباس: نقول:

- إن كان الحامل على الاستثناء في الإيمان هو خوف تزكية النفس فالاستثناء واجب.
- وإن كان الحامل على الاستثناء في الإيمان الشك والتردد في أصل الإيمان فالاستثناء محرم.
- وإن كان الحامل على الاستثناء هو التبرك بذكر المشيئة فهذا جائز، فقد قال الله تعالى في أمر يقيني مقطوع فيه: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} [الفتح: 27]، فقد يقول المؤمن أحيانًا إن شاء الله من باب التبرك بذكر المشيئة لا من باب الشك والتردد.

فهذا التفصيل هو الذي يحصل به زوال الالتباس.

هذه هي مذاهب الناس -أيها الإخوان- في هذا الموضوع المهم ولم يزل بحمد الله اعتقاد أهل السنة والجماعة مستقرًّا على هذا الأمر لا يختلفون عليه منذ نشأت الخوارج والمرجئة غير أنه في العقود الأخيرة نشأ ناشئة وحصل شغبٌ في مسألة بسبب وجود التكفيرين الذين جرى منهم غلو وتكفير فقابلهم بعض المتسنِّنَة والمنتسبين إلى طريقة السلف بما ظنوه إصلاحًا لخطئهم لكنهم أخطئوا حيث أرادوا أن يصلحوا ما أفسد غيرهم بفساد مثله، فقالوا: نعم الإيمان قول وعمل، لكن العمل شرط كمال لا شرط صحة، وهذه لفظة دخيلة على أهل السنة والجماعة لم يقل بها أهل السنة والجماعة وإنما قال بها الشاعرة، وهي عبارة متناقضة؛ إذ كيف تقول: إن الإيمان قول وعمل ثم تقول: إن العمل شرط كمال لا شرط صحة، فإن قولك: شرط معلوم أن الشرط يلزم من عدمه العدم، فكيف يكون شرطًا ويكون في الوقت نفسه مجرد كمال لا أصل، فهذه عبارة متناقضة في بنيتها وذاتها، والذي حمل هؤلاء على أن يقولوا هذا القول ما وجدوه من غلاة التكفيرين الذين يستسهلون تكفير الناس، فأرادوا أن يقابلوهم بما يطامن من غلوائهم ويقلل من أمر العمل فيقولون: إن العمل شرط كمال لا شرط صحة، فينبغي أن نعلم أن هذه العبارة عبارة دخيلة على أهل السنة والجماعة، ولم يقل بها أحد من السلف، وإنما قالها بعض الأشاعرة، ويجب العود إلى ما كان عليه السلف الصالح؛ ولهذا صدر عن اللجنة الدائمة للإفتاء بيانات متعددة حول هذه المسألة والرد على من قال بها.

وهناك بعض الإشكالات التي قد يشهرها بعض هؤلاء من نصوص وأحاديث وغير ذلك، وهي من المتشابه الذي يجب أن يرد إلى المحكم، فإن المؤمن إذا اشتبه عليه شيء فعليه أن يرد المتشابه إلى المحكم، كما هي طريقة الراسخين في العلم، فالله تعالى قال عن الراسخين في العلم: {يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: 7]، فإذا وجدت النصوص الصريحة الصحيحة البينة الدلالة على أمر ما، ثم وُجد نصٌّ مشكل فإن على الإنسان أن يعتصم بالمحكم ويحمل المتشابه عليه، **ومن ذلك مثلًا:** ما يستدل به بعضهم [مَن كان آخر كلامه في الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة] قالوا: هذا قد دخل الجنة بمجرد كلمة لا إله إلا الله، فهذا لا يقضي على ما قدمنا من أن: الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، فإن مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: [مَن كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله] أن يقولها معتقدًا عالمًا متهيئًا للعمل بمقتضاها، فربما قالها قائل فلم يتح له العمل مثلًا فيكون بحكم العامل، كما جرى للغلام اليهودي الذي أتاه النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته، وأمره أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فنظر إلى أبيه كأنما يستشيره، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم. فشهد شهادة الحق، فلم يلبث أن خرج النبي صلى الله عليه وسلم أن مات، فقال: الحمد لله الذي أنقذه من النار بي، فيحمل على مثل هذا، أو على مثل قصة الْأُصَيْرِم، أصريم بني عبد الأشهل الذي كان معرضًا عن الإسلام فلما وقعت غزوة أحد خرج بسلاحه وحارب مع المسلمين، وهو لم يعمل عملًا حتى أثبتته الجراح وأدركه بعض أصحابه من بني عبد الأشهل وهو يجود بنفَسِه، فقال:أصيرم! كيف، وقد كنت كارهًا لهذا الأمر؟ فقال أقرئ رسول الله صلى الله عليه وسلم السلامَ، وأخبره أني أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، ثم جاد بروحه –رضي الله عنه– فهذا الرجل لم يدرك أن يعمل حتى كان أبو هريرة يلغز بهذا، ويقول: مَن رجل دخل الجنة لم يركع لله ركعة؟ فيحمل على مثل ذلك.

والله سبحانه وتعالى أيضًا لا يوفق لقول لا إله إلا الله في هذه اللحظات العصيبة إلا من كان من أهلها، من أهل الإيمان العاملين به، فلا تصدر عن أحد كان في دنياه مع الإمكان قادرًا على العمل ثم لم يعمل، وكذلك أيضًا ما ورد في أحاديث الشفاعة: [إن الله يدخل أقوامًا الجنة لم يعملوا خيرًا قط] فإن هذا الذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم، لم يعملوا خيرًا قط: قد يراد به من الأعمال الصالحة المعروفة، ولكن قد يكون أقل عمل عملوه أنهم آمنوا –في قلوبهم إيمان–، فهذا الإيمان الذي قام في قلوبهم وصاحبه عمل قلبي من محبة، أو خوف، أو رجاء هو في الحقيقة عمل، فيكون المنفي عملًا معينًا أو خيرًا معينًا، ومع ذلك فإنه كما أسلفنا أي نص موهم أو مشكل يجب أن ينظر إليه في سياق النصوص المحكمة الأخرى، وللعلماء أجوبة أخرى عن هذا.

فهذا ما يتعلق بمسألة الإيمان، فيجب على طالب العلم أن يكون على بينة من ربه فيها، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا وإياكم إيمانًا جازمًا ويقينًا راسخًا وعملًا صالحًا وتجارة لا تبور وأن يحسن عاقبتنا في جميع الأمور.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

الدرس(37)

الصحابة

📖قال المؤلف –رحمه الله–: **وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلاَمَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} ، وَطَاعَةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي قَوْلِهِ: [لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهُ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ]. وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسَّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ . وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ . وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ . وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَارِ. وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ . وَكَانُوا ثَلاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُم. فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ). وَبِأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَة. وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، كَالْعَشَرَةِ، وَثَابِتِ بْنِ قِيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِم مِّنَ الصَّحَابَةِ.**

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد جرت طريقة أهل السنة والجماعة بعد أن يتكلموا عن أصول الإيمان وما يلتحق بذلك من كبار المسائل : كمسألة القرآن ومسألة الإيمان ونحوها، أن يُفرِدوا فصولًا تتعلق بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه وقرابته، **ومبعث ذلك من جهتين:**

الجهة الأولى: أن الصحابة الكرام هم الواسطة بيننا وبين نبينا صلى الله عليه وسلم في تبليغ الشرع والدين، ولهذا كان الإمام مالك يقول: "إذا جاء الحديث عن رسول الله فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن رجل من أصحاب رسول الله فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أحد من التابعين فهم رجال ونحن رجال ". فلا ريب أن الصحابة الكرام لهم مزية ومنزلة إذ أن الله تعالى اختارهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم عن علم وحكمة، فهم النُزَّاع من القبائل قد علم الله عز وجل أنهم أصفى الخلق قلوبًا في ذلك الزمان فآواهم إلى نبيه صلى الله عليه وسلم، فتجد فيهم من مختلف القبائل بل ومن مختلف الشعوب، فهذا بلال حبشي ، وسلمان فارسي ، وصهيب رومي وهكذا، وإذا رأيت قبائلهم تجد أنهم من مختلف قبائل العرب، فجمع الله خيرة خلقه في ذلك الزمان وضمهم إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ لكي يكونوا أهل الصحبة وأهل النصرة وأهل الجهاد، فصاروا أوعية للعلم حفظ الله تعالى بهم الدين، فإذا رأيت الرجل يطعن في أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق لأنه أراد أن يثلِم الواسطة بيننا وبين نبينا ليثلِم الدين ويفسده هذا من جهة.

الجهة الثانية: وقوع هذا الأمر –أعني الطعن في الصحابة– من بعض طوائف الضلال : كالخوارج والرافضة، فإن الخوارج والرافضة طعنوا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بعضهم، لا سيما الروافض ؛ فإن الروافض اللئام لم يستثنوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أفرادًا يعدون على الأصابع ومن سواهم زعموا أنهم ارتدوا عن الإسلام، وعلتهم في ذلك أنهم لم يبايعوا عليًّا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنهم تمالئوا وتواطئوا على جعل البيعة لأبي بكر ثم عمر ثم عثمان، فلذلك طعنوا في جميع الصحابة وزعموا أنهم مرتدين على ما سيأتي تفصيله.

فمن هاتين الجهتين – من جهة كون الصحابة رضوان الله عليهم هم الواسطة بيننا وبين نبينا صلى الله عليه وسلم، ومن جهة وقيعة الفرق الضالة فيهم – صار أهل العلم يتكلمون عن موضوع الصحابة في أبواب الاعتقاد، وإلا فالأصل أنه لا صلة له بأمر الاعتقاد؛ إذ إن مسألة الصحابة تلتحق في مسألة الحديث ومصطلح الحديث وما أشبه، ولهذا يُكثِر المحدثون الكلام عنها ويعتنون بها.

قال: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: فعده أصلًا، والأصل: هو ما يُبنى عليه غيره.

قال: سَلاَمَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أصحاب: جمع صاحب أو جمع صحابي وهو يشمل الذكر والأنثى منهم، وتعريف الصحابي : هو من لقي النبي صلى الله عليه وسلم في حياته مؤمنًا به ومات على ذلك، وهذا التعريف تعريف جامع مانع. فقولنا: من لقي يلزم منه ثبوت اللقيا، ولم نقل: من رأى لأنه ربما كان الصحابي أعمى فلم يره بعد فلذلك كان التعبير من لقي أولى ، أو من اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم مؤمنًا به، فمن لقيه غير مؤمنًا به لم تثبت له صحبة وهذا وقع لكثير لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم في المواسم ثم لم يستجيبوا له وقدِّر أن أسلموا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فلا يثبت لهم وصف الصحبة. ثم لا بد أن تكون هذه اللقيا في الحياة فلو قدر أنه لقيه بعد موته لم تثبت له الصحبة، وقد وقع هذا بمثال فريد لرجل هاجر إلى المدينة في اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآه بعيني رأسه مسجى، لكن هذا لا يعد صحابيًّا لأنه لم يلقه في حال الحياة، وكذلك من لقيه في المنام لا يعد صحابيًّا فلو نام امرؤ نومه ورأى النبي صلى الله عليه وسلم ثم قام وادعى الصحبة لم نقبل منه؛ لأنه لم يلقَ النبي صلى الله عليه وسلم في حال الحياة.

ولكن هاهنا يلغز بمسألة نادرة وهو عيسى عليه السلام فإن عيسى يلغز به ويقال : **من هو النبي الصحابي؟** وذلك أنك لو طبقت عليه حد الصحبة لوجدته منطبقًا ؛ فقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم في حال الحياة، فإن عيسى قد رفعه الله إليه لم يمت: { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ } [النساء: 157] ، وقال في الآية الأخرى: { وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: 157، 158]. ثم لقيه النبي صلى الله عليه وسلم في السماء الرابعة فاجتمع بالنبي صلى عليه وسلم مؤمنًا به قطعًا وهو في حال الحياة، فربما ألغِز بهذا لكن هذه أفراد ، ونعود إلى التعريف الأصل: من لقي النبي صلى الله عليه وسلم في حياته مؤمنًا به ومات على ذلك. فلو قدر أنه ارتد عن الإسلام لزال عنه وصف الصحبة؛ لأنه يزول عنه ما هو أعظم من ذلك وهو وصف الإسلام، فإذا زال وصف الإسلام زال ما دونه ، لكن لو قدر

أنه ارتد ثم رجع فهل يعود له وصف الصحبة؟ الجواب: نعم وقد وقع هذا لكثيرين منهم: طليحة بن خويلد الأسدي الذي كان صحابيًّا ثم ادعى النبوة ثم منَّ الله تعالى عليه وأسلم وحسن إسلامه، فيقال: إنه رجع إليه وصف الصحبة.

أما من كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلقه وكان مؤمنًا به في حياته فإنه يسمى :"مخضرمًا "وهذا كثير مثل النجاشي فالنجاشي –رحمه الله– كان بأرض الحبشة وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وآوى أصحابه وأهدى النبي صلى الله عليه وسلم الهدايا ولكنه لم يلقه فيقال عنه :" مخضرمًا"، وهكذا أويس القرني كان مخضرمًا وكان قد آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته ولم يمنعه من الهجرة إلا خدمته لأمه وبره بها، فهؤلاء يطلق عليهم في المصطلح : "مخضرمون".

إذن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير بهذا الحد والتعريف؛ لأن الذين لقوا النبي صلى الله عليه وسلم كثيرون جدًّا، يكفي أن نعلم أن الذي حج معه في حجة الوداع أكثر من مائة ألف فكل هؤلاء صحابة لأنهم ينطبق عليهم حد الصحبة.

لكن ينبغي أن نعلم أن مراتب الصحبة متفاوتة، وقد ذكر ابن الجوزي –رحمه الله– ثلاث مراتب للصحبة:

١) أعلاها هي الملازمة التامة كملازمة أبي بكر وعمر وخاصة أصحابه فهؤلاء هم التلاد الأوائل والأصحاب الذين ينطبق عليهم حد الصحبة انطباقًا كبيرًا.

٢) ثم هناك من لقي النبي صلى الله عليه وسلم في مجالس دون ذلك لا تبلغ حد الملازمة فهذه درجة دون ذلك.

٣) ثم هناك من رأى النبي صلى الله عليه وسلم لمرة كالذي جرى في حجة الوداع لكثير من الناس فهؤلاء دون ذلك.

فنحن وإن قلنا إنه يشملهم جميعًا لفظ الصحبة لكنهم يتفاوتون في مراتبهم وفضائلهم كما سيأتي بعد ذلك، وقد قرر العلماء أن الصحابة كلهم عدول ثقات؛ ولهذا لا تضر جهالة الصحابي في سند الحديث فالصحابة عدول ثقات، فقد زكاهم الله تعالى تزكية مطلقة فقال: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29]، وقال:{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ} [التوبة: 100]. فلا مطعن في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحتاَج للسؤال عن حالهم كما يحتاج للسؤال عن حال من بعدهم.

س: فما الواجب تجاه هذه النخبة الكريمة والصفوة العظيمة من هذه الأمة الذين هم خير القرون؟.

ج: الواجب تجاههم سلامة القلوب والألسنة، سلامة القلوب مم؟ من الغل والحقد والشحناء وسوء الظن وما أشبه ذلك من الأمور التي تعتري القلوب، وسلامة الألسنة مم؟ من اللعن والسب والقذف والشتم وما أشبه ذلك. فالواجب أن يسلم القلب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يسلم اللسان من الوقيعة فيه.

ولما قرر الشيخ– رحمه الله– هذا الأصل العظيم استدل بآية وبحديث:

- **أما الآية**: فقول الله عز وجل: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ}[الحشر: 10]، بعد من؟ بعد المهاجرين والأنصار، فإن الله ذكر أطباق المؤمنين في سورة الحشر فقال:

أولًا: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر: 8].

ثم ثنى فقال: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

ثم ثلث فقال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [الحشر: 10]، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ: وهم التابعون، أرأيتم فابتدءوا بالدعاء لهم ولإخوانهم، **{وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا} [الحشر: 10]**، وهذا يقتضي سلامة القلوب وإذا سلمت القلوب سلمت الألسنة، **{رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10]**، وقد استنبط الإمام مالك –رحمه الله– من سياق هذه الآيات أن الرافضة لا يستحقون الفيء مم؟ قد كان الله ذكر في أول هذه الآية: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ} [الحشر: 7]، ثم قال بعد ذلك {لِلْفُقَرَاءِ} [الحشر: 8] فجعل اللام هاهنا للتمليك، يعني أن الفقراء – فقراء المهاجرين والأنصار – داخلون في الفيء ، وكذلك من يأتي من فقراء التابعين، لكن لما كان هذا الوصف وهذا الشرط لا ينطبق على الرافضة ؛ لم يحل لهم فيء؛ لأنهم لا يقولون كما يقول سائر التابعين: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [الحشر: 10]**، بل إن في قلوبهم غلًّا للذين آمنوا وفي ألسنتهم بذاءة في الوقيعة بهم حتى قيل : لو قيل لليهود من خير ملتكم لقالوا : أصحاب موسى، ولو قيل للنصارى من خير ملتكم لقالوا : أصحاب عيسى، ولو قيل للرافضة من شر ملتكم لقالوا : أصحاب محمد، وهذا هو الواقع فإنهم لم يزالوا يقعون في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والخوارج كذلك ؛ فإن الخوارج قد كفروا عليًّا وأصحاب الجمل وأصحاب صفين والحكمين، وليس شيء أعظم من التكفير؛ فكلا الفريقين –الخوارج والروافض– قد وقعوا في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

- **وأما الحديث**: فقول النبي صلى الله عليه وسلم في المتفق عليه: **[لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي** –والسب معروف– **فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهُ]**: وهو القسم الذي إذا اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم في تأكيد أمر من الأمور عبر به أن يقول: والذي نفس محمد بيده.

قال: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهُ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا: وأحد جبل معروف في شمال المدينة كبير متوحد ولذلك سمي أحدًا.

قال: لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا: لو استحال له جبل أحد ذهبًا فأنفقه في سبيل الله.

قال: مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ: والمد هو ربع الصاع يعني تقريبًا بمقاس هذه القارورة أو أكثر تقريبًا، فالصاع النبوي أربعة أمداد. فلو أنفق الصحابي هذا المد الذي قدر ما يملأ كفي الإنسان المعتدل الخلقة ؛ لكان ثوابه أعظم من ثواب من سواه ممن أنفق مثل أحد ذهبًا. فهذا يدل على فضل الصحبة وأن أعمال الصحابة مضاعفة، وذلك لما سيأتي من سابقتهم في الهجرة والنصرة والجهاد في سبيل الله والعلم والعبادة وغير ذلك من الفضائل التي اختصهم الله تعالى بها.

قال: وَلا نَصِيفَهُ: والنصيف هو نصف المد فيكون ثمن الصاع على هذا.

إذن هذا هو الواجب سلامة القلوب والألسنة، ومن لازم ذلك حصول المحبة والمودة والموالاة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم في الصحيح: (آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ)[1]، وهم من صحابة رسول الله.

قال: وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسَّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ: أي أن الشيخ -رحمه الله- لما ذكر الحق العام لعموم الصحابة انتقل إلى بيان الحق الخاص المتعلق بتمايزهم ومراتبهم إذ أنهم ليسوا سواء، ولا تعجب إذا كان أنبياء الله بينهم تفاضل؛ فمن باب أولى أن يكون من دونهم بينهم تفاضل، قال الله تعالى عن النبيين: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [البقرة: 253]، فالتفاضل حاصل حتى بين رسل الله فكيف بمن دونهم؟!.

والواقع أن التفاضل بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة يكون نوعًا من المفاضلة العامة وأحيانًا يكون مفاضلة بالأعيان، أقصد بالمفاضلة العامة : المفاضلة على أساس الفئة والجماعة، كما بيَّن الشيخ -رحمه الله- فقال مثلًا من أنواع المفاضلة : **وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ . وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ . وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ**: فهذا تفضيل على وجه العموم لا على سبيل التعيين ، قال الله تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد: 10]، ما المراد بالفتح في الآية؟ المراد بالفتح هاهنا: صلح الحديبية لأن الله سماه فتحًا فقال: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح: 1]، وبالفعل كان صلح الحديبية انعطافًا في تاريخ السيرة النبوية فصار كل ما بعده للإسلام ونصر المسلمين، فقد كانت بدر نصرًا للمسلمين وأحد هزيمة على المسلمين والأحزاب بين بين، ثم جاء بعد ذلك صلح الحديبية فكان هو وما بعده فتحًا على المسلمين.

فمن أنفق من قبل الفتح وقاتل أعظم درجة ممن أنفق من بعد وقاتل، إذ الإنفاق من قبل والقتال كان فيه تعريض للنفوس للإزهاق والأموال للفناء، وأما ما بعد صلح الحديبية فقد اطمأن الناس وكثر الدخول في الإسلام، فلهذا ميَّز الله ما قبل عما بعد فهذا من أوجه المفاضلة.

من أوجه المفاضلة العامة:

أولًا: تفضيل المهاجرين على الأنصار، والمقصود بالمهاجرين: هم من انتقل من مكة إلى المدينة يريد الله ورسوله، [فمن

[1] صحيح البخاري (17).

كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله]، فكانت الهجرة في أول الإسلام هي الانتقال من مكة إلى المدينة، فمن وقع له ذلك فهو مهاجر، وحتى لو قدر أنه هاجر من غير مكة إلى المدينة ، ولزم النبي صلى الله عليه وسلم فهو مهاجر، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن تعرب المهاجر، تعرب المهاجر : هو أن يرجع إلى باديته ويلزمه أن يبقى مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين في المدينة، فكان للهجرة فضل عظيم، وقد نال المهاجرين من العنت والمشقة والأذى كما تلونا آنفًا: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} [الحشر: 8]، كانوا ينفذون بجلودهم ويدعون أموالهم وبيوتهم وأهليهم لله تعالى، كما وقع لصهيب الرومي –رضي الله عنه– حينما هم أن يهاجر فلحقته قريش، وكان قد ورد عليهم وهو فقير لا يملك شيئًا ثم أغناه الله فلما أدركوه وأرادوا أن يردوه قال لهم: والله إن في كنانتي أسهمًا بعددكم، ولقد علمتم أني من أرماكم ولو شئت لرميت كل واحد منكم بسهم، قالوا أتيتنا صعلوكًا لا مال لك وكذا وكذا، قال : أرأيتم إن دللتكم على مالي أكنتم تخلون بيني وبين الهجرة ؟ قالوا: نعم، فدلهم على موضع ماله ومضى، فلما لقي النبي صلى الله عليه وسلم قال : ربح البيع ربح البيع، إذ أنه اشترى الهجرة بماله، فهذا صهيب –رضي الله عنه–، وأمثاله كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يطول المقام بذكرهم.

إذن المهاجرون أفضل من الأنصار، ومما يدل على فضلهم عليهم أن الله تعالى إذا ذكر الفري قين بمن يبدأ ؟ يبدأ بالمهاجرين، ومن بدأ الله تعالى به فهو أحق بالفضل فقال تعالى: { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة: 100]، فيقدم الله المهاجرين على الأنصار، ولكن الأنصار – رضي الله عنهم– أيضًا لهم فضل عظيم إذ إنهم بذلوا أموالهم وبذلوا أنفسهم في صيانة الدين حتى إنه ما نزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة، ويكفيكم هذا الوصف الذي وصفهم الله تعالى به قال: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا}[الحشر: 9]**، فهم يبذلون ما يبذلون بسخاوة نفس وطيب نفس لا بشيء من المنة والإدلاء على إخوانهم المهاجرين، **الدَّارَ**: أي المدينة.

ثانيًا: تفضيل البدريين على من سواهم، قال الشيخ: وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ . وَكَانُوا ثَلاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ. (اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ) : هل هذه آية في كتاب الله هل تجدون في كتاب الله هذه الآية: **(اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)** ؟ هذه آية قد نسخت تلاوتها لكن قد ثبت حكمها، وإنما علمنا أنها آية من قصة حاطب بن أبي بلتعة، فإن حاطبًا قد أفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هَمَّ بفتح مكة إلى المشركين وبعث برسالة إلى قريش، فأعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم بمن يأتي بهذه الرسالة في قصة معروفة، ولما مَثُل حاطب بين يديه قال له ما حملك على ما صنعت؟! فقال يا رسول الله ما من أحد من أصحابك إلا وله أهل وعشيرة يدفع الله به عنهم إلا أنا فقد كنت لصيقًا في القوم ؛ فأردت أن أتخذ بذلك يدًا عندهم، فقال عمر –رضي الله عنه–: يا رسول الله ، مرني فلأضرب عنقه فلقد نافق، قال : وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : (اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)، فتبين بأن هذا من كلام رب العالمين ، اطلع على أهل بدر بسبب حسنتهم الجميلة

هذه وهي فداؤهم وتضحيتهم في يوم الفرقان، فقال: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)، فلهذا كانت البدرية وصفًا كريمًا أن يقال: فلان بن فلان بدري شهد بدرًا فيعد منقبة عظيمة لصاحبها.

ثالثًا: تفضيل أصحاب بيعة الرضوان على من سواهم :لأن الله تعالى أثنى عليهم ونبيه صلى الله عليه وسلم، فقد قال الله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح: 18]، فهذا رضا من الله مثبت في كتابه إلى يوم القيامة.

قال: وَبِأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة]، فهذا دليل على عتقهم من النار.

قال: بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ،كما في الآية ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَة: الذين بايعوا تحت الشجرة كانوا أكثر من ألف وأربعمائة، وبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم علا م؟ على الموت ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان بينه وبين قريش سفارات وكان من آخر هذه السفارات أن بعث عثمان –رضي الله عنه– فأشيع في معسكر المسلمين أن عثمان قد قتل، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى بيعة الموت، فأتوا وبايعوه حتى إنه كان معهم منافق كان يتخفى خلف ناقته حتى لا يبايع، وأما سائر المؤمنين فقد بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا ألفًا وأربعمائة، فلا شك أن هذه منقبة عظيمة.

ولما فرغ الشيخ من ذكر المفاضلة العامة أشار إلى الفضل الخاص الذي يتعلق بالأعيان ، فقال: وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، كَالْعَشَرَةِ : فلا ريب أن العشرة المبشرين بالجنة أفضل من غيرهم، فقد صعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر وقال: [أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وسعد في الجنة – سعد بن أبي وقاص – ، وعبد الرحمن في الجنة – عبد الرحمن بن عوف – ، وطلحة في الجنة طلحة بن عبيد الله، والزبير في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة في الجنة]. فهؤلاء هم العشرة المبشرون بالجنة على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، وزع عليهم النبي صلى الله عليه وسلم البشارات فكانوا يمشون بين الناس وهم يُعلم أنهم في الجنة، وأفضلهم على الإطلاق أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم بين بقيتهم خلاف بين العلماء في تقديم بعضهم على بعض، فمن شُهِد له بالجنة لا ريب أنه يشهد له ويفضل لأن الجنة غاية ما يسعى إليه المؤمنون.

قال: وَثَابِتِ بْنِ قِيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِم مِّنَ الصَّحَابَةِ: أيضًا هذه من الحالات التي وقعت فيها البشارة بالجنة خارج العشرة، وقد كان ثابت بن قيس بن شماس خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما نزل قول الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: 2]، وكان خطيبًا ومن شأن الخطيب أن يرفع صوته، فقعد في بيته مهمومًا مغمومًا وقال: أنا أرفع صوتي حبط عملي وأغلق عليه بابه، فافتقده النبي صلى الله عليه وسلم فسأل عنه فأخبِر فقال: [أخبِروه أنه يعيش حميدًا ويموت شهيدًا ويدخل الجنة]، فيا لها من بشارة بُشر بالجنة في حياته.

قال: وَغَيْرِهِم مِّنَ الصَّحَابَةِ: مثل من؟ مثل عكاشة بن محصن الأسدي، فإن عكاشة لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، قال : يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: أنت منهم، ومثل من؟ الحسن والحسين قال عنهم ا النبي صلى الله عليه وسلم إنهما سيدا شباب أهل الجنة، ومن؟ بلال فقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ما دخلت الجنة – يعني في رؤيا منامية – إلا سمعت خشخشة نعليك فسأله عن ذلك فأخبره بأنه ما توضأ وضوءًا إلا صلى بعده ركعتين]. وكذلك أيضًا ما يروى في الأخبار والسير عن آل ياسر، فجاء فيها أنه قال: أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة، وهم ياسر وزوجه سمية وعمار. وعبد الله بن سلام أيضًا بشر بذلك، فهناك أفراد سوى العشرة بشروا بالجنة فهؤلاء لا شك أنهم لهم فضل خاص بأعيانهم.

الدرس(38)

الخلفاء الأربعة

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا : أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ. وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانُ فِي الْبَيْعَةِ. مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ . أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ: وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّم قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا. لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ .وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ . مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ . لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ. لَكِنِ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الْخِلاَفَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم :أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ. وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلاَفَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ .**

نعم بعد أن ذكر الشيخ ما تقدم من المفاضلة العامة والإشارة إلى المفاضلة الخاصة اعتنى بمسألة أخص : **وهي ما يتعلق بالخلفاء الأربع والمفاضلة بينهم** ، فبيَّن –رحمه الله– بأن أهل السنة مجمعون في مسألة المفاضلة على ما تواتر به النقل، وتعرفون أن التواتر مصطلح في علم مصطلح الحديث: "أنه ما رواه جماعة كثيرة عن مثلهم وأسندوه إلى شيء محسوس "، يعني جماعة كبيرة يستحيل تواطؤهم على الكذب عن مثلهم وأسندوه إلى شيء محسوس والأصوليون، يقولون : "إن المتواتر يفيد العلم القطعي العلم اليقيني".

وهذا ثابت عن علي –رضي الله عنه– أنه قال على منبر الكوفة زمن خلافته بعد ظهور الغلاة فيه: "إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر "، وأُثِر عنه أيضًا –رضي الله عنه– أنه قال: "لا يبلغني عن أحد أنه يفضلني عن أبي بكر وعمر إلا جلدته حد الفرية "[1]، حد الفرية يعني حد القذف ثمانين جلده، وذلك أنه قد نبغت نابغة في زمنه صاروا

[1] فضائل الصحابة (83/1).

يفضلونه على أبي بكر وعمر، بل قد وجد في زمنه فرقة السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الذي زعم هو وأصحابه أن عليًّا هو الله –تعالى الله عما يقولون–، فما كان من علي رضي الله عنه إلا أن خد لهم الأخاديد في أبواب كندة في الكوفة وأضرم فيها النار وقذفهم فيها لأنهم قالوا له: كفاحًا أنت الله هكذا، فألقاهم في النار حرقهم بالنار وقال:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا أججت ناري ودعوت قنبرًا

قنبرًا: غلامه، فألقى السبئية في النار، فهذا كان موجودًا في زمن علي، فلذلك علي –رضي الله عنه– أكثر من البيان في هذه المسألة ، وقال: "إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ". هذا أمر متفق عليه عند أهل السنة والجماعة لا يختلفون فيه، لكن ماذا بعد ذلك ؟ أهل السنة والجماعة يثلثون بعثمان ويربعون بعلي –رضي الله عنه– كما دلت عليه الآثار، من قرأ في مناقب الصحابة لا يخالجه شك أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر الذي نوه الله بذكره في كتابه: { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } [التوبة: 40] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم :[مَا أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيْنَا فِي صُحْبَتِهِ فِي مَالٍ وَلَا يَدٍ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ][1]، أمن حتى كان أبو بكر يقول: بل المن والفضل لله ورسوله. ومناقب أبي بكر أشهر من أن تحصى، لكن إذا أعمى الله البصائر لم تدرِك ذلك، فهؤلاء الروافض اللئام لا يذكرون أبا بكر إلا بسوء، والله قد زكاه في كتابه ونبيه صلى الله عليه وسلم كذلك، لكن القوم مطموسون غلبت عليهم شِقوتهم.

ثم عمر –رضي الله عنه–: فإن عمر –رضي الله عنه– له من الفضائل في الإسلام لا ينكره إلا مكابر، واليوم الذي أسلم فيه كان فتحًا على المسلمين ، خرج المسلمون صفين صف عليه حمزة وصف عليه عمر، فكان ذلك نقل للدعوة من المرحلة السرية إلى الجهرية بعد إسلام عمر، وهو الذي دون الدواوين ومصَّر الأمصار، وقال عنه النبي صلى الله عليه وسلم في الرؤيا المنامية: حتى أخذها عمر بن الخطاب ، قال: [فما رأيت عبقريًّا يفري فريه حتى شرب الناس وضربوا بعطن]، يشير إلى فترة خلافته وما جرى فيها أو وما سيجري فيها من الفتوح.

ثم بعد ذلك عثمان الملقب بذي النورين، لأن النبي صلى الله عليه وسلم زوجه ابنتيه ، لما ماتت الأولى رقية زوَّجه أم كلثوم، وقال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ)[2]، لما جهز جيش العسرة.

ثم علي –رضي الله عنه–: ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول من آمن به من الصبيان وزوَّجه ابنته فاطمة.

فهؤلاء الأربعة هم خيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فأهل السنة والجماعة استقر أمرهم كما قال الشيخ في آخر كلامه على هذا النحو، أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، لكنه أشار إلى خلاف في المسألة ، واستدل على هذا الترتيب بأنه أجمعت الصحابة على تقديم عثمان في البيعة، صحيح، فإنه لما مات عمر –رضي الله عنه– كان قد

[1] فضائل الصحابة (239/1).

[2] سنن الترمذي (3701)، مسند أحمد (20630) وحسنه الألباني.

عهد إلى الباقين من العشرة المبشرين لينظروا في أمر الخلافة، فلما اجتمعوا خرج طلحة والزبير من الأمر وكذلك عبد الرحمن بن عوف، وبقي الأمر دائرًا بين علي وعثمان -رضي الله عنهما-، فانتدب عبد الرحمن بن عوف للحكم في هذه المسألة فصار يسائل الناس حتى إنه كان يسأل ربات الخدور في خدورهن، فلما انقضت المهلة واستطلع الأمر حكم بأن عثمان أولى، ولهذا قال أيوب السختياني -رحمه الله-:" من قدم عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار " يعني تنقصهم، كأنه يقول رأيكم ليس برأي والمهاجرين والأنصار قدموا من ؟ قدموا عثمان على علي، فهذا هو القول المقدم وهو الذي استقر عليه أهل السنة والجماعة.

ثم أشار الشيخ -رحمه الله- إلى الخلاف في هذه المسألة، **فقال: مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ . أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ: وَسَكَتُوا:** يعني قدموا عثمان في الفضل.

قال: أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ: يعني هناك من لم يسكت، ولكن قال: عثمان ثم علي جعل عليًّا الرابع.

قال: وَقَدَّم قَوْمٌ عَلِيًّا: فمن أقوال أهل السنة تقديم علي على عثمان في الفضل.

قال: وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا: فآلت الأقوال إلى ثلاثة: تقديم عثمان على علي، تقديم علي على عثمان، التوقف.

قال: لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ : وهذا الذي عليه أهل السنة قاطبة : تقديم عثمان على علي في مسألة الفضل.

قال: وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ: أي مسألة؟ مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، يعني مسألة المفاضلة بين عثمان وعلي.

قال: لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ: الأصل في المسائل العقدية تضليل المخالف وأن الحق فيه واحد، لكن هناك مسائل تُدرج في مسائل الاعتقاد لا يبلغ الأمر فيها مبلغ التضليل والتبديع، وهي قلائل ونوادر منها هذه المسألة ، ومنها مسألة هل رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه أم لا ؟، فهذه المسألة لا يضلل فيها المخالف، فلو أثر عن بعض السلف أنه يقدم عليًّا على عثمان فإننا لا نحكم ببدعته بل هذا قول محفوظ.

قال: لَكِنِ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الْخِلاَفَةِ : كيف؟ **وَذَلِكَ أَنَّهُمْ –** أي أهل السنة والجماعة – **يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ** : رضي الله عنهم أجمعين ، لا يختلف المسلمون أهل السنة والجماعة على هذا.

قال: وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلاَفَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ : وهي عبارة مأخوذة من جواب للإمام أحمد، أضل من حمار أهله يعني أنه غاية في الضلال من طعن في خلافة أحد منهم، وفي هذا إشارة إلى من؟ إلى الروافض؛ فإن الروافض يطعنون في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، والحقيقة أنهم يطعنون في علي شعروا أو لم يشعروا لماذا؟ لأن عليًّا -رضي الله عنه- قد بايع الثلاثة، فإن كانت الخلافة حقًّا له ، فكيف يتخلى عن حق أحقه الله له ؟! هذا طعن فيه، فإن زعموا أنه فعل ذلك تقية وخوفًا فهذا أيضًا طعن في شجاعته وطعن في نصحه للأمة، كيف يجحد هذا الحق الذي أولاه الله

تعالى إياه وأولاه إياه نبيه صلى الله عليه وسلم ؟!،وإن كان علي -رضي الله عنه أقر بذلك ووسعه فليسعهم ما وسع عليًّا إن كانوا يحبونه حقًّا وصدقًا، فتبين أن القوم فيهم من الغباء وفيهم من السفه ما لا يخفى، ولذلك قال - الشعبي -رحمه الله- عن الرافضة: "لو كانوا من النعم لكانوا حمرًا ولو كانوا من الطير لكانوا رخمًا"، فلا عقل ولا نقل.

مكانة أهل البيت

📖**قال الم ؤلف -رحمه الله-: " وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: [أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي]. وَقَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّه. وَقَدِ اشْتَكَى إِلَيْهِ أَنَّبَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ. فَقَالَ: [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ؛ للهِ وَلِقَرَابَتِي]. وَقَالَ: [إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ،وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ،وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ].**

هذا خصوص بعد عموم، فقد عقد الشيخ – رحمه الله – فيما مضى فصلًا في موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، و ذكرنا حد الصحبة، ولا ريب أن حد الصحبة ينطبق انطباقًا أوليًا على أهل بيته صلى الله عليه وسلم، ممن آمن به؛ فهم صحابة وقرابة، ولهم مزيد خصوصية؛ لقربهم من هـ ذا النسب الشريف، ولصلتهم بأكرم خلق الله عز وجل: نبيه صلى الله عليه وسلم.

فقال: **وَيُحِبُّونَ**: أي أهل السنة والجماعة يحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ: من أهل بيته؟ أهل بيته قال العلماء: هم الذين تحرم عليهم الصدقة. ؛ لأنه من المعلوم أن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لا تحل لهم الصدقة تكرمة لهم؛ لأنها أوساخ الناس، حتى منع النبي صلى الله عليه وسلم الحسن أو الحسين من أخذ تمرة من الصدقة، تكرمة لهذا البيت الشريف، فيحل لهم الفيء، ولهم نصيب من المغنم، إلى غير ذلك مما أعاضهم الله تعالى فيه، وكفاهم صلتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد قال الله تعالى:{قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى: 23]، ففسرها بعض المفسرين أي: أن تودوني لقرابتي، أو أن تودوا قرابتي، فلا شك أن مودة قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من مستلزمات الإيمان؛ له ذا قال الشيخ: **وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ**: والواقع أن لفظ الولاية يتضمن المودة والنصرة، لكنه حيث عطفه عليه، فيختص اللفظ الأول: **وَيُحِبُّونَ**: بالمودة القلبية، فمن حق أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونقصد المؤمنين منهم، أن يحبوا محبة خاصة، وأيضًا أن يوالوا بمعنى: أن يناصروا؛ فهم أهل للنصرة.

وهم أربعة أخوة أو خمسة بيوت: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل الحارث بن عبد المطلب ، وآل العباس، هؤلاء هم يجتمعون مع النبي صلى الله عليه وسلم في جده هاشم؛ وله ذا استنبط بعض أهل العلم أن حد القرابة الذين تجب صلتهم الأب الرابع، فالنبي صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، فهؤلاء البيوت تحرم عليهم الصدقة، ولهم حقٌ في مزيد المودة؛ لقرابتهم من النبي صلى الله عليه وسلم، والنصرة لهم في الحق.

قال: "وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم؛ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ ": غدير خم: هذا موضع في الطريق إلى تبوك، خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبة، وقال فيها: **[أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي]** هذا قد رواه مسلم، فلا شك أنها وصية نبوية جديرة بالرعاية والعناية والحفظ والصون، بأن يود أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ويجلون، ويقدرون، طبعًا من كان منهم على الإسلام والسنة، أما من لم يكن ك ذلك فلا كرامة؛ كأبي لهب، أو من كان منهم – فيما بعد– مبتدعًا، كما يحصل في بعضهم؛ فإن الأصل في المحبة هي المحبة الإيمانية، فإذا اجتمع الإيمان والقرابة تحقق هذا المطلوب.

قال: [أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي]: فمن نال من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بمسبة، أو أذى فعليه من الله ما يستحق، ومن أعظم من طاله أذى من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم: الحسين بن علي –رضي الله عنه، وعن أبيه، وعن أمه–؛ فإنه قد وقع عليه من الكرب ومن الشدة من بعض أمراء بني أمية ما لا يخفى، وقتل –رضي الله عنه– شهيدًا في كربلاء، فيجب له الترضي والمحبة، وبغض قاتليه، ومن سعى في دمه؛ فإن هؤلاء هم النواصب حقًا، الذين ناصبوا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم العداء؛ ولكن لا نغلو كما تغلوا الرافضة، وتجعل من هذا اليوم مناسبة للمآتم، وضرب القامات، وشق الرؤوس، وغير ذلك من الحماقات التي لو خرج الحسين – رضي الله عنه–؛ لكان أول من ينكرها عليهم.

قال:"وَقَدْ قَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّه . وَقَدِ اشْتَكَى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ ": يجفوهم أي: يبدي لهم الجفاء؛ فقد ذكر العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: أن قريشًا إ ذا رأى بعضهم بعضًا هش وبش إليه، إلى بعضهم بعضًا، وإذا أقبل عليهم أحد من بني هاشم انقبضوا عنهم، **فَقَالَ: [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ؛ للهِ وَلِقَرَابَتِي]**، أي: لهذين السببين، لله أولًا بوصف الإيمان، ثم لقرابتكم مني، ولقرابتي ، وهذا حديث رواه الإمام أحمد، ورواه أيضًا غيره؛ لكنه مرسلٌ، ووصله الطبراني– كماذكر المحقق – بإسناد صحيح .

قال: "وَقَالَ" أي: رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: [إِنَّ اللهَ اصْطَفَى]: اصطفى أي: اختار، كقول الله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: 75].

قال: [إِنَّ اللهَ اصْطَفَى إِسْمَاعِيلَ]: وهو: إسماعيل بن إبراهيم؛ فلا ريب أن الله اصطفاه، وآتاه النبوة، وأثنى عليه: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ

مَرْضِيًّا} [مريم: 54، 55]، ومن اصطفاء الله تعالى له أن أحله وأمه في هـ ذا الموضع الشريف، فجعلهم أهل بيته الأوائل، وتفجر زمزم من تحت عقِبيه، ثم جعل الله من نسله محمد بن عبد الله، فشِق إسماعيل لم يكن فيه نبي بعد إسماعيل سوى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكفاه فخرًا، وشِق إسحاق – عليه السلام– كان جميع أنبياء بني إسرائيل منه.

قال: [إِنَّ اللهَ اصْطَفَى إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ،وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ،وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ]: هكذا رواه مسلم، فدل ذلك على نبينا صلى الله عليه وسلم هو صفوة الصفوة.

والله تعالى {أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } ، فلما قال مشركو العرب : **{لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف: 31]** "؛ فقال الله تعالى: **{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ} [الزخرف: 32]**، فالفضل لله، **{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام: 124]**: فقد نظر الله في قلوب العباد فوجد أبرها وأصدقها قلب محمد صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل عليه وحيه وجعله مستودعًا له.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

الدرس(39)

مكانة أهل البيت

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ: خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلاَدِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِه،وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ. وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: [فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ].**

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ. وَمِنْ طَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.."

ولما ذكر ما تستحقه القرابة ذكر ما يستحقه أهل بيته من أزواجه، ولا ريب أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من أهل البيت، خلافًا للروافض اللئام الذين يخرجونهن من أهل البيت، والله تعالى يقول في محكم التنزيل في سورة الأحزاب بعد أن قال: {يَانِسَاءَ النَّبِيِّ} [الأحزاب: 30]، {يَانِسَاءَ النَّبِيِّ} [الأحزاب: 32]، قال: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ} [الأحزاب: 33]؛ فدل ذلك على أن أزواجه صلى الله عليه وسلم، ورضي عنهن، يدخلن دخولًا أوليًا في هذا الوصف؛ فهن أهل بيته صلى الله عليه وسلم ، فأين يذهبون؟! صار حالهم هو الوقيعة في أمهات المؤمنين؛ لا سيما عائشة وحفصة؛ لشديد عداوتهم لأبي بكر وعمر –رضي الله عنهما وعن ابنتيهما–.

أيضًا من شأن أهل السنة والجماعة تولي أمهات المؤمنين جميعًا، وهذا الوصف وصف قرآني؛ فقد ذكر الله تعالى في سورة الأحزاب: {وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب: 6] ، لكن هذه الأمومة أمومةٌ في الاحترام لا في المحرمية؛ بمعنى: أن لهن ما للأمهات من الاحترام، والتوقير، والتبجيل، لكن ليس لهن ما للأمهات من المحرمية؛ فلا تجوز الخلوة بهن، ولا السفر بإحداهن، فهذا هو المقصود به هذه الأمومة، فيخاطبن بلفظ: "يا أُمه"، كما كان التابعون يفعلون ذلك؛ بل والصحابة، فهن أمهات المؤمنين، وهن أيضًا أزواجه في الآخرة.

وقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة امرأة في حياته، وتوفي عن تسع منهن، وأولهن وأفضلهن على أحد القولين خديجة؛ فله ذا بدأ بها فقال: "**وَيُقِرُّونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ: خُصُوصًا خَدِيجَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا– أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلاَدِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِه، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ**": هذا طرف يسير من مناقب خديجة –رضي الله عنها–، وكان قد تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة؛ بل إنها هي التي خطبت نفسها إليه، فلما ذهب النبي صلى الله عليه وسلم بتجارتها إلى الشام، ورأى غلامها ميسرة من كريم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ما رأى، وحدثها بما رأى رغبت فيه، فكان أن تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين، وكان لها أربعون سنة، وقد تزوجت قبله، فكانت –رضي الله عنها– نعم المرأة والزوجة الصالحة، التي ساندته ووقفت معه، وسلته فيما كان يعتريه من أذى من كفار قريش؛ فكان يلقى العنت الشديد من مشركي قريش فما هو إلا أن يأوي إليها حتى يسرى عنه؛ ولهذا في السنة التي ماتت فيها ومات عمه أبو طالب سمي ذلك العام: "عام الحزن"؛ لأن الأمر اشتد على النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر من فضائلها أنها أم أكثر أولاده؛ فجميع أولاد النبي صلى الله عليه وسلم من بنين وبنات منها، سوى ابنه إبراهيم؛ فإن إبراهيم كان من سرِّيته مارية القبطية، وعامة أولاده، القاسم، والطيب، والطاهر، ثم بناته أيضًا؛ لأن أولاده كلهم قد ماتوا في حياته، وبقيت بناته كلهن من خديجة –رضي الله عنها وعنهن–، ولا شك أن هذا مما يرفع قدر المرأة عند زوجها أن تكون أم أولاده، أو أم أكثر أولاده، فله ذا تجد الناس مثلًا إذا أرادوا أن يعظموا قدر المرأة عند زوجها قالوا: هذه أم عيالك، أم أولادك؛ لأن هذا يزيد في قدرها ولا ريب.

قال: "وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ" : وهذا جلي بين في حديث بدء الوحي الذي صدر به البخاري صحيحه؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل من حراء ترتعد فرائصه يقول: "دثروني، دثروني"، أو يقول: "زملوني، زملوني" ، فلما سري عنه وسكن قص عليها الأمر؛ فقالت: أذهب بك إلى ورقة بن نوفل ابن عم لها كان قد تنصر في الجاهلية، وهذا من حكمتها وقالت له قبل ذلك كلامًا ينم عن عقل راجح، لما قص عليها القصص قالت: "والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتعين الملهوف، وتعين على نوائب الحق، وتَكسب المعدوم"، وأخذت تذكر من فضائله مما استدلت به على أن الله تعالى لا يخزيه، وأن هذه علامة خير، ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل، فقص عليه القصص، فبشره بأنه نبي هذه الأمة، فهذا من كمال عقلها ورجحانه –رضي الله عنها–، ثم لم تلبث أن ماتت في مكة، ولم يتزوج النبي صلى الله عليها وسلم عليها؛

إكرامًا لها، ولمنزلتها عنده، فكانت **"أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ – قطعًا-،"وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِه"** ، فوقفت معه موقفًا قويًا، يعني بذلت له مالها.

قال: "وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ"، في حياتها وبعد مماتها، حتى إنه كان صلى الله عليه وسلم يكرم صويحباتها، يكرم صويحباتها، ويحتفي بهن، ويهدي إليهن؛ حفظًا لحقها، ووفاء لها، ولما استأ ذنت عليه مرة هالة بنت خويلد لحق النبي صلى الله عليه وسلم رقة وارتباك لما سمع استئ ذانها؛ لأنها ذكرته باستئذان خديجة، وكان كثير الثناء عليها، إلى درجة أن عائشة رضي الله عنها غارت منها وهي قد ماتت، وقالت له مرة: يا رسول الله، ما تريد من عجوز من قريش حمراء الشدقين، أبدلك الله بخيرٍ منها، هكذا قالت، أو قريبًا منه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنها كانت ك ذا، وكذا، وكذا، وكان لي منها ولد، وكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم محتشمًا، لا يتضمن تأنيبًا لعائشة، لكنه تضمن حفظًا لحق خديجة –رضي الله عنها–، فجعل يثني عليها، فما غارت عائشة من أحد من أزواجه صلى الله عليه وسلم غيرتها من خديجة، ولما أُسِر العاص زوج زينب، وطُلِب له الفداء في قصة معروفة في السيرة، وكانت زينب إذذاك في مكة، أرسلت في فدائه شيئًا من الذهب، كانت قلادة من الذهب، كانت قد أهدتها أمها خديجة لها، فلما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم أدركته رقة لما رأى ذلك، وقال: إن شئتم أن تطلقوا أسيرها، إن شئتم أن تطلقوا لها أسيرها، فقالوا: نعم يا رسول الله، فردوا المال وردوا الأسير، فكل هذا يدلنا على ما ذكر الشيخ أن لها منه المنزلة العالية، وتفصيل فضائلها يوجد في كتب السير والتاريخ، فيرجع إليه في السيرة النبوية لابن كثير ومن قبله.

ثم ثنى بذكر **"الصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ"**، هكذا سماها، ولا ريب أن عائشة –رضي الله عنها– عظيمة التصديق لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حافظة للعلم، وعاءً له، وأبوها خير هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصديق، فهي **"الصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ"** –رضي الله عنها وعن أبيها–، **" الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم:** [كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ] [1]؛ وهذا النص يدلنا على التميز النسوي في عائشة، وإن كانت خديجة فيها كمالاتٌ كثيرة، لكنها من حيث الزوجية والعشرة كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبها ويقدمها؛ ول ذلك جعل التمييز لها من هذا الوجه، وأما خديجة –رضي الله عنها– فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال [أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَ نَصَبَ] [2]، ما شاء الله، ما هو القصب؟ اللؤلؤ المجوف، هذه بشارة لها –رضي الله عنها–.

[1] صحيح البخاري (3411)، صحيح مسلم (2431).

[2] صحيح البخاري (3820)، صحيح مسلم (2432).

أما عائشة ففضلها على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، ما هو الثريد؟ ما أقرب ما له في أطعمتنا؟ القرصان، الذي هو خبز ولحم، كما قال الشاعر:

إِذَا مَا الْخُبْزُ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ فَذَاكَ أَمَانَةَ اللهِ الثَّرِيدُ

فذاك أمانة الله الثريد، وحلف، نحن ما بدنا نهيجكم على الطعام؛ إنما على كل حال فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وقد خطبها النبي صلى الله عليه وسلم، وعقد عليها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي بنت ست سنين، وبنى بها وهي بنت تسع سنين، وفي هـ ذا رد على الذين يزعمون بخطأ نكاح الصغيرات وأنهن قصر؛ استجابة للأنظمة الدولية وغير ذلك، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بنى بها وهي بنت تسع سنين، وهو سنٌ قد تحيض فيه المرأة، مما يدل على أن النساء يتفاوتن، فإ ذا كانت الفتاة لديها من البنية والاحتمال ما تصلح زوجة فما المانع من ذلك؟ لكن الأنظمة الدولية الآن تلزم أو تلجئ الدول إلى سن القوانين المنافية للشريعة، فمدار الأمر على القدرة والاحتمال والأهلية للزواج من عدمها، وقد كانت عائشة -رضي الله عنها- حِب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته يشتاق إلى يومها، ويأنس بها، ويمازحها، ويسابقها، جعلها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم مستراحًا لفؤاده، وكانت أيضًا فتاة ذكية نابهة، تحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يلقيه من كلام؛ فل ذلك كثرت روايتها، مقارنة ببقية أمهات المؤمنين، فحفظ الله تعالى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم البيتية، التي لا يطلع عليها آحاد الناس عن طريق أمهات المؤمنين؛ وخصوصًا عائشة -رضي الله عنها-، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم مسندًا صدره إلى صدرها، توفي بين حاقنتها وذاقنتها، وآخر ما خالط ريقه ريقها؛ إ ذ أنه رأى أحد الصحابة يستن بسواك، فأبد إليه نظره، ففهمت عائشة مراده، فأخذت السواك وقضمته وطيبته، ثم أعطته النبي صلى الله عليه وسلم فاستن به استنانًا لم تر مثله، ثم رفع يده قائلًا: "إلى الرفيق الأعلى، إلى الرفيق الأعلى"، وقضى، فكانت هي آخر العهد به -رضي الله عنها-، فه ذا طرف يسير من شأن عائشة، ويرجع إليه كما أسلفت في كتب المناقب والسيرة.

قال: "وَيَتَبَرّءُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ. وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ": أهل السنة والجماعة يتبرءون من طريقة الروافض، وه ذا اللفظ أو هذا الاصطلاح "الروافض" اكتسبوه بسبب ما بدر منهم تجاه زيد بن علي بن الحسين؛ فإن زيد بن علي بن الحسين أبوه علي بن الحسين زين العابدين، كانوا قد أغروه بالخروج على بني أمية، وكان هذا المذهب مذهبًا موجودًا عند بعض متقدمي السلف، وهو الخروج على ولاة الجور؛ ثم إنه تُرِك وهُجر، فكان من شأن زيد بن علي بن الحسين أن خرج على بني أمية بإغراء من هؤلاء الروافض، كما فعلوا بجده من قبل - بالحسين بن علي رضي الله عنه وعن أبيه-، فحين لقوه قالوا له: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فقال: صاحبا رسول الله ووزيراه، أو صاحبا جدي ووزيراه، قالوا: تبرأ منهما، قال: بل أتبرأ ممن يتبرأ منهما، فقالوا: رفضناك، قال: رفضتموني؟ فسموا: "رافضة"، وه ذا هو الاسم الذي ينبغي أن يدمغوا به، عليهم من الله ما يستحقون، فلا والله، ما هم بشيعة؛ لأن الشيعة تعني التشيع والمناصرة، وهم في الواقع أول من خ ذل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-

، وأبناءه من بعده، وإن ادعوا زورًا وبهتانًا أنهم أهل نصرته؛ فإنما هي جعجعة ولا أرى طحنًا؛ بل هم ال ذين خذلوا آل البيت، وهم الذين جروهم إلى المآزق التي نتج عنها ما نتج من قتلهم وأ ذيتهم إلى غير ذلك، ولا زالوا – إلى يومنا هذا – يعني يدعون الدعاوى العريضة، ويزعمون أنهم يحبون أهل البيت ويصورون لأتباعهم أن أهل السنة معادون لأهل البيت، وأنهم يبغضونهم، ولكذبوا، وخابوا، وخسروا؛ ولذلك فهم أمة مخذولة، لا تقوم لهم قائمة إلا وأتبعها سقوط وانهيار، وه ذا ما نرجوه، وإن كانوا قد استطالوا في ه ذه الأزمنة، ومدوا ذرعتهم إلى كثير من بلاد المسلمين، وعاثوا فيها فسادًا، لكن مآل أمرهم إلى بوار، ولعل فيما جرى في الأيام الماضية من إطلاق عاصفة الحزم مما يبعث الأمل – بحمد الله – على أن القوم لا تقوم لهم قائمة، وأنهم مهما بهرجوا، وتظاهروا، ومدوا، وامتدوا؛ فإن مآلهم إلى بوارٍ وأمرهم إلى سِفال، وه ذا – إن شاء الله تعالى – ما نرجوه في الأيام المقبلة – من انحسار مدهم السيئ في كثير من بلاد المسلمين.

وقد كان لهم في بعض حقب التاريخ وضع شبيه؛ ففي القرن الرابع الذي يسمى: "قرن الرفض"، امتد أثر الرافضة إلى معظم الممالك الإسلامية؛ فتمكن البويهيون – وهم رافضة – من دار الخلافة في بغداد، وتسلطوا على خلفاء بني العباس، وتمكن العبيديون من حكم المغرب، ومصر، وأطراف الشام، ال ذين يسمون أنفسهم الفاطميين، وحاشا ه ذا النسب الشريف من بني عبيد بن ميمون القداح، ووجد القرامطة في الأحساء والبحرين، ووجد الصليحيون في اليمن، ووجد الحمدانيون في حلب وأعمارها، حتى لم يكد يسلم من بلاد الإسلام للسنة إلا الشام، والحجاز، وأطراف من فلسطين، ثم إن الله تعالى من بفضله ومنه وكرمه فانقشعت ه ذه الكربة، فجاء عماد الدين زنكي ونور الدين محمود من بلاد الموصل، وقضوا على الدولة العبيدية عن طريق صلاح الدين الأيوبي، وجاء السلاجقة من المشرق فقضوا على البويهيين، وهكذا انقشع القرامطة والصليحيون وهكذا، وعادت السنة ترفرف على الممالك الإسلامية، وه ذا من ابتلاء الله الناس بعضهم ببعض؛ ولهذا ينبغي لطالب العلم أن يقرأ التاريخ؛ لأن في التاريخ عبرة ومنهاج ودروس وعظات، وكثير من الناس لا يدرك مخازي الرافضة في الأمة، فهم كما قال الغزالي –رحمه الله–: "ظاهر م ذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض"، فينبغي لطالب العلم أن يكون عنده إلمام بالتاريخ وما جرى في مطاويه، من هؤلاء الأدعياء ال ذين في حقيقتهم مجوس، حاقدون على الإسلام وأهله، موتورون من إطفاء نار فارس، وأرادوا أن يركبوا موجة التشيع؛ ليغروا الس ذج والبسطاء من الناس بمحبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم في ه ذه الأزمنة أضافوا شيئًا آخر، وهو ركوب الموجة السياسية، والتظاهر بالعداء لأمريكا وإسرائيل، و.. و.. و.. إلى غير ذلك من الجعجعة التي يغررون بها الس ذج، وهم في الحقيقة صِلاتهم حميمة ووثيقة بكل من تظاهروا بعداوتهم، لكنهم ي ذرون الرماد في العيون كما يقال؛ ليبدو وكأنهم هم الذين يتبنون قضايا الأمة، وأنهم هم ال ذين ينوبون عن فلسطين، والمسجد الأقصى، وليس لهم في ذلك إلا الدعاوى العريضة، وإثارة الفتن، والشغب، والاحتراب في أجزاء البلاد الإسلامية، وحسبك بالشام شاهدًا واضحًا، ودليلًا جليًّا على آثارهم الوخيمة على أهل الإسلام؛ فلو فَنِي أهل الشام بأكملهم ما أهمهم ذلك، في سبيل أن يبقى نفو ذهم وتسلطهم، فإلى الله المشتكى.

كذلك النواصب، والنواصب: جمع ناصب، وهو من ناصب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم العداء بقول أو عمل، **والمقصود بهم في الدرجة الأولى: الخوارج** ؛ فإن الخوارج خرجوا في زمن علي -رضي الله عنه- ، وكفروه بدعوى أنه حكم الرجال في كتاب الله في قضية التحكيم، وكفروا أهل الجمل، وأهل صفين، وطلبوا من علي -رضي الله عنه- أن يجدد إسلامه بناء على أنه كفر، وجرى بينهم وبين علي -رضي الله عنه- من الأحداث ما ذكرناه في درس قد مضى، فأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء وهؤلاء في شأن أهل البيت؛ ذلك أن الروافض يظهرون الغلو في علي وآل بيته، والنواصب يكفرون عليًّا وآل بيته، وأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء وهؤلاء، فهم يحفظون لعلي رضي الله عنه منزلته السامية، ويرون أنه رابع الخلفاء الراشدين، وأنه رابعهم أيضًا في الفضل على ما استقر عليه م ذهبهم، وأنه زوج ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، وابن عمه، وله الفضل والقدر، وله من الجهاد والنصرة ما هو معروف مشهور، فهكذا يعتقد أهل السنة في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يغلون بهم غلو الروافض، ولا يثلمونهم حقهم ويكفرونهم كما فعلت الخوارج.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

الدرس (40)

الإمساك عما شجر بين الصحابة

📖**قال المؤلف -رحمه الله-: "وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمَنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ. وَهُم مَّعَ ذَلِكَ لاَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ يُجَوِّزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ .وَلَهُم مِّنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ . إِنْ صَدَرَ . ، حَتَّى إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُم مِّنَ السَّيِّئَاتِ مَا لاَ يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأَنَّ لَهُم مِّنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ. وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُمْ. ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بَحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلاَءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ. فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ: إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مغْفُورٌ. ثُمَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ،وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَمَن نَّظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِنَ**

الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خِيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لاَ كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى."

قال: "يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ . إِنْ صَدَرَ .": أنا عندي **"مَغْفِرَةَ مَا صَدَرُ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ"**.

قال: " ثُمَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْ مُورٌ": أنا عندي :**"ثُمَّ الْقَدْرُ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ"**.

هذا الفصل من أنفع الأبواب لطالب العلم فيما يقع في الساحة من تجا ذبات وملاسنات وخصومات، بين أهل السنة ومخالفيهم من الروافض وغيرهم؛ فإنا في زمن صار كل إنسان يتسنم المنابر، ويتحدث عبر الوسائط، ويقع في الصحابة، وتسمعون ببعض رءوس البدع حتى من المنتسبين إلى السنة، والسنة منهم براء من يقع في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتجد منه شِنشنة تعرفها من أخزم، كأنما هو لسان للروافض، وإن ادعى بأنه على سنة، ويزعم التحقيق، ويزعم تحرير المسائل إلى غير ذلك، لكنه ليس على السنة التي كان عليها السلف الصالح، ففي هـ ذا الفصل يبين الشيخ بطريقة منصفة عادلة مقنعة الموقف من الآثار المروية في مساوئ بعض الصحابة، فابتدأ أولًا بذكر القاعدة الأساسية وهي الإمساك، **قال:"وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَر بَيْنَ الصَّحَابَةِ"**، وحينما نقول: **"عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ "**؛ إنما نشير إلى فترة زمنية محددة، ليس الأمر الصحابة من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن انقرضوا، ظل الصحابة يدًا واحدة، وجبهة واحدة، زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، ثم وجِد شيء من الفتنة في زمن عليٍ –رضي الله عنه–، ولم يطل إلا أفرادًا منهم، فلا يتصور متصور أن هذه العبارة تدل على أن الشجار واقع بين عامة الصحابة لا؛ إنما وقع بين أفراد منهم، ابتلوا بهذه الفتنة وهم: علي –رضي الله عنه– ومن كان معه، ومعاوية ومن كان معه، وطلحة والزبير وعائشة ومن كان معهم، هؤلاء هم الذين ابتلوا بهذه الفتنة، لا عامة الصحابة، فالصحابة عامتهم سلِموا وعوفوا من هذا الأمر، وكثير ممن عاصر هذه الفتنة أيضًا؛ بل أكثر الصحابة نأى عنها واعتزل، فأكثر الصحابة اعتزل هذه الفتنة، فما هو الموقف؟ **أولًا**: الإمساك عما شجر بينهم، كما قال عمر بن عبد العزيز –رحمه الل–ه: "تلك دماء طهر الله منها سيوفنا؛ فلنطهر منها ألسنتنا"، يعني: كما أن الله تعالى عافانا، يقول –رحمه الله– من أن تتلطخ سيوفنا بدمائهم، فلنطهر ألسنتنا من أن تتلطخ بالوقيعة فيهم، أو م ذمتهم وسُبتهم؛ لأنه قد كان في زمنه من يقع في علي –رضي الله عنه– من النواصب أو العكس، فكانت هذه الأمور تقع؛ فلذلك استقر مذهب أهل السنة والجماعة على الإمساك عما شجر بين الصحابة، **ما معنى ذلك يا كرام؟** معناه: أن لا يفتتح الإنسان الحديث فيما شجر بين الصحابة، بمعنى أنه لا يفتتح الدروس والمحاضرات في ما جرى في الجمل، وصفين، والتحكيم وغير ذلك، طيها وعدم ذكرها هو السلامة؛ لأن من خاض في هذه الأشياء فقد يلحقه شيءٌ من إيغار الصدور، والنقمة، ويقع في قلبه، وينقدح في خاطره معنىً فاسد، وهو في عافية منه، فأهل السنة والجماعة لا يفتتحون هـ ذا الموضوع ابتداءً؛ لكن لو ابتلوا به وانتصب من يقع في الصحابة وينال منهم، تعين حينئذٍ الذب عنهم والدفع عن سيرتهم، كما فعل ابن العربي المالكي –رحمه الله– حينما ألف كتابه "العواصم

من القواصم"، فحرر مواقف الصحابة -رضوان الله عليهم-، وأجاب عنها فيمن تعلقت به هـ ذه الفتنة بجوابٍ حكيمٍ سديدٍ، **فهذه هي الجملة الأولى.**

أما الثانية فيقولون: إن هذه الآثار المروية في مساوئهم أنواع: يوجد ركام من المرويات دسها الروافض عبر التاريخ، ومن أشهر هؤلاء الروافض الذين ضخوا هذه المرويات المكذوبة في كتب التواريخ، أبو مخنف "لوط بن يحيى" فقد قال عنه الذهبي: "إنه شيعي محترق"، وقد روى عنه ابن جرير الطبري مرويات كثيرة، بناء على قاعدة إنه من أسند فقد برئ، وفيها من إيغار الصدور والوقيعة في الصحابة ما الله به عليم، لكن الرجل كما قال عنه الذهبي: "أنه شيعي جَلد محترق"، وأمثاله كثير؛ فلهذا علينا أن ننظر بنظرة منصفة إلى هذه المرويات.

قال الشيخ: "مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ "، والكذب: هو مخالفة الخبر للواقع، يعني أنها مصنوعة، موضوعة، وهذا أسهل ما يكون على الروافض؛ فإنهم أكذب أهل الأهواء، كما قال الإمام الشافعي -رحمه الله-: "ما رأيت من أهل الأهواء أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرافضة"، و ذكر بعض السلف أن أحد الجن كان يرتاد مجلسه، يقول: حتى قلنا له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز، يقول: فأحضرنا له طبقًا من الأرز، فرأينا الأرز يرتفع ولا نرى من يأكله، فقلنا له: أفيكم أحد من أهل الأهواء؟ فقال: نعم، فقيل من أشدهم؟ فقال: الرافضة. يعني: رافضة الجن هم أشد أهل الأهواء من الجن، فالمقصود أنه هذه المرويات منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغُيِّر عن وجهه؛ بمعنى أنه يوجد أصل لهذا الخبر، لهذه القصة لكنه تعرض للتحريف، إما بزيادة أو نقصان، أو تغيير عن وجهه، فمثلًا لا ريب أنه قد وقعت حادثة الجمل، وصفين، والتحكيم، وحينما ينتدب بعض الناس لإنكارها زعمًا منه بأن هـ ذا من باب الذم، ويقول: أباطيل يجب أن تُمحى من التاريخ، فه ذا عبث في الواقع، هذه أمور وقعت قطعًا، وأخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم أنها ستقع، فبعض الناس بدافع الغيرة أو الحمية يغالط البدهيات، والأمور القطعيات، يقول: لا يوجد شيء اسمه الجمل، ولا صفين، ولا التحكيم، هـ ذا لا ريب أنه مجازفة، لكن نقول: هـ ذه وقعت ابتلاءً من الله تعالى له ذه الأمة، وحفظت الأمة الدروس النافعة بعدها، وسيأتي توجيهها، لكن نقول: إنه قد وقع فيها زيادة، ونقصان، وتغيير عن وجهها.

قال:"وَالصَّحِيحُ مِنْهُ ": في نسختي: **" وَعَامةُ الصَّحِيحُ مِنْهُ "**: مما يدل على أن منها ما هو صحيح، لكن عامته**"هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ:"** كيف؟ **"إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ"**، يعني: أن ذلك صدر منهم عن اجتهاد، وأضرب لكم مثالًا: لما قتل عثمان -رضي الله عنه-، كان هـ ذا بداية الفتنة، فعلي -رضي الله عنه لما بايعه الصحابة رأى أن من أولى الأولويات والواجبات هو أن يبايعه العمال على الأمصار، يقدموا البيعة، ويدخلوا في الطاعة، وهذا يشمل معاوية -رضي الله عنه- حيث كان في الشام، وأما معاوية فإنه قد أخ ذته الغيرة والحمية لما جرى من مقتل عثمان -رضي الله عنه-، وكان هو من أهل دم عثمان؛ لأنه من بني عبد شمس، فطالب بدم عثمان، فجرى بينهما مكاتبات طويلة، ورأى علي -رضي الله عنه- أن أول الأمر أن يدخلوا في البيعة كسائر المسلمين، ثم بعد ذلك هو يقيم الحدود، ويتتبع الجناة، ويحفظ الدم، أو العقل، أو الدية، لكن الأمر عَظُم على معاوية ومن معه، فأبوا أن يدخلوا في بيعته،

وجرى ما جرى، ولما احتدم الأمر بين أهل العراق وأهل الشام، رأى طلحة والزبير ومعهم عائشة –رضي الله عنهم أجمعين– أن هذا الأمر لا ينتهي إلا بأن يختار المسلمون بديلًا عن علي ومعاوية، يختارونه من بينهم، فخرجوا به ذا الجمع الكثيف لكي يكون ذلك من دواعي حصول مقصودهم؛ فلما بلغوا موضعًا، سعى المحرضون بين الفريقين إلى إثارة الحرب؛ حتى وقعت وقعة الجمل، بهذا ينبغي أن نبحث عن المعا ذير ونوجه الأحداث، فنقول: إن ما صدر عنهم إنما صدر عن اجتهاد، والمجتهد لا يخلو من حالين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: [إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم الحاكم فاجتهد فأخطأ، فله أجر واحد]، فالأجران: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، والأجر الواحد هو أجر الاجتهاد، فهذا ينبغي أن نفهم ما صدر عن الصحابة.

ولما قال الشيخ ذلك؛ أتبعه بالقول وعقب عليه حتى لا يُظن أننا ندعي العصمة لعموم الصحابة: **فقال: "وَهُم"**؛ أي: أهل السنة والجماعة، **"مَّعَ ذَلِكَ لاَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ"**: ليسوا معصومين، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليسوا معصومين عن الصغائر على القول الراجح، فالصحابة من باب أولى أنهم ليسوا معصومين **"عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ"**، يعني: من حيث المبدأ يمكن أن يقع منهم شيء، ومن تتبع السيرة النبوية، والسنة النبوية يجد أنه قد وقع لبعض الصحابة أمور تستدرك.

قال: "وَلَهُم مِّنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ. إِنْ صَدَرَ."، ينبه –رحمه الله– على أن الصحابة الكرام لهم ما ليس لغيرهم من السوابق والفضائل، ثم أخذ في تفصيلها، **فقال: "حَتَّى إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُم مِّنَ السَّيِّئَاتِ مَا لاَ يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأَنَّ لَهُم مِّنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ"**، وقد قال الله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: 114]، فحسناتهم رضوان الله عليهم عظيمة ماحية.

قال:" وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ "، كما في المتفق عليه: [خير القرون قرني] أو قال: [خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم].

قال: "وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُمْ "، وقد ذكرنا هذا آنفًا.

قال: "ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بَحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الَّذِين هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلاَءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ": هذه خمسة أنواع من المكفرات، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه ي ذكر المكفرات العشرة، هذه الخمس، وأخرى بعضها يقع في البرزخ، وبعضها يقع في أهوال القيامة، إلى غير ذلك؛ فذكر هذه، ولا شك أنهم أسعد الناس بهذه المكفرات من التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والسابقة، والعمل الصالح، والشفاعة التي تكون لنبينا صلى الله عليه وسلم، أو البلاء بمرض، أو همٍ، أو غمٍ، أو غير ذلك.

قال: "فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ فِي الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ ؟": يعني: إذا كانت هذه المكفرات تكفر الذنوب المؤكدة المحققة؛ فكيف بما كان محل اجتهاد؟! **"إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مغْفُورٌ"**.

ثم أتبع ذلك **بالقول: " إِنَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْ مُورٌ بِجَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ"**: يعني: حينما تنسب هذه الأمور التي تستدرك على بعضهم إلى" **الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ،وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ**"، فإنها تبدو شيئًا لا يكاد يذكر، كالنقطة في البحر.

قال: "وَمَن نَّظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَعَدْلٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خِيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لاَ كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ": هذا هو الواجب – أيها الأخوة- نحو أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلينا أن نعزز هذه الاعتقادات وننشرها بين الناس؛ لأننا في زمن تطاول فيه الأقزام على هؤلاء العظام، وصاروا ينالون منهم، فعلينا أن ننشر فضائلهم، وسيرهم الحميدة، حتى نقطع الطريق على هؤلاء البغاة والمفسدين من الروافض وغيرهم.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتَ الأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِم مِّنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، كالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِي مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

لم يزل أهل السنة يذكرون في متونهم العقدية ما يتعلق بكرامات الأولياء، والأولياء : جمع ولي، والولي مأخوذ من الولي، والوْلي هو الدنو والقُرب، وأولياء الله هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: 62، 63]. فمن كان لله تقيًّا كان لله وليًّا، فالولاية ليست دعوى وليست وراثة وإنما الولاية تنال بتقوى الله عز وجل، فبعض الناس يظن أن الولاية تتسلسل من الجد إلى الأب إلى الابن وأن هذا البيت بيت ولاية والأمر ليس كذلك، الولاية هي تقوى الله عز وجل وليست مجرد دعوى تقال باللسان، فمن كان لله تقيًّا كان لله وليًّا، والتقي هو الذي يمتثل أوامر الله ويجتنب مناهيه. ولا ريب أن لأولياء الله تعالى منزلة خاصة فقد ذكر الله تعالى في الحديث القدسي قال: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المؤْمِنِ، يَكْرَهُ المؤْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[1]. هذا أشرف حديث في ذكر

[1] صحيح البخاري (6502).

الولاية، وعليه فإن لأولياء الله تعالى منزلة خاصة عند الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة، فهم في الدنيا في جنابِه تعالى وحفظه وصونه وحمايته، وهم في الآخرة لهم المنازل العلى عند الله تعالى.

فأهل السنة والجماعة يصدقون بكرامات الأولياء، وما الكرامة؟ **الكرامة:** يعرِّفونها بأنها أمر خارق للعادة يجريه الله على يد رجل صالح. كما يعرفون **الآية** :بأنها أمر خارق للعادة يجريها الله على يد نبي، **وأما السحر والشعوذة** : فهو أمر خارق للعادة يجري على مشعوذ أو ساحر. **فخوارق العادات إذن على ثلاثة أنحاء:**

١) إما أن تقع على يد نبي فتسمى آية ويسميها بعضهم معجزة

٢) وإما أن تقع على يد رجل صالح ولي فتسمى كرامة.

٣) وإما أن يقع الخرق للعادة على يد ساحر ومشعوذ فتسمى سحرًا وشعوذة.

والتعبير بخرق العادة تعبير أحدثه المتأخرون، وإلا فإن شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في كتاب **"النبوات"** انتقد هذا التعبير وقال: إن خرق العادة هذا أمر نسبي إذ العادة التي تكون عند قوم قد لا تكون عند آخرين وعند جنس من الخلق لا تكون عند جنس آخر. والمقصود أن ما يجريه الله تعالى على أيدي أنبيائه فلا نظير له ألبتة، ما يجريه الله تعالى على يد أنبيائه من الآيات العظام كانشقاق القمر وكانفلاق البحر وكالناقة التي تخرج من صخرة صماء وكإبراء عيسى عليه السلام للأبرص والأكمه وإحياء الموتى لا يستطيع على جنسها البشر، أما ما يقع من السحرة والمشعوذين فهو من جنس ما يستطيعه البشر. وأفاض في الفرق بين الآية وغيرها والمقصود ها هنا أن الله تعالى يكرم بعض عباده الصالحين بأن يجري على أيديهم شيئًا لم يألفه الناس، ويكون ذلك دليلًا على صلاحهم، ويكون أيضًا دليلًا على صحة نبوة النبي الذي اتبعوه فإنه لولا اتباعهم لذلك النبي لما أكرهم الله تعالى بهذا الأمر، **فلهذا قال الشيخ – رحمه الله – : وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِم مِّنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي** .....إلخ، ثم ذكر صنفين: **أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ** : بمعنى أن خرق العادة هذا قد يكون في أنواع العلوم والمكاشفات بأن يخبِر الولي بإلهام من الله تعالى بما لم تجر العادة به، كإخبار أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– أن الذي في بطن امرأته غلام فكان كذلك، وأيضًا ما كشف الله تعالى لعمر –رضي الله عنه– حينما كان يخطب على المنبر يومًا فجُلِّي له المشهد لقوم من المسلمين يجاهدون في سبيل الله في بلاد الفرس فرأى وكأن الفرس قد أحاطوا بهم وأعدوا لهم كمينًا فنادى بأعلى صوته ، وهو على منبر المدينة : يا سارية الجبل يا سارية الجبل، وسارية هذا هو قائد ذلك الجند من المسلمين فسمع سارية صوت عمر –رضي الله عنه– على بعد آلاف الأميال فاعتصم بالجبل وصعد وأصحابه إليه فوقاهم الله تعالى، فهذا من أنواع العلوم والمكاشفات. والأمثلة على هذا كثيرة جدًّا.

كذلك أيضًا في أَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ؛ فإن الله تعالى أيضًا يُجرِي على يد عباده الصالحين من أنواع القدرات ما لا يقع لغيرهم عادة ويصنع الله لهم ما لا يصنع لغيرهم، **ومما يمثل له بذلك:**

- ما وقع للعلاء بن الحضرمي –رضي الله عنه – عند فتح البحرين فإنه كان معه أربعة آلاف من المسلمين ، وكانوا يقصدون قومًا من الكفار فحال بينهم وبينهم الماء، وقفوا على سيف البحر فنزل العلاء بن الحضرمي وصلى ركعتين ثم

رفع يديه وقال: يا عظيم يا حليم يا عليم أجزِنا، قال أبو هريرة راوي الحديث قال: [فوالله لقد كنا يومئذٍ أربعة آلاف فما ابتل لنا قدم ولا خف ولا حافر]. مشاهم الله تعالى على الماء. وجرى مثل ذلك للمسلمين في فتوح العراق فكانوا يخوضون بخيولهم في الماء، فإذا أنهك الفرس جعل الله له تعالى صخرة فبرز وصار يستريح عليها حتى فر المجوس من بين أيديهم لما رأوا ما فتِح عليهم وما أجرى الله عليهم من خوارق العادات.

- وجاء في التواريخ أن عقبة بن نافع لما أراد أن يتخذ من القيروان في بلاد تونس قصبة للمسلمين كانت غابة تجول فيها السباع والحيات والهوام، فوقف على فم الغابة ونادى بأعلى صوته: أيتها الوحوش أيتها الحيات نحن أصحاب محمد اخرجي، يقول: فخرجت الوحوش تحمل صغارها في أفواهها وخرجت الحيات من جحورها حتى أخلت المكان وابتنوا مدينة القيروان في ذلك الموضع.
- وما جرى لخالد بن الوليد –رضي الله عنه – فإنه بين يدي معركة اليرموك برز رجل من كبار قادة الروم وتقدم بين الصفين ونادى بخالد فبرز له فقال: هذا سم زعاف فإن أنت شربته فإني أكون معكم وأعلم أنكم على الحق، فأخذ خالد –رضي الله عنه– بالقدح وتناوله وقال: بسم الله ثقة بالله وتوكلًا على الله وشربه فلم يضره شيء ودخل ذلك الرجل في الإسلام.

فهذه يجريها الله تعالى على يدي عباده المؤمنين والقصص في هذا كثيرة فأهل السنة والجماعة من أصولهم التصديق بكرامات الأولياء لا يقولون: لا يمكن هذا يخالف الطبيعة إلى غير ذلك، **وذلك أيها الكرام أن الناس انقسموا في هذا الباب إلى طرفين ووسط:**

- **فقوم غلوا في إثبات الكرامات** حتى بذلوها لكل من هب ودب ومشى ودرج وصاروا يتوسعون في حكايتها ولا يأبهون بثبوتها، **وهذا كثير في طبقات الصوفية**؛ فإنهم يزعمون لأوليائهم أحيانًا زورًا وبهتانًا من القَصص والخرافات ما لا يخطر ببال ولا يصدقه خيال ويتوسعون في هذا لغرض تكثير الأتباع وإشاعة التعلق بالذوات، ومن قرأ في **"طبقات الشعراني"** وجد من هذا غثاء كثيرًا تنزه الشريعة عن مثله. فهؤلاء غلوا في إثبات الكرامات.
- **على النقيض منهم تمامًا المعتزلة**؛ فالمعتزلة نفوا الكرامات ونفوا أيضًا السحر وغيره وقالوا : لا يمكن أن تخرق العادة إلا لنبي، ولو قُدر أن العادة خرقت لغير نبي لالتبس النبي بالولي والتبس ال نبي بالساحر هذه شبهتهم. والجواب عنها سهل أن نقول لهم : لا يمكن أن يلتبس النبي بالولي لماذا؟ لسبب بسيط جدًّا وهو أن الولي لا يدعي النبوة أليس كذلك؟ الولي هو من أشد الناس إزراء على نفسه وحطًّا من نفسه واتضاعًا لله عز وجل، فكيف يتصور أن يقول الولي عن نفسه إنه ولي؟ هذا من أبعد البعيد وأملح المحال فحينئذٍ لا التباس بين النبي والولي.

بقي قولهم: أنه يلتبس النبي بالساحر أو الولي بالساحر، يقال: هذا أشد بعدًا لأن بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فرقان عظيم شتان بين النبي الذي علائم الصدق والصلاح بادية عليه في أقواله وأفعاله وسيرته وبين الساحر الخبيث النجس القذر الذي يأكل أموال الناس بالباطل ويطأ الفرج الحرام ويغشى المنكرات لا يمكن أن يلتبس هذا بهذا، والناس

تدرك الفرق بين الطيب والخبيث والصادق والكاذب بأقواله و سيرته وأفعاله. وأين تذهبون وماذا تصنعون فيما أخبر الله تعالى به في كتابه من إثبات السحر كما في قصة موسى وفرعون وفي قول الله تعالى: {يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} [البقرة: 102]، فأين يذهب هؤلاء المعتزلة حينما يواجهون هذه النصوص الصريحة في إثبات السحر؟! فلا شك أن السحر حق وواقع، لكنه ليس معنى السحر هو قلب الأعيان والذوات وإنما هو تخييل للأعين لكن له حقيقة.

إذن هؤلاء غلوا في جانب الإثبات – أعني بهم الصوفية – والمعتزلة غلوا في الإنكار فأنكروا الكرامات والسحر ونحوها.

- **وأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء وهؤلاء** ؛ فأثبتوا آيات الأنبياء وأثبتوا كرامات الأولياء وأثبتوا وجود السحر أيضًا، ففي باب كرامات الأولياء قالوا إن الله تعالى من باب رحمته بوليه وإكرامه له قد يجري على يديه من الكرامة ما تدل على صلاحه وصدقه وتكون فرجًا له، ففائدة الكرامة للولي أنها رحمة به وتنفيس له وفرج، مثل ما وقع لصلة بن أشيم كان في مفازة فمات جواده فسأل الله تعالى أن يبقيه له فرد الله عليه روحه حتى بلغ باب منزله ثم قال لابنه يا بني انزع السرج، فإن الفرس عارية ثم وقعت الفرس ميتةً فهذا ربما وقع وهذا كثير؛ ولهذا قال الشيخ: **كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ**: إلى ما يشير؟ إلى ما جرى للفتية فإن الفتية أهل الكهف ناموا ثلاثمائة وتسع سنين: {وَازْدَادُوا تِسْعًا} [الكهف: 25]، وأحياهم الله أو أيقظهم الله بعد ذلك.
- أيضًا ذو القرنين مكنه الله تعالى في الأرض شرقًا وغربًا وبينهما وهذه كرامة له. وكذلك الخضر صاحب موسى على القول بأنه ولي، والقول الآخر أنه نبي، وهو أرجح؛ فالمقصود أن الشيخ أراد أن يمثل بوقوع الكرامات في الأمم السابقة قال: **كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ** – فيما قصصنا عليكم من الصحابة والتابعين – **وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ**.

قال: وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ : أي بمعنى أن الكرامة باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا عجب أن يجري الله تعالى على أيدي عباده الصالحين في هذه الأزمنة وما بعدها من الكرامات ما يكون لطفًا بهم وتعزيزًا لأمرهم ودِلالة على صدق النبي الذي اتبعوه. ونحن نسمع في كثير من المواطن حينما يقع جهاد مع الكفار بوجود شيء من هذه الكرامات؛ فإذا صح ذلك بالسند وثبت بالنقل الصحيح؛ فيجب تصديقه ولا يجوز أن يقابل بالاعتراض ووصف من قاله بالدروشة أو أنه ساذج وكذا، لا الكرامة باقية في أمة محمد لكن ينبغي التحقق والتأكد من ثبوت النسبة. واعلموا أن الله تعالى لا يكرم إلا من كان تقيًّا ، فمن كان فاسقًا فاجرًا ساحرًا فإنها لا تعد في حقه كرامة ولا ترفعه لا عند الله ولا عند الناس فبهذا يتبين الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

كما أنها باقية في أمة محمد إلى يوم القيامة يشير الشيخ –والله أعلم– إلى ما يجري في زمن المهدي في آخر الزمان حيث إنه في زمن المهدي يكثر المال جدًّا حتى إنه الرجل يحثو المال ولا يعده وحتى أن الأرض خيراتها حتى يستظل الرهط بقحف الرمانة وحتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، فكل هذه من الكرامات التي يبقيها الله تعالى لهذه الأمة.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

الدرس (41)

منهج الاستدلال عند أهل السنة

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: فَصْلٌ: ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، حَيثُ قَالَ: [عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ]**: هذا الفصل فصل مهم يتعلق بمنهج الاستدلال ؛ فإن من كمال فهم عقيدة أهل السنة والجماعة وطريقتهم أن ندرك منهجهم في الاستدلال ومصادر الاستدلال عندهم، فمصادر الاستدلال عند أهل السنة والجماعة ثلاثة: الكتاب والسنة والإجماع.

قال: مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَاطِنًا وَظَاهِرًا: يعني ما يتعلق بالأمور الباطنة: كالمحبة والخوف والرجاء، أو الأمور الظاهرة: كالأقوال والأفعال، فأهل السنة والجماعة أسعد الناس بتحري سنة النبي صلى الله عليه وسلم فلا يبلغهم شيء عن نبيهم صلى الله عليه وسلم إلا تمسكوا به وحرصوا على تطبيقه ولم يكن من دأب السلف أن يقولوا أواجب هذا أم سنة؟ محرم هذا أم مكروه؟ لا إنما وقع هذا في المتأخرين، أما السلف الصالح فإذا علموا الشيء سنة فعلوه ولم يدخلوا في مماكسة وتنازلات بل يعملون بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)[1] ، وقبل ذلك بقول الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: 21]، لكن من الذي يتأسى؟ {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21]، أرأيتم هذا يفسر لكم لماذا يستثقل بعض الناس سنة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ولماذا يفرح بها آخرون؟، من كان يرجو الله واليوم الآخر ويذكر الله كثيرًا طابت نفسه وقرت عينه وسهل انقياده، ومن ضعف عنده شيء من هذه المعاني ثقل عليه اتباع السنة ودخل كما قلت لكم في مماكسة وطلب تخفيضات وتنزيلات أسنة هذا أم واجب؟ أمحرم أم مكروه؟ كما يقع لكثير من الناس.

إذن أهل السنة والجماعة هم أهل الاتباع فهم يتبعون آثار النبي صلى الله عليه وسلم، وهل يدخل في الآثار هنا الآثار الحسية بأن يقصد الإنسان المواضع التي جلس فيها النبي صلى الله عليه وسلم فيجلس فيه ا، والمواضع التي مثلًا قضى فيها حاجته فيقضي فيها حاجته؟ وقع هذا من بعض الصحابة يعني بلغ بهم ذلك أن صاروا يتحرون المواضع التي كان ينزل فيها النبي صلى الله عليه وسلم في مراحل السفر فينزلون فيها والمواضع التي بال فيها فيتقصد أن يقضي حاجته

[1] صحيح مسلم (1337).

فيها، ولكن الذي يظهر أن هذا مما لا يدخل في دائرة الاتباع؛ لأن هذا وقع منه صلى الله عليه وسلم بحكم الطبيعة والجِبلة لا بحكم الدين والاتباع، فما يتعلق بالطبيعة والجبلة وما يتعلق بعادات قومه من مثلًا ملبس ومركب ومشرب ومسكن هذا لا تتعلق به سنة، فلا يقولن قائل : من السنة لبس الإزار والرداء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلبسها، لا يقول قائل: من السنة أن يسكن الإنسان في بيت من لبن وطين سقفه من جريد فهذا لا يتعلق بأمر مقصود لذاته، لا يقول : من السنة أن يركب الإنسان البعير والبغلة والحمار وما أشبه، فإن هذا لا يتعلق بسنة إنما هذا كان يتعلق بالأمور المعيشية، وإنما تتعلق السنة فيما كان من التشريع فهذا هو الذي يتحرى الإنسان فيه سنة النبي صلى الله عليه وسلم ما استطاع إليه سبيلًا.

كذلك أيضًا: **وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ**: لقول الله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 115]، فثَم سبيلان : سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، فالواجب اتباع سبيل المؤمنين وهو الإجماع ،وتعريف الإجماع عند أهل السنة والجماعة عند الأصوليين هو اتفاق علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم على مسألة من المسائل في عصر من العصور، فإذا انعقد هذا الاتفاق من علماء –لا من عامة – أمة محمد صلى الله عليه وسلم على مسألة من المسائل في زمن من الأزمنة ؛ فإن هذا الاتفاق يكتسب العصمة لم؟ لأن الله لا يجمع الأمة على ضلالة فقد جاء في حديث مشهور: [لا تجتمع أمتي على ضلالة] والآية دليل على ذلك. ولا شك أن السابقين الأولين يدخل المهاجرون والأنصار فيهم دخولًا أوليًّا وكذلك التابعون لهم بإحسان، واستدل بوصية النبي صلى الله عليه وسلم التي رواها أحمد وغيره بسند صحيح.

قال: عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي: وسنة النبي صلى الله عليه وسلم: كل ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة؛ فإن هذا يعد من سنته.

قال: وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ: من الخلفاء الراشدون؟ الخلفاء الراشدون: هم كل من خلف النبي صلى الله عليه وسلم في أمته بالعلم النافع والعمل الصالح، ويدخل فيهم الخلفاء الأربعة دخولًا أوليًّا، لكن لا يقال : إن الخلفاء الراشدين هم فقط هؤلاء الأربع ، هؤلاء هم أشرفهم وأولهم لكن جميع من خلف النبي صلى الله عليه وسلم في أمته بالعلم النافع والعمل الصالح فهو خليفة راشد، فيدخل في ذلك: العلماء والأمراء الصالحون يدخل في ذلك عمر بن عبد العزيز –رحمه الله– والإمام أحمد بن حنبل والشافعي ومالك وسفيان والأوزاعي وغير ذلك ممن أطبقت الأمة على إحسان الظن بهم والثناء عليهم فهم كلهم خلفاء راشدون.

قال: تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ : التمسك يكون بالأيدي والعض يكون بالنواجذ ، والنواجذ: هي آخر الأضراس يعني كأنه لشدة التمسك بها والعض عليها بلغ العض إلى آخر الأضراس.

قال: وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ: ذلك أن اقتصاد في اتباع خير من اجتهاد في ابتداع، ما فائدة أن يستكثر الإنسان من عمل بدعي هذا لا يزيده من الله إلا بعدًا لكن المحافظة على سنة ثابتة ولو قلت خير، ولهذا

كان أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل وهو العمل الصالح الموافق للسنة، وقد عرف العلماء البدعة عرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد]، [من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد]. فكل إضافة إلى الدين فهو بدعة – لاحظوا إلى الدين – كل إحداث في الدين فهو بدعة، وعرفها الشاطبي –رحمه الله– بتعريف أصولي فقال: "البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسير عليها المبالغة في التعبد لله تعالى ". لاحظ طريقة في الدين إذ ن ليست في أمور الدنيا فليست تتعلق بالمساكن والمراكب والملابس اللهم إلا أن يكون لوصف من الأوصاف : كالنهي عن ثوب الشهرة أو لبس الأحمر والمعصفر للرجال أو مثلًا الضيق والعاري والشفاف للنساء يعني لوصف خارجي هي طريقة في الدين مخترعة، مخترعة: يعني على غير مثال سابق ولا أصل من الأصول ، تضاهي الشرعية : يعني تماثل الأشياء المشروعة لأن المبتدعة يحدثون أمورًا تلتبس كأنها تشبه الدين : كإحداثهم مثلًا للمولد النبوي وهذا لم يكن من فعل النبي صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعين ولا التابعين لهم بإحسان، فهذا لا شك أنه من المحدثات، يقصد بالسير عليه يعني مبتدعها قصد بإحداثها المبالغة في التعبد لله تعالى، وثقوا تمام الثقة أن كل من أحدث بدعة فإن ذلك يكون على حساب سنة، ولو أن الإنسان استغنى بالصحيح لأغناه عن الضعيف والمحدث، لكن الشيطان إذا لم يظفر من العبد بشرك أكبر ولا أصغر أوقعه في البدعة ؛ لأن البدعة استنفاذ للطاقات وتضييع للأوقات والأعمار على غير هدى فلا تزيده من الله إلا بعدًا. والبدع –يا رعاكم الله– أنواع ومراتب هناك بدع مكفرة هناك بدع مفسقة ، هناك بدع اعتقادية وهناك بدع عملية، وبسط هذا يطول فهي ليست على حد سواء هناك بدع ثقيلة وهناك بدع خفيفة، فينبغي للعاقل أن يميز بين أنواع البدع ، فالبدعة التي تتعلق بأمر عقدي : كبدعة الإرجاء والخوارج ، وبدعة القدرية ليست كالبدع العملية كمن أحدث أورادًا أو سبحة أو شيئًا من الأمور العملية كلها مردودة على أصحابها لكن فرق بين ما يتعلق بأصل الدين وأُسه وبين ما يتعلق ببعض مسائل السلوك، والواجب إنكار الجميع لكن يُعطى كل شيء ما يستحقه.

قال: وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم : هذا قد جاء في حديث رواه الإمام مسلم فهذه جمل نبوية ثبتت في حديث جابر –رضي الله عنه–: [إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم]، وينبغي أن يقدم الإنسان بها في الدروس والكلمات بأن يقول: أما بعد ؛ فإن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة في دين الله بدعة وكل بدعة ضلالة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فلن يضر الله شيئًا ولن يضر إلا نفسه.

قال: وَيُؤْثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ: هذا أمر ينبغي أن يتفطن له كل مؤمن، وأن يتفطن له طالب العلم خاصة فإذا أردت أن تقرر أمرًا من الأمور فابدأ بذكر الآيات ، وثن بذكر الأحاديث ، ثم اذكر كلام أهل العلم ، ثم قل ما شئت ، فلا بد أن تعظم كلام الله وأن تعلق الناس به وأن تجعل عليه المعول وهذا هو ما يسمى:"بالتأصيل"، والتأصيل هو الرد إلى الأصول.

قال: وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ. وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : أي أن من شأن أهل السنة والجماعة العناية بالآثار النبوية والأحاديث المحمدية، فهم أهل الرواية والدراية؛ ولهذا لم يزل أهل السنة والجماعة ينصبون أنفسهم لطلب العلم والرحلة في طلب الحديث وتدارسه وروايته وتحمله وأدائه، فهم أسعد الناس بهذا الوصف، يقدمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد؛ ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة، هذا سبب تسميتهم، لكونهم يُؤثرون كلام الله على كلام كل أحد ويُقدِّمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد.

ثم قال: وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الإِجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِي: نبه الشيخ –رحمه الله– على معنى هذا اللفظ الذي نردده مرارًا وهو الجماعة وأنه المراد به الاجتماع الذي هو ضد الفرقة، وينبغي أن نعلم أن من أصول أهل السنة والجماعة : الدعوة إلى الوحدة والائتلاف وذم أهل الفرقة والاختلاف قال الله عز وجل: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: 103]، وقال: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا} [آل عمران: 105]، وقال ذامًّا المتفرقين: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} [الأنعام: 159]، فلم يزل أهل السنة والجماعة يجتمعون على الحق ويدعون غيرهم إلى ذلك ، ولم يزل أهل البدع أهل شذوذ وفُرقة وخروج عن الجماعة، وعلى طالب العلم أن يدرك هذا المعنى العميق في طريقة أهل السنة والجماعة فلا يكون مِعْوَل هدم ولا يكون سبب تَشْظِّي في الأمة إذ إنه يوجد في بعض طلبة العلم من يحب الشقاق والتنابذ بالألقاب وتفريق الأمة وتصنيف الناس حتى في مسائل اجتهادية، ولكن أهل السنة الراسخين يميزون بين ما يكون سببًا للمفاصلة وما بين ما يحتمله الخلاف، فعليك يا طالب العلم أن تكون عاقلًا حكيمًا لبيبًا وألا تحشر الخلافات في خندق واحد، عليك أن تفرق بين ما يستحق أن تنتصب لذمِّه والتحذير منه والتحذير من أصحابه من أهل البدع المحققة وبين ما يكون من جنس الأمور الاجتهادية: كالفرعيات أو الأمور التي تختلف فيها الأنظار فتلتمس الأعذار، ولا يمنعك ذلك من أن تقول الحق، ولهذا كان الذي ينبغي أن يتحلى به العالم اللبيب: أن يكون قويًّا في الحق رفيقًا بالخلق ، فإذا جمع هذين الوصفين نفع الله به نفعًا عظيمًا؛ لأنه إن كان قويًّا في الحق على فظاظة وشدة نفر الناس منه وزاد الأمر تعقيدًا ، وإذا كان رفيقًا رقيقًا لكن على غير بيان ولا غير علم ما حصل المقصود وصار المقصود هو مجرد تجميع على أي كلام لا يجب أن يكون المنهج واضحًا والأسلوب رفيقًا فإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.

قال: وَالإِجمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدينِ: وقد عرفناه آنفًا بأنه اتفاق علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم على مسألة من المسائل في عصر من العصور.

بعد أن ذكر هذه الأمور العظيمة في منهج الاستدلال، **قال: فَهُمْ**: أي أهل السنة والجماعة.

قال: يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ: إذن هناك مرجعية واضحة : وهي هذه المعايير الثلاثة الكتاب والسنة والإجماع لا شيء غيره لا العقل ولا الذوق ولا الكشف ولا الوجد ولا أي مصطلح من المصطلحات التي أحدثها المتكلمون أو أحدثها الخرافيون، بل المعول على هذه

الثلاثة لا عصبية ولا عقلانية ولا ذوقية وجدية إلى غير ذلك بل الكتاب والسنة والإجماع هذه الثلاثة هي القسطاس المستقيم وميزان الاعتدال والمنهج الرشيد الذي يجب أن يعول عليه.

ثم أتبع ذلك بالقول: **وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلاَفُ، وَانْتَشَرَتْ فِي الأُمَّةِ**: نعم أمر الإجماع عزيز بعد أن توسعت الأمة وانتشرت في الأقطار، أما لما كان المسلمون محصورين في حواضر معينة: المدينة، مكة، الكوفة، الشام، الفسطاط في مصر لما كانوا في هذه المواضع كان إمكان العلم وعقد الإجماع مدركًا لكن لما انتشرت الأمة وبلغت الآفاق وتفرق العلماء في الأمصار صَعُب ضبط الإجماع، فلهذا قال: **وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ** : يقصد بالسلف الصالح القرون الثلاثة الأولى ، **إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلاَفُ، وَانْتَشَرَتْ الأُمَّةِ**: فلهذا نسب إلى الإمام أن من ادعى الإجماع فقد كذب يريد بذلك هذه الصورة التي جرت بعد انتشار الأمة وتفرقها وتفرق العلماء في الأمصار، وهل يمكن أن ينعقد الإجماع الآن؟ ربما مع توفر وسائل الاتصال الحديثة والسريعة ربما يمكن أن ينعقد الإجماع لو حصل اتفاق لكن الغالب مع كثرة الاختلاف ألا يحصل ذلك ، وبحمد الله قد اكتمل عِقْد هذه الأمة وحفظ الله لها من الكتاب والسنة وإجماع صدر هذه الأمة من السلف الصالح.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا..

والله أعلم.

الدرس (42)

محاسن الأخلاق

بعد أن فرغ من ذكر منهج الاستدلال انتقل-رحمه الله- إلى جوانب مهمة يغفل عنها كثير من المنتسبين إلى السنة وهو ما يتعلق بالسلوك والأخلاق إذ بعض الناس يظن أنه لا شأن للعقيدة السلفية بالمسائل المسلكية والخلقية، وهذا غلط فظيع فينبغي لطالب العلم أن يتزين بزينة الإيمان وأن يتحلى بحلية العلم، ولا يظن أن العقيدة هي مجرد محفوظات متنية أو منظومات أو ما أشبه، لا، أيضًا سلوك بل السلوك هو ثمرتها فتأملوا.

قال: فَصْلٌ: ثُمَّ هُم: أي أهل السنة. **قال: مَّعَ هّذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ** : لا ريب أنه من أبرز صفات أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأعظم علامات خيريتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقول الله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران: 110]، وقال قبل ذلك: { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: 104]، فأمة محمد صلى الله عليه وسلم أمة إيجابية تقود الناس إلى الجنة بالسلاسل كما جاء، فهم رحمة على الناس؛ لأن نبيهم صلى الله عليه وسلم كان رحمة للعالمين: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107]، لكن ينبغي أن يقيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما ذكر الشيخ: **عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ: وذلك بتحقيق ثلاثة شروط**: شرط قبله وشرط معه وشرط بعده، **فالشرط الذي قبله**: هو العلم، **والذي معه**: هو الرفق، **والذي بعده** : هو الصبر ، بهذا يكون الإنسان

أمارًا بالمعروف نهاءً عن المنكر على ما توجبه الشريعة بم؟ بالعلم قبله فلا يأمر ولا ينهى إلى بعلم، بالرفق معه فلا يكون فظًّا غليظًا في أمره ونهيه، بالصبر بعده فلا يكون جزوعًا على ما يقع عليه ولهذا قال لقمان: {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ} [لقمان: 17].

قال: وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا: هذا أيضًا مما استقر عليه مذهب أهل السنة والجماعة، وهي طاعة الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا ؛ لأن في طاعتهم اجتماع الصف واجتماع الأمة وفي الخروج عليهم إزهاق للأرواح وسفك للدماء، وقد جرب المسلمون في عصور متقدمة ما يترتب على الخروج على الولاة فوجدوا مغبته سيئة فخرج الحسين بن علي –رضي الله عنه وعن أبيه– على بين أمية بإغراء من الروافض حتى استجروه إلى كربلاء ثم نفضوا أيديهم منه؛ فوقع ما وقع من قتله –رضي الله عنه– واستشهاده في تلك الوقعة، وخرج الفقهاء مع عبد الرحمن بن الأشعث وفيهم سعيد بن جبير والشعبي فأوقع فيهم الحجاج مقتلة عظيمة. ولذلك صار أهل السنة والجماعة يتواصون بما دلت عليه الأحاديث من عدم الخروج وعدم نقد البيعة على مَ ن انعقدت له كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسمع والطاعة [ولو تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه ذبيبة]، فيرون السمع والطاعة للأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا وإقامة الحج والجهاد معهم وعدم الخروج عليهم، ولذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: [إنكم سترون بعدي أثرة وأمورًا تنكرونها فقالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم]، وقال في حديث آخر لما قالوا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال: [لا، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان]، **فمنع النبي صلى الله عليه وسلم الخروج على الولاة إلا بتوفر أربعة شروط:**

الشرط الأول: الرؤية المحققة يعني **العلم القطعي** لا الظنون والبلاغات والإشاعات: [إلا أن تروا].

الشرط الثاني: أن يكون كفرًا فلو كان فسقًا لم يبح الخروج فلو كان من يلي أمر المسلمين يشرب الخمر أو يعاقر النساء أو يأكل المال الحرام؛ فهذا لا يبيح الخروج عليه لا بد **أن يكون ما ارتكبه كفرًا.**

الشرط الثالث: أن يكون بواحًا، ومعنى بواحًا: أي ظاهرًا باديًا مستعلنًا فإن كان شيئًا خفيًّا كما يقال : من وراء الكواليس أو من تحت الطاولة أو غير ذلك فلسنا مأمورين بالتنقيب والبحث.

الشرط الرابع: [عندكم فيه من الله برهان]: يعني لا بد من آية محكمة **دليل قطعي** يدل على أن هذا الأمر فعلًا كذلك وعدم المجازفة بالأمة في مخاطر، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في **"منهاج السنة النبوية "**: "إنه لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الشر أضعاف ما كانوا يرجونه من الخير".

وهناك شرط خامس تدل عليه بقية النصوص: وهو القدرة، فلو تحققت الأربعة وليس هناك قدرة ؛ فإن هذا لا يبيح الخروج؛ لأن الله قد قال للمسلمين في مكة { كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [النساء: 77]، فلا بد من التنبه لهذا وألا يستعجل الإنسان في أمر له فيه سعة ؛ فإن في الصبر خير ، ولما جاء أهل البصرة إلى أنس –رضي الله عنه– يشكون إليه ما يجدونه من ظلم الحجاج قال: اصبروا فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [لا يأتي على الناس زمان

إلا والذي بعده شر منه، اصبروا حتى تلقوني على الحوض]. فكان منهج الصحابة الصبر حتى يستراح من فاجر أو يستريح الإنسان، وكان من منهج القراء المبادرة بالخروج فجرى ما جرى مما حدثناكم من فتنة ابن الأشعث، فعلى طالب العلم أن يتروى في هذه الأمور وينظر في عواقبها ويحفظ وحدة الأمة ويصونها من أن يسعى في حل عقد البيعة ولو بشبر ؛ فإن من فارق الجماعة قيد شبر فمات فميتته جاهلية.

قال: وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ ، وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ : كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم قال: [النصيحة لله ثلاثًا قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأ ئمة المسلمين وعامتهم]. فعلى العبد المؤمن أن ينبض قلبه بالنصح لا يكون همه التشفي أو الانتقام أو الوقيعة أو الخوض ، لا لا، اجعل الذي يبعثك على ما تقول وما تفعل هو النصح للأمة فإذا استشعرت هذا المعنى معنى الإشفاق على الأمة أجرى الله على يديك الخير.

قال: وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: [الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ]: هذا هو التكافل الاجتماعي بين المؤمنين أن يتعاضد المؤمنون ويتعاونون على مصالحهم ويرفد بعضهم بعضًا ويعين بعضهم بعضًا وألا يعيشوا أفرادًا متناثرين لا يشعر أحدهم بالعاطفة تجاه الآخر يوضحه قوله: **[مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الواحد؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بُالْحُمَّى وَالسَّهَرِ]**: حديث متفق عليه، ويا له من مثل بديع، إي والله ينبغي أن يكون المؤمنون كالجسد الواحد الجسد الواحد إذا اعتل منه شيء تأذى له جميع البدن لو يصيبك شيء في طرف أصبعك لوجدت الصداع في رأسك، لو أصابك مغص في بطنك لأحسست بإنهاك في جميع بدنك، فهكذا ينبغي أن يعيش المؤمنون في أصقاع الأرض يعني يحسون بالهم الإيماني والألم المشترك حتى يحملهم ذلك على رحمة بعضهم بعضًا.

قال: وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ. وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم : [أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا]: اعلموا يا رعاكم الله أن الإنسان له صورتان صورة ظاهرة وصورة باطنة؛ فالصورة الظاهرة: هي بنيتك الجسدية من طول أو قصر من بياض وسواد من قوة أو هزال ، والصورة الباطنة : هي الصورة الخُلقية وهي ما جبلت عليه من طباع وسجايا وأخلاق، فينبغي أن تزين صورتك الباطنة أعظم من حرصك على تزيين صورتك الظاهرة بأن تكتسب الأخلاق الكريمة والآداب الرفيعة وتتحلى بها؛ لأن من الأخلاق ما يكون جبليًّا ومنها ما يكون كسبيًّا ، فإن جبلك الله على أخلاق حميدة ؛ فاحمد الله تعالى عليها وسخرها في مرضاته ، وإن جبلك على أخلاق ذميمة ؛ فخفف منها وجاهدها واحرص على أن تكتسب الأخلاق الحميدة وأن تتخلى عن الأخلاق الذميمة، وكل ذلك ممكن، فقد قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: 69].

ثم ذكر جملة من محاسن الأعمال؛ **فقال: وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ. وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ،**

وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ. وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلاَقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا : هذه حزمة من الأعمال الصالحة والقربات الكريمة كل واحد منها يتحق أن يُفرَد له مجلس، والمقصود من هذا :أن من شأن أهل السنة والجماعة العناية بالجوانب المسلكية والجوانب الخلقية، فلا تظنن يا طالب العلم أن طالب العلم السلفي هو الذي يضبط مفاصل الاعتقاد وحسب، لا، هذا جزء والجزء الآخر هو العمل والتطبيق ألم يقل الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} [التوبة: 33]فالهدى هو العلم النافع ودين الحق هو العمل الصالح فكيف تفرق الصفقة تعتني بالجانب العلمي وتدع الجانب العملي، فكن يا طالب العلم شامة بين الناس بحسن خلقك وعملك الصالح، كن قدوة وأسوة لغيرك بالإحسان إلى الخلق ونفعهم والسعي في مصالحهم وصلة الرحم وبر الوالدين وجميع هذه الخصال العظيمة التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: [الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان].

ثم ختم ذلك بقوله: وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: إي والله هذه بركة الاعتصام بالكتاب والسنة، ما دعى إليه الكتاب والسنة أقبلوا عليه وما نهاهم عنه الكتاب والسنة أمسكوا عنه، فلذلك كانوا زينة الدنيا وكانوا بركة على العالمين. فعليك يا طالب العلم أن تستكثر من هذه الخصال ما استطعت ، وأن تجعل عمرك ظرف زمان لاغتنام هذه المزايا والمناقب والمكرُمات.

قال: وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الإِسْلاَمِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم: اعلموا يا رعاكم الله أن دين الله واحد وهو الإسلام ليس لله أديان متعددة دين الله من لدن نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم واحد : هو دين الإسلام قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: 13]. أَقِيمُوا الدِّينَ: دين واحد، فإن قال قائل: ما بال اليهودية والنصرانية أهي أديان لله؟ لا، اليهودية والنصرانية ليست أديانًا لله، اليهودية هي ما آل إليه دين موسى عليه السلام بعد تحريف الأحبار ، والنصرانية هي ما آل إليه دين عيسى عليه السلام بعد تحريف الرهبان ، أما ما جاء به موسى وعيسى فهو الإسلام ، ألم يقل الله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا} [المائدة: 44]، إذن: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: 19]، {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [آل عمران: 85]، لكن لفظ **الإسلام له معنيان:**

- **معنى عام**، وهو الذي ذكرنا آنفًا :وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك هذا هو الذي جاء به جميع أنبياء الله، الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك.
- **وأما الإسلام بالمعنى الخاص** : فهو ما بعث به محمدًا صلى الله عليه وسلم من العقائد الصحيحة والشرائع العادلة والأخلاق القويمة والآداب العالية بمعنى أنه الصورة الأخيرة الناسخة لما تقدمها ؛ فهذا هو الإسلام بالمعنى الخاص الذي لا يقبل الله دينًا سواه فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: [وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ

بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ][1]، وبهذا يتبين لكم بطلان من يدعون إلى توحيد الأديان ومن يسوغون الأديان كلها ويقولون : جميع الطرق تؤدي إلى الله ، لا والله لا يؤدي إلى الله إلا طريق واحد : هو دين الإسلام ، ولا يحل لأحد أن يتدين باليهودية والنصرانية بل يجب عليه أن يدخل في دين الإسلام، ويجب أن يكون الحوار بين أتباع الأديان حوار دعوة لا دعوة إلى الحوار، **فرق بين حوار الدعوة والدعوة إلى الحوار**: فحوار الدعوة هو أن ندعوهم ونقول لهم ما أمرنا الله به {تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64]، لا أن نجعل من الحوار هدفًا وغاية يعني نتحدث دون أن نقدم مشروعنا وأن ندعو غيرنا إلى الدخول في ديننا.

قال معقبًا: لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ أُمَّتُهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّار؛ إلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ السنة الْجَمَاعَةُ. صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة: أراد الشيخ أن يبين لماذا نعبر بهذا التعبير؟ ونقول: أهل السنة والجماعة مع أن الله تعالى قد قال في القرآن {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ } [الحج: 78]، لا شك أن طريقتنا هي الإسلام لكن لماذا عبرنا بالسنة والجماعة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن هذه الأمة التي يتسمى جميع فئاتها بالمسلمين أنهم يفترقون على ثلاثة وسبعين فرقة اثنتان وسبعون بدع وأهواء وواحدة على السنة، فلذلك سموا أهل السنة والجماعة ، فيوجد في أهل القبلة أصناف من أهل البدع والأهواء ؛ فلذلك أُختير هذا الاسم للدلالة على الإسلام الخالص من الشوب كما عبر الإسلام المحض الخالص عن الشوب: يعني من الأخلاط والأقذار؛ فسموا أهل السنة والجماعة كما بينا هذا في مستهل هذه الرسالة.

قال: وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: [هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَومَ وَأَصْحَابِي]: هذه زيادة صححها الألباني –رحمه الله–، وهي تبين أن الفرقة الناجية: هم من كان على مثل ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في العلم والعمل، إذن لو قيل لك: ما هو تعريف أهل السنة والجماعة؟ فالجواب: أنهم الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة النبي صلى الله عليه وسلم والعمل بها ظاهرًا وباطنًا في الأقوال والأفعال والاعتقادات ، هذا هو الذي عليه السلف الصالح من أهل القرون الفاضلة الثلاثة ومن صار على طريقهم من أهل الحديث، وخرج من ذلك أهل البدع والأهواء ، مثل: الخوارج والروافض والمرجئة والقدرية ونحوهم؛ فإن هذه بدع خارجة عن طريق أهل السنة والجماعة.

ثم قال مثنيًا عليهم معددًا لمزاياهم : **وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ** : من الصديقون؟ جمع صديق ، وهو: الذي بلغ الغاية في التصديق.

قال: وَالشُّهَدَاءِ: جمع شهيد، وهو: الذي قتل لتكون كلمة الله هي العليا.

قال: وَالصَّالِحُونَ: جمع صالح، وهو: الممتثل لأوامر الله المجتنب لمناهيه.

[1] صحيح مسلم (153).

قال: وفيهم أَعْلامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ: مراده من المحدثين والفقهاء وغيرهم ممن يطول المقام بذكرهم، وأسماؤهم لامعة كالنجوم في السماء موجودة في الكتب المزبورة في المناقب وسير أعلام النبلاء.

قال: وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ: الأبدال: هو الذي كلما مات منهم أحد أبدله الله بغيره ، فلم يزل الله تعالى يتعاهد هذه الأمة يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، فالله تعالى كلما ذهب عالم أبدله بغيره، وهكذا تظل الأمة في مدد مستمر من عند الله، وهذا من تكفل الله بحفظ الدين.

قال:ومنهم أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ: أئمة الدين هم المتبوعون الذين لهم أتباع، كالأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد فإنهم أصحاب مذاهب متبوعة، وغيرهم أيضًا: كسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والشعبي والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وغيرهم كثير -رحمهم الله- يطول المقام بذكرهم، فهم أئمة الدين، والإمامة في الدين تنال بالعلم واليقين، قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: 24]، فالإمامة في الدين تنال بالصبر واليقين.

قال: وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: [لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لاَ يَضُرُّهُم مَّنْ خَالَفَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ]: رواه البخاري ومسلم. إذن هم الطائفة المنصورة بحمد الله لا يزالون منصورين من عند الل ،هـ إما أن الله تعالى ينصرهم بالحجة والبيان وهذا أمر لا ينقطع أو بالسيف والسنان وقد يجتمع الأمران، وتأملوا قوله: **لاَ يَضُرُّهُم مَّنْ خَالَفَهُمْ**: يعني في الأمور العلمية ، **وَلاَ مَنْ خَذَلَهُمْ** : أي في الأمور الذين فهم الطائفة المنصورة، فتبين بذلك أن كل هذه الألقاب مستحقة لأهل الحق هم أهل الكتاب والسنة هم الطائفة المنصورة هم الفرقة الناجية فهذه ألقاب مستحقة لهم جميعها.

فنَسْأَلُ اللهَ العظيم أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لاَ يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ. والحمد لله وحده وصلى على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

والله أعلم.